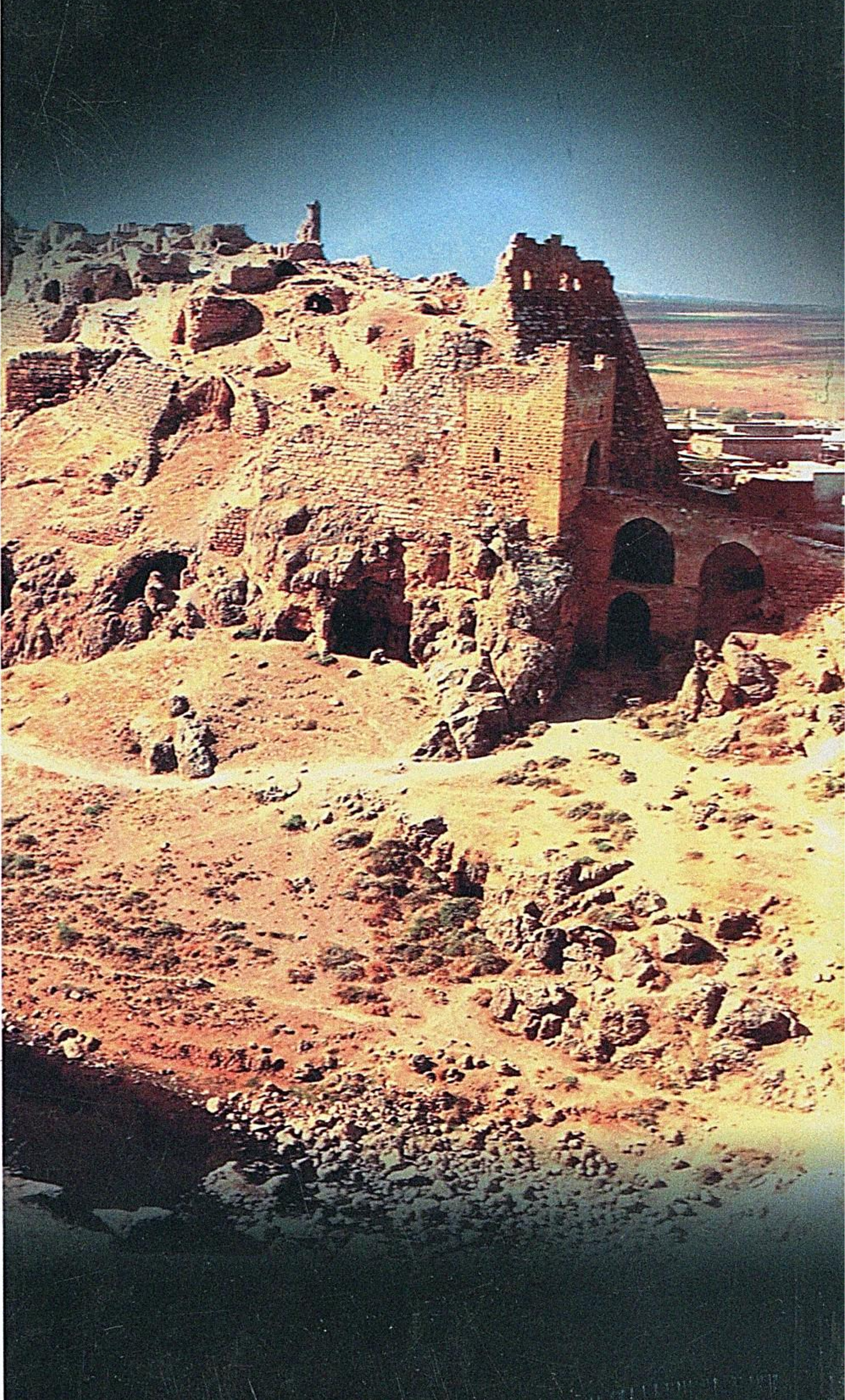
علي مولا

التحولات (2)



فياض

خيري الذهبي

رواية

فيــاض

التحــولات (٣)

اسم الكتاب: فياض (التحولات -٢)

المــؤلف : خيري الذهبي

الطبعة الثانية

٢٠٠٣

Oula for Publishing and Distribution
الأولى للنشــر والتــوزيـع

Building No.8-Hekmat Alasale St.-Almastaba 4-Mohajireen 2-Damascus-Syria بناء رقم 8 - حارة حكمت العسلي حي المصطبة 4 - منطقة المهاجرين 2 - دمشق - سورية

P.O. Box 7396 - Tel. 011 - 3733839 - Fax. 011-3739949 - Oula@scs-net.org

موافقة وزارة الإعلام رقم/ ١٣٩١ / تاريخ / ١٦ / ٨ / ٢٠٠٣

خيري الذهبي

فيـــاض

رواية

يقال – والعلم عند الله: إن طيوراً برية كانت تشقُّ السماء، وترحل من الشمال إلى الجنوب، بل يقال ــ والعلم عند الله: إن أصلها كان طائر العنقاء، قاهر الصحارى والبحار، فاستهوته يوماً عشتار، قالت بصوت سحابيٍّ أبيضَ: تعال، ها هنا لديَّ الطعام والماء، والأمان، والعابدون، والسلام. تردد قليلاً، ولكنها لوَّحت له بإزارٍ أبيض يخفي تحته شهوة حياة الكون كلها، فحطَّ مدفوعاً بقوة لم يستطع لها دفعاً. حطَّ لا عن رغبة بالبقاء، ولا بالعيش في كنف معابد الربة الجميلة، حطَّ مستطلعاً فقط، حطَّ – والعلم عند الله– يرتاح من تعبٍ، ولكنه حين حطَّ، وحين حطَّ فقط، وشرب من ماء بحرة الربة، وأكل بعد جوع طعام الربة المنثور في جنبات معابدها سقط ريشه القوي، ولانت روحه الشديدة، ونسي الأسفار والصحارى والبحار والغابات والأنهار، والتجأ مستسلماً إلى حمى الربة، وتكاثر العنقاء وتوالد، وماتت الربة، ولكنه بقي، واندثرت معابدها، ولكنه بقي، وقامت معابد لأرباب جدد، فاحتمى بأكنافها، وتغيرت أسماء الأرباب، وتغيرت أسماء العابدين، وتغيرت أسماء المعابد، ولكن أحداً لم ينسَ قط اسمه القديم مدلل الست.. عشتار: الستيتية.

عن مخطوط لابن الشامية

كانت خطيئة رجال الاستقلال أنهم جعلوا الاستقلال ربَّاً دون أن يقيموا له معبداً، فحصلوا عليه دون هيكل وكهنة وكتاب ونبوءة، فضاع الربُّ بين الأقدام... ثقيلة الوطأة دون نبوءة.

فيَّـــاض الشيزري – مذكرات

(١)

اهتزازات رقيقة كوتيرات كمان تداعبها أصابع طفلية، تهتز، تشجو، تشدو، وما تلبث أن تدفق لتعلو معلنة مولد زغاريد جديدة، زغاريد ذكرته بغابات منسية لم يخترقها نور، ولم يدخلها إنسان، زغاريد فيها الدعوة والنداء والسؤال والإلحاح، زغاريد طويلة طويلة، أصاخا إليها طويلاً مشدوهين، ولكن الزغاريد ما لبثت أن تحولت إلى ضربات متقطعة قوية، ضربات احتجاجية عنيفة ما تلبث أن ترق، وترق لتصبح مسيل ماء هادئ ينزلق في جدول طيني ليس فيه حصاة أو صخرة، أو حتى عشبة تعترض سبيله. الماء والطين الأسود والظلال الكثيفة لغابة جوز لاتسمح لبقعة ضوء بالتسلل.

وهمس فياض: آه يا الهي!

ثم التفت إلى روجيه سائلاً: ماالذي يجري؟!

ـ إنه نجدت.. أنسيت؟

ـ ولكن.. هذه الأصوات السماوية.. لم أسمعها من قبل قطُّ.. هل سمعتها أنت؟

وصمت روجيه قليلاً يفكر: هه.... ربما... لا.

اندفق الصوت ثانية، ولكن: لا.. إنه ليس الصوت نفسه. اسمع، اسمع.

أجراس فضية صغيرة تتصادم بنعومة، تتصادم، تتراكم، تتجمع لتتحول إلى شيء أشبه بأغنية الصباح السماوية. والآن. آه! نحيب طويل، حزين. حزين؟ أحقاً حزين؟ ولكن.. يا إلهي، لمَ هو حزين؟ وما الذي يغريه بإطلاق كل هذا الحزن في صرخة واحدة، ولم يستطع روجيه مزيداً من الاحتمال، فهمس: هيا. لن ننتظر لنسمع كل شيء من مكاننا هذا، هيا. و... تقدَّما.

في نهاية الحارة العتمة وعبر قوسين بازلتيين كان الباب ينتصب متواضعاً.

صحيح أنه كان محفوراً ومزيناً كأجمل مايمكن لليد المزخرفة أن تزخرف، ولكن شيئاً في المشهد كان غير حقيقي، تساءل فياض ما السبب؟ ولم يجب روجيه إذ كان يتأمل الإطار الإسمنتي المحيط بالباب والمدهون باللونين الأبيض والأسود المتناوبين، قال: هَه ــ ممطوطة ــ تقليد معقول، ولكن ــ أضاف آسفاً ــ ليس كالأصل.

لم يفهم فياض، وهز رأسه منساقاً، ضغط روجيه الزِّرَّ الجرسيَّ فصمت الأنين والنحيب، سكتت الزغاريد، وصمتت الأجراس الفضية وهمس فياض: لماذا؟.

وأطلق روجيه ضحكته المجلجلة المخفتة، فاهتزَّ شارباه الكليمنصيان ورفع سبابته وإبهامه يضبط مايمكن أن يختل منها: أرعبناها.

انشقَّ الباب فجأةً فاندفع سيلٌ من نورٍ مقذعٍ، انشقَّ الباب فتسللت شمسٌ محبوسة تبحث عن مهرب من هذا السدِّ الخشبي، انشق الباب..

واندفعت موجة الأصوات المختلطة، المتكسرة، المضطربة، المتراكمة، المتراصفة، المتداخلة، وهمس فيَّاض: ياإلهي!

وصرخ نجدت: الكوموندان لوبلان. مرحباً. مرحباً.. إه بيان.. أنتريه. أنتريه. ثم التفت إلى فياض: فياض ياعزيزي: مرحباً، ادخلا.. ادخلا أرجوكما.

كانت الباحة واسعة شديدة الإضاءة. ضيَّق فياض من عينيه قليلاً، فقد كان نور الباحة بعد سكون ظلمة الحارة جارحاً، ولكنه لم يستطع أن يضيقهما طويلاً، فلقد أجبرته جوقة الأصوات القوية المتداخلة على أن ينظر إليها، وكانت مثبتة على الجدران.

كانت أقفاصاً كثيرة، خشبية، وخيزرانية، ومعدنية، مربعة، ومستطيلة، كروية، وقُببيَّة.

وأطلق روجيه ضحكته المجلجلة ثانية: ياإلهي! لم أكن أتصورها بهذا العدد.. متى جمعتها؟

وسرَّب نجدت ضحكة خجلة: أجمعها منذ سنوات، ولكنك أنت الذي لم تهتم، ولولا سهرة الأمس، آه صحيح! أين مدام ماتيلد؟ لِمَ لم تصحبكم؟.

ـ لديها زيارة صباحية ياصديقي، ولكنها ستأتي، حتماً ستأتي. لو عرفَتْ أن لديك كلَّ هذه العصافير لألغت زيارتها، ولكنها - ضحك معتذراً ثانية - ظنَّتِ الأمر ليس إلا مبالغاتٍ شرقية.

تأمل روجيه البيت الجديد القديم بعينه الناقدة المتفحصة الخبيرة، ولاحظ أن البحرة المألوفة غير موجودة، وفسَّر لنفسه: هه. الحي جديد ولاتمديدات تحت أرضية مهيأة لبحرة. أما الإيوان فقد استُعيضَ عنه

بغرفةٍ ذات جدار شمالي من الزجاج، أراد نجدت أن يقودهم إليها، فقد كان فخوراً جداً بها، ولكن روجيه قال: لا. بل نجلس ها هنا تحت شجرة الكبَّاد.

واحتجَّ نجدت: ولكن الشمس.

ــ غير مُهمٍّ، فظلال الكبَّاد كافية، جئنا لنستمتع بطيورك. هه.

ــ صحيح.

كان فياض يتجول قرب الأقفاص يتأملها، فاضطربت قليلاً في أقفاصها، وكفَّت عن التغريد، وفجأة هتف روجيه وقد لاحظ حاجزاً قماشياً يغطي أحد جدران الأقفاص: ولكن لماذا؟

وضحك نجدت معتذراً: يجب ألا يرى أحدها الآخر، وإلا انشغل به.

ــ ولكن...!

وبدأ نجدت محاضرته عن العصافير، تلك المحاضرة التي سيذكرها فياض، سيذكرها ويستعيدها طويلاً، سيذكرها حين يقرأ سيرة الملك الظاهر، وسيذكرها حين يلبس المعطف المحكمجي محاولاً الدخول في إهاب الدكنجي في بيت حسيبة، وسيذكرها طويلاً طويلاً حين سيلجأ أخيراً إلى غرفته في البادرائية.. تلك الغرفة المسكينة بجيرانها من الستاتي، ومن مشاريع الشيوخ الكابين كالستاتي، والطيبين كالستاتي، والبلهاء.. أيضاً كالستاتي.

* * *

ترددت النقرات الخفيفة على باب المطبخ، فالتفت نجدت مرتبكاً، ثم

ابتسم معتذراً، وتجاهل روجيه وفياض النقرات والابتسام والاعتذار في مسرحية مهيأة مسبقاً، ومضى ليتلقى صينية القهوة، ثم يعود بها.

ــ تفضل.. وأخذ روجيه الفنجان المُؤطَّر بعاشقين في حديقة. تفضل. وأخذ فياض فنجانه دون أن يرى العاشقين في الحديقة، وجرَّ نجدت كرسياً خشبياً قصيراً وضع عليه الصينية، وأخذ فنجانه، وجلس، وألحَّ روجيه بعد أن رشف رشفته الأولى: ولكن. لماذا.؟.

بلماذا هذه تغيَّرَ نجدت فجأة، فبعد المرافق الحذر، والتابع الخجول انبثق العاشق الراوي يفتح الكنوز السرية لعالمه الذي انشقَّ بالأمس قليلاً حين كان روجيه يقاطع ماتيلد وهي تقفز من حديث لآخر:

ــ ماتيلد.. إكراماً لله تشبثي بحديث واحد؛ هذا غير معقول! ألم تفارقك هوايتك القديمة تلك؟!

وبسؤال نجدت على استحياء عن هواية ماتيلد القديمة انفتحت أبواب الماضي التي كان روجيه قد حدث فياض عنها طويلاً، والتي اختصرها روجيه أمام نجدت بقوله: بيض العصافير ياصديقي.

ــ ماذا؟

ــ بيض العصافير. ماتيلد السيدة الوقور التي تراها أمامك كانت عصفورة بريَّةً أصيلة.. أما الشيء العصفوري الوحيد فيها ماعدا قفزها من شجرة إلى أخرى.. فقد كان جمع بيوض العصافير وتصنيفها، وحفظها في مجموعات.

وقال نجدت على استحياءٍ كعادته: ها هنا شيء مشتركٌ بيننا ياسيدي.

ــ أأنت مغرم بجمع بيض العصافير أيضاً؟

ـ لا.. بل بالعصافير نفسها!

صبّتْ لنفسها كأس مارتيني إذ يبدو أن الجواب لم يعجبها كثيراً، أما روجيه الذي لفت انتباهه وجة جديد لنجدت، فقد اهتم للجواب كثيراً، ولم تلبث الأمور أن هيئت، وهاهو يرى الوجه الجديد لنجدت.

* * *

قال نجدت: أول ماربَّيتُ ياسيدي هو الحسون، والحسون كما تعلم طائر عالمي يهاجر من بلد إلى بلد، ومن قارة إلى قارة، يهاجر حاملاً معه توقاً عنيفاً إلى الحرية، إلى الاكتشاف. إن فيه شيئاً يتأكله ولايجعله يستقر، ومن بين كل الطيور التي ربيتها كان الأشد عصبية، والأشد قلقاً، والأشد.. موتاً في الأقفاص.

ـ ولكن كل الطيور تموت في الأقفاص.

ـ لا ياسيدي، ليست كلها. صحيح أن كثيراً من الطيور تؤسر، وصحيح أنها كلها تضجُّ طالبة العودة إلى السماء، إلى الأجواء، إلى مطاردة الفراشات، إلى تصيُّد البذور والثمار وورق النباتات الغضّ إلا أنها أخيراً تستسلم لقدرها. قد تضرب الأقفاص بصدرها حيناً، بمنقارها، بأجنحتها تحاول أن تستعيد مملكةً فقدتها، ولكن العقل يدركها أخيراً فتأكل حَبَّ الأسر، وتشرب ماءه، وتقبل بقدرها الجديد. أما الحسون.. وتنهد نجدت.

ـ ومالذي يميزه عن غيره؟

ـ ولعه الشديد بالحرية ياسيدي، إن تسعة ـ وقد لاتصدق ذلك ـ من كل عشرة منها تموت على أسلاك الأقفاص.

ـ والعاشر؟ قال روجيه مازحاً.

ـــ يعيش، ولكن عليك أن تحتمل طيشه وجنونه، وتوقه إلى الخروج من القفص طويلاً، وقد تمرُّ شهور، وربما أعوام حتى ترى عليه استكانة الكناري وقبوله بالقفص قدراً نهائياً.

ـــ تضحكني يانجدت، تتكلم عنه، وكأنك تتكلم عن صديق.

ـــ وهو صديق فعلاً، ربيته سنواتٍ وسنوات، عايشت نزقه، وعاشرت عصبيته وأَسِفت لنجاحه في الهرب كثيراً.

وقال فياض فجأة: ولكن، لم لا تستولدونه في الأقفاص كالكناري؟

ـــ مستحيل.

ـــ لماذا..؟!

ـــ لم يعرف عن حسُّونٍ أنه ولد في الأسر، فإناثه أذكى من أن تبيض في قفص!

وقال روجيه ببطء: وعليكم أن تعانوا مع كل حسون أسير معاناة جديدة وتدريباً جديداً، و...، وقاطع نجدت: ليس هذا فحسب، فالحسون طائر مزاجي، إنه كالإنسان تماماً، منه مايغني ـــ وضحك نجدت ـــ كما أغني أنا دون حفظ للأنغام، أو رخامة صوت، أو نَفَسٍ قوي، ومنه مايغني كما يغني أعظم المغنين.

ـــ أوووه، هذا عالم جديد.

وقال فياض: فالكناري أفضل إذن!

ـــ الكناري طير مقيم عاش في الأقفاص منذ قرون، منذ عشرات أو مئات الأجيال صنعه الإنسان، طوَّره الإنسانُ، حفَّظَه غناءَه الإنسان، فصار شيئاً مضموناً، إن كلَّ كناري تستولده تعرف تماماً ماتتوقع منه،

لونه، غناءه، طريقة سلوكه، أما الحسون هذا المغامر المجنون فشيء آخر.

وقال روجيه فجأة: ليت ماتيلد كانت معنا لتسمع.

فأضاف نجدت في أسف: ماتهتم به مدام ماتيلد شيء آخر ياسيدي. أمَّا ما أهتم به أنا فهو المغامرة؛ إن كل حسون جديد مغامرةٌ جديدة.

وقام نحو أحد الأقفاص فحمله ليضعه أمام روجيه: انظر..

ـ ماهذا..؟

ـ البندوق

ـ ومالبندوق..؟!

هذا السؤال الذي سأله فياض ولم يستطع نجدت الإجابة عنه في لحظته تلك فقد انطلقت بضع رصاصات سرعان ماردت عليها رصاصات أخرى، وانتشر هدوء مرعب جعل الكوماندان روجيه لوبلان يترك فنجانه المؤطر بالعاشقين على الكرسي القشي الصغير، ويشير إلى فياض لينطلقا خارجين من البيت، وما يلبث نجدت أن يلحق بهما ليحاولوا معرفة مايجري هناك في الخارج.

ولكن ماكان يجري في الخارج لم يكن بالشيء الكثير، إذ لم يزد الأمر عن أن بعض الأشقياء المتنكرين بزيٍّ الفوج السوري قد تسللوا إلى المدينة، ثم إلى الصالحية، فكمنوا طويلاً أمام مبنى المفوضية حتى خرج أحد الأصدقاء الذي كان يقوم بواجبه في تقديم تقريره العادي عن تحركات السوق وجمع التبرعات للمجاهدين في الخارج، ولكن بضع رصاصات مجرمة كما أعلن ذلك تقرير المفوضية وضعت حدًّا لحياته ولخدمته لعلمه وحكومته.

ولكنه فيما بعد، وبعد سنوات يسافر فيها فياض إلى باريس ويتعرف على إيفون وصوفي ومادلين و.. إياد، سيحدثه نجدت عن البندوق، سيحدثه عن هذا الطائر ـــ الإنساني ـــ المعجزة، فيقول، وكان فياض قد زاره هرباً من حصار إياد وماتيلد، يحدثه، ليس استمراراً لحديث سابق، بل إجابة عن سؤال سأله فياض مباشرة:

ـــ الطبيعة ياصديقي لاتسمح للبناديق بالبقاء، بل لاتسمح لها بالوجود أصلاً، فلكل طيرٍ كما تعلم لغة وأدوات تعبير، ووسائل إيصال الرغبة إلى الأنثى، ووسائل تلقي الأنثى نداء الذكر، لذا فالطبيعة لاتسمح أبداً بهذا الاختلاط الفاسد.

ـــ ولكن، لِمَ هو فاسد؟

ـــ لأنه عقيم، فالبندوق كالبغل غير مخصب.

ـــ يالهي! هتف فياض مذهولاً، وتابع نجدت:

ـــ ولكن فيه كل قوة الهجنة، فيه كل إرادة الحياة المختزنة في مخلوق لايعرف، ولكنه يدرك أنه لن يستمر.

ـــ ترعبني.

وتابع نجدت دون اهتمام بتعليق فياض: فيه سحر وتنوع وتوق الحسون، وقوة صوت وأُلفة الكناري، ولكن.. عليك أن تتعامل معه بحذر.

ـــ كيف.؟

ـــ عليك ألا تدعه يستمع إلى أصوات أخواله من الكناري وإلاَّ حفظ غناءها ففسد، والمربي ليس بحاجة إلى مزيد من الكناري، خاصة وأن

المولود الجديد عقيم.

ـ فما العمل إذن؟

ـ عليك أن تجعله يحفظ صوت أبيه الحسون، ولايسمع سوى صوت الحسون، وعندئذٍ ترى الإبداع الحقيقي في الصوت والنغمة والأداء والجمال.

وحدق فياض طويلاً في البناديق المصفوفة في الأقفاص أمامه، وسؤالٌ عميق عميق يدور في صدره، ولكنه لم يجد أبداً الكلمات التي تعبر عنه.

وكتب فياض في دفتره الأسمر المصنوع من ورق جرائد ملصقة بالسراس ومخيطة بخيوط من قِنبٍ، تلك كانت خطوة الكشف الأولى.

(٣)

حين قام الكومونداان روجيه لوبلان بصحبة ابنه فياض بزيارة للسارجان ماجور نجدت لم يكن يعني أن يقدم لفياض هذا المعنى، ولم يكن يقصد أن يقدِّمَ له هذه الذكرى يحملها معه إلى باريس حين يسافر إليها ليكمل تعليمه، بل كان كلُّ مايسعى إليه هو خلق جذورٍ جديدةٍ بين هذا الفتى الذي انتزعه يوماً من دهاليز قلعةٍ منسية يرعى جداءً وخرافاً شاحبةً ليصنع منه ابناً يعوِّض به الابنَ الذي لم ينله ويمدَّ به جذوراً إلى أرض لم تلده، ولينتمي به إلى تاريخٍ لم يعشه آباؤه، وليستبدل حياة بحياة، وماضياً بماضٍ، وعالماً بعالم، وحين طاف به أسواق دمشق، وعرَّفه إلى مساجدها ومدارسها وخانقاهاتها، وحين دخل به حاراتها المعتمة المتلألئة بدنانير من شمس ممزَّقةٍ بخيوط من غبارٍ معلَّقٍ كان يريد له ألاَّ يمضي إلى باريس قبل أن يعرف شيئاً عن الأرض التي أنبتته والتاريخ الذي قذف به إلى العالم، فقد صار الضمير الذي يزعجه، والألم في القفا الذي يؤرقه كلما رأى هذا الفتى الرقيق الذي لم يكن يوماً رقيقاً يشمئز، ويدير أنفاً رقيقاً عن روائح طالما شمَّها، ويصعِّر خدَّاً لبيوت وقلعة ودهليز طالما ركض بين أحنائها وضمَّد جراحه الصغيرة بترابها.

وقالت ماتيلد: ستحبُّ باريس كثيراً، صدقني.

ولم يجب فياض، فقد ظل يحدّق في صحنه وهو يمضغ قطعة بفتيك صغيرة كما علَّموه ذلك في السان جوزيف، يمضغ ويمضغ دون أن يحاول البلع، ونظرت ماتيلد إلى روجيه بعينين متسائلتين، ولكن روجيه هرب من السؤال إلى زورق السلاطة، فاقتربت ماتيلد من فياض، ووضعت كفَّها على يده المسترخية على مفرش الطاولة: أنت خائف من السفر إلى بلدٍ لاتعرفه؟ ولكن، لا.. هناك كثيرون من أصدقائنا سيكونون في انتظارك؛ لقد كتبت إليهم جميعاً، سيستقبلونك في المحطة وسينزلونك في بيتهم إلى أن يتمَّ تسجيلك في الجامعة.. أوووه.! فياض.. أرجوك دعْ عنك هذا العبوس جانباً.

ولكنه لم يزد على أن ابتلع أخيراً اللقمة التي مضغها ومضغها حتى ذابت في فمه، وحين حاول أكل لقمة أخرى دون أن يجيب قال روجيه بصوته الباريتون: ماالذي يضايقك يافتى؟

ولم يستطع فياض أن يتجاهل السؤال المباشر، فرفع رأسه، وألحَّ روجيه:

ـ هاه.

ـ منظر الدم.. أرأيت إلى الدم الكثير أمام المفوضية؟!

وتبادل روجيه وماتيلد نظرة سريعة. آه! الدم! وأحسَّ شوكةً صغيرة في قلبه: الدم! أهذا مايقلقك إذن؟! نظر إلى فياض ثانية يتأمله كمن لم يعرفه من قبل. إلى الوجه الأبيض الشاحب، إلى العينين الخضراوين الواسعتين، إلى الخصلة الكستناوية تتدلى على جبينه في إهمالٍ مقصود، إلى البذلة البيضاء وربطة العنق البابيون: يالهي! أي فتىً صنعت؟! لا.. ليس هذا من أريد.

أكمل روجيه طعامه بسرعة، مسح شفتيه بفوطة المائدة، وقام. نظرت ماتيلد إلى فياض متسائلة، ولكنه هرب منها ثانية إلى طعامه يلوك ويلوك. دفعت طبقها إلى الوراء قليلاً، مسحت شفتيها ومضت إلى حيث روجيه.

لم تكن غرفة روجيه الاستراحة والمكتبة ومكان الخلوة قد وصلت إلى كمالها بعد، ولكنها كانت قد بدأت طريق تشكُّلِها، فبالإضافة إلى السجَّاد الفارسي الممدود على الأرض، والى البُسْطِ الحلبية المُعلَّقة على الجدران، والى المناقلِ النحاسية المحفورة والمزخرفة والمنقوشة بأدعية للنصر لسلاطين لم ينتصروا، وإلى سيوف لامعة لم تُرفَعْ يوماً، وإلى دروع زردية صدئة معلَّقة على الجدران، كان هناك أيضاً عدد من المشاكي الفضية والنحاسية المعلقة في أرجاء الغرفة.

دفعت ماتيلد الباب بهدوء لتلمح روجيه متكئاً في استلقاءة رومانية على ديوان من خشب الجوز المحفور ينظر عبر النافذة الجنوبية ويفكر.

اقتربت منه. جلست على الديوان عند قدميه، لمسته برقَّة:

ـــ روجيه.. ماالذي يضايقك؟!

ـــ يضايقني هه؟ وانفجر انفجاراً كبته بسرعة حتى لايسمعه الآخر.

ـــ ألا ترين؟ أهذا هو فاياد، أهذا هو فاياد الذي كنا نريده؟

ـــ إنه فتىً صغير، أعطه فرصة، سيسافر ويتعلم ويغدو رجلاً وعندئذٍ.

ـــ ولكن ياالهي! لا ياماتيلد، لا.. سنؤجل سفره قليلاً.

ـــ لماذا..؟

ــ هناك أشياء كثيرة يجب مناقشتها معه أولاً.

* * *

ذلك الحوار العجيب المستحيل بين الشرق والغرب، ذلك الحوار الذي بدأ قبل عشرينِ أو ثلاثين قرناً، تضاءلَ وتقزَّمَ ليصبح يوماً الرمح، وآخر السهم، ويوماً الرمح والسهم والسيف والحصان المدرَّع، وأياماً كثيرة الكتاب المهرَّب والمحرَّم وحامل المعرفة، ذلك الحوار الذي بدأ قبل عشرين أو ثلاثين قرناً، تضاءل، وتقزَّم ليصبح حواراً بين رجل مسلَّحٍ بالمعرفة والنفوذ والقوة والمال، وطفلٍ أعزلَ لايملك إلا خرابة يسميها الآخرون قلعة، وبضعَ جِداءٍ وخرافٍ تراوح بين الجوع وبين الجوع.

ذلك الحوار العجيب المستحيل بين الكابيتين روجيه لوبلان حفيد غليام لوبلان، أهو حفيده فعلاً؟ ولكن ماالمهمُّ إن كان حفيده بالفعل أم أنه تحفَّده طوعاً ورغبة؟! وبين فياض – فاياد – كما سيسميه روجيه وماتيلد، ذلك الحوار الذي تحول من حوار إلى مونولوجٍ طويل طويل، يتكلم روجيه ويظن أن فياض يسمعُ ولكن فياض الذي لم يكن يظن أنه يفهم تماماً مايقول روجيه، لم يكن يعرف أن ذاكرته الطفلة قد نسخته لتسمعه ذلك المونولوج فيما بعد مرات ومرات.

يسمع ويحاول أن يحلل، ويفسر، ويفهم، ولكن.. فيما بعد، وبعد فوات الأوان، وبعد رحيل روجيه وماتيلد وخروجهما النهائي من حياته.

ــ حين وصلت القلعة أول مرة بعد انتقالي إلى حماة ــ كان يتكلم بلهجة حزينة مثقلة برومانسية مضحكة – كتب فياض في مذكراته جريدية الورق – بناء على طلباتي المتكررة، لن تصدق لو حدثتك عن

الرعدة التي اعترتني حين اقتربت منها – وكتب – وهمست لنفسي: أفتشعر مثل هذه الخرابة بالرعدة؟ وحين نظرت إليها من بعيد بدت لي أكبر مما هي عليه، أكبر بكثير، أكبر بجلالها الدائم المسيطر على السهول المحيطة بها، وبإشرافها على طريق حماة الساحل، وحماة أنطاكية، واقتربت.. كان بعض الفرنسيين قد حذَّرني من التوغُّل في قرى الأهالي دون حماية كافية، فهؤلاء العرب – وأطلق ضحكة اعتذار مجاملة – قد يبدون فلاحين مسالمين منشغلين بأغنامهم ذات الذيل الدهني الرجراج، ولكنك لاتعرف أبداً متى يغضبون فيستيقظ الجدُّ القديم فيهم، وكتب فياض: وكنت أتساءل دائماً وألحُّ: لِمَ لا أغضب فيستيقظ الجدُّ القديم فيَّ – ذلك الجدُّ ذو الرأس الجافي؟ ولكني لم أعبأ بتحذيراتهم، بل اعتمدت على معرفتي بعض العربية وعلى – وهذا هو الأهم – هيبة فرنسة المنتصرة، وعلى مرافقي نجدت، وأخيراً على حبّي شيزر وقلعتها وأميرها المنسي.

وكتب فياض: كنا قد وصلنا الجسر المؤدي إلى القلعة على غير رغبة مني، ولكنَّ إلحاحه كان أقوى من اعتراضي، وتقدمنا، رجل في ثياب عسكرية ونجوم ونياشين وحذاء مقوى النعل بالمسامير، وفتى يدرج نحو البكالوريا على استحياء في بذلة من الشاركسكين الأبيض وحذاءٍ من الشيفرو وأصابع رقَّت ونحلت حتى لتقول ماتيلد عنها: ليت هذه الأصابع النحيلة الشفافة الرقيقة الفنانة لي، انظر، وكانت أصابعي الطويلة نظيفة الأظافر أجمل من أصابعها بكثير، وقال الرجل في الثياب العسكرية:

ــ فياض، أرجوك ألا تسخر مما سأقوم به الآن؟

ونظر إليه في حيرةٍ: ماالذي ستقوم به؟!

ولاك شاربيه الكليمنصيين بجانب فمه مفسداً تصفيفتهما في حيرة

مكتومة وتمتم: أرجوك، المسألة لاتخصُّك، إنه.. قَسمٌ أقسمته على نفسي منذ كنت في فرنسة، وطقسٌ أمارسه منذ سكنت حماة. وصمت قليلاً ثم التفت إلى فياض: هل تعدني ألاَّ تسخر؟

ـ آه بالطبع، بالطبع، وكيف أجرؤ على السخرية منك؟

ونقدم روجيه بجسده القوي مناطح الخمسين يتسلق برج المقدمة، ذلك البرج المطلُّ على الجسر مباشرة، لم يلتفت إلى الوراء ولم يدعُ فياض إلى اللحاق به وماكان فياض يريد ذلك، فما كانت ثيابه لتحتمل مثل هذه المغامرة، ولكن الخجل وبعض الفضول لم يلبثا أن قسراه فلحق به.

ورغم أن السنوات والسنوات التي عاشها فياض في هذه القلعة، سنوات ساق فيها الخِراف والجِداءَ في أبهائها، سنوات طارد الأرانب في سراديبها، ونصب الفخاخ فيها لحماماتها، سنوات أطل فيها على النهر العميق الأخضر القائم من فوق سورها ورأى فيها غزالة العُوَيِّد ورضيعها والوشاح – الشاهدة المتبقي منهما بعد قفزتها الأسطورية،تلك القفزة التي تساءل عنها بينه وبين نفسه: أتُراها كانت فعلاً تعتقد أنها تستطيع الطيران حين طارت هاربة بطفلها من باصقات اللهب؟!

سنواتٌ تلمَّس وتحسَّسَ وعاش القلعة حتى ظنَّ أنه يعرفها، ولكنه حين لحق بروجيه إلى البرج اكتشف أنه لم يكن يعرف إلا قعرها ووعرها، فالمنظر الذي رآه من هناك من فوق لم يره من قبل قط. وكتب فياض: لم يكن مارأيت النواعيرَ التي طالما تسلقتها وقفزت من دلائها إلى الماء، بل كانت شيئاً آخر مرسوماً على صفحة الأفق؛ شيئاً فيه جمال الصفصاف وأناقة الحَوْر ورشاقة الحمام ! لكن روجيه لم يرَ حتى النواعير حين قال:

ـ كم من العيون وقفت في هذا المكان، وراقبت تقدم الفرسان،

وتأملت تلوّي النهر تحت أقدام القلعة، وتلصصت على كمائن العدو بين القصب والصفصاف على الضفتين!

كان حطام الحجارة معيقاً لسهولة الحركة، ورغم ذلك فقد كان يقفز من صخرة إلى صخرة محافظاً على توازنه برشاقة، ظلَّـــل عينيه وهو ينظر إلى الغرب ثم تنهَّد: ذلك المسكين المُسربَلُ بالحديد بخوذته الثقيلة ودرعه السابغة، وقماطات ساقيه الحديديتين يركب حصانه الغاليَّ المثقل بالحديد يرنو من فتحة خوذته إلى عشِ النسور هذا ويتساءل: أيمكن الاستيلاء على هذه القلعة يوماً؟

وكتب فياض في دفتر مذكراته جريديِّ الورق: ونظرت إلى العاصي البعيد حيث النواعير، وذكرت سباحتي الطفلة عندها، وقفز حسن وعبد الله، وعلي، ومصطفى إلى المشهد، فرأيتهم في عريهم المضحك يتسلقون الناعورة لتحملنا جميعاً عالياً.. عالياً، عالياً، حتى إذا ماوصلنا الذروة أو كدنا، سقطنا حجارة ثقيلة متطاولة الأذرع أو ملتفة الساقين، متدحرجة الجسد إلى اللُّجُة العميقة، وقفز روجيه إلى صخرة متقدمة فانسحبت الأجساد العارية المتدحرجة بعريها الفاضح الساذج من الذاكرة، ومسحت جبيني طارداً الفكرة وحنينها وعريها من الذاكرة. وكتب فياض: والآن، وبعد هذه السنين، أتساءل: أيُّ سحرٍ كان يغشيني فينزع عني كل جمالٍ إلاَّ المُضمَّخ بطيب الغرب؟!

وتتابع الحوار حين تقدَّمَ روجيه متسلقاً حتى المنطقة الأكثر علوَّاً في البرج، ونظر إلى بعيد حيث الساحل، وهتف دون أن ينظر إلى فياض:

ــ غليام لوبلان. غليام لوبلان. أيها الفارس المحبط عند أقدام هذه الشوكة: هل تسمعني الآن؟ هل تسمعني؟ هاهو حفيدك المضحك روجيه لوبلان يقف حيث حلمت كثيراً أن تقف، هاهو ينظر إلى السهول التي

قطعتها راكباً وماشياً تبحث عن ثغرة للوصول إلى خاصرة هذه الشوكة، هيه، غليام لوبلان، كنت تسخر من جيلنا وتصفه بالخرع والبحث عن الفرنك والسنتيم! ولكن هاهو الحفيد الخرع يحقق ماحلمت به طويلاً. غليام لوبلان.. هل سددنا الدين؟

ورددت السهول وجدران القلعة صدى صوته: هل سددنا الدين؟ الدين، الدين؟!

وكتب فياض: وقفت مشدوهاً أمام هذا المشهد المسرحي الذي ذكرني بمقاطع من راسين كنا نؤديها في السان جوزيف، أمام هذه الخطبة العجيبة من الرجل الكبير دارس التاريخ الذي أحاطني بحنان كبير ومعرفة كبيرة. ولكن، الغريب أني لم أشعر في ذلك الحين بالغضب الذي كان يجب أن أشعر به!

ولكن كيف يمكن لفياض أن يشعر بالغضب وهو الولد اليتيم الراعي الوحيد في هذا العالم، والذي خرج به روجيه من تفاهة الراعي إلى حذلقة التلميذ المجتهد المنتسب إلى خير المدارس، والمكلف بدراسة كورني وراسين، وحفظ هيغو ولامارتين؟

كيف كان له أن يشعر بالغضب وهو الذي، قبل بضع سنوات فقط اصطدم بروجيه وماتيلد ونجدت، ذلك الاصطدام المضحك الذي بدأ الحوار المستحيل بين الشرق والغرب؟

ولكن الشيء العجيب الذي لم ينتبه إليه روجيه أنه حين أيقظ جدّه غليام أمام فياض، لم يكن يدري أنه لم يوقظ غليام فقط، بل أيقظ ماسيكون أسامة لفياض أيضاً، فلا بد لكلِّ غليام من أسامة، ولابد لكل أسامة من غليام!

(٣)

حين استند روجيه بظهره إلى واحدة من أشجار السرو يدّوِن أفكاره الطازجة ككل مرة تهيج به الغابة والوحدة، فتنطلق به الأفكار متحولة إلى كلمات سرعان ما يأسرها على ورق صقيل مجلد بغلاف أسود وقور، يدّوِن ويصنف، ويجلد، ثم يختم مجلداته بالشمع الأحمر، ويرفعها في سقيفة البيت الصغيرة ويقول: مايدريك، ربما جاء اليوم الذي تبحثون فيه عن أفكاري الصغيرة؟ ولكي لاتتعبوا أنفسكم في التخمين ها أنذا أقدم إليكم نفسي على طبق من ورق!

حين كان روجيه يدوِّن كل فكرة، وكل خاطرة لم يكن مبتدعاً، فقد كان يقلِّد جده القديم الذي ماتزال الأسرة بأبنائها، وبناتها، وبأصهارها، وكنائنها تتناقل مذكراته التي ربما لم يكتبها- في تقديس، فتقضي الليالي والسهرات في قراءتها والتندر منها، أو الرثاء لحظ كاتبها القاسي، ذلك الحظ الذي جعله يرجع إلى فرنسة أشلَّ الساق اليسرى، متقفع أصابع اليد اليمنى، ثم ينقذ نفسه، فيتزوج، ويخرج بهذا الزواج من بئر النسيان أو الإهمال الذي أحاق بكل أولئك الصغار الذين شاركوا يوماً في تلك الرحلة العجيبة المعاكسة لمسيرة الشمس في سعيهم وراء أرض السمن والعسل، فيكتب مذكراته، ويكتب ولدين في ساعتي حبٍّ يحملان هذه المذكرات

لينقلاها بعد سنوات وسنوات إلى هذا الفتى الذي أهمل دراسته، وأخذ يقضي الساعات يتمشى وبين يديه أسراب الجواري السمراوات الفاتنات، يتمشى، ويسمع نعيق البوق يعلن قرب رفع الجسر، يتمشى، وينجز مافشل غليام في إنجازه.

كان يمكن لروجيه أن يصبح كاتباً، وربما مرموقاً، فقد كانت قراءاته المكثفة، وتدريباته العقلية على إعادة كتابة ماقرأه لحسابه الخاص كافية لصنع كاتب لو لم – كما سيقول لفياض فيما بعد – تسقط عليه من السماء.

ولم يكن هذا تعبيراً بلاغياً! بل كان هذا ماتم فعلاً، فقد سقطت عليه بينما كان يضع اللمسات الأخيرة لقلعته المحاطة بالنهر من جوانبها الثلاثة. وكان في سبيله إلى رفع الجسر معلناً إنشاء إقطاعيته الجديدة. بينما كانت هي تعلو شجرة تبحث بين أغصانها عن بيوض عصفور مهاجر، وحين صرخ معلناً رفع الجسر لم يكن يعرف أنه بصرخته هذه سيخيف العصفور، فيطير، ويلطم وجهها، فيذعرها، ويربكها لتقع فوقه تماماً، ولتغير مصيره وحياته مرة واحدة وإلى الأبد.

بعد أن أطلق روجيه صرخة رعبه المفاجأة الأولى، وبعد أن مسح عن وجهه السائل الأصفر المُحمرّ الزنخ، وبعد أن تمالك نفسه أمام عاصفة غضبها المحتدمة:

ـــ كيف.. كيف فعلت هذا؟ كيف جرؤت؟ هشمت لي البيوض التي انتظرتها وراقبتها أسابيع وأسابيع! كيف؟ ثم.. انظر إلى ثوبي الذي تمزق، وإلى ركبتي! ورفعت ثوبها لتريه السحجات التي مزقتها.. كيف أيها المتوحش؟

وأخذ يراقب غضبها في خوف، ثم في تسلية، ثم في ممازحة، وهي

تبربر بفرنسية غير باريسية تماماً: ياإلهي! أيمكن للأحلام أن تتحقق مرة واحدة؟ أيمكن لأميرة قصري الإقطاعي السمراء الجميلة العصبية الأنوف أن تسقط عليَّ من السماء تماماً كما يحدث في الحكايات؟ وانتفخ صدره، وأحس أن القدر قد قرر الخضوع لإرادته أخيراً، فها هو الشطر الأول من الحلم يتحقق، ولم يبقَ إلا أن يذهب إلى الشرق ويفتح قلعة، وينشىء إقطاعاً.

هدأت أخيراً، فألقت هشيم البيض من كفيها، ثم مسحتهما بجذع شجرة، واستدارت لتمضي، ولكنه تشبث بها في لهفة: إلى أين؟

والتفتت إليه في تنمرٍ: وماشأنك أنت؟

ــ انتظرتك منذ بداية العالم وتريدين الهرب!

ــ تنتظرني؟ هل تعرفني؟ ثم، من أنت..؟

ولم يستطع أن يفتح لها قلبه ويكشف سره، ورأى سلة البيض الصغيرة المركونة جانباً والمغطاة بعشب جاف، فرأى الأقرب أن يسايرها:

ــ سأدُلّكِ على أعشاش العصافير، أعرف الغابة شبراً شبراً، وعشاً عشاً، تعالي أعوضْكِ عن البيوض المحطمة، إن شئت.

سألت في لهفة:

ــ أتعرفها فعلاً؟

ــ نشأت وعشت هنا.

حملت السلة وشبكت ذراعها بذراعه في بساطة: أما نحن، فلم نسكن المنطقة إلا منذ شهرين.

ــ لابد أن الأمر كذلك، وإلا لرأيتك قبلاً. تعالي.

وتغلغلا في عمق الغابة يدوسان أعشاباً لم تُدَسْ، ويحطِّمان أغصاناً لم تمسْ، ويهربان طيوراً وعصافير لم تهرب من قبل، وتجرأ روجيه أخيراً فسأل:

ــ ولكن، أين كنتم تسكنون قبل الانتقال إلى هنا؟

ــ في الجزائر.

وتوقف روجيه مصعوقاً: ماذا؟ وتدفق الدم عنيفاً في عروقه، ياإلهي أيعقل، كل الأحلام مرة واحدة، في الجزائر؟ واضطربت الصور أمام عينيه، وغزاه نور الشرق الأبيض، فأصابه بالدوار وتمتم: الجزائر؟ الشرق؟ هل رأيت الصحراء؟ وأجابت في قرف وهي تبعد غصيناً عن حفرة في الشجرة: رأيتها. اللعنة عليها. وصرخ في ضعف: ولكن لا.. الصفاء، النقاء، الشمس المطهرة!

والتفتت إليه في غضب ذكره بتنمرها الأول: شمسك المطهرة هذه قتلت أمي.

وصدمته كلمة القتل، ولكنه لم يجرؤ على الاستفسار، وهي لم تتطوع بالشرح، ولكنها فيما بعد حدثته عن مدينة واحة غارقة في الرمال سمَّتها له بتوغرت: قرية غارقة في الصحراء، محاطة بالنخيل والرمال، وكان أهلها قد حاولوا التمرد – ياللغباء– بسيوف وبنادق عتيقة صدئة، فهاجمهم أبي وهزمهم، وهرب المقاتلون، ولكن المدينة نفسها لم تسلم من الحريق. وحين هدأ كل شيء، واطمأن أبي، أرسل يستدعينا أنا وأمي فقد عُيِّنَ حاكماً عسكرياً للجنوب، وماكدنا نصل المدينة المنكوبة حتى ظهر واحد منهم.. كيف؟ من أين؟ لا أحد يدري. فانقض على عربتنا يريد قتل أبي، ولكنه لم يفلح إلا بقتل أمي المسكينة قبل أن يموت.

ـ آه.....أنَّ روجيه متعاطفاً...!

ـ كان حزن أبي كبيراً، كبيراً، جعله يكره الجزائر وأفريقية والصحراء، ويقرر العودة إلى فرنسة، إلى هنا، ليعيش – وأضافت في حزنٍ– على راتبه التقاعدي.

وصرخ في حدة: ولكن، ولكن.. هذا حمق.

ـ ماذا ؟ تساءلت تستغرب وقاحته.

وتابع دون اعتذار: ألم يكن بإمكانه اختيار إقطاع صغير، قلعة ونهر وطاحون وحيوانات صيد وفلاحين مسالمين؟

ونظرت ماتيلد في عينيه مباشرة وهو يتلو حلمه من الذاكرة:

ـ هل جننت؟ عمَّ تتحدث؟ نهر وطاحون؟

وانتبه إلى تسرعه فقال: هذا ماكتبه جدي وماأحلم به.

ـ جدك..؟

وأنقذه من مأزق الاعتراف وفتح مغاليق أقفال القلوب رؤيته عشَّ عصافير جديداً، دعاها إليه فانشغلا بنقل بيوضه وتصنيفها.

ولكنه، فيما بعد وحين تعرف على أبيها، همس لنفسه: إنه الرجل الذي أحلم به تماماً! الرجل الذي مضى إلى الجزائر مع الجنرال ليوتي، وأخضع البربر والعرب، وفتح مدناً وقرى وواحات، و لكن.. تمتم لنفسه: لِمَ لم يكمل الحلم؟ وحين تجرأ فسأله مرة لِمَ لم يختر لنفسه قلعة هناك؟

ضحك الكهل أبيض الفودين والشاربين والعثنون: قلعة؟ ولكن لا قلاع هناك.

ـ مستحيل، فمذكرات جدي تقول: إن البلاد مليئة بالقلاع.

وهَزّ الكهل رأسه في تسامح، وانحنى فوق غليونه: لا.. لم أرَ واحدة منها.. هناك غابات، مدن صغيرة، وصحارى كبيرة، كبيرة جداً، بل وأكبر مما يمكنك تحمله.

وانغلق روجيه على حلمه، فلم يبُحْ به لأحد من بعد، ولكنه ظل يربيه في خفايا الصدر كما تربي عصفوراً نادراً سرقته من حديقة الجيران.

كانت السنوات الماضية من عمر روجيه، تلك التي تلت قراءة مذكرات جده غليام، سنوات محيرة لوالديه، فبدلاً من قراءة بلزاك وموباسان ودوماس، وأولئك الكتاب الذين أحاطه بهم الأب محاولاً أعادته إلى أرض الواقع كان يصدم بمزيد من الانغماس في عالم الليالي العربية، وأنشودة رولان، ومترجمات والتر سكوت، وكان يقول لأمه وهما يتدفآن إلى جانب الموقد آخر السهرة: أنا خائف على الصبي من هذه الخيالات التي يعيشها، وكانت تجيبه لائمة: ماكان يجب أن يقرأ مذكرات هذا الذي تسمونه جدّكم.

وكانت هاتان الجملتان مفتاحاً لشجارٍ دائم وهادئ تلصَّص عليه روجيه كثيراً، وفيما بعد سيحدِّث فياض – وكانا يسهران في نادي ضباط حماة وحيدَين، فلقد اضطرت ماتيلد إلى العودة إلى البيت- عن خوفهما المبرَّر هذا الذي كثيراً ما أرَّقه: كانت مذكرات غليام شيئاً ممتعاً وغريباً وجميلاً، فيه الحديث عن الصيد وما أكثره! فيه الحديث عن الصقور والبزاة وما أكثرها! فيه الحديث عن النساء يُخْطَفن ويخضعن لقانون السَّبي، فيصبحن مُلْكاً لآسرهنَّ، فيه الحديث عن رياضتهم اليومية يغزون ويُغْزَون، وفيه الحديث عن أسلحة الخصوم الخفيفة وخيولهم الرشيقة، ومقارنات ممتعة بينها وبين خيول غاليا الثقيلة، ودروعها المرهقة، وربما.. ربما.. كان أول ماقرأتُ بعد تعلمي القراءة هي تلك المذكرات،

فأهملت كما كان أبواي يشكوان ماكان يقرؤه أبناء جيلي، أهملت موباسان وبلزاك ودوماس وغرقت مع تلك الكلمات الصعبة والاصطلاحات العجيبة عن مدنٍ شبه أسطورية قرأتُ عنها في الكتاب المقدس حيناً وفي مذكرات جدي حيناً آخر. وليضفي هذا كله على كل شيء من حولي جوَّاً أسطورياً عجيباً فيه المدن الخيالية، والأسوار العالية، والشرفات المخيفة والطلاَّقات المرعبة، تنطلق منها سهامٌ لايُعرَفُ مطلقُها، وملائكة تنزل من السماء لتحلَّ مشاكل الناس، ثم تعود إلى مرصدها السماوي تراقب وتتأمل وتسخر، وإذا بالمدن تغادر الجغرافية لتصبح صوراً جميلة دون جذور حقيقية، كنت أقرأ عن أنطاكية وإسكندرونة والرَّها ودمشق آه.! دمشق! دمشق الحلم! دمشق سان بيير، دمشق يوحنا المعمدان، وأورشليم.. آه يا أورشليم يامدينة الأنبياء والقديسين! يامدينة بولدوين وأماليك، يامدينة الفرسان والدسائس والمؤامرات، طبريا، طرابلس، طرطوسا، أسماء وأسماء حملتني معها إلى عالم الليالي العربية و.. أخذت الصور تختلط، فصلاح الدين يصبح السندباد، ونور الدين هارون الرشيد، ومريم الزنارية الأميرة سيبيل جاسوسة صلاح الدين في البلاط الأنطاكي، وعلي الزيبق رينو دو شاتيون، جوسلين، بوهموند، بغداد، أسماء وصور وخيالات، حكايات القديسين، وحكايات السحرة، الحربة التي طعن بها المسيح، وإنقاذها إنطاكية من الحصار الإسلامي، السيف المسحور، آه.. يا إلهي!

وجرع جرعة نبيذ كبيرة وتنهَّد: إيه.. عالم عجيب أنساني الواقع إلى أن وجدت نفسي أمام امتحانات البروفيه، فتقدمت، ونجحت حين تدخل القدر، فسقطت ماتيلد عليّ من السماء.

حين سقطت ماتيلد على روجيه من السماء كان روجيه قد أنهى لتوه رحلته الطويلة إلى الشرق يركب حصاناً أبيض، ويُشرع سيفاً كبيراً،

ويلبس درعاً سابغة رسم عليها صليب كبير ليبدأ في حصار القلاع، القلاع التي انتزعها صلاح الدين من غليام، ثم ينثني إلى المدن والقرى، فيحررها، وأخيراً اختار لنفسه إقطاعاً صغيراً لا.. هو لم يُرِدْ منذ البدء أن يكون كبيراً، كل ماأراد منه أن يكون جميلاً فيه نهر وطاحون وفلاحون مطيعون وكثير من الأشجار، وحيوان الصيد، وحين وصل إلى هذا فكَّر في أن الإقطاع يحتاج إلى أميرة، وحين فكر في الأميرة قفزت أمامه حسناوات الشرق، أولئك السمروات الملتهبات ذوات العيون السود الواسعة والأهداب الخارقة، وحين قرر أن يتزوج من واحدة من هاته الجميلات قرر أيضاً أنه سينشيء سلالة تمزج مابين فرنسة – روجيه – والشرق، تلك الحسناء المنتظرة. وهذه السلالة ستحكم ذلك الإقطاع وتنقل مكتشفات أوروبة الحديثة و.. و.. و..

سقطت ماتيلد على روجيه من السماء، وتغلغلا في الغابة، وأخذت دروبهما تقترب كل من الآخر إثر كل تغلغل في الغابة، وأخذت صداقة جميلة تتكون بينهما، هي تتحدث عن الشرق، والصحراء، والعرب، والنخيل، والجمال، وهو يأخذ في حبها، وهو.. لايعرف فعلاً متى بدأ حبها؟ أكان ذلك إثر سقوطها عليه من الشجرة، أم حين تغلغلا في الغابة يرقبان الأزهار في تفتحها والبيوض تخدعهما، فتفقس عن فراخها قبل أن تسرق، وتصنف، وترتب، وترقم، وتضم إلى مجموعة ماتيلد، أم حين كانت تحدثه عن حياتها هناك في أفريقية الرمال والبدو والطوارق والمُلثَّمين، وعوالم كان يعتقد أنه يحفظها عن ظهر قلب وهي لاتفعل إلا أن تذكره بها؟!

بعد هذا اللقاء المعجزة بأميرة الشرق السمراء التي سقطت عليه من السماء قرر الانضمام إلى الجيش، وحين عرف الكولونيل أبو ماتيلد بذلك حاول منعه كثيراً، فحدَّثه طويلاً، وصحبه في مشاوير إلى الغابة لم يبحثا

فيها عن بيوض لعصافير لم تفقس، بل حدَّثه عن القسوة هناك، عن طقس القتل اليومي، قاتلاً أو مقتولاً، عن التخلف العجيب الذي كانوا يعيشونه، عن الحيوانات التي تدخل في صلب حياتهم أغناماً وماعزاً وجمالاً.. عن.. وعن.. وعن.. ولكن غليام أصمَّ أذني روجيه عن سماع أيِّ نصيحة.

وحين حاول أبو روجيه نفسه منعه أيضاً اكتشف أن غليام قد تقمَّصَ روجيه بحيث لم يعد ممكناً سماع أي صوت آخر، والغريب أن الوحيد الذي لم يمانع في انضمام روجيه إلى الجيش كان ماتيلد.

وطلب روجيه زجاجة نبيذٍ أخرى صبّ لنفسه منها كأساً كبيراً تاركاً فياض يستمتع ببيرته الخفيفة، وتابع:

وكانت سنوات انقضت على لقاء الأرض بالسماء في الغابة أصبحت فيه ماتيلد جزءاً من حياتي، وكانت قد ازدادت فتنة وجمالاً حتى أصبحت حديث الضاحية كلها، وكان الجميع يعرفون أنَّا زوجان مؤجَّلان لاننتظر إلاَّ تخرجي من الكلية الحربية لإتمام مراسيم الزواج.

وصمت. فخيمَّ صمتٌ غريب ،صرت تسمع فيه زقزقة شرشور صغير يعبث بين شجيرات توت السياج. وتابع فياض نظرات روجيه يتأكد إن كان يراقب العصفور، ولكنه انتبه إلى أن عينيه كانتا ترنوان إلى البعيد، إلى شجيرات الكينا العملاقة على الجانب الآخر من العاصي، وحين عاد فياض بعينيه إلى روجيه غمغم هذا بعينين غائمتين: الحظ الأسود يافياض لايرحم، والسعادة ليست عصفوراً أرضياً مما يُمسَك بالأنامل.

واضطر فياض إلى أن يسأل: لا أفهم!

واضطر روجيه إلى الشرح: من كان يصدق؟ من كان يصدق أن تحمل ماتيلد فجأة ولم يبق على تخرجي إلا شهور قلائل؟!

أخذ روجيه يتأمل نسيج مفرش الطاولة أمامهما، ثم وبخنصره الطويل أخذ يحكُّ بقعة متصلبة في زاوية المفرش، ولما لم يستحثه فياض على إكمال حكايته تابع وطعم مرارة خفيف يداعب حلقه: جاءتني ورعب صغير ينوشها لتقول: روجيه.. يجب أن تصنع شيئاً.. أنا حامل.

في هذه المرة انتفض فياض بعينيه، وتحوّل إلى روجيه يقرأ تعابير وجهه، ولكن روجيه، ظلَّ يحدق في البقعة التي تهتَّكَ نصفها تحت ضغط إظفر روجيه الصغيرة.

دارت الأرض بروجيه فالضربة هذه المرة أكبر من قدرته على الاحتمال، وأدرك بسرعة المأزق الذي وقعا فيه، وأية صدمة ستكون لأبيها الذي وعده بانتظار التخرج، وأدرك أيُّ خجل ستعيشه ماتيلد لو استمر حملها حتى التخرج، فقد كان محرماً على طالب الكلية العسكرية الزواج قبل التخرج وقبل ترقيه إلى ملازم أول على الأقل.

وجرع روجيه جرعة كبيرة أخرى، ثم تأوَّه في حزن وقال منكسراً: وكان لابد من الإجهاض، ولم يكن قانونياً، فكنا مجبرين على اللجوء إلى أحد الدجالين فأجهضها وأنزفها، وتأجّل المأزق.

ولكن كان على روجيه أن يكتشف بعد سنوات طويلة تخرج في أثنائها، وتزوج من ماتيلد، وسافر معها إلى الجزائر –الحلم– أنَّ إجهاضها الأول قد أفسد كل فرصة أخرى لديها للحمل.

وهمس فياض لنفسه في حزن: إذن فهذا هو السبب!

نعم.. كان هذا هو السبب، السبب والقدر والحظ الذي تجلّى لفياض يوماً في خرابته الصغيرة، مملكة خرفانه وجدائه وأرانب سراديبه وحمائم آباره.

(٤)

تسعة خراف غبر، ونعجة تسلخ عنها صوفها، فبدا جانب إليتها الأزهر الوسخ، وبعرات سود تعلقت بظاهري الفخذين، وستة جداءٍ وسخالٍ، واحدة منها رمادية وآخر أبلق توزع فيه البياض والسواد على التساوي، وطفل في العاشرة يلفُّ رأسه بكوفية من الصعب معرفة اللون الأول الذي انطلقت منه، وشمس تبدأ شروقها بشواظٍ ناري تنثره على الجدران الصخرية المتفتتة، وعلى المسارب التي كانت مبلَّطةً بحجارة غطيت بركام من حَتٍّ الزمن وتراب الأيام وهشيم العشب، وماء، ماء كثير، كثيف أخضر تطلُّ عليه من علٍ، من جدران الخرابة لترى مويجاتٍ خضراً من أعشاب مائية تدفعها تيارات الماء الخفية وأغصان الصفصاف المتدلية المتطاولة المتراقصة على صفحة النهر، وأحلام، أحلام كثيرة ضائعة بين الأبهاء المهشَّمة، والزوايا المحطمة، والأبراج الجاثية، أحلام منسية لم تستطع ريح الزمان أن تطيِّرها من المكان، أحلام بانتصارات وأمجاد، وخوف، وجوع، وحصار، وبناء ممالك، أحلامٌ اختبأت في الزوايا، وانزوت في السراديب، ونامت، ولكنَّ حلماً واحداً انطلق اليوم يافعاً نضراً محملاً بعواطف ساخنة ملتهبة. قال الصبي وهو يدفع قطيعه الصغير إلى ماكان يوماً ميدان الفرسان ومجال

الأمراء: أنا جائع. وحين قال: أنا جائع رأى أرنباً بُنيَّةً كبيرة تتدلّى أمامه، وحين أمعن التحديق في الأرنب رأى الأرنب تسلخ وتنظَّف من أحشائها، وحين أطنب في إمعانه التحديق رأى الأرنب مشوية ضمن رغيفين، ورأى الدالية الصفراء واليابسة تنشر أوراقها الخضر فوقه خيمة، فدلّى ساقيه إلى الوادي العميق، وسمع خرير ماء النهر يغني، فتناول قضمة من الأرنب المشوية كبيرة، وحين فعل ذلك قفز الجدي الأبلق فوق حاجز الخرابة يتأمل السهل الممتد بعيداً أمامه، وحين قفز الجدي إلى مرصده ذاك اختفت الأرنب المشوية، واختفى الرغيفان، واصفرَّت الدالية، وتقفَّعت أوراقها، وسفعته الشمس بلهيبها الصباحي القاسي، فالتفت إلى النعجة التي أخذت تهرش، بأسنانها الصفر ظهرها خشن الصوف، وسقسق بشفتيه يدفع قطيعه الصغير إلى الفسحة الجنوبية حيث ما يزال هناك بقايا من الحلبلوب والفجيلة والقمح البري. وحين انساق القطيع الصغير أمامه هتف ثانية: أنا جائع. وحين خرجت الكلمات من فمه نظر إلى النهر العميق إلى يساره فرأى الكتلة الخضراء المترجرجة هناك تحت، وتساءل: لو ألقيت صنارة بحبل طويل من هنا أفأستطيع اصطياد سمكة؟ وحين تمتم بأمنيته الصغيرة هذه رآها تخرج إليه من عمق الكتلة الخضراء معلَّقةً إلى حبل من حلم، ورآها تتمايل قليلاً في صعودها قبل أن تستسلم فتنحطّ أخيراً على الصخرة النظيفة البيضاء المسفوعةِ بشمس عمرها، عمرِ الزمن، وحين حدَّق بالسمكة رأى أنها لاتؤكل، فقال: أنا جائع وحين قال قولته تلك تمزَّق بطنُ السمكة ونُظِّفت من أحشائها وقُشِّرتْ من فلوسها.

ولكنه همس ثانية: أنا جائع. فاتَّقدت نار سماوية حملت عليها السمكة حتى سال منها دهنٌ أصفر كثيف، تلمَّظَ بلسانه الصغير بين أسنانه البيض، فالتفت السمكة برغيفين قمحيين كبيرين وقبل أن يقول جملته

الصباحية يحيي فيها الخرابة، ويودِّع غزالة العويِّد سمع صوت حجارة صغيرة تتدحرج، فاختفت السمكة، واختفى الرغيفان، وعادت الصخرة بيضاء، نظيفة، مسفوعة بشمس عمرها عمر الزمن. فالتفت الصبي مذعوراً وهتف: من... من يجرؤ على دخول مملكتي؟

من جيب قمبازه استخرج مقلاعه، وبأصابع متلهفة التقط بضع حصوات، وبسرعة حذرة مسح المكان من حوله، ووقعت عيناه على عمود كبير كان يحمل يوماً قوساً كبيرة سقطت ولم تترك وراءها إلا هذا العمود. ارتمى خلفه وأعدَّ مقلاعه وانتظر مقتحم مملكته الخربة.

تكرر تدحرج الحجارة الصغيرة وتسرَّبَ صوت همسات وهمهمات، فازداد التوتر، وارتفع التساؤل: من يجرؤ على اقتحام مملكتي؟ مسح المكان ثانية، الحجارة الضخمة المكومة، الأقواس المتساقطة، العُمُدُ المنهارة، آثار الأقدام الممحوة، هشيم الأعشاب اليابسة وتساءل: من يرغب في اقتحام مملكتي ولماذا؟ العشب قليل، وماتبقى منه سفعته الشمس فهشَّمته وذرَّرته، وتدحرجت الحجارة ثانية، واقتربت الهمهمات لتتحول إلى أصوات، أصوات رجال؟ يا إلهي مايعني هذا؟ حاول أن يفهم ماتقول الأصوات ولكنه أبداً لم يفهم شيئاً منها.

وفجأة تجلت الأصوات، تجسدت وظهرت، كانوا ثلاثة، رجلان وامرأة، ولكنهم ياسيدي منقذ – إفرنج.. فرنسيون، طامن من نفسه، التصق بالأرض خلف العمود يتمنى لو يتحول مع العمود قطعة واحدة، فهو يعرفهم هؤلاء الإفرنج، يعرفهم منذ غزالة العويِّد، يعرفهم منذ سمع الطقطقة والانفجارات، فأطلَّ من عليائه، من الخرابة يرقب، فرأى عِصيّاً تبصق ناراً، ناراً حقيقية تحرق البيادر وأسقف البيوت المغطاة بالتبن اليابس، رأى عربات تمشي في الحارات الضيقة تعوي وتطقطق، ورأى

كلاباً تهوي عن الأسطح وهي تنبح، ورأى جدراناً تهوي أمام تلك العربات الصارمة الخطو، ورأى رجالاً يعْدون هاربين في ثيابهم الداخلية، ورآهم يهوون إلى الأمام منفرجي الأيدي والسيقان بشكل مضحك، رأى الحمائم تعلو إلى السماء مذعورة، تعلو وتعلو حتى لتسامق الخرابة، رأى حميراً تهرب وأطفالاً تسقط قبل أن تدهس وحينئذ رآها، رأى غزالة جارتهم العروس الشابة، رآها تعدو وهي تحمل طفلها الجديد، ويبدو أنهم لم يروها حين تسللت هاربة، وتابعها حتى اختفت وراء الجسر، وتابعها حين ظهرت فوق الجسر، تابعها ونسي مايجري هناك تحت، تابعها حتى وصلت الخرابة، عندئذ خرج من مخبئه ليطمئنها، ليدلّها على مخبئه، ليأخذ عنها صغيرها، ولكنها ماكادت تحسُّ بحركته، يا إلهي! هل ظننت أنه مؤذيها فعلاً أم ظنت أنها تستطيع الطيران، لأنها ببساطة نشرت أجنحتها السود؟ وانطلقت تطير وتطير، وذيلها الأسود يعربد من خلفها وحين أسرع إلى الجانب الآخر ليطلّ على النهر ويرى أين حطّتْ، رأى النهر العميق الأخضر وقد استعاد هدوءه، وبين أعشابه الخضر رأى طرحتها السوداء تلوح من بعيد. بحث عنها، عن طفلها، ولكن -ياسيدي منقذ- ليس لها من أثر.

ألعلها استطاعت النجاة بنفسها فعلاً ولكن شهوراً وشهوراً انقضت وغزالة العويد لم تعد من طيرانها المتعب ذاك!، وقفزت السخلة الرمادية تعابث الجدي الأبلق، وهمس: الله يلعنك، اختفي، سيقتلونك، ولكن ضحكة، ضحكة عالية انطلقت منهم، ضحكة عادية فهمها الصبي تماماً، لم يكن بحاجة إلى من يترجمها، ورأى الرجلين يلتفتان من حولها، وعرف أنهم يبحثون عنه، فالتصق بالأرض.

التصق وأمعن في الالتصاق حتى أحسَّ التراب الدافىء يتسرب من شقوق قمبازه حين سمع أحدهم – ذلك الذي سيصبح فيما بعد الكابيتين

روجيه لوبلان- يصرخ شيئاً ما، فتعاظم خوفه، لقد أزعجتهم الجداء، سينتقمون منه ولا شك، وعاد الصوت ثانية:

ـــ ولاد، أنت يارائي.. تآل.. لاتكاف.

وفهم أنه يناديه، فهو الرائي، وضحك لنفسه: الأجدب.. إنه يلثغ ولايعرف أن يقول راعي! وتوتّر ثانية، فكيف لايخاف وهو من رأى من مرقبه العالي هذا الحمائم تطير مشتعلة فوق القرية، وتقع فوق البيادر فتشعلها. هو من رأى النساء يحملن أطفالهن عاديات إلى النهر فتحصدهُنَّ الرشاشات. هو من رأى كل شيء، ولم يكن يستطيع إلا الفرجة وفرح صغير خفيٌّ يداعبه: إنهم لم يروني وما أزال حياً. ولكن حين حطَّ الليل، وانفضَّ الحوار، ونزل إلى القرية اكتشف أن كل ماتبقّى له في هذا العالم هو هذه الخراف العشرة وهذه الجداء الستة فقد قتل الفرنسيون آخر قريب له في هذا العالم.. جده.

تقدمت المرأة تتطاول برأسها بين الصخور تبحث عن صاحب الجداء، وتحرك رجل آخر إلى الجانب الأيمن، وأدرك أنهم سيعثرون عليه لامحالة، وعندئذٍ لم يعد مجال كبير للخيار: الخراف والجداء أو الحياة؟ وفضل الصبي الحياة، تحفز قليلاً، ثم أطلق ساقيه للريح ولكنه ورغم اندفاعه رأى أحد الرجال قرب باب الجسر، فأسقط في يده، وبسرعة وليس يدري كيف تسربت إليه الفكرة قرر أن يفعل كغزالة العويِّد ويطير، فانحرف بسرعة إلى اليمين متجهاً إلى النهر الكبير الأخضر العميق، وعدا رجل الباب ومن سيصبح الكابيتين لولابلان وراءه يضحكون، والتفت يستكشف سبب ضحكهم، كان يقفز كجدي بريٍّ – كما ستصفه ماتيلد فيما بعد- من صخرة إلى أخرى والرجلان يعدوان ويضحكان حين أحسَّ بيدين تعانقانه وتقبضان عليه.

نظر إلى القابض في رعب، كان رجلاً آخر - كان من سيصبح المرافق نجدت- وحاول الصبي التخلص، الهرب، العضّ، الخمش، الرفس، ولكن الآخر ما زاد على الضحك والكركرة، ووصل الآخران، وعرف أن كل أمل في النجاة قد راح، فانهار على الأرض وهو يهمس في رعب إكراماً لسيدي منقذ ما بدي موت، إكراماً لله ماعملت شيء.

التفتت المرأة إلى نجدت تسأله باللغة الغريبة فأجاب، ورأى في وجهها مسحة حزن وتعاطف، ومدت يدها تريد المسح على شعره، فصرخ في رعب: لا.. إكراماً لله.. لا.. ولكنها بعربيةٍ غريبة قالت: ماتكاف هابيبي.. ماتكاف.. أنا مابدي موِّت أنت. ثم نظرت إلى الرجل الذي سيكون الكابيتين لوبلان وقالت ماستعيده على مسامعه عشرات المرات فيما بعد: «*Il est beau n'est ce pas*» "***إنه جميل أليس كذلك..؟***" ثم تلتفت إلى الصبي وتقول: أنت ولد هيلو، ليش بيكاف كتير؟.

وكان هذا بداية الحوار، الحوار العجيب الطويل بين عالمين. كان هذا نهاية حياة، وبداية حياة. كان هذا نهاية السذاجة وبداية المعرفة، وبداية السؤال الذي سيلحُّ على فياض سنوات وسنوات، سؤال سيظل يتردد في الذهن كبقايا صوت قديم في كهف ذي آلاف الأنفاق: لو لم يأت إلى الخرابة في ذلك اليوم، ولو لم يعشق ماتيلد ذلك العشق كله، ولو لم تجر ماتيلد تلك العملية القاسية فتحرم الأولاد ولو لم يره في ذلك اليوم، ولو لم ينتزعه من القرية، ولو لم يدخل المعرفة الجارحة إلى رأسه، وتركه ذلك الراعي البسيط يرتع مع خرافه وجدائه بين ممرات الخرابة، أما كان أكثر سعادةً وهناءة وراحة بال؟!

هذا السؤال الذي لم يسأل في حينه لم يحصل على جواب أبداً، فقد ظل سؤالاً يتردد في ذهن فياض الصبي والشاب والكهل المعتزل مع

ستاتيِّه الكئيبة ومشاريع شيوخه الأشد كآبة. أما الجواب الذي لم يُجَبْ عنه أبداً، فقد بدأه روجيه لدى وصوله دمشق محققاً حلم العمر ووسواس الصبا وذُهان جَوَّال الغابات، يبني إقطاع المستقبل بقلعته الصغيرة ونهره الصغير وجسره الصغير وفلاحيه الودعاء الطيبين.

بدأ الجواب حين توقفت سيارة الرينو السوداء ذات البوز المتضخم والرفارِف المطاطية أمام الفندق. وكان في استقبالها السارجان نجدت. نظرت إليه ماتيلد وهمست لروجيه وهي تضحك: يا إلهي هؤلاء السوريون عجيبون! انظر إليه تظنه قادماً من اسكنديناڤيا! وضحك روجيه وهو يصافح نجدت الذي انحنى بخجل أمام ماتيلد ثم حمل الحقائب إلى الفندق. وقال روجيه بعد أن شبكت ذراعها في ذراعه:

ــ إنه شركسي.

ــ آه، همهمت ثم بسرعة أضافت وكأنها نسيت الموضوع ــ يا إلهي كم أنا متعبة! والتفتت إليه: روجيه.. حمام دافيء وكأس مارتيني مضاعف ونوم عميق.. آه..!

والتفت إليها في حدة: ماذا؟ يومنا الأول في دمشق ونوم عميق، لا.. أرجوك. ولكنه حين رأى الكدر في عينيها أضاف: تستطيعين أن ترتاحي لو شئت. أما أنا، فلا..لا.. لاأستطيع.. أقسم إني لاأستطيع، يجب أن أراها. خمسة وثلاثون عاماً وأنا أحلم بهذه المدينة الأسطورة.. ماتيلد ــ ودخلوا بهو الفندق ــ إنها دمشق! دمشق سان بيير.. وصلاح الدين.. أوه! أرجوك.. يجب أن أتعرف عليها جيداً.

وحنت رأسها في تفهُّمٍ: حسنٌ، دعني أغسل وجهي ويدي فقط.

ــ ستأتين معي؟ هتف في لهفة.

ـ بالطبع ـ ثم أضافت في غنجٍ ـ وهل أستطيع تركك بين يدي عشيقة قارحة مثلها؟

وفيما بعد، وبعد سنوات كانت ماتيلد فيها قد انتقلت مع روجيه إلى حماة، وصحبته إلى شيزر، وزارت معه القلعة، ورجعت بانطباع خائب عن هذه الخرابة، وتبنت فياض، وأرسلته إلى بيروت يتعلم في السان جوزيف، ثم إلى فرنسة بعد البكالوريا ليدرس في الجامعة، ثم اغتنمت أول زيارة لفياض إلى دمشق بعد انتقالهما إليها نهائياً واستطاعت أن تقتنصه من واجباته وواجبات روجيه الاجتماعية، قالت: اسمع.. ألا تحب أن تصحبني في نزهة؟

ـ أين؟ همس فياض حائراً.

ـ هنا في دمشق.. آه! صحيح.. أنت لاتعرفها.. أما أنا فقد جعلني روجيه أحفظها جيداً، هيا بنا.

وحين لم يعترض، دفعت يدها تحت ذراعه في دلال وقالت: هيا نتمشى، طريق الصالحية ممتع في هذا الوقت.

وانطلقا.. شاب في أوائل العشرينات طويل نحيل بعينين خضراوين وشعر كستناوي ناعم ويدين رقيقتين لايمكن أن تحزر يوماً أنهما حملتا مقلاعاً، أو رفعتا عصا راع، أو طاردتا أرانب في سراديب لقلعة لايعرفها غيره، وامرأة في أوائل الأربعينيات، سمراء نحيلة بعينين سوداوين واسعتين وخصلة سوداء طائشة تعابث جبينها دائماً رغم القبعة الحريرية التي تحاول لَمَّهَا.

وصلا الجسر الأبيض، وكانت تحيِّي بعض المارة من الفرنسيين من تحت مظلتها الملونة الصغيرة بانحناءة خفيفة من رأسها مطلقة ضحكات

صغيرة في خفةٍ، ثم تقول: ماذا تظنهم يقولون عني الآن، هه؟ من هذا الشاب تضع ذراعها في ذراعه علناً وفي غياب زوجها؟

ثم تضحك ثانية في لطف، وتقول: سيقولون عشيقي، وسيحسَّون بالغيرة، أليس كذلك؟

ويهمس فياض في لطف: أوه مدام!

ولكنها تؤكد: لا، لا.. أتمنى أن يقولوا هذا فمن تستطيع الحصول على عشيق مثلك ولاتكون سعيدة؟

ثم تقف جانباً وتحدق في الابن الذي لم تلده، وفي الراعي الذي احتضنت رعب ما قبل طيرانه من القلعة: فاياد! أوه! فاياد! لقد كبرت. ها أنت في الثالثة والعشرين.. ياإلهي! لقد صرت شاباً جميلاً، جميلاً جداً. أنا أعرف أنك لابد قد أوقعت الكثيرات في باريس ضحايا لمخالبك هذه.

ثم تمسك بكفيه الصغيرتين تحدق فيهما في الشارع ويخجل فياض حين يرى نظرات المارة المواربة والمتسائلة، فيقول: مدام.. أتحبين أن نكمل نزهتنا القصيرة أم آتي بعربة؟

ولكنها تهتف في نزق: لا. فاياد. لا. دعني أفاخر نساء الجالية بك. دعني أغيظهن مرة برؤية فتاي الجميل الطويل ذي العينين الخضراوين. من أين حصلت على هاتين العينين الجميلتين. واحمرَّ فياض خجلاً فاحتجَّ: مدام!

كانا قد وصلا فندق فيكتوريا الكبير بسقوفه القرميدية الملتهبة تحت الشمس، فرأى التخلص من حرج تهتكها في الشارع.. فقال:

ــ ألا نتناول شيئاً بارداً في المقصف؟

وصرخت بنزق: أوه! فاياد تدعوني لتناول كأس شراب! أوه! هذا رائع! ابني الجميل كبر، وصار يدعوني إلى كأس شراب! أوه! فاياد.. أنا سعيدة! سعيدة بك كثيراً! تعال.. تعال.

دخلا الفندق بصالته الضخمة وستائره الثقيلة! قالت:

ــ سأشرب كأس نبيذ بارداً.. كأساً صغيراً فقط.. هه؟

حين طلب فياض قدحي نبيذ أحمر لاحظت ماتيلد لهجة من اعتاد الجلوس في المقاصف والتعامل مع خدمها، نظرت من حولها في لهفة: آه.! منذ مدة لم أزر هذا الفندق. روجيه مشغول أكثر الوقت، ومعظم هواياتي ماتت. لم يتبقَّ لدي إلا الصديقات العدوّات وجارات الثرثرة، نثرثر ونتحدث، ونشتري، ونراكم الذكريات من هذه المدينة العتيقة.

جرعت جرعة خفيفة من كأسها تتذوقه، ثم تلتها بجرعة أكبر، ومرّت كوكبة من خيالة تعدو في الشارع. تابعاها بعيونهما عبر ستارة النافذة المواربة.. قالت: لباسهم جميل.. أليس كذلك؟ فيهم شيء خاص.. الفرقة السورية.. من كان يتخيل أن يصبح روجيه يوماً مسؤولاً عن الفرقة السورية؟

وأنصت فياض في اهتمام إلى حديثها عن الفرقة السورية حين قفزت ثانية إلى حديث آخر: أتعرف؟ منظر روجيه حين وصلنا دمشق أول مرة كان شيئاً غير معقول، شيئاً مستحيلاً تماماً.. أمبوسيبل.. قال لي: ماتيلد يمكن للمعجزات أن تتحقق إذا أدمنا الطلب، أليس كذلك؟ من كان يصدق؟ هذه دمشق! أودعنا حقائبنا في فندق صغير، ماذا كان اسمه.. مامور.. ماموث- مأمون.. شيء كهذا.

ونظرت من حولها في غيرة خفيفة: لا.. لم نكن نستطيع النزول في

فندق مترف كهذا.. وقبل أن يبدي أي تعليق سارعت: لم يتركني أغيِّر ثيابي، بل لا أذكر إنْ غسلت وجهي وذراعي قبل أن يطرق نجدت باب الغرفة ليقول لروجيه: إنه مستعد.

جرعت بقية الكأس كلها دفعة واحدة مما أدهش فياض الذي لم يعتد رؤيتها تشرب بهذه الشراهة، وغمزت لفياض: اطلب كأسين آخرين..هه.

وفرقع فياض بإصبعين حذرتين للخادم الذي انحنى بسرعة أمامهما وأشار فياض إلى كأس ماتيلد: كأساً آخر.

وشهقت ماتيلد: ألن تشرب معي؟

ـ مايزال كأسي مليئاً.. ثم اعتذر: أنا أشرب ببطء.

ـ هاه.. قالتها بخيبة خفيفة، ثم بسرعة نسيت الأمر كله.

ذلك اللقاء الأول بين الحالم القديم، صانع مدنه الخاصة يزرعها بشخوصه التي أنمتها روايات وحكايات قديمة، وبين مدينة عتيقة عرفت كل الوافدين واستقبلت كل الوافدين واستهلكت كل الوافدين.

مدينة حيزبون نضرة، مدينة استعارت من الآلهة الخلود والبعث، ومن البشر الحرارة، الحياة والدمار والموت والمصائب والويلات حتى إذا ماظنَّ الجميع أن قدر الفانين قد حلَّ عليها استنجدت بقدر الآلهة، فانبعثت ثانية تتحدى كل صفعات مراهقي الوافدين، وركلات سفاحي الحضارات والحياة.

في ذلك اللقاء الأول بين العاشق المتعجِّل وبين الحيزبون القارحة أراد روجيه أن يصل إلى كل ملذات العشق في جولة واحدة، فقال لنجدت وهو ينظر إلى الدليل بين يديه: أريد رؤية سوق علي باشا، سوق الخيل، سوق التبن، سوق القدسي، المناخلية، الحبالين، الخياطين، السقائين،

وشهقت ماتيلد في رعب تقاطعه: روجيه أتريد رؤية كل هذا؟ واليوم؟ وهتف روجيه في حماسٍ لم يلحظ رعبها: ماتيلد.. إنها دمشق.. تصوري!

ولم ترد جرحه، فقالت تهدىء إرهاقها وحماسته: روجيه ولكني متعبة، لا تنسى أنَّا وصلنا اليوم من بيروت؟

وبصعوبة وبإكراه قاسٍ وتنازل مُرٍّ رضي العاشق بالتنازل إلى زيارة سوق الحميدية والجامع الأموي فقط، ولكنه في اليوم التالي والأسبوع التالي والشهر التالي الذي استنزف كل إجازاته قبل أن يمضي إلى حماة ليستلم عمله كان قد زار كل سوق وسويقة، وصوَّرَ كل حارة وقوس حتى كان اليوم الذي اصطدما فيه بالعراضة وكانا يعودان من سيدي عامود إلى الدرويشية.

وهتفت ماتيلد: فاياد.. أتعرف ماالعراضة؟

وكان قد امتصَّ مصَّةً صغيرة من النبيذ يديرها في فمه قبل ابتلاعها على عادته حين سألت، فأجاب وهو يهز رأسه جانباً: عراضة! لا..

وضحكت في خبثٍ: طبعاً.. لاتعرفها، هذا اختصاصٌ لاتعرفه، يجب أن تكون روجيه حتى تعرف كل مصطلحاتهم.

وأشاح بيده في لامبالاة: لابأس.. لابأس.. وما هذه العراضة؟

ـ آه العراضة.. كانوا مجموعة من الرجال في ثيابهم الزاهية، القنابيز، والشيلان، الشراويل والميتانات، وقلة منهم كانت تلبس تلك البدلة الفراك العثمانية، أعني تعرف الجاكيت الطويل والصدرية والبنطلون العريض.. آه.. كانوا يسمونها المحكمجية ـ كانوا يهتفون ويهزجون حين انفصل عنهم اثنان يحملان سيفين عتيقين وشيئاً مدوراً من جلد يبدو

أنه كان نوعاً من ترس، أخذا يدوران في استعراض يلوحان بسيفيهما ويضربان بهما الأرض، ثم يدوران ثانية ليضربا تلك التروس الجلدية وخفتُ أن يخطىء أحدهما فيضرب بالسيف واحداً من المتفرجين، فضغطت على ذراع روجيه أطلب المضيَّ، ولكن روجيه شدَّ على يدي، ورجاني البقاء، وهمست: ولكن.. لماذا؟

ـ تجربة جميلة أن تري المبارزة العربية.

ـ ولكنهما لايتبارزان.. إنهما يرقصان.

ـ لا.. لا.. إنه التمهيد فقط.

ولكن التمهيد طال وطال، فأخذا يمران بسيفيهما من تحت ذراعيهما ومن بين ساقيهما المفتوحتين في حركات محسوبة يحمِّسُها صرخات النظارة: طيب.. طيب.. أخذا يدوران ويدوران، يتظاهران بالطعن ولايطعنان، وبالضرب ولايضربان، والنظارة متحمسون مشدودون، ولكن المتبارزين الخاضعين لنظام صارم لايتجاوزانه ماكانا يتجاوزان الدور المرسوم، وأخذت الحماسة تبهت، وأخذت حركات المتبارزين الراقصين تهدأ حتى عادت الأضواء إلى مُنشدٍ أخذ يلقي مابدا أشعاراً منغَّمةً كان الجميع يرددونها من خلفه. وقال روجيه في حيرة وهو ينسحب تاركاً الفرصة لي ولنجدت للحاق به: أمرٌ مقرف، غير معقول، وحين لحقت به، ورأيت حزنه سألت: ولكن.. ماالذي أزعجك؟

ـ ألا ترين، أحفاد أولئك الفرسان المقاتلين العظام يتحولون إلى راقصين كهؤلاء.

ـ ولكنك رفضت تسميتهم راقصين منذ قليل.

ـ كنت أنتظر أن تنتهي المقدمة ليتحولا إلى المبارزة الحقيقية،

مبارزة الدم والنصر.. كنت أتمنى أن أشهد على الأرض تلك المبارزات التي طالما قرأت عنها بين الفرسان المسلمين البارعين الرشيقين، ولكن الأمر مازاد على كهلين يؤديان حركات راقصة محسوبة الأذى.

وللحظة قررت تحدِّيه: ولكن في هذا شيء من حضارة، لقد حولوا العنف الذي تعشقه إلى رقص.. فهتف غاضباً وهو يدفعني إلى العربة الأولى من الترامواي: لا.. بل غريزة المحارب فيهم دُجِّنَتْ، دُجِّنت ياماتيلد..

ثم انفجر فجأة كطفل هشمت لعبته: حتى السيوف، تلك السيوف الدمشقية التي طبقت الآفاق، أتذكرين؟ كانوا إذا ماأرادوا الفخر بسيف قالوا إنه دمشقي، ولكن هل رأيت؟ سيوف عتيقة مثلومة بمقابض مزخرفة، ماالذي جرى لهذه المدينة.. ماالذي جرى؟

وكان على فياض أن ينتظر سنوات حتى يرى ذلك السيف الصدىء ودرع الزرد المفكك، والسروال الجلدي المتصلب المتشقق معلقات إلى جانب صور حمدان وصياح والشيخ عبد العزيز.. آباء العائلة وحملة أمجادها، فيذكر ماحدثته به ماتيلد، ويحس بالسخرية، وحين يلمِّحُ بذلك لحسيبة تقول: لا.. نحن نحتفظ بها حتى يعرف الجميع أنَّا إذا ماديس على ذيلنا نفضنا جلد التاجر وعدنا المحاربين ندافع عن مصالحنا وحقوقنا حتى الرمق الأخير.

وفي اليوم التالي كان روجيه ونجدت وماتيلد في طريقهم إلى حماة وشيزر ثم.. الحوار الطويل، الطويل بين روجيه وفياض.

(٥)

غليام لوبلان، غليام لوبلان، بلان، بلا، بلا..

وتردد الصدى واهتزَّ ينساح بين السهول والوديان حائماً حول نهر العاصي المتمرد على قوانين الأنهار، محلِّقاً فوق سهل الروج، متطلعاً إلى أفاميا البعيدة، ويتردد الصوت ثانية، ويسمع فياض، فيفهم هذه المرة مايهتف به روجيه، فقد تعلم الفرنسية، ولم يعد هتاف روجيه مجرد بلان، بلا، بلا..

استمع إليه يجعل من كفيه بوقاً يسدده إلى السهول البعيدة وهو يقول: هل سددنا الدين؟ سددنا الدين؟ الدين؟ الدين؟ الدين؟

الد يـــ ـــيـــ ـــيـــ ـــن..

في ذلك اليوم الذي خاف فيه فياض على حذائه الشيفرو من التمزق وعلى بذلته الشاركسكين من التلوث، تطور الحوار بين روجيه لوبلان القادم محمَّلاً بالأحلام والخبرات والخيبات وبين فياض الذي حين لم يجدوا له اسماً ثانياً سمُّوه ببساطة بالشيزري دون أن يدركوا أنهم حين سموه بالشيزري قد أعطوه شيزر، وحين أعطوه شيزر أعطوه تاريخاً وحزناً وثارات ومطالب ماكان بحاجة إليها حين كان مجرد فياض

الراعي ذي الخراف التسعة والجداء الستة.

نزل روجيه عن برجه المعلّق، نزل وخاف فياض عليه الوقوع، فالهمة الشابة التي صعد بها البرج تلاشت والشباب الذي جعله يقفز من صخرة إلى صخرة حتى يصل مقدمة البرج تحلل وقال: فاياد. ولم يجرؤ على طلب العون، ولكن فياض مدَّ ذراعه، فاعتمد عليها وهو ينزل إلى الخلف، مدَّ ذراعيه يستقبل فياض عند النزول ولكن فياض استحضر فياض القديم، وقفز، فتمزق كما كان يخشى بنطلونه الشاركسكين، وضحك في اعتذار، ولكن روجيه تجاهل الضحكة، فتجاهلها فياض وتقدما في أبهاء الخرابة، القلعة قال:

ـ كانت شهوة عمري أن أجيء إلى سورية، كان حلم العمر كله، فقد ملأتني حكايات العائلة ومذكَّرات غليام بالصور والأحلام، كان حديثه عن تلك البلاد المليئة بالغزلان والظباء والمها وحمر الوحش والنمور والفهود والأسود مثيراً لخيالي الطفل، وكان حين يتحدث عن مغامراته في تلك البلاد تحسُّه وقد تساقط عنه شلله الجزئي وضعفه، فأحاول تخيُّل ذلك الفارس المغامر، ولكن الصورة كانت تتماهى بين ريتشارد قلب الأسد والقديس لويس وقد تضحك و.. حلاق إشبيلية فيغارو.

وضحك ضحكة اعتذار خفيفة لم يفهمها فياض تماماً، فنظر إليه مباشرة يستفهم، وحين كاد الحوار ينقطع اضطر فياض إلى السؤال بسرعة: ولكني لاأفهم.. ماعلاقة هذا كله بالقلعة؟

ـ آه القلعة.. كان غليام يردد في مذكراته دائماً اسماً غريباً لقلعة غير شهيرة في أوروبة، فبالإضافة إلى كراك ديه شوفالييه وأفاميا، وشقيف أرنون، والبرج الأبيض، كان يذكر اسم قلعة اسمها شيزر..

ـ شيزر؟ ردد فياض في ازدراء.

ـ نعم شيزر! وهز رأسه كمن يؤكد على فكرة لاتحتاج إلى برهان، وفجأة رفع رأسه وهو يلوي ابتسامة اعتذار: ماتيلد تقول إني رومانتيكي وربما كنت كذلك ولكني، لاأعتقد.. هل أبدو رومانتيكياً يافاياد؟.

ونظر فياض إلى الوجه الذي تهدل قليلاً منذ عرفه، إلى الوجه الذي كان أشقر، فحولته شمس الشرق زيتونياً، إلى الشاربين الغليظين المتهدلين فوق شفته السفلى.. إلى نظرته الحزينة، وللحظة آمن أنه سيد الرومانتيكيين؛ ولكن كان عليه أن ينتظر سنوات يدخل فيها إياد حياته، ثم يلاحقه التحرِّي السوري، والشرطة العسكرية الفرنسية وينفصل كلٌّ في معسكر حرداً لايريد لقاء مع الآخر ليدرك أن الرومانتيكية كلمة مضحكة.

الرومانتيكية؟ وككلمة أبراكادابرا أو شمهورش، واسم الله الأعظم ماإنْ نطق بها حتى رأى فياض الطفل في أول زيارة له إلى حماة بعد دخوله مدرسة السان جوزيف وقد صحبه روجيه إلى القلعة صبياً ببنطلون قصير وقميص بحريٍّ وقبعة زرقاء، وما إن وصلا أبهاء القلعة الخرابة حتى جذبته الحمائم الزرق البرية النفورة التي اختارت أصعب خبايا القلعة أعشاشاً لها، فأخذ يتململ باحثاً عما يصطادها بها وكأن روجيه أحسَّ بتململه هذا، فقال يحاول تشجيعه على استعادة المكان: لاأحد يعرف خفاياها كما تعرف.

وردَّ شاعراً بالأهمية: أعرف كل عشٍّ حمام ـ ولحظ الاهتمام فتابع ـ ووكر كل أرنب.

فقال محمساً: فهيا، أرني وكر أرنب إذن.

وانطلق فياض يعدو وانطلق روجيه يلحق به حتى السرداب الأول المعتم، وحين حاول الاندفاع، صرخ روجيه: انتظر، لاتكمل، لعل هناك حيَّات.

ــ ومانفعل الحيات إن لم تؤذها؟

ــ ولكن ــ قال حائراً ــ، ثم تابع بلطف ــ كيف عرفت ذلك؟

ــ هذا ماعلَّمه لي أبي.

ــ أبوك؟ - قالها متضايقاً، واستدار بوجهه نحو الغرب يخفي انزعاجه، ثم تمالك نفسه ولملم ضيقه ــ ولكن المكان مظلم، فكيف ستصل إلى الأرانب؟ ــ قالها بلطف مضاعف.

ــ هناك كوة مضيئة في السقف بعد قليل ستنير لنا ساحة نرى منها أوكار الأرانب.

ولكن روجيه فقد الاهتمام فجأة: هاه.. لاحاجة لنا بالأرانب.. تعال.

ومن أعماق رومانتيكيته الجديدة انتشله روجيه برومانتيكيته العتيقة. قال وهو يستند إلى طنف السور المتهدم ناظراً إلى البعيد: طيلة إقامتك في بيروت كرَّستُ حياتي لشيزر، كان عملي في حماة، ولكن حياتي كانت في شيزر، أركب سيارتي وأتردد إليها يومياً إن أمكن، أو أسبوعياً إن لم أستطع ولكني.. لا.. لم أنقطع عنها عشرة أيام أبداً، تعرفت إلى أهلها، حاولت مصادقتهم، والتفت إليه فياض مواجهاً: ولكن.. لماذا..؟

ــ أردت معرفة إن كان قد تبقى واحد من سلالة الأمير أسامة، من سلالة أمراء شيزر - ولوى فياض خديه في امتعاض- هذه الرومانتيكية المضحكة، لكن روجيه لم يلحظ التواء الخدين، فأكمل: ولكن ما فاجأني وأدهشني أنهم لم يعرفوا أصلاً بهذه الأسرة، وحتى القلعة! تلك القلعة العظيمة التي خلدها التاريخ، وخلدت نفسها بتلك الوقفة المتعجرفة أمام الصليبيين، والروم. كانت لهم الخربة فقط، تصور!

تنهد ومشى يجرر خطوات ثقيلة الوقع، ولحق به فياض وهو يحسُّ

برداً في ساقيه حيث تمزق البنطلون، ولكن القلعة خالية إلا منهما وليس هناك من يخجل منه. مشيا صامتين، اجتازا ركاماً من صخور وقوساً محطمة، وبرز أمامهما على مبعدة مبنى صغير من اللِّبْنِ والحجارة الغشيمة، جديد البناء، مضطربه، مخالف لكل الجلال والتهدم المحيطين. قال: أتعرف هذا المبنى؟ وهزَّ فياض رأسه في لا مبالاة: كنت أمضي إليه مع الصبيان في حفلات الذكر والأعياد.

ـــ فأنت تعرفه وتعرف وظيفته إذن؟ هتف روجيه في اندهاش.. وهز فياض رأسه فلم يشعر أنه في حاجة إلى إجابة.

استدار روجيه فجأة عائداً، وتبعه فياض دون نقاش. نزلا الجسر، ركبا السيارة، وأحسَّ فياض أن هناك ماضايق روجيه، ولكنه فضَّل الصمت، اجتازا القرية، وثقل الصمت، وصلا الطريق الترابية، فصار الصمت مقبضاً للروح. التفت إليه بجانب عينه، فوجده يحدّق إلى الأمام بقوة مندفعاً بالسيارة بأقصى سرعتها تخضخض وتتقافز فوق الحفر وحجارة الطريق، وفجأة اندفعت غيمة بيضاء كثيفة من مقدمة السيارة، فكبحها وتوقف:

ـــ ما الأمر..؟

لم يُجِبْ، بل أَخرجَ من تحت مقعده صفيحة معدنية، ونزل، كشف الغطاء، فتح غطاء المحرك، وجلس إلى جانب الطريق. نزل فياض ووقف مواجهاً له.. أسند ظهره إلى السيارة، وانتظر.

ـــ ما الأمر.؟

ـــ سنتركها تبرد قبل أن أضيف إليها بعض الماء.

ـــ ما الأمر..؟

ونظر إليه طويلاً يتأمل هذا الوجه القاسي البراءة، ملأ رئتيه بالهواء، حبسه طويلاً، ثم تنهد: ستسافر في العام القادم إلى باريس.. هيه.

وهز فياض كتفيه في لا مبالاة: إن لم يطرأ طارىء!

أراد روجيه أن يحتج على هزة الكتفين هذه، ولكنه ابتلعها، هذه اللامبالاة اللعينة. هذه اللامبالاة اللعينة، لاشيء يحركه. كان فياض يعذبه بهذه اللامبالاة، فلم يستطع روجيه أبداً إذابة هذا السور الزجاجي من العزلة اللامبالية الذي أحاط فياض به نفسه، قدَّم له نفسه، حدثه عن غليام، حدثه عن الأحلام، حدثه عن ماتيلد وحدثه عن الجرح الكبير ولكنه لم يستطع أن يجعله يوماً يحدثه عن طفولته في الخربة قبل ذلك اللقاء، وحين كان يشكو ذلك لماتيلد كانت تقول: لعله لايذكر شيئاً منها، لعله..

ـ لا.. هناك شيء ما يحتفظ به لنفسه ليقول: لم أصبح ابنكما فعلاً!

ـ أوه.! روجيه كم تبدو حساساً، بل.. ربما غيوراً، وأطلقت ضحكتها الغنجة.

ـ ستدرس الكيمياء إذن؟ ابتلع حزنه ـ الكيمياء عظيمة ومفيدة ـ كم كنت أخاف أن تقول الحقوق.

ـ لماذا..؟

ـ كل من أعرفهم من الشبان لا همَّ لهم إلا دراسة الحقوق.

ـ لابد أن لديهم أسبابهم.

ـ بالطبع.. يريدون أن يصبحوا سياسيين، حُكَّام البلد.

كان في حديثه رنة سخرية لم يغفلها فياض، هدأت الغيمة البيضاء، كان المحرك يدور ببطء، أمسك الصفيحة المعدنية وأخذ يسكب الماء في

المبرَّد. امتلأ المبرَّد. فاض. ترك الماء ينسكب خارجاً لبعض الوقت، غطى المبرَّد، أنزل الغطاء، ترك المحرك يدور وعاد إلى مجلسه، وران الصمت..

ولم يعد فياض يحتمل الصمت قال روجيه: ما الأمر؟.

نظر إليه طويلاً، وداعبته سعادة صغيرة، فها هو أخيراً يسأل.

قال: الضريح كما سميته. أتذكر؟

ـــ صحيح.. ولكن ماالغريب فيه؟

حاول روجيه كثيراً العثور على ضريح، على قبر، على أثر يشير إلى الأسرة التي حكمت القلعة، وأنجبت أسامة، ولكن دون فائدة. وفيما بعد أخبره أحد البحاثة السوريين أن أسامة قد دفن في دمشق، وأن قبره نفسه قد اندثر، فتخلى عن البحث عن قبر أسامة، ولكن ماذا عن باقي الأسرة، لقد حكموا القلعة طويلاً، ولا بد أن قبراً ما، نصباً ما، إشارة ما قد تبقت لتشير إلى تلك السلالة العظيمة التي حكمت القلعة والمدينة، وفجأة جاءت النجدة، فقد حدثه المختار عرضاً عن قبر لولي اسمه منقذ، وصرخ روجيه: ماذا، قبر لسيدي منقذ!؟ دلني عليه.

أشعل روجيه غليونه، نفث نفثة طويلة.. وقال: كان الضريح شيئاً غريباً ليس فيه من الجلال أو القدسية شيء. كان مجرد غرفة طويلة جُعِلَت فوقها قبة صغيرة خضراء زرع أمام بابها شجرة سنديان وعلى هذه الشجرة علقت بعض الخرق الزرق والحمر المهترئة.

بحث عن خادم الضريح، لم يجده، عن السادن، لم يكن موجوداً، عن أحد يعرف شيئاً عن هذا السيدي منقذ، ولكن. لاأحد!

ـــ لابد أن أدخل، فسيدي منقذ يستحق بعض المغامرة، أن تعثر على أثر

ولو صغير لأولئك السادة من الفرسان العظام الذين استطاعوا الوقوف طويلاً أمام الروم والصليبيين كان أمراً جميلاً، طرقت الباب لا أحد. دفعته، فقاوم. أمعنت الدفع، فطقَّ شيء ما طقَّةً صغيرة وانفتح الباب.

التفت إلى فياض: دخلت إلى الضريح.. أليس كذلك؟ أنت تذكره؟

- بطريقة مشوشة.

وفكر روجيه: اللعنة عاد إلى حياده، ولكنه لم يستطع التوقف فقد كان شيء ما يتأكله ويجعله مُصِرًّا على قول كل شيء فتابع: قاعة عتمة طويلة أشعلت قداحتي، فرأيت النوافذ الخشبية على الجدران، فتحت واحدة منها، فاندفق الضوء لأرى طبولاً ومزاهر ودفوفاً وعصياً، رايات ملونة، ورايات مزخرفة بكلمات عربية. و.. توقفت لاأفهم، فما هذا المكان الذي دخلت، إنه يبدو أشبه بمخزن فرقة مسرحية ريفية، لايمكن أن يكون ضريحاً، فتحت نافذة أخرى، فعمَّ الضوء ليكشف فوانيس، ومصابيح نحاسية قديمة، تفحصتها ليتأكد انطباعي بأني في مخزن فرقة مسرحية ريفية. تأملتها واحداً واحداً لاكتشف فجأة مشكاة فضية رائعة.

التفت روجيه إلى فياض -وبلهجة اعتذارية- أقول الحق: فتنتني المشكاة، الزخارف، النقوش، النعومة، حاولت معرفة فترة صنعها، اسم صانعها، ولكنه الشرق، الشرق الذي لايعترف بالزمن والزامن، الشرق المؤمن دائماً بثبات الزمن الخالد، كانت مشكاة شرقية عتيقة جميلة ومهداة لسيدي منقذ.. فقط..

وصمت.. كان المحرك قد برد.. اتجه إلى السيارة فلحق به فياض، وعادت السيارة إلى الخضخضة وروجيه إلى الصمت، ولم يستطع فياض كبت فضوله فقال: ولكن كل ما قلت شيء عادي، فما الذي أثارك عند رؤية الضريح إذن؟

وانفجر روجيه: لأني حين وصلت صدر القاعة اكتشفت غرفة صغيرة ساذجة من الطين سُجِّيَ فيها ضريح وضع على رأسه عمامة خضراء كبيرة، وانتشرت في أرجاء المكان الشموع الذائبة وأسرجة الزيت، بحثت عن شاهدة القبر، لا شاهدة، بحثت عن نصب يشير إلى اسم المُسَجَّى، تاريخه، أفعاله، أي شيء يشير إليه ولكني لم أعثر إلا على مزيد من الشموع الذائبة والزيت المسكوب، فانسحبت متضايقاً.

ـ لماذا..؟

ـ لم يكن هذا هو منقذ الذي أريده، لم يكن هذا من بحثت عنه طويلاً، كنت أريد تاريخاً، معرفة، تمجيداً لهذا الممثل لتلك الأسرة التي حكمت القلعة التي أصابت جدي بسهم في صلبه لتعيده إلى فرنسة أشلَّ الساق ضعيف الأخرى.

ـ هيه، وبعد.

ـ نظرت إلى المشكاة، كانت شيئاً جميلاً.. أفأتركها لهذا المسجى غير معروف الهوية؟

ـ ولكنه سيدي منقذ؟

ـ لا.. ـصرخ بعنف- منقذ ليس شيخ ذكرٍ وحضرة، ليس رجل نذور وشموع وأسرجة.. لا.. منقذ كان رجلاً.. فارساً، مقاتلاً، ابن حياة حقيقياً، أفيحولونه إلى شمعة وسراج زيت وذكر؟!

استطاع بحماسته التأثير على فياض فتذكر غائمة حفلات الذكر، وضرب الطبول والمزاهر، وحلقات الذكر حتى الصبح، روائح العرق الكثيفة والعيون البيض غاب سوادها وراء البحث عن شيء كان عليه أن ينتظر سنوات حتى يسمع حسيبة تقول عنه: الوجد.. آه فياض! ليس

هناك شيء في الدنيا أمتع من لحظة الوجد، تصلها، فتقطع علائقك بالدنيا، تتصل بالله في سمائه وتمحي سخائمك، وتذوب أحقادك وتموت شهواتك، ولايبقى إلا سعادة الاتصال مع الله.

وتابع روجيه: أمسكت بالمشكاة، فعرتني الرعشة، أنا أسرق؟ تركتها فناداني اهتزازها النواس تحت ضوء النافذة المفتوحة ثانية، إنها قطعة، قطعة جميلة لن ترى مثلها في الأسواق. أفيمكن أن يوجد مثلها في سوق العاديات؟ لا.. لابد أن هذه المشكاة قديمة.. بل.. ربما كانت لبني منقذ أنفسهم!

ـ بني منقذ! أكان لسيدي منقذ ابن آخر غير الأمير أسامة؟

ـ منقذ ليس أبا أسامة، كنت أظن ذلك مثلك فيما مضى حتى اكتشفت أن منقذ هو جدهم الأكبر البعيد.

ـ فلم سمي الضريح بسيدي منقذ إذن؟

ـ هذا هو السؤال.. إنه ليس ضريح شخص – وتردّد قليلاً– كما.. أعتقد.. إنه رمز الأسرة كلها، ربما بناه بعض من عرف بفضلهم فيما مضى.

وعاد إلى الصمت، كان على الطريق بضع عنزات تتهادى، فزمّر لها عدة مرات، وأخيراً كبح السيارة منتظراً عبورها. التفت إلى فياض: هذا الشرق العجيب، الشرق الذي يحوّل كل شيء إلى دين حوّل منقذ إلى سيدي وحول قبر الفارس إلى مزار وذكر.

وصمت فياض، وكان عليه أن يذكر هذه الجملة طويلاً فيما بعد، يذكرها حين يرى عبد العزيز جدَّ حمدان الجوقدار وقد تحوّل إلى رمز وشيخ وأسطورة، وكان عليه أن يذكر هذه الجملة وهو يرى مشاريع

الشيوخ الكابين في البادرائية يخرجون منها، وما إن ينجح واحد منهم حتى يتحول إلى رمز، والى أمل، ثم إلى أسطورة.

انطلقت السيارة وقد خلا الطريق، ولم يلبث فياض أن تذكر فسأل: والمشكاة؟

ــ هه.. هه.. حاولت اقتلاعها، فلم أستطع، حاولت قطع سلسلتها، فلم تنقطع.

ــ وبعد؟

ــ خفت مجيء الفلاحين، فيروني في موقف سارق القبور، فقررت المضي والعودة مع مقصٍّ معدني كبير.

ــ هه.

ــ ولكن –وأطلق ضحكة هازئة– حين عدت بعد: يومين من كانت قد اختفت.

ــ من؟

ــ المشكاة، المشكاة.

ــ كيف؟

ــ لاأعرف. لابد أني نبَّهتُ بعضهم إلى أهميتها، فسبقني.

ــ متأكد؟

ــ بالطبع.. لقد جردت حملة لتفتيش القرية مدعياً البحث عن السلاح، ولا أريد إلا المشكاة.

ــ ولم تجدها بالطبع.

ـ اختفت، اختفت، ومايختفي.. أنت تعرف.. لايظهر.

وأطلق زموراً عنيفاً ليبعد حماراً قبرصياً ضخماً رفع ذيله عالياً، واختار منتصف الطريق ليحلّ واحدة من مشاكله الحياتية.

في البيت قال روجيه وهو يحمل مجموعة كتب: فياض.. لِمَ لا تقرأ هذه الكتب قبل سفرك؟ لا يزال أمامك أسبوعان لتسافر إلى بيروت.. اقرأها، فربما تشعر في المستقبل أنك كان يجب أن تقرأها.

قلَّب الكتب، ألف ليلة وليلة، مترجمات والترسكوت، ولكن ما لفت نظره أكثر من كل الكتب التي قلَّبها كان كتاب.. "*الاعتبار*".. لمؤلفه الأمير أسامة بن منقذ، ولاحظ روجيه اهتمامه، فقال: لديَّ من هذا الكتاب نسختان، سأحتفظ بواحدة لي، أما الأخرى فهي لك.

وسيكتب فياض على دفتره جريدي الورق: وهكذا أنشبَ التاريخ فيَّ مخالبه، فما إن أنهيت قراءة الكتب التي اختارها روجيه لي حتى اتجهت مختاراً إلى مكتبته والتي اكتشفت أنها لاتحوي إلا تواريخ الحروب الصليبية، وحين سافرت إلى بيروت أخيراً اصطادتني مكتبة مدرسة السان جوزيف و.. علقت.

(٦)

حين فتح باب الستديو الصغير كان يتوقع كل شيء، أو ربما لم يكن يتوقع شيئاً، أو ربما توقع شيئاً ما حين وجد الباب موارباً، ولكن أن يجدها هناك في غرفته الصغيرة مائلة السقف، أن يجدها هناك، تلك المتعجرفة الشقراء والتي لم يكن أجرأُ طلاب الكلية يحلم بنظرة منها، فكيف به وهو القادم من شرق خجول لايعرف من النساء إلا ملاءاتهن، ومن الغربيَّات إلا ذلك الانفصال العجيب الذي تخلقه صور المجلات بين المُشاهِد والمشاهَد؟!

حين كان يُقلِّب مجلات الباري ماتش والألوستراسيون في مكتبة السان جوزيف المدرسية كانت تلك المعبودات الشقراوات ذوات الأنوف المطعوجة إلى الداخل قليلاً، والعيون الواسعة الجريئة المتحدية، والقبعات المائلة، وربما مشرب السجائر الطويل أحياناً يبعثن فيه حِسَّاً مختلطاً بين الإعجاب والخوف، كان فيهنَّ سحر يشبه ذلك السحر الذي تبعثه تماثيل المتاحف بجمالها المفارق المتحدي ولكن دون أمل باللمس، بل دون أمل بحرارة لو تمَّ اللمس. كان فيه شيء مختلط بين الأنثى الصورة بكل ماتثيره من شهوات، وبين رعب لمس المعبودة الأقرب إلى المحرم، كُنَّ اليأس المطلق، وكانت إيفون يأس اليأس بسيارتها الفارهة تقف أمام الكلية

وسائقها الزنجي يفتح الباب، وطولها الشاهق النحيل وثوبها المزموم البسيط وقبعتها المائلة.. ياإلهي.. همس عند أول رؤية لها بإعجاب وخوف، ولكنها أبداً لم تلحظه، كانت عيناها أبعد وأنأى من رؤية هذه المخلوقات الأرضية وكان راضياً بهذا، فقد كانت على حق، فمثل هذا الجمال الغارق في البعد والصوفية وصور المجلات حرامٌ أن يخفض بصره ليرى أمثاله من الفانين.

كانت شهور ثلاثة قد انقضت منذ وصوله باريس.. شهور ثلاثة قضاها في استئجار هذا الستديو وتأثيثه. وتعلَّم الطريق بين البيت وبين الكلية، وفي محاولة تحسين لغته الفرنسية لتنسجم مع لسانهم الطلق وقدرتهم السريعة على التعبير والتنكيت والمزاح.

وصارت عادة لديه، يصل الكلية ويشتري ساندويشة، فينزوي بها جانباً مخالفاً الباريزيين في إفطارهم الرمزي، فيقضم قضمة يتلهى بها وينتظر، فإذا ما مر المعبود المفارق المنتظر تنهَّدَ في ألم، وأحس أن نصيبه من سعادة اليوم قد نيل، فيكمل ساندويشته ويبدأ نهاره.

وكان يمكن لهذا الطقس أن يستمر، ويدوم حتى ينهي فياض دراسته دون أن يرى امرأة أخرى، أو يحبَّ، ويتعذب، ويقاسي كما يفترض في العشاق في باريس جميعاً لو لم تُقِمِ الكلية حفل تعارفها السنوي ويتغير مصير فياض مرة واحدة والى الأبد.

في ذلك الحفل حمل فياض صحن الكاتو وفنجان القهوة، واختار زاوية عند قاعدة العمود الغرانيتي، وأخذ يراقب الراقصين، المغنين، المرحين، أصحاب النشاطات الاجتماعية، عازفي البوق، قارعي الطبل، المهرجين، حفظة النكات، ولكن عينيه لم تستوعبا تماماً ما ترى، فقد كان هنالك حزن خفيف يلفُّه، حزن يجعله بعيداً عن أولئك الشبان، لقد تعلَّم في

بيروت وحفظ دروسه جيداً واجتهد ونجح، ولكن أحداً لم يطلب إليه حفظ النكات، وأحداً لم يطلب إليه العزف على البوق، أو القرع على الطبول، أو حتى النفخ في الهارمونيكا. وللمرة الأولى يكتشف أن كلَّ العناية والدلال اللذين بذلهما روجيه وماتيلد لم يكونا كافيين لدفن جذوره عميقاً في العالم الذي اختاره له.. لقد ظلَّ غريباً.

ولكن القدر، القدر الذي لم يتخلَّ عنه حتى الآن، لم يتخلَّ عنه الآن فقد صعد عريف الحفلة المنصة، وأخذ يدعو الطلاب الجدد لتقديم أنفسهم، وأخذوا يتقدمون، وأخذوا يقدمون مدناً عجيبة، وأسماء قرأ عنها في الأطالس، فاستيقظت أنهار، وانتعشت أبراج، وانتصبت قلاع وجسور ومعارك حربية، وأسماء أعلام قرأ عنها الكثير الكثير، ولكنها كانت في ذهنه أسماء وحروفاً صماء، وهاهي تتجسد أمامه الآن ويضخُ فيها الدم، وتستيقظ الحياة.. أخذ يستمتع من زاويته النائية باللعبة حين سمع فجأة اسم إل شيزاري فاياد، وجمَّده الرعب، فتضاءل في مكانه، ولكن الاسم مالبث أن تكرر لتعلو معه همهمة مستغربة: كومان، كي اس. الشيزري. وتلفتت العيون ثم الأعناق، ثم الأجساد تبحث عن صاحب هذا الاسم الغريب ورأى يداً تشير، ورأى عيني العريف تلتفتان، ورأى الجذوع تتجه كلها إليه، وسمع ثانية العريف يهتف: إيه موسيو إل شيزاري.. تعال.. نحن ننتظرك.. ولما ظل جامداً في مجلسه اتجه المشاغبون المرحون إليه، فاندلق فنجان القهوة وهم يحملونه، ولكن واحداً من الحاملين أو المحمول لم يهتم.

ـــ هاه موسيو شيزاري. حدثنا الآن من أي مدينة أنت؟

وهمهم في وجلٍ: أنا؟

ـــ طبعاً أنت.

وتردد قليلاً، فعن أية مدينة يتحدث، عن بيروت؟ لقد درس فيها سنوات ولكنه لايعرف بيروت، عن حماة؟ إنه بالكاد يعرف فيها شيئاً غير نادي الحامية الفرنسية، عن شيزر؟ ولكن من يعرف شيزر؟ عن دمشق، ولكنه لم يعرفها إلا عابراً؟!

ـ هيا ياصديقي.. هيا.. نحن ننتظر.

وتعالى الهتاف الماجن: هيا.. فاياد.. هيا.

وبهدوء وجد نفسه يكذب تلك الكذبة التي ستتكرر كثيراً فقال: أنا من حماة.

ـ حماة.. أين تقع هذه الحماة؟

ـ في سورية.

ـ هاه - تعالت جماعية - سورية - تعالت مختلطة الاستنكار بالدهشة، بالمجون، بالضيق. وتمالك العريف نفسه.

ـ فهل لك أن تحدثنا عن حماة هذه؟

وأغمض عينيه في خوف، كانت التجربة جديدة، أغمض عينيه، فعَمَّ يتحدث وقد تحدثوا عن الأبراج العظيمة والقلاع الرائعة والحقول دائمة الخضرة، وأعياد الكرنفال والكاتدرائيات الشاهقة، تحدثوا عن موسيقيين وشعراء وروائيين ومسرحيين؟ عمَّ يتحدث وهو الذي لم يعرف منذ تخلَّى عن خرافه التسعة وجدائه الستة إلا روجيه وماتيلد والسان جوزيف ومعلميها دائمي العبوس.. عم يتحدث؟ و.. وجاء الصوت ثانية:

ـ هيا.. فاياد.. هيا.

وفجأة - وليس يدري كيف - قفزت إلى الذاكرة فجأة تلك الكتب

التي أعطاها له روجيه محاولاً صنع روجيه آخر منه، روجيه حالماً مؤرخاً، ذا أحلام بقلعة وجسر ونهر، قفزت إلى الذاكرة ألف ليلة وليلة التي قرأ منها شيئاً وسئم أشياء، قفز إلى الذاكرة والتر سكوت وروبن هود وإيفانهو، وليس يدري كيف تجمعت الذكرى، وانطلق اللسان، فأخذ يتحدث عن نهر صغير جميل عليه نواعير وفوقه قلعة ضخمة الأبراج، شاهقة الرواشن، عالية الأسوار يعيش فيها أمير بدوي عجوز يسوق فرسانه في الصباح ليغزوَ القرى، وينهب الأغنام والأبقار والجمال، ويسبي الجواري، أولئك الجواري الجميلات المخدَّرات المغلَّلات بثياب الدِّمَقْسِ المطرَّز بالذهب، أولئك الجميلات سود العيون الكحلاوات والنظرات المتكبرة، أولئك الإلهات القادمات من..

وكان على التاريخ أن يعيد نفسه مقلوباً هذه المرة، ففي الوقت الذي استطاعت فيه ماتيلد إخراج روجيه من عالم ألف ليلة وليلة وروبن هود وأحلام الإقطاعي الصغير حين قالت له بعد مشوار طويل قضاه وهو يتلو عليها من الذاكرة الحلم الذي قضى السنين يبنيه عن القلعة والجسر والنهر والفلاحين الوديعين: ولكن، هذا سهل إن كنت تحب الزراعة إلى هذه الدرجة فما أسهل أن تشتري مزرعة هنا في فرنسة ولاحاجة لنا إلى غليام والشرق!

وليفاجأ بملاحظتها هذه، فيبتسم معترفاً تحت نظراتها الملحة بأن الزراعة لم تكن مايهمه، بقدر ماكان همُّه القلعة والنهر والجسر – ثم يعترف بحزن – بأن هذا لم يعد ممكناً نواله في فرنسة.

ويوماً إثر يوم، ومشواراً إثر مشوار، وتكشفاً لفجاجة هذا الحلم إثر تكشف، أخذ روجيه يحسُّ بلا واقعية هذا الحلم وإن لم تمنعه هذه المعرفة من السعي وراء خطوات غليام إلى سورية فلعلَّ وعسى.

هذا التاريخ الذي يأبى إلاّ أن يداعب المؤرِّخين بمقالبه الصغيرة، جعل فياض حين حوصر بالسؤال عن عالمٍ قَدِمَ منه وعن أمجاد عاشها هذا العالم يلجأ إلى ماأخرجت ماتيلد منه روجيه، فيصطنع حلماً، ويخترع مدينة، وحتى نهراً، ويؤسس قلعة يسكنها أميرٌ بدويٌ قاسٍ لايرحم، عابسٌ لايبتسم، سابٍ لايعتق، وإذا بالصمت يحل واللهفة تسيطر والأشواق تستيقظ، والتصفيق يعلو.

ــ أكمل.. أكمل.. جميل.

ويفتح عينيه على التصفيق لايصدق، يفتح عينيه ليراها، تلك الإلهة الشقراء المتكبرة وقد شقّت الصفوف حتى صارت في المقدمة: أكمل فاياد، أكمل، حدق ثانية.. ياإلهي.! إنها هي ترجوه أن يكمل. ولكن ماذا يكمل؟! والحلم انتهى والحالم استيقظ.. أكمل أرجوك.. وماذا يكمل ونزوة العقل الحالم قد وصلت إلى نهايتها؟! موسيو فاياد.. أرجوك.

أرجوك. وتلعثم اللسان واصفرّ الوجه وارتبكت الأصابع وتعرّق الإبطان.. ولاحظ العريف ذلك فأشفق على الفتى، فهتف:

ــ هيه.. يكفي يافتيان.. ألا ترون.. أميرنا الشرقي متعب؟!

وككل مصادفات الأقدار العجيبة لايدري كيف أفلتت من عريف الحفل هذه المزحة التي تحولت لتصبح اسماً، ولتصبح صفة، ولتملأ فراغاً في حلم أولئك الذين حرموا من الحلم. يصفقون ثانية مهللين، فينزل الأمير الشرقي، ويتجه إلى زاويته الأولى، ملجئه القديم، ولكن يداً تنسلُّ تحت ذراعه، فيلتفت ليجد المعبودة الشقراء تهمس:

ــ لن تستطيع الفرار.. أنت لي لهذه الليلة.

واضطرب القلب الصغير، اضطرب حتى كاد ينفجر، أيمكن..

معقول؟ وألحت: تعال.. هناك أشياء كثيرة أريد سماعها منك..

وانجرَّ وراءها إلى الحديقة، إلى ركن النباتات المعرّشة، سيء السمعة، واختفى معها، ولكنه قبل أن يدخل وراءها تلفَّتَ من حوله في خوف مشوبٍ بالفخر: أهناك من يراه يدخل معها إلى ذلك المكان الذي لايدخله إلا العشاق العريقون؟! قالت: هيه.. اسمع.. أريد كل شيء.. كل شيء.. أتسمع؟!

جلسا على المقعد الحجري، وأخذ يستظهر ماقرأه، وسمع عنه منذ سنوات، عن الشيخ البدوي وخيوله البيض الأصيلة، عن فرسانه الملثمين بكوفيات مخططة معممة بالعقال الحريري الأسود، عن همهماتهم المتكبرة، عن صرخاتهم المفزعة يهاجمون الفلاحين المساكين، عن القطعان يسوقونها، عن الجارية الحسناء تُخْطَفُ من حضن عريسها عن وعن وعن.. كان يسمع تنهداتها، يسمع دقَّاتِ قلبها، يحسُّ أصابعها تقبض على يده في قسوة، وكان عليه أن ينتظر سنوات لتدور الساعة فيها كامل دورتها ليجد أخيراً فرصة لمراجعة النفس هناك في البادرائية، المدرسة المنعزلة عن العالم إلا عن ستائرَ حزينة تبكي يوماً قررت فيه أن تنزل من قرصها السماوي إلى حضن ربَّةٍ ماكرةٍ لاتعتق أسراها أبداً، ومشاريع شيوخ كئيبينَ أضناهم البحث عن لقمة أرضية فهم يقتتلون عليها لو وجدت. كان عليه أن ينتظر سنوات يتذكر فيها لقاءه الأول مع إيفون، والقصص التي رواها، ولينتبه متأخراً إلى أنه كي يرضي النقيض فقد تقمَّصَ النقيض، وتبنى حكايات الرعب ترويها النساء في ذلك الكوخ المسكين الذي وُلِدَ فيه – قبل النوم عن أولئك البدو القساة يهاجمون القرية، فيقتلون، وينهبون، ويسبون، وعندئذٍ للمرة الأولى اكتشف متذكراً أنه كان يحسُّ في حديثهن عن أولئك القساة السُّباةِ شيئاً من لذَّةٍ مكبوتة، وشهوة للمجهول خفية هاهي تتكرر عند إيفون بعد سنوات وسنوات.

حين فتح باب الستديو فوجىء بها في غرفته الصغيرة وعلى سريره غير المرتب وهي تهمس في لهفة: أيها البارون القادم من الشرق.. جاريتك تنتظر الأمر لتلبي.

بهذه الجملة البسيطة معدودة الكلمات تغير العالم من حول فياض.. تغير ليحوِّله إلى نار تسعى إليها الفراشات باحثاتٍ عن دفء يخرُجْنَ به من صقيع الخيبة التي كان يعيشها العالم بعد تلك الحرب العبثية السخيفة التي مر بها عالم الآباء حين اختلس منهم إخوة، وآباء، وأصدقاء، وأبناء للا هدف ولا معنى، فجعلهم يحسُّون بفساد العالم الذي صنعوه من عقلٍ بارد، وصنعهم من آلات ميكانيكية. وما إن انحدر علم الطاعون الأسود، وعادت الوحوش إلى كهوفها، والبراثن إلى جيوبها، انتشر برد الخيبة والمرارة ولا جدوى مافعلوا حتى كفروا بربهم القديم، وأخذ الجميع بلهفة مريرة يبحثون عن ربٍّ أكثر دفئاً، وكان أن قدم الأمير الشرقي المحمل بالأحلام والخيالات والغرائز، وهبت ناره مجتذبة الفراشات. وانكسر الصنم الجليدي أمام فياض ليكتشف أن أولئك الطويلات النحيلات الشقراوات ذوات العيون المتعجرفة والقبعات المائلة ما هُنَّ إلا مخلوقات عاديات مسكينات يُخدَعْنَ بالكلمات، ويُسحَرْنَ بالأحلام، وكان عليه أن يستحضر، ويحفظ، ويخلق، ويصنع قصة جديدة وحلماً جديداً قبل كل لقاء مع إيفون، قصة تجعل الدماء تغلي في العروق الباردة لتصرخ: أيها البارون القادم من الشرق جاريتك تنتظر الأمر لتلبي.

وانتشر السر، وفاحت الحكاية، وخلف إيفون صوفي، وخلف صوفي مادلين، وتناثرت الحكايات في أبهاء الكلية، فالجامعة عن ذلك الأمير الشرقي صانع الأحلام، عن ذلك الأمير الشرقي وشيخه البدوي سابي الحسناوات يُحْمَلْنَ إلى قلعته ليخضعن لقانون السبي، وهمست صوفي مرة، فأرعبته.

ــ آه.. ليتني كنت هناك!

ــ هناك.. أين؟

ــ آه! الحب مع الخوف إحساس جميل، ألاَّ تعرف الخاطف القاسي، ولكنك تعرف أن الحب قادم بعد قليل، حبٌ مجهولٌ غامضٌ وحشي، شهوي، قاسٍ.. أوه.. فاياد.. فاياد.. أنت رائع.. حياتكم جميلة هناك.. اسبني وخذني إلى هناك.

وألقت بنفسها على قدميه جارية مستسلمة لحكم سيدها.

وانتهت الحكايات ونَضَبَ الخيال، فصار يتلو عليهنَّ شعراً حفظه في السان جوزيف، يتلوه منغَّماً، ويلحنه ميجانا وعتابا، وبدأت صفحة جديدة أخرى حين سألته مادلين: شعر من هذا..؟

وبجرأة عجيبة اكتسبها من إدمان صنع الحكايات ادعاه لجده، ذلك المسكين الذين داسته مركبة تسير دون خيول بين حارات قرية منسية تحت أقدام خرابة منسية، وكبر الجد، وكبر ليصبح الغازي والشاعر و- على استحياء- مفتِّت قلوب العذارى.

وتوزعت الأماسي بين الباحثات عن سحر الشرق لدى ذلك الأمير النحيل ذي العينين الخضراوين والقلب الخنجري، وبين دراسة الكيمياء التي أحبها فانغمس فيها حتى الأذقان، وانقطعت صلته بسورية إلا عبر رسائل روجيه وماتيلد وشوقهما إليه، ورغبتهما بالسفر إلى باريس لرؤياه.. الأمر الذي كان يرعبه أشد الرعب فمجيئهما يعني لقاء العالمين، الحقيقي والمصطنع، ومجيئهما يعني انهيار عالم الأمير الشرقي واكتشاف إيفون وصوفي ومادلين، حقيقة الأمير الشرقي الساحر، فكان يعارض هذا القدوم دائماً متذرعاً بقدومه هو إلى دمشق ولكنه أبداً لم يفعل.

وكان يمكن للأمر أن يستمرَّ حتى تخرُّجه من الجامعة، فقد انتقل إلى الصف الثالث محافظاً على تقاليد الأمير البدوي الغازي المضياف المحاط بالجواري، والإماء لولا أن دخل حياته فجأة إياد.

قال: سمعت القصص الكثيرة التي تثار من حولك،، ولم أحاول تكذيبها. ولكن: أأنت سوري حقاً؟

بهذا السؤال الفاضح انتهت صفحة في حياة فياض لتبدأ صفحة جديدة.

(٧)

الكبة المقلية صنوبرية الشكل فائحة الكمُّون، الكُبَّة بالصينية المقطعة معينات انبثق من شقوقها اللحم والبصل والصنوبر، الكبة المشوية تنز بالدهن ذات الخدود المحمرة من نار هادئة. زوارق المحشي، الكوسا الزمردي، والباذنجان الأبنوسي، والفليفلة الفستقية، الحُمُّص المهروس السابح بالطحينة والليمون، والمجلَّل باللحم المفروم وحَبّ الرمان، المتبَّل بالباذنجان والكوسا، البابا غنُّوج، السلطات بأنواعها، بالبندورة، والفجل، والزعتر.

العرق، والنبيذ، والبيرة، والمازوات الخفيفة والثقيلة.

كانت المائدة عامرة، عامرة كأكثر ما يمكن لطلاب في العشرينات من أعمارهم في بلد غريب لا يعرف طعامهم ولايعرف إعداده أن يفعلوا، وكان الضجيج المرح، ضجيج الشباب جميل الحماقات، ضجيج الفرح باللقاء واستعادة ماضي الأيام والتظاهر بأن هذا المكان الصغير الذي اقتطعوه من حي صغير، من مدينة كبيرة، وربما كانت الأكبر في تلك الأيام هو الوطن، وهو لهم هم، ولا سيطرة لآخر أو غريب عليه، وكان إياد يجول في المكان مصدراً أوامر، وحاملاً أطباقاً، ومعدلاً

كرسياً، ومقرباً ملعقة، ومبعداً شوكة، وكان فرح، فرح كبير يحرّكه، ويدفعه إلى القيام بحركات حمقاء أحياناً، فقد كانت الحفلة فكرته هو، وليست فكرة أحدٍ آخر، فقد كان موعد حفل الرابطة السنوي بعيداً، ولكنه اقترحه الآن، ولماذا؟ ولم يعترف لأحد بالسبب الحقيقي، فلما احتجوا بالنفقات الباهظة وليسوا على استعداد لها تبرع بها كاملة، ولكن.. لماذا؟ ستعرفون في الوقت المناسب.

وفجأة وحين تبرع بالنفقات كاملة تهاوت الاعتراضات وأمّحَتْ الاحتجاجات، وأوجدت الاعتذارات المناسبة للارتباطات السابقة، فغداء شاميٌّ في.. باريس.. وبذوق إياد الجوقدار.. والأهم من هذا كله مجاناً شيء يستحق الحضور!

كان يقوم بهذا كله وجانب من عينه يرمق فياض المنزوي جانباً يريد التقاط انطباعه عن الحفل، ولكن فياض الذي تسلَّحَ منذ سنوات وسنوات بقناع العزلة المتعجرف الذي لم يكن يتطابق تماماً مع هذه البشرة الدراقية، والعينين الخضراوين الهدباوين، والخصلة البنية الطائشة على جبينه دائماً، كان يوحي بالانطباع المعاكس: أنا وحيد، خجول، أحاول أن أبدو متكبراً. أليس من يدٍ تمتد لإخراجي من مأزق القيام بالخطوة الأولى دون أن أرفض؟ وفهم إياد الرسالة رغم محاولة فياض تعميتها وتشفيرها، وأدرك أنه يمكن له الدخول إلى عالم هذا الشاب الذي سمَّى نفسه بالأمير الشرقي، ففتن فتيات ما كُنَّ ليُفتَنَّ لأمثاله، وخلق أسطورة ماكان لمثله أن يخلقها. قال: هاه أنت حموي إذن! عظيم.. ولكن لمَ تثير من حولك هذه الحكايات؟ ماذا سيفيد شعبنا من هذا؟ أنت لاتزيد عن تأكيد مايدَّعُونه من أننا شعب بدويٌّ يحب الغزو ويعيش النهب، ولايستحق الاستقلال.

كانت الهجمة مفاجئة صدمت فياض حتى الاصفرار واضطراب الأهداب الطويلة ولم يزد على أن يقول مرعوباً: ماذا..؟

واكتشف إياد براءته وسذاجته الكاملة، أفلم يكن يدرك إذن خطر هذه الحكايات ينشرها من حوله. أما فياض فقد ذُعِرَ لهذا الحديث وللحظة خطر له أن إياد ربما كان أحد أولئك الأشقياء الذين كان يسمع عنهم في بيروت، أولئك المختبئين وراء الأشجار يلفُّون رؤوسهم بالكوفيات ويطلقون النار على ***جنودنا الآمنين***، وحين فهم هذا حاول الهرب منه، ولكن إياد تشبَّثَ به: لا.. لن أتركك تبتعد عنا ثانيةً.. لدينا رابطة للطلاب السوريين هنا، لم لا تنضم إليها.

وتمتم: الطلاب السوريون!

ــ آه طبعاً.. الطلاب السوريون.. ألم تسمع بها –ثم أضاف– أنت سوري أليس كذلك؟! لقد قلت لي إنك من حماة؟

وقال شبه مهزوم: بالطبع.

ــ إذن فيجب أن تنضم إلينا – وبسرعة قال معزِّياً: اسمع.. سأجعل الرابطة تقيم حفل غداء سورياً على شرفك.. هه.. مارأيك؟

وبضعف كرَّر: ولكن..

ــ هيه.. دعنا من هذه الاعتذارات.. لن أقبل منك اعتذاراً. ثمَّ – أضاف قبل أن ينصرف– أريد أن نسمع منك شيئاً من هذه الميجانا والعتابا التي أمتعت بها الفرنسيين –عفواً– أضاف يجلجل بضحكته المرجِّعة التي سيذكرها فياض طويلاً –أعني الفرنسيات.. هه!..

واختفى.. كان هذا هو التعبير الصحيح، فهو لم ينصرف. لقد اختفى ببساطة ليغيب يومين يفاجئه في الستوديو بعدها قائلاً: لم تستيقظ بعد..؟

ياسلام.. شباب مدللون.. -ثم بجدية أكثر- الغداء اليوم.. أعطاه العنوان وانصرف.

اعتلى إياد كرسياً وصرخ: سماع، هُسْ. وهدأت الضجة، ضجة لقاء شبان من مدن مختلفة وأقاليم مختلفة وكليات مختلفة وكثيرون منهم لايلتقون إلاَّ في المناسبات التي تدعو إليها الرابطة، كرَّر صرخته ثانية ليقضي على آخر همسة تكمل نكتة، أو تدلي بآخر تفصيلة في فضيحة لايُراد لها الانتشار.. وأخيراً قال:

ـ أيتها السيدات، وضحك ضحكته المجلجلة المرجِّعة الخارجة من عمق القلب، الداعية الآخرين إلى المشاركة في الضحك، ولم يخيبوه، فضحكوا، وأكمل: ياخسارة، كنا نتمنى لو كُنَّ موجودات، ولكن، لابأس، طيب، أيها السادة والسادة، دعونا نحتفل اليوم بانضمام زميل سمعنا عنه الكثير، ورغبنا في معرفته، ولكن تقصيرنا نحن -ونظر إليه غامزاً- وليس تقصيره هو حال دون هذه المعرفة، أيها السادة.. نحتفل اليوم بانضمام الأمير الشرقي -وعلا تهريج المجتمعين- فياض الشيزري، فليتفضل.

الحرج الثاني، والذعر الثاني، والارتباك الثاني، فماذا سيقول لهؤلاء المتحمسين الراغبين في التعرف على الأمير الشرقي كما سماه إياد؟!

دفعة من هنا، وجذبة من هناك، ووجد نفسه على الكرسي.

فيما بعد وبعد سنوات طويلة طويلة، فيما بعد وفي معتزله الكئيب حين سيحاول تقويم حياته، وما فعل وكيف حملته الأيام على موجٍ لم يصنعه هو، إلى مركب لم يختره هو، سيذكر هذه اللحظة طويلاً، سيذكرها، وسيعجب، فما الذي قذف بأسامة إلى ذاكرته في تلك اللحظة؟ ما الذي قذف بهذا الشخص الغارق في النسيان، ذي القلعة المهدمة –

الخرابة-؟ ماالذي جعله وهو الذي قرأ كتابه الذي أهداه إليه روجيه هازئاً، وأنهاه هازئاً، كما قرأ مذكرات غليام هازئاً، وأنهاها هازئاً؟ فما له ولهؤلاء القوم، عاشوا، وفعلوا، وحاربوا، وماتوا؟! مالنا ولهم، ولأحزانهم، وأفراحهم وقد انقضت السنون، وكرت الليالي والأعوام حتى لم تبق من عظامهم إلا المكاحل؟ نحن أبناء اليوم فدعونا نعشِ اليوم، ولكنه حين وجد نفسه يعتلي الكرسي وجد نفسه يقول شيئاً آخر...........

لم تكن المرة الأولى التي يزور فيها بيت المقدس، فلقد زارها قبل هذه الزيارة مرات كثيرة، فهو يعرف أزقتها وحاراتها وخاناتها وخانقاهاتها، مدارسها ومساجدها التي حوّلت إلى كنائس، ولكن مهمته هذه المرة كانت الأحبَّ إلى قلبه، فهو اليوم سيلقى الاسبتار الأعظم، سيد الطائفة الأكثر شراسة، والأكثر تعصباً بين الصليبيين جميعاً، سيلقاه لافتداء الأسرى المسلمين لديه – وكان يمكن لهذه المهمة أن يقوم بها أيٌّ من رجال معين الدين حاكم دمشق، ولكنه حرص على أن يكون الرجل، والمكلَّف، والقائم بهذه المهمة، فما أحبَّ إلى قلبه أن يرى الفرحة على وجوه أولئك المساكين الذين قطعوا الأمل، وظنوا ألا حرية، ولا وطن، ولا بردى، ولا عاصي، ولا أماسي محوطة بالأهل والأطفال بعد اليوم. كان يعرف هذه الفرحة فلقد رآها قبل الآن، ولكنه اليوم كان يسعى وفي قلبه رجاء أن تكون.... بينهم، فهذا الحزن الذي أصاب ثابت. وهذا الغمُّ الذي غلله كان أكبر من محاولات أسامة للتسرية عنه- كان قد قال له:

ـ ولكن لديك ابنتان أخريان وغلام. احتسبها عند الله.

وكان يجيبه بصوت مدخِّن وأسىً يصرُّ مع صرير القلب: كلما أغمضت عينيَّ ورأيتها بين أيديهم اعتصر القلب، وتمنيت الموت. كان

بإمكاني أن أقتلها ولا أتركهم يأخذونها، فلمَ لم أفعل؟

ـ تقتل ابنتك؟

ـ أليس خيراً من أن يسبوها؟

ـ ولكن الأمير وعد باسترجاعها.. حاوِلْ أن تتمالك نفسك؟

ـ ومن يأبه لفقيرة، ابنة طبيب فقير لا يملك إلا علمه؟

ـ حسن، فهل تقبل لو قلت إني آبه؟

وأشرق وجه ثابت للحظة وهتف: فهل تعد؟

ـ أعِدْ..

في تلك اللحظة سكن هَمٌّ ثابت، وأشرق وجهه، فلقد اطمأن إلى أن وعد الأمير أسامة لن يُخذَلَ، وفي تلك اللحظة أحسَّ أسامة بثقل العبء الذي حمله.

كان استقبال الاسبتار للأمير أسامة كأحسن مايستقبل الفارس ندَّهُ الفارس، والأمير، مثيله الأمير، ولكن أسامة لم يفارقه الحذر أبداً، كان يعرف أن مفاوضة ومساومة ومجادلة كبيرة عليه أن يقوم بها قبل أن ينتهي من هذه المهمة.

لم تكن هذه مهمته الأولى في فداء الأسرى، أمَّا للإفرنج فلم يكن أسامة بالنكرة، ولا المغمور، ولا من يمكن تجاهله، أو العبث معه. وكان أسامة إذا ماجاء للفداء اعتاد أن يسأل في برود: كم لديكم من الأسرى؟ وكانوا يسارعون بجلبهم، رجالاً ونساءً، وأطفالاً، زمِنين ومعافين ومعاقين، ولم يكن يفاوض على الواحد منهم، بل على الجميع. وعلى الإفرنج أن يقبلوا، أو يرفضوا، وكانوا دائماً يقبلون فأسامة لايُغْضَبُ.

أما الآن فكيف يفعل؟ لابد له من رؤيتها، ولابد له من السؤال عنها، فإن فعل عرفوا ضعفه، وتمسكوا، وغالوا بالثمن. وأخرجه من صمته الحائر صوت الاسبتار: نمضي للغداء، ثم نرى الأسرى.

ولما رأى وجومه تابع: لاتخف.. لاتخف.. سيكونون كلهم عندك.. ولما رأى أن وجومه لم يتزحزح تابع: آه! فهمت.. لاتخف.. طباخاتي مصريات وأنا لاآكل طعام الإفرنج كما تعلم، وحتى تكون أكثر سعادة، فمطبخي لايدخله لحم خنزير أبداً.

عندئذ أشرق وجه أسامة، ولكنه تذكَّر، فهذا وقت صلاة العصر، وأسرع الاسبتار على عادته باصطحابه إلى المسجد الأقصى الذي حولوه إلى كنيسة كبرى، ولكنهم إكراماً لأسامة منذ زيارته الأولى للقدس كانوا قد أفردوا له جزءاً من الكنيسة، وجعلوه مسجداً يصلي فيه.

مضوا إلى المسجد –الكنيسة– فتوضأ أسامة وقد تحلَّقَ الإفرنج من حوله وصحبه وتابعيه وخدمه يتأملون صلاتهم عن بعد حتى لايحرجوهم، ولكنه ما إن كبَّر، واتجه إلى القبلة ليصلي، واصطفَّ أربعة من تابعيه من خلفه حتى أحس بحركة عنيفة، ثم انتبه على يدٍ قاسية تمسكه من ذراعه، وتديره إلى الشرق بعنفٍ. كان أسامة قد وضع سيفه وكزاغنده وسلاحه مع تابعه، ولكنه حين مدَّ يده إلى جنبه يحاول إشهار سيفه تذكَّر أن سيفه كان مع تابعه، فالتفت إلى الوجه المرعِد الغاضب يبربر ولعابه يتطاير من فمه في غضب: كذا صلِّ، –مشيراً إلى الشرق– ليس هكذا– مشيراً إلى الجنوب–.

نظر أسامة من حوله حائراً في هذه المصيبة حين أسرع الاسبتار الأعظم وأعوانه، فأخذوا الفرنجي من يده بقوة، وأخرجوه من المسجد الكنيسة، واعتذروا لأسامة الذي تجاهل الأمر، وكبَّر، ثم بدأ صلاته ثانية،

ولكنه ما كاد ينهي قراءة الفاتحة حتى أحسَّ بالذراع القوية تديره ثانية إلى الشرق وهي تدمدم في غضب: كذا صلِّ.. ألا تفهم؟.

وجرى الاسبتار وأعوانه ثانية، فأخذوا الفرنجي ثانية من ذراعه وسمع أسامة بربرة ورطانة لم يفهمها، ولكن غضب اللهجة كان واضحاً، ثم أخذوا الفرنجي بعيداً، وجمع أسامة أشياءه مقرراً عدم الصلاة، ولكن الاسبتار التفت إليه معتذراً: أرجوك، لاتؤاخذه، رجل جلف، فلاح، وصل من أوروبة حديثاً.........................

انطلقت القهقهة عالية، قهقهة اختلط فيها الفرح بالشماتة، بالإحساس بالعزة، وأراد فياض أن يكمل: لم يتثقف بثقافة الشرق، ولم يتهذَّبْ بتهذيبه بعد.. ولكنهم لم يدعوه يكمل، فلقد فهموها دون أن يقولها.

انطلقت القهقهات وصيحات الإعجاب، ثم جاءت الربتات وعناقات الإعجاب، ونجح فياض في الامتحان للمرة الثانية، وكان عليه بعد سنوات حين يراجع أوراقه لتقديم كشف الحساب أن يكتب: لابُدّ للعب بالنار أن يحرق الأصابع مهما كانت حذرة.. ودخل فياض التجربة وبدأ الاحتراق بالنار، تلك النار التي لن تنطفىء حتى بعد أن يرمي به الدهر كهلاً مهملاً، لا أهل ولا ولد، ولا تراث، ولا مستقبل في خانقاه حوَّلها الزمن الشرقي إلى مدرسة للستاتي........، ومشاريع الشيوخ.

وعلى الغداء فخرِ إياد وتيهه أخذ يراقب فياض بجانب عينه، ولدهشته لاحظ أنه لم يقرب الكبة المقلية ولا المشوية، ولا الممدودة بالصينية، لم يقرب الكوسا المحشوة ولا الباذنجان، بل اختار قطعتي لحم مشويتين، ملأ نصف صحنٍ بالسَّلَطة، وأخذ يمضغ بهدوء شارداً، واكتملت دهشة إياد حين عرض عليه البعض من أقراص الكبة المقلية والمشوية، فاعتذر.

وتمتم إياد، وكأنما لنفسه: فياض.. حقاً أنت سوري.! أنت لاتعرف طعامنا ولاتحبه، وصمت فياض، وكيف كان له أن يقول: إنه لم يعرف هذا الطعام من قبل، فلقد ربي على الطعام.. الفرنسي فقط.

بعد الغداء المرح الذي مدَّ جسوراً، وأنشأ قنوات بين فياض، وبين أولئك الذين كان يتحاشاهم دوماً خوفَ تدخلهم في حياته، والسؤال عن الأهل والأقارب والأحزان. التصق به إياد، ولم يعد يفارقه، فلقد وجد فيه الصاحب والصديق والمريد، ولكن ماأفزعهما معاً كان جهل فياض الكامل بكل مايجري في سورية! هذا الشاب الذي يعرف الكثير عن الصليبيين، وأشواقهم، وأحزانهم، وانتصاراتهم، وانهزاماتهم، ويعرف الكثير عن أسامة ونور الدين، ومعين الدين، وعماد الدين، وصلاح الدين، لم يسمع بحزب الاستقلال، ولا بالوطنيين، لم يسمع بسلطان الأطرش، ولا بحَسَنِ الخراط، لم يسمع بهنانو ولا بصالح العلي، كانت ذاكرته إذا مانفضتَها نفضاً لم تجد فيها إلا مدرسة داخلية كئيبة في بيروت، ودروساً وأساتذة عابسين، وصلوات في كنيسة المدرسة وأدعيات و.. قلعة لم يزرها إلا مُكْرَهاً مع روجيه، ولا يريد الحديث عنها.. قال إياد: أريد أن تحدثني عن حماة.

ــ ولكني غادرتها طفلاً.

ــ طفلاً؟ كم كان عمرك؟

ــ عشر سنوات.

ــ ولم تزرها من بعد؟

ــ زيارات خاطفة.

ــ وأهلك مقيمون فيها؟

وأطبق الحصار، وحاول فياض التسلل، إيجاد المخرج، الهرب من مواجهة حقيقته مع روجيه وماتيلد، ولكن إياد كان ملحاحاً، فكان الغضب وكان الشجار. وهرب فياض ملتفاً بعباءة روجيه، كان قد نجا من مأزقين قبل هذه المرة، نجا من الأول بالشيخ البدوي وحورياته السبايا، ومن الثاني بأسامة وفروسيته، ولكن عليه الآن أن يواجه الحقيقة، هرب من إياد، ولكنه لم يهرب من السؤال الذي استيقظ وأخذ مجراه المِلحاح الخاص، فياض، من أنت؟ فياض. من أنت؟. وسيكتب فيما بعد على دفتر من ورق الجرائد الملصق بالسراس: حاولت الإجابة لأكتشف زيف كل شيء، فمن أنا فعلاً؟ أنا الولد الشيزري الراعي المختفي في الخرابة يرعى خرافه وجداءه البائسة أم أنا فإياد ابن روجيه لوبلان المُتَبنّى والملَّح عليه دائماً في مناداة هذا الغريب الطيب الأحمر الوجه ببابا، فلا يطيق اللسان قولها، أم أنا ابن الأمير البدوي الغازي يهاجم القرى، وينهب القطعان، ويأسر الصبايا حظايا للمنتصر المستمتع؟!

فياض.. من أنت؟ الشيزري، أم الحموي؟ البيروتي، أم الدكنجي كما ستحاول جاهدة حسيبة أن تسميه، أم أبراهام ليفي الذي سيلاحقني طويلاً.. طويلاً.. ط.. و.. يلاً..

أيام ثلاثة بليال طويلة ثلاث انقضت وفياض يسأل، ويتهرب من الجواب، فهو لايملك الجواب، أيام ثلاثة تحولت فيها الجدران والأسقف وسرير إيفون: أيها البارون القادم من الشرق.. والطاولة والكراسي حفظت جميعاً سؤالاً واحداً لاتنفك عن ترداده. فياض من أنت.. من أنت.. من أنت؟!

وكان يمكن لهذا السؤال أن ينتهي بفياض إلى الجنون، أو إلى اختراع كذبة لم يعد من الممكن اختراعها لإراحة النفس، أو الهرب عائداً إلى.. الوطن.. ولكن. هل يملك مثله الوطن؟ كان يمكن له أن يفعل أشياء

كثيرة لو لم يطرق إياد الباب عليه ثانية، ويقول: آسف لإلحاحي، ولكني أتمنى لو نظل صديقين.. أهذا ممكن؟

ولم يستطع طرده، فهذا الوجه الوديع الشفيق مادٌّ يد الصداقة، الحامل رائحة قديمة حاول فياض كثيراً أن ينساها لايمكن طرده، وتابع: لن أزعجك بعد الآن، ولن ألحَّ على أسئلة لاتريد الإجابة عنها، ولكنهم – وشدَّد على هُم – في الرابطة يريدونك. لقد أعجبوا بحديثك كثيراً. نحن نحاول إنشاء صحيفة تنطق باسمنا هاهنا. أتريد الانضمام إلينا؟

وهرب فياض من المشاركة في الصحيفة، ولكنه لم يستطع الهرب من فضول إياد الذي أخذ يعبث بمكتبة فياض الصغيرة، وحاول فياض إبعاده عنها بلطف، ولكنه كان قد انتقى الكتب التي لايريد فياض له أصلاً أن يراها، حملها إلى الطاولة وجلس على سرير إيفون: ***أيها البارون القادم من الشرق،*** وأخذ يُقلِّب فيها:

ــ هذه.. إذن فأنت مهتم فعلاً بأسامة.

ولوى شفتيه في لا مبالاة: ربما!

ــ يجب أن تحدثني عنه أكثر.

ــ هاه.. ربما.

وقلَّب مخطوط مذكرات غليام: ماهذا؟

ولكن فياض انتزعه منه بخشونة ملطفة: مذكرات!؟

ــ مذكرات من؟

ــ ربما حدثتك عنها فيما بعد –وفجأة ضاقت الغرفة– ألن نذهب إلى الرابطة؟

ـ الآن؟ قالها مندهشاً.

ـ الآن، ولِمَ لا؟

وتخلّى إياد عن فضوله مصطحباً فياض إلى الرابطة، ولكنه في الطريق لاحظ تردده وتحايله حين دعاه إلى فنجان قهوة في مقهى على الرصيف، ولما رفض دعاه إلى كأس نبيذ في علبة قريبة، ولما رفض هز كتفيه مستسلماً، وعلى وجهه تعبير هزيمة حقيقية، وأخيراً قال إياد: اسمع أنت لاتريد الذهاب إلى الرابطة.. هه..

وقال بضعف: ليس اليوم.

ـ حسنٌ.. نتنزه قليلاً.. مارأيك؟

وقال بإشراق: عظيم.

وفجأة التفت إياد يواجهه: ألن تسافر هذا العام إلى سورية أيضاً؟

ـ لا..لا أعتقد.

ـ ولكن يجب أن تسافر.. يجب أن تعرف الوطن معرفة حقيقية. أنت غادرت حماة طفلاً في العاشرة وحبست في المدارس الداخلية، وحرمت من معرفة بلدك – وأضاف في حرارة – فياض. نحن في حاجة إليك، يجب أن تسافر. أتحبُّ أن نسافر معاً؟

ووجم فياض.. نسافر معاً؟ وروجيه وماتيلد؟ كيف أقدمهما إلى الناس؟ أم.. كيف سيقدمانني إلى الناس؟

ـ سأكون دليلك إلى دمشق، مارأيك؟

وروجيه وماتيلد، وشيزر، والراعي، والخراف التسعة والجداء الستة؟

ـ وستنزل ضيفاً عليّ لو شئت.

وتراجع الفرح ليحتل الوجوم كلَّ فراغ: ضيفاً على إياد؟ وروجيه وماتيلد أمن الممكن ألا أنزل في بيتهما، ورسائلهما المترعة بالشوق؟ توقف يتأمل واجهة محل، ولا يريد إلا تأمل وجهه المذعور، ووجه إياد المراقب، وتابع: والأمر لك، فإن شئت نزلت لدي، وبيتنا جميل لن ترى له مثيلاً في دمشق كلها.

أشفع جملته الأخيرة بضحكته الخاصة التي يدعوه بها إلى مشاركته في الضحك، ولكن فياض كان مهموماً، فلم يشاركه الضحك. تحوّل إليه يتأمله مواجهة، كان إياد شخصاً غريباً من الصعب أن تألفه قبل أن تعاشره طويلاً، فقد كان مغرماً بالآراء الغريبة يصدمك بها، مغرماً بالاستهتار بالعجرفة الإنسانية، وكان ينظر إلى الناس من حوله منتفخين وراء ملابسهم الأنيقة وقبعاتهم المكوية وبستونهم الملمع، ثم يقول:

ـ اخلعْ عنه هذا المزق فقط، وسترى أي كائن قبيح هو؟ – ويطلق ضحكته المرجّعة وهو يهزُّ رأسه أعلى وأسفل ملحّاً عليك متابعته موازناً بين الضحكة والهزة الملحة –، ثم يطلق قنبلته: الإنسان معمل براز متحرك، ماذا تظن؟

وفجأة يلتفت إليه ليسأله: ألم تَعِشْ في دمشق أبداً.. هه؟

وفوجىء فياض بتحول مجرى الحديث، فأجاب بسرعة:

ـ أسابيع قليلة، قبل قدومي إلى باريس بقليل.

ـ فهل سمعت عن الثورة هناك؟

الثورة؟ والتفت فياض إليه مباشرة. ماحكاية هذا الشاب. ومالذي يريده فعلاً؟ واستيقظت أشواك القنفذ القديمة تحمي لحمه الطري، فلم يُجِبْ.

ــ ثورة الخامسة والعشرين والسادسة والعشرين ألم تسمع بها؟

واضطر إلى أن يجيب محرجاً: لا.. فقد كنت في المدرسة الداخلية في بيروت في تلك السنوات -ثم تذكر، فشرس- لكن انتظر لقد سمعت عن بعض التعديات يقوم بها أشقياء وقطاع طرق- وازداد حماسة- تعال.. تعال أنت لن تسمي أولئك الأشقياء وقطاع الطرق ثواراً.. هه؟

ــ فماذا تسميهم إذن؟ قال إياد بهدوء متحدٍّ.

وأشاح فياض بكفه: لا.. ياصديقي.. لا. الثورة شيء آخر. ألم تسمع بالثورة الفرنسية، ألم تسمع بالثورة الأمريكية.. ألم تسمع؟!

ــ هيه.. هيه.. اهدأ.. سألتك ماذا تسميهم إذن؟

ــ أشقياء وقُطَّاع طرق.

وردد غير مصدق: أشقياء وقطاع طرق!

ــ طبعاً.. أناس يقبضون على المارة يشلِّحونهم ملابسهم وأموالهم، يقتلون الجند الآمنين -وأغراه صمت إياد فتابع متحمساً- أنت تهين كلمة الثورة والثوار.. هل تستطيع مقارنة هؤلاء بدانتون وروبسبير وميرابو.. أوه..لا.. إياد وطنيتك المضحكة هذه ستعمي عينيك.

وسيكتب فياض على دفتره جريدي الورق: وكان هذا الحوار الأول، وكان هذا السطر الأول من سِفرٍ طويل طويل.

أصغى إياد، وأصغى يهز رأسه وهو يصعد الدرج إلى غرفته يتبعه فياض صامتاً، فتح باب الغرفة، قاده إلى الديوان تحت النافذة، جرَّ لنفسه كرسياً ليجلس قريباً منه، ثم لم يستطع الاحتمال، فقال:

ــ آه فياض ماكنت أتمنى أن أسمع هذا الكلام من عربي ومن حماة!

أتسمي حسن الخراط والشهبندر وسلطان الأطرش وصالح العلي أشقياء وقطاع طرق؟!

وحاول فياض أن يعطي لهذه الأسماء معاني فلم يستطع، فعمد إلى اللغة يختفي من وراءها: اسمع ياإياد.. أنت وأنا مثقفان، لن نترك لهؤلاء الطغمة أن تستجرنا إلى غير مانريد.. يجب أولاً أن نتفق على معنى الثورة، أليس كذلك؟

ـ أووه.! – وبتصنع قال– وماذا يسمي المثقفون حسب تعريفاتهم دخول الفرنسيين إلى سورية إذن؟

ـ إنها اتفاقات دولية، إنه الانتداب لتحضير شعب متخلف.

وردد إياد كلمات فياض واحدةً واحدةً كأنما يتذوقها: الانتداب.. لتحضير.. شعب.. متخلف.. –ثم وبحدة– وهل التحضير يامثقفي العزيز يكون بضرب بلد آمن أعزل بالمدافع والطيارات وإحراق الأحياء على أهلها؟

وقفزت شيزر إلى الذاكرة.. اللعنة.. لمَ يحاول هذا الرجل بعث الأموات؟ وحاول فياض الهرب من الصورة، ولكن وجه الأم الممزق والأب المحترق هبَّا نديين شابين كأنهما غابا منذ ثوان.. وألح إياد:

ـ هه.. ماذا تسمي هذا إذن؟ أتحب أن أقرأ عليك بعض ماكتبه الأميُّ قاطع الطريق حسن الخراط إلى الجنرال الاشتراكي المثقف ابن باريس المتحضرة وحفيد روبسبير وروسو وميرابو.

كان يفتش في ثنايا مكتبته الصغيرة وهو يلقي خطبته القصيرة. وأخيراً استخرج ورقة قديمة: اسمع.. هذه نسخة من رسالة المرحوم الخراط إلى الجنرال ساراي أتحبُّ أن تقرأها، أم أقرأها؟ وقال فياض

مستسلماً أمام ثورة إياد: بل أقرأها.

وجه الورقة الصفراء إلى الشمس وتمتم يبتلع الكلمات:

ـ هذه مقدمة لاحاجة بك إليها، لا.. اسمع هذه.. أما سياسياً، فإني كلَّلت شرف العرب بما هو أهله -والتفت إليه- أتسمع مايقول قاطع الطريق؟ -ولما لم يَرُدَّ فياض أكمل- واستحسن العالم كله لحسن إدارة رجالي ومحافظتهم على إخواننا المسيحيين والأجانب خصوصاً، وعلى الضعفاء عموماً، وأما أنت أيها المندوب السامي، فقد نحرت شرف فرنسة، وصوبت قنابلك إلى قلبها بدلاً من قلبنا، أنت ممثل فرنسة، وأنا حارس دمشق - والتفت إليه ثانية - أترى الحكمة الشعبية وكيف تتكلم؟ هل يمكنك أن تفهم هذا الحوار الغريب بين حارس ليل حارات دمشق، وبين الجنرال الاشتراكي ساراي؟ وهزَّ فياض السئم رأسه.. ياإلهي!! أية دوامة أوقعت نفسي فيها.. ما لي ولكل هذه الثرثرات، وتابع إياد -أنا أسرت جندك أسراً شريفاً، وأنت ضربت الشيوخ والنساء والأطفال ضرباً دنيئاً، أنا حافظت على الآثار القديمة، وأنت هدمتها وأحرقتها ياجننار- والتفت إليه مستغرباً: جننار، ما معنى هذا؟ وأطلق إياد ضحكة خنفاء: إنه أمي لايتقن لغة المثقفين فرنسياً، ولايعرف كيف يقول جنرال، ولذا قالها بعاميته الشاغورية جننار.. اسمع أميته وعاميته الآسرة هذه ألا تزري بعنهجية جنرالك المثقف هذا.

وهز فياض رأسه لايريد تعليقاً فتابع إياد: ياممثل فرنسة، كان بودِّك تجعلها حرباً دينية تفرق بيننا وبين إخواننا المسيحيين، ولكن الله أبى، ونحن إرادتنا من إرادة الله، فأبينا، لقد ضيعت رشدك، وخربت الأحياء الإسلامية على رؤوس أهليها آملاً أن أقابلك بالمثل، وقد فاتك أنَّا عرب، ونحافظ على الجار..

رفع إياد عينين متأثرتين ثم تلا من الذاكرة: أنت جننار وقائد فرق وجيوش، وأنا حارس بسيط.. أنا جمعت عقلي ــ وأنت ضيعت رشدك..

كان التأثر في عينيه يزداد مع كل كلمة جديدة وأخيراً وضع الورقة من يده في إجلال: إيه الله يرحمك ياحسن الخراط.

قال جملته الأخيرة بلهجة جديدة على إياد تماماً، كان فيها التسليم الشرقي، واحترام الموتى، والحزن على صديق غاب، حنى رأسه حزيناً وطال الصمت حتى قطعه فياض في رفق: أكنت تعرفه؟

ــ أنا؟ لا.. كنت صغيراً – ثم أطلق ضحكة سخيفة– هل تظنني في عمر نوح؟

ثم أدرك سخافة ماقاله فتابع – عرفت ماكانت تقوله المدينة عنه – ثم بحماسة ــ هل تعرف أنهم سموه المقدم إبراهيم الحوراني، وأنهم سموه جمال الدين شيحة، وبعضهم قال إنه الملك الظاهر يبعث ثانية.

ولم يفهم فياض شيئاً من هذه الأسماء وكان عليه أن يسافر إلى – الوطن– وأن يمضي إلى مقهى النوفرة، ويسمع الحكواتي، ثم يقرأ سيرة الملك الظاهر حتى يعرف معاني إبراهيم الحوراني، وجمال الدين شيحة، وحين سأله عن هؤلاء الأشخاص اللذين ذكرهم فوجىء بمفاجأة إياد بجهل فياض بهم: ياإلهي ألم تسمع بهم.. وكاد يسأله مرة أخرى.. فياض أأنت سوري حقاً؟ ولكنه تحالَمَ وأخذ صفة المعلم: فياض.. ماذا تعرف عن وطنك إذن؟ عن القادة؟ الأبطال؟ المحررين؟.

ــ أعرف هارون الرشيد، خالد بن الوليد، عمر، عماد الدين، صلاح الدين، نور الدين، أسامة..

ــ أسامة؟ آه ذلك الذي حدثتنا عنه ورأيت كتابه عندك – ثم غيَّر

لهجته- ولكن هؤلاء هم الأبطال الرسميون.. وماذا عن الأبطال الشعبيين، هؤلاء الذين خلقهم الوجدان الشعبي، فلا يمكنك تمييز حقيقتهم من اختلاقهم.

وقفز إلى ذاكرة فياض روجيه وهو يقول: منقذ ليس شيخ ذكر وحضرة، ليس رجل نذور وشموع وأسرجة، لا.. منقذ كان رجلاً فارساً مقاتلاً، ابن حياة حقيقياً، أفيحولونه إلى شمعة وسراج زيت، وذكر؟ وأراد أن يقول: لقد حولوهم إلى أولياء ومزارات، ولكنه كتمها، فتابع إياد.

ـ فياض أنا أعجب لك.. أراك تعرف بعض الشيء عن تاريخ الفتوحات الإسلامية، عن الخلفاء النابهين، وأراك تعرف الكثير، الكثير عن الحروب الصليبية، ولكن هل حاولت أن تقرأ الملاحم الشعبية، تلك التي حاول فيها الرجل الأمي العادي أن يتحدث عن نفسه، عن كفاحه الشخصي، عن محاولته عدم طمس ذكره كما حاول المؤرخون الرسميون.. تنهد عميقاً، ثم بحرارة قال: فياض التاريخ لايسير إلى الأمام دائماً كما يظن الكثيرون، التاريخ حلزوني أحياناً، اسمع منذ بضعة قرون هاجمنا الفرنسيون تحت اسم الفرنج، فاحتلوا أجزاء كبيرة من بلادنا ثم مضوا -وأضاف ساخراً- ولم يتركوا لنا إلا المرض الإفرنجي - السفلس.

وضحك فياض لتعليقه الذي عاد به إلى طبيعته، ثم سأل:

ـ تعني الحروب الصليبية.

ـ طبعاً.. تلك التي تعلقت بها كثيراً ولست أدري لماذا؟

لماذا؟ وهل يستطيع فياض أن يخبره لماذا؟ هل يستطيع أن يحدثه عن روجيه وماتيلد، عن سره الخفي، وأخيراً قرر المغامرة فقال:

ــ إنه صديق فرنسي قديم حدثني عنها وشجعني على القراءة عنهما.

ــ ماسمه؟

ــ لا.. لا تعرفه.. ثم أطلقها مرتعشاً – روجيه.

ــ آه.. لا.. لا أعرفه.. ولكن – ماالذي حدثك عنه؟

وأخيراً عثر فياض على فرصة يحدث فيها إنساناً عن روجيه وماتيلد كغريبين لاتصله معهما إلا الصداقة، كان في قلبه دملٌ يجب فقؤه، كان يخشى الحديث عنهما فيسمح لسيل القفشات، والنكات، والحكايات بالانطلاق، فما المتبنِّى إلا ابن حرام، وما المتبنِّى إلا شحاذ يقف على أبواب متبنيه، كان يعرف موقفه ويخجل منه، فالشرق لم يعرف التبنِّي ولم يقرَّه أبداً، فكان يتنكر له بتجاهله، بتناسيه، بإلغائه من ذاكرته، ولكنه هذه المرة وجد أن من الممكن الحديث عنهما صديقين، لا أبوين، تحدث عن ماتيلد وظرفها، رقتها، طيشها اللذيذ الذي ماتخلَّت عنه رغم تقدم العمر، عن روجيه الحالم بجده البعيد غليام، روجيه الحالم بإقامة إقطاع في الشرق، روجيه المتلهف إلى شيزر، روجيه.. وتوقف فلقد تذكر: بلان بلان بلا.. هل سددنا الدين عارفاً بأن هذه طعنة يجب ألا تطعن، وحكاية يجب ألا تُروَى، وسرَّاً عائلياً يجب ألا يُفشَى؟

وسأل إياد بغتة: شيزر وما شيزر..؟

فوجيء فياض بعدم معرفة إياد بشيزر، وفرح فرحاً صغيراً، فها هو يجهل شيئاً يعرفه فياض، ولكنه انكمش ثانية، فما شيزر فعلاً؟ قرية صغيرة ضائعة مستندة إلى قلعة مهدَّمةٍ يحكون عن فارس قديم عاش فيها

ومضى، فهل يجب أن يعرفها الجميع وأخيراً قال: قرية صغيرة قريبة من حماة.

ــ ولكن لمَ اهتم بها؟

ــ قلعتها ــ القلعة التي عاصرت الحروب الصليبية.

ــ أووف، هؤلاء الفرنسيون، هؤلاء الفرنسيون، أفلا ينسون الحروب الصليبية أبداً؟

ــ إنه مجرد حلم.. هكذا تقول ماتيلد، فالحروب الصليبية انتهت منذ زمن طويل.

ــ لا ياعزيزي.. لا.. نحن نسيناها، أما هم، فلم ينسوا.

وطال تردد فياض، وألح إياد: يجب أن نسافر.. يجب.. يجب..

وجاء الحسم هذه المرة من مكان آخر، جاء من روجيه يخبر فياض بأنهما قادمان إلى باريس هذا الصيف فرأى ألاَّ خيار.. أرسل أنه قادم إلى دمشق، وأن عليهما أن ينتظراه......، وانتظراه..

(٨)

سبائك الفضة تمتزج بالنحاسي، فالوردي، فالأرجواني، فسهول الحمرة المتكسرة المتقلقلة المرتعشة، أصداء نوارس وقطارس بعيدة، روائح الرطوبة المَلِحَة المسيطرة على المكان، أسراب السمك الحمائمي تضرب بذيولها الماء ثم تنطلق ممزّقةً الأفق الأحمر كأسراب حمام تستقبل النهار الجديد، تطير، وتطير خافقة مرعشة أجنحتها يراها، ويكاد يسمع رفيف أجنحتها لو لم تغطِّ أصوات المحركات عليها.

تنفس بملء صدره هواء مالحاً رطباً، مطَّ ذراعيه إلى أقصاهما كمن يريد ابتلاع البحر برئتيه، ثم استرخى، تهدّل، واستند إلى المقعد المنزوي في ركن صداقة البحر الذي اختاره بالأمس يبتعد فيه عن إياد وعن الجميع، إلى خلوة مراجعة النفس.

كان قد وافق على اصطحاب إياد إلى سورية لقضاء الصيف هناك، قال:

ــ ستنزل عندي في دمشق، لدي بيت كبير ليس فيه غيري.

وتمتم محرجاً: ولكن لي أهلاً هناك!

ــ في دمشق؟

ـ هه. أصدقاء، أقرب إلى الأهل، بل هم..

ـ كما يريحك. ولكن بيتي على استعداد دائم -سامع- دائم لاستقبالك..

وحين قررا ركوب الباخرة اكتشفا أن مجموعة كبيرة من الرابطة ستكون معهما على الباخرة، وقرر فياض الهرب، ولكنه لم يستطع الهرب إلا إلى ركوب الدرجة الثالثة وبهذه الطريقة لن يضطر إلى صحبتهم، ولكن إياد فاجأه بركوب الدرجة الثالثة معه. استقبلا مهجع النوم الكئيب الكبير بأسرّته الأرجوحية المعلَّقة بشجاعة، واستقبلا النوم في مكان واحد مع أشخاص لا يعرفونهم بشجاعة، ولكن مالم يستطيعا استقباله كان الأكل معهم في هذا المكان الموحش، ولكن إياد وجد الحلول لكل المشاكل، استطاع برشوة صغيرة جعلهما يتجولان على السطح ويتناولان طعامهما على السطح، ولكن ليس لركاب الدرجة الثالثة مطعم، ومعظم المسافرين بهذه الدرجة كانوا قد اصطحبوا طعامهم معهم، نواشف ومعلبات وكان عليهما أن يتجها إلى المطبخ لإيجاد حلٍّ، ولكن الحل كان غالياً فقد اضطرا إلى دفع فرنكين مقابل كل طبق طعام رزّاً كان أم معكرونة، أم خضاراً ولحماً، ودفعا الفرنكين ثمن كل طبق بثقة، حملا طعامهما، وانزويا في ركنهما عند مؤخرة السفينة حيث سرَّب لهما بحار كرسيين وطاولة أخفاهما تحت الدرج، ولكنهما حين أنهيا طعامهما القليل نظر إياد إلى الصحون الأربعة وصفَّر: ثمانية فرنكات لهذا الطعام الدنيء. اسمع. وهتف بخطابية: سأنتقم من الاستغلال الغربي للمال العربي.

وأطلق الطبق المعدني الرقيق ليطير ممزقاً صفحة الأفق، يطير ويطير كحمامة معدنية ثقيلة، ثم ينحني بهدوء مقبلاً الجسد الأخضر

العملاق قبل أن يغيب فيه، أعجبت فياض الحركة والطيران والتحدي، فأطلق طبقه، ولكن الضربة لم تكن جيدة التسديد، فلم يفتح الطبق شراعيه للريح، وآثر أن يغطس في الأخضر بسرعة، أطلق إياد طبقه الثاني لينطلق منساباً شراعاً رقيقاً يتحدى قوانين الجذب، يطير ويطير مختلساً قطعة شمس في أحضانه يتدفأ بها قبل أن يهرب بها إلى البحر، وأطلق فياض سهمه الثاني، فطار هذه المرة، وأطلق ضحكة مرحة فيها كل الشباب المختزن والمركون في جانب من القلب ينتظر السماح له بالانطلاق، ولكن آباء مقتولين، وأجداداً محزونين، وولاة مخنوقين كانوا يطلبون إليه تأجيل الفرح، فأخزاهم هذه المرة وفرح.

وصارت لعبتهما اليومية على الإفطار والغداء والعشاء وكم تمنيا لو يشتريا مزيداً من هذه الأطباق لا لشيء، إلا لإطلاقها من إسارها وجعلها تنطلق بعيداً، بعيداً في السماء، وعلى صفحة الأفق.

ولكن، هذه الضحكات كلها، كان عليهما أن يسحباها ساخرين من غفلتهما حين اكتشفا في نهاية الرحلة وقبل أن يصلا بيروت أن الفرنكين لكل طبق لم يكونا ثمن الطعام، بل كان نصف فرنك منها للطعام والباقي..، رهن الطبق حتى الإعادة.

الرصاصي القاتم يزرقُّ، يزرقُّ وسبائك الأبيض تنتشر حاملة وسائد الزبد العكر على أكفها تتهادى بها، تتهادى حتى تلطم جوانب السفينة، حيتان الدلفين المرحة تتقافز مطاردة أسراب حمائم السمك، طباخ السفينة يلقي من مؤخرتها سلال الفضلات الضخمة فتتدافع الأسماك تطاردها، ويطارد بعضها بعضاً يتابعها بلهفة حتى تغيب آخر بندورة عتيقة، وحتى آخر سمكة تلاحقها.

الأزرق العظيم يحيط ويحنو ويحاصر ويَرِجُّ ويربت. ينظر إلى

ساعته، مايزال الوقت مبكراً على استيقاظ المسافرين، فلقد قضوا ليلة ورق عجيبة وصلته أصواتها وشجاراتها، وحاصرتهما في أرجوحتيهما، حتى انسحب إياد إليهم يشارك ويلهو، ولم يستطع فياض فعل ذلك.

الزبد الأبيض العكر عند نهاية الأفق يتكاثف ويتكاثف. أحدَّ النظر، هاه.. صخرة، صخرة تناطح الزَبَد، الصخرة تكبر، تضخم، هاه جزيرة، الجزيرة تعلو فوق الماء تعلو وتعلو بنخاشيبها المثقَّبة المحفَّرة، مناطحة الزمن، الصخرة تتجلى، هاه أبراج، مقرنصات، طلاقات، ياإلهي، الصخرة تتحول قلعة والقلعة.. تتجلى شيزر.

(٩)

الشمس الحارقة تلتهب متوهجة حارقة على الجدران الكلسية البيض، يضيِّق عينيه، ولكن لطمة سريعة لقوّاس يعدو تجعله يدور في مكانه، يتمالك نفسه بصعوبة ودون رغبة في شجار، الشمس، الشمس، ياإلهي، كم تضايقه هذه الشمس، العويل، الصرخات، التحذيرات، نفخات البوق السريعة! أنين الجسر يرتفع، يرتفع، هاهو يعزل القلعة عن العالم جالباً الأمان والحماية أخيراً، ولكن، من هم، من هم هؤلاء القادمون، ضَيَّقَ عينيه ثانية يحاول أن يرى، فلا يرى إلا لمعاناً وبريقاً بين أستار الغبار الحارَّة. من هم؟ من هم؟

ترك مرقبه ودار في المكان يبحث عمن يجيب عن سؤاله، وأخيراً قال أحدهم بسرعة، مسعود الكردي الديدبان المتقدم عاد مسرعاً وهو يصرخ: الغارة، الغارة. وسرعان ماتم كل شيء كالعادة، الفلاحون تركوا مزارعهم مسرعين إلى البلدة، الرعاة، الصبيان، الصيادون، ولكن، من هم؟ سأل عن مسعود الكردي، ولكن أحداً لم يكن يعرف مكانه، فالكل مشغول، صعد الدرج البازلتي الأسود غير مكترث بالصاعدين يحملون الحجارة للمجانيق، صعد حتى باحة البرج المكشوفة الأول، رأى الجند يهيئون سهامهم وأقواسهم، ورأى مقدَّمهم يهيىء قِدْرَ الرصاص المذاب، وهتف في غضب: ماالذي يجري هنا؟ ولكن أحداً لم يجب. أف لهذا

الحظ! وتساءل لهنيهةٍ: أيّ حظ هذا الذي جعله يحسُّ بالحمى بعد صلاة الصبح فجعله ينام ولاعادة له بالنوم، فيأتي النذير ولا يسمعه، ويختفي مسعود الكردي ولا يراه ولا يعرف هوية القادمين؟

أكمل مسيرته صاعداً البرجِ العتم المحوط بشقوق الطلاقات وكوى المزاريب، وما تزال الضجة تغطّي على سكون المكان، وفجأة تذكر: أين عمي سلطان؟ لِمَ لم أره بين المجتمعين على شرفات السور؟ وصل قمة البرج، اقترب من كوَّة المزراب، غيمة الغبار تقترب وبريق الحديد يتأجج، وهمس ثانية في ضيق: من هم؟ لو يهمد هذا الغبار. لو يهمد، إذن لعرف راياتهم وشعاراتهم ورنكاتهم، ولحدَّد خطورتهم..

حركة ثقيلة فوق. من هناك؟ ولكن أحداً لم يرد. ألقى البيضة على رأسه وتعلّق بكوى البرج. أخذ يتسلقها بصعوبة، وأخيراً وصل إلى الكوة العليا، استطال بنصف جسده. من؟ مسعود! ماذا تفعل هنا؟

ـ سيدي. أنت.! ماالذي جاء بك؟ ثم أين بيضتك؟

ـ تركتها تحت.

ـ عُدْ أيها الأمير.

ـ أعطني ذراعك.

ـ ولكن..

مدَّ ذراعه ونظرة آمرة في عينيه لم تترك للكردي فرصة، فجذبه إليه.

ـ انحنِ ياسيدي. انحن. إن لهم كميناً متقدماً بين أشجار الصفصاف، ولعله يرمينا بسهم.

ارتمى إلى جانب مسعود، تأمل السماء البيضاء بشمسها الحارقة. أي يوم لحصار؟ انقلب على جنبه، تأمّل الغيضة، النهر الأخضر العميق، ثم عاد إلى أشجار الصفصاف، الحور، الطرفاء، أين اختفوا؟

ــ أرأيت الكمين بنفسك؟

ــ ورموني بسهم لم يصبني.

وهمهم لنفسه في فهم، يجب أن يفعلوا ذلك، لو كنت مكانهم لفعلت ذلك.

وفجأة قفز السؤال إلى حلقه: ولكن من هم؟

ــ إنهم الروم يامولاي.

ــ الروم! صرخ في غضب: ولكن لماذا؟ ثم تابع في لهفة: وعرف الأمير أنهم الروم!

ــ ولكن.. هذه هي المأساة.

ــ أية مأساة.؟

ــ مضى الأمير سلطان مع شقيقه أبيك، ومعظم الفرسان صباح اليوم إلى حماة.

ــ هل جننت؟

ــ إنه ماأقول، ويبدو أنهم بحثوا عنك ليصحبوك معهم، ولكنهم لم يجدوك.

ــ ياالهي! هتف هذه المرة برعب، فلقد أدرك قسوة المأزق الذي حشر فيه، فلو كانوا الفرنجة لما بالى، أما أن يكونوا الروم.. ياإلهي!

ــ يجب أن نصنع شيئاً. يجب أن نصنع شيئاً.

وتسلل ثانية إلى الكوة.

ــ صنعنا كل شيء ياسيدي. الناس كلهم في البلدة الآن.

ــ ألم يبق أحد في المدينة؟

ـ الحرس المتقدم والفرسان المتبقون.

كانت قدماه تبحثان عن متكأٍ لهما، وأخيراً عثرت اليمنى على كوَّة تشبث بها، وقبل أن تعثر اليسرى على متكئها سأل: ورئيس الحرس؟

ـ الحرس والفرسان المقاتلة كلهم مستنفرون ولكن..

ـ أعرف أنهم ليسوا كافين، فهؤلاء هم الروم.

ـ طيَّرنا الحمام إلى حماة، ولا بد أنهم عرفوا الآن بقدوم الروم.

ـ آه! تنفس بارتياح وقفز إلى أرض البرج: ألن تنزل؟

ـ سأظل أراقبهم من مكمني هذا يامولاي.

ـ لابأس.

صيحات الفلاحين والباعة والرعاة والتجار والنساء والأطفال، ثغاء الماعز والأغنام، خوار البقر، أف! اندفاعات الجند، استعدادات الحرس. وصل إلى موقعه الأول عند شرفة السور، الخوذ الفولاذية أخذت تتضح الآن. الدروع السابغة، الخيول المدرعة حتى الحوافر، الرايات الأرجوانية، ياالهي..! إنهم الروم فعلاً. التفت إلى اليمين إلى الغيضة وكأنه يبحث عن نجدة حين رآه. كان متخفياً تماماً بين أغصان الصفصاف، بل ربما، بالفعل إنه يربط إلى كتفيه غصني صفصاف يتحركان معه، انحنى على النهر. أتراه يريد الشرب؟

اختفى ثانية، ضيَّق عينيه، أحدَّ بصره، ولكنه لم يعد يرى إلا الأخضر ضائعاً في الأخضر، أتراه يريد عبور النهر؟! أشار إلى واحد من الحرس: هيىء قوسك. دلَّه على المكان الذي اختفى الكامن فيه، الحارس يبحث. يحاول. لكن الأخضر يبتلع الأخضر. وفجأة التمع شيء. هاه..! هتف القواس: رأيته لابد أنها درعه تلتمع تحت الورق الأخضر، جهَّز قوسه، أخذ ينتظر، ارتفع اللمعان الفولاذي. ارتفع. هاه هاهي شقرة

الرأس تتبدى، إنه لايلبس بيضة. أزَّ الوتر بقوة، ثم ارتفعت مويجة ماء ولكنه لم يسمع صوت سقوطه. بعد قليل ارتفع الرأس الأشقر فوق الماء وأخذت الخصل الشقر تدوِّم مع الماء المتدفق في هدوء.

أحدَّ النظر ثانية، أتراه مايزال حياً؟ لن تستطيع رؤية الدم من موقعك هذا، وسأل الحارس: أتراه مات؟

وضحك القواس: ومن يجرؤ على الحياة بعد سهمي؟

الشعر الأشقر مايزال يدوِّم.. خصل طويلة.. طويلة. تدوم. تنساح.. تدوِّم إيه.. الشعر الأشقر نفسه والمكان نفسه ولكن الميت آخر. وهمهم صوت في الداخل: هيلينة.. هيـــ.. لينة.. لينة. لينة.

ـ لاتقلق ياسيدي. الحمائم وصلت حماة ولابد أنَّا الآن، أو بعد قليل سنرى فرسان حماة وفرسان عمك سلطان قادمين.

ـ أقلق؟ ـ هتف في ازدراء ـ أقلق؟ علامَ أقلق؟

وتمتم القواس في اعتذار: أقصد على القلعة!

ابتعد عن القواس دون إجابة. ضربات الطبول. نعيق الأبواق.

صليل الفولاذ. ولكن ماذا يفعل الفارس المحاصر الوحيد؟ إنه لايملك إلا انتظار المهاجمين ليصدهم أو الحلفاء ليحصروهم فيما بينهم.

ابتعد القَّواس منضماً إلى آخرين، وأخذوا يشيرون إلى الخصل الشقر المحوِّمة في الماء، وتمتم دون رغبة ثانية: هيلينة.. لينة لينة..

كان وجهها الأشقر المتحدي ينظر إليه في قسوة: من أنت؟ ماذا تريد؟ اقترب منها. وضع كفه على ذراعها العارية، ولكنها استدارت مبتعدة عنه، اقترب ثانية. ولكن ياإلهي! أية رائحة لعينة؟! والتفت إلى جاريته بريكة: هؤلاء الفرنجيات اللعينات.. ألا يستحممن؟!

ـ إنها جديدة ياسيدي، ولم تُعلَّم النظافة بعد!

ـ حسن فامضي بها إلى الحمام، ثم ائتيني بها.

كانت هيلينة التي أسماها لينة حصته من غنيمة الأمس، وكان أبوه قد انتقاها له. قال: هذه لاتصلح إلاً لأسامة.

وحين دخلوا بها عليه راعته بثيابها الممزقة وشعرها الأشقر الكثيف الطويل المنفوش. ولكن ياإلهي! لم لايستحممن؟ كيف يستطيع هؤلاء الأعلاج احتمالهن وروائح الحموضة والقذر تفوح منهن؟

فتح الباب، ودخلت بريكة تدفع أمامها مخلوقاً آخر، مخلوقاً في ثوب حريري أخضر وعقد عقيقي كبير وقد رُجّل شعرها الأشقر وذُهِنَ بالطيب وشهق أسامة: ياإلهي.. أي جمال؟!

مضت بريكة، فاقترب منها، ولكنها استدارت مبتعدة عنه. مدَّ كفه إلى كتفها فنترته منه بقوة. حاول أن يلمس شعرها، فعدت إلى نافذة مفتوحة تهدد بإلقاء نفسها منها، فتوقف في مكانه.

حاول الحديث إليها، التودد إليها بالأشعار، التغزل بجمالها، ولكنها لم تفهم منه شيئاً، أف! مخلوقة برية تماماً، ولا بد لها من ترويض.

شهور ثلاثة انقضت يحاول الحديث إليها، فترفض، التودد إليها، فتأبى. احتمل مزاح إخوته، سخرية أولاد عمه، ضحكات أبيه، ولكنه لايحب القسوة، الحب إن لم يتقدم منك بذراعين مفتوحتين راغبتين فلا خير فيه، أبداً لم يحب العنف والقسوة في الحب. أكان مايطلب شيئاً لايطلب. أكان مايريد شيئاً عجيباً، أن يحَبّ لشخصه وهو المحبوب، الطويل، النحيل الأسمر، الشاعر الصياد المهذب؟ نساء القلعة يتمنين منه نظرة، بنات عمه يتمنين منه إشارة، وهذه، هذه المخلوقة البرية تتأبى عليه، لماذا؟ مالذي تكرهه فيه؟ جرَّب الهدايا فنبذتها، الأزهار فرمتها، نوادر الطير فأطلقتها،

أطايب الصيد فازدرتها، رقائق الشِّعر فلم تفهمها، ياإلهي! خرج بها في الليل إلى شرفات القلعة ورأى اللهفة في عينيها، وفي الأمسيات كان يحملها إلى شرفته الخاصة تلك التي يتأمل منها انعكاس الشمس على سطح النهر الأخضر العميق، يتأمل الصفصاف سيوفاً نارية تمزق خضرة الماء، يتأمل مزقات البياض ترميها أسماك تودع شمس المغيب، وحين غابت الشمس وأراد العودة تشبثت بالمكان، واكتشف أخيراً أنها تحبُّ شيئاً ما، فصار يقضي الأماسي معها في الشرفة الغربية يتأملان النهر صامتين، ولكنها مرة إثر أخرى أخذت تقترب من السور، وقف إلى جانبها، ونظر إلى المرج الصغير المسروق من النهر صيفاً فترتفع فيه أشجار الصفصاف والطرفاء والقصب ويأتي الشتاء فينتقم النهر لنفسه حين يبتلع كل شيء. المرج والأشجار والأقصاب والحشائش وكل شيء.

اشتد تعلقهما بالمكان، واشتد انحناؤها تتأمل المرج والأشجار، وقرر أن يقدم لها مفاجأة.

في اليوم التالي كان غلمانه قد فتحوا الباب السري المؤدي للمرج وجهزوا لحم الشواء وطنافس وزرابي القعدة. سار بها، فتبعته مستسلمة لاتعرف أين يقودها؟ نزلا الدرج درجاً إثر درج حتى وصلا المخازن الأرضية، انحدرا في سرداب أسود معتم، اضطرا أن ينحنيا، ولكنها لم تتردد، كان لابد من مشعل لإنارة السرداب ولكنها لم تفزع، الطحالب الخضر ولمعان آثار البزاق لم تخفها، وأخيراً، وصلا باب السرداب، فتحه وخرجا إلى المرج. لاحظ نظرة فرح في عينيها وعرف في بهجة أنه استطاع إدخال الفرح إلى قلبها أخيراً.

للمرة الأولى يكتشف أنها تحسن الضحك.. وتحب طعم لحم الغزال المشوي، وشرب عصير الرمان، وتبتهج لقصائد الغزل التي لم تفهمها، وأدرك أخيراً أنه استطاع كسر جدران الجليد التي تسوَّرت بها، فضحك وضحكت، وبهج وبهجت، ورقص ورقصت، وبسرور غامر غطس في

السعادة فاستلقى يتأمل السماء الصغيرة المحوطة بسور القلعة والممزقة بأغصان الصفصاف.

الشيء الوحيد الذي عكّر عليه يوم سعادته أنه حين مدَّ كفه أخيراً يريد الإمساك بكفها سحبتها منه، وجرت مبتعدة، فقام متهادياً يريد اللحاق بها، ولكنها كانت تعدو بسرعة. فتوقف ينتظر عودتها فأين تعدو والنهر قريب؟ ولكن المفاجأة كانت أنها لم تتوقف عند شاطىء النهر، بل ألقت بنفسها فيه، وظنها تريد السباحة، فالتفت يتأكد أن أحداً لايراها، ولكن اللعينة أخذت تسبح مبتعدة بقوة.

فجأة فهم كل شيء. إنها تهرب. تهرب وقد عرفت سر باب السر.. تهرب دون أن تهبه شيئاً. تهرب. وأخذ سؤال غبي يلحُّ عليه.. لماذا؟ لماذا تهرب؟ ومالذي لم أقدمه إليها لتكرهني وتهرب؟ وصرخ بصوت جريح: لينة، لينة لينة، وحين شكَّ أنها لن تفهم أنها المعنية صرخ: هيلينة.. هيلينة. ولكنها لم تتوقف، بل ظلت تسبح بقوة. جلس في مكانه يرقبها تهرب وسخرية خفيفة تداعبه. أهذه هي النهاية؟ نهاية الحب والصبر؟! هه! هل كان إخوتك وأبناء عمك على حق إذن؟ وفجأة تذكر الدوَّار، الدوَّامة، بئر النهر العميقة، انتصب مرعوباً. صرخ يحذرها، ولكن.. الدوامة العميقة العميقة العنيفة ابتلعتها فجأة وعلى صفحة الماء رأى خصلات الشعر الأشقر الطويل تدوِّم وتدوِّم وتدوِّم قبل أن تختفي..

وتقدم إياد يتأرجح حاملاً أربعة أطباق معدنية تحمل الإفطار وتنتظر رحلة الطيران الأخيرة.. وانقطع الحوار.

(١٠)

لم تصدق ماتيلد عينيها، فضمته إلى صدرها بقوة، وأغمضت عينيها اللتين امتلأتا بدموعٍ لم تذرفها منذ أن غادرت ذلك الطبيب السري تجرُّ ساقين ملوثتين بدم وليدها الذي لم تنجب سواه، وأخذت تتمتم: ياإلهي! ياإلهي! إنه فاياد.

تنحنح روجيه محرجاً وهو يعض على طرف شاربه المتدلي فوق شفته السفلى يريد أن يعانق فياض، ولكن ماتيلد استمرت في شدِّه إلى صدرها كأنها تخاف أن يضيع منها، أو أن تكتشف أن الأمر حلم يقظة حلمته مرات كثيرة من قبل. وعانقه روجيه بقوة جعلته يحسُّ

بالضعف ثانية أمام هذا الرجل الذي تمنى كثيراً لو يسمع منه كلمة بابا.

بعد العشاء انسحبوا إلى غرفة روجيه الشرقية أو المكتبة، فَخْرُ روجيه وفرحه، تلك الغرفة التي قضى السنوات الأخيرة كلها في شرائها وترتيبها، السجاد الفارسي والبسط الحلبية، المشاكي الفضية والقناديل النحاسية، بل وكتبيَّة كاملة بإطارها الرخامي المنقوش كالدانتيلا، الخرستانات العجيبة النقوش، ومساند الكتب المطعَّمة بالصَّدَف، والفضة،

البنادق العثمانية والقرابينات، السيوف الدمشقية والتروس، الرماح السمهرية والكزاغندات.. وهتف فياض: آه! ياإلهي! لديك مايكفي لمتحف!

وضحكت ماتيلد: هذا مايستطيع عرضه فقط، أمَّا المخزون في الصناديق. أووه! وحركت كفها أمام وجهها كمن يخفف حرَّ الخجل.

وضحكوا لحركتها، ضحكوا حتى بدت أسنان روجيه المصفرَّة من تدخين الغليون والمختفية دائماً تحت شاربيه الكليمنصيين الضخمين. وقالت ماتيلد وهي تضع ذراعها حول كتفه في حنان: كنت واثقة من قدومك هذه المرة. لقد قلت ذلك لروجيه.. ألم أقل لك ياروجيه؟

وهزَّ رأسه المثقل بالشاربين العملاقين وغليونه الهولندي الضخم: لقد قالت ذلك بالفعل.

ـ قلت لروجيه: ليس من المعقول أن يكون قلبه قاسياً إلى هذا الحد. لا. هذا حرام. فياض اللطيف ينسانا ويعيش في باريس وحيداً. أتعرف لقد تراهنَّا على مجيئك. ألم نتراهن ياروجيه؟

ـ تراهنا ياصديقي على عشاء بالشادروان.

ـ الشادروان؟ تساءل فياض حائراً. وأطلقت ماتيلد ضحكتها المنتصرة.

ـ ألم أقل لك؟ هذه دمشق يافياض. دمشق، ويجب أن تعرف فيها الشادروان، وفندق فيكتوريا، والصوفانية، وشيه ميشو لتكون شاباً عصرياً.

ولاحظت تقطيباً على وجه فياض، فاعتذرت بسرعة: أف! لساني لساني هذا الأفريقي يوقعني في المآزق دائماً. كم قلت لك ياروجيه أن اختيارك كان خاطئاً! ما الذي جعلك تختار أفريقية سليطة اللسان زوجة لك.

ــ وهل أنا من اختارها؟ لقد سقطت عليَّ من السماء.. أنسيت؟

وأطلقت ضحكتها العصفورية المشقشقة التي لاتستطيع لها مقاومة، فهي تتسرب كماء رقيق ناعم. صحيح أنه يبدو ضعيفاً، ولكنه قادر بإلحاحه على تفتيت الصخر دون أن يحسَّ.

وفي اليوم التالي كادت المنافسة على اصطحاب فياض تتحول إلى شجار بين روجيه وماتيلد، ولكن روجيه استطاع أخيراً إقناع ماتيلد بترك فياض لها الصباح كله، أما الغداء فسيتغدى معه في نادي الحامية فهناك مايناقشه معه؛ ثم ببراءة سأل روجيه وكان يعرف أن ماتيلد لاتطيق سماع اسم نادي الحامية: هل تحبين ياعزيزتي اصطحابنا على الغداء؟ فبرمت وجهها في انزعاج: لا ياعزيزي مبروك عليك نادي الحامية وروَّاد النادي أيضاً.

وكان صباح، وكان حنان، وكانت ذكريات، الذكريات التي جعلت قلب فياض المغلف بقناع بارد يذوب، ويتفتت حين فتحت الصندوق المُطَعَّم بالصَّدَفِ والفضة، فأخرجت ملابسه الصغيرة، القميص البحري والبنطلون القصير، والقبعة الزرقاء، فذكر أول زيارة لقلعة شيزر مع روجيه: كنت أنشرها أمامي كل يوم، وأتذكر الولد العفريت ذا القبضتين القويتين، وأطلقت مزحتها التي لاتستطيع لها مقاومة: قبضَتي الراعي.. ثم تنهدت: هاه! وأمسكت بكفيه الناعمتين في رقة: أين ذهبت تلك القبضتان؟ ومسحت على ظاهر كفه تتأمل أظفاره المُقَلَّمة جيداً وسألت في مداعبة: أما زلت تستطيع إصابة العصفور بالمقلاع؟

وضحك مرتبكاً: لا. لاأظن..

ــ بالطبع لاتستطيع. -ثم بسرعة نطَّتْ إلى حديث آخر-: هاه..! كيف باريس؟ حدثني عنها. هل كانت مغامراتك هناك ممتعة؟

واحمرَّ فياض، فعن أي باريس يتحدث؟ باريس العزلة والخوف وجميلات المجلات المعروضات في الفاترينات يمشين في الشوارع وحولهن قفص من زجاج لايمكن اختراقه، أم باريس البارون القادم من الشرق يحمل حكايات عن قلاع وقصور وإقطاعات وسبايا حسناوات ينتظرن حباً لايردنه، وخوفاً من مجهول مشوق جعل إيفون تقول:

الحب مع الخوف إحساس جميل. أوه فاياد! اسبني، وخذني إلى هناك. أم باريس إياد وأسامة الشيزري والخطب الرنانة وحسن الخراط وسلطان الأطرش.

ــ هه فإياد. أنت تخجل من الحديث إلي. ولكني صديقتك. ألسنا صديقين؟

ــ آه بالطبع. بالطبع.

ــ فحدثني إذن.

وللمرة الثالثة، أو الرابعة، أو المئة يجد نفسه يضطر إلى الاختراع، فيؤلف قصة عن قاطعة تذاكر في المسرح، وعن عشاءات سريعة في مقهى على ضفة السِّين، وعن نزهات إلى غابة بولونيا، وسرعان ماسئمت.

ــ أوه.! لا فإياد. أنت تستحق خيراً من هذا. غداً حين نذهب إلى باريس سأعرفك على باريس الحقيقية.

وقال له روجيه وهما يتمشيان تحت ممر العرائش في نادي الحامية:

ــ ولكن، كيف خطرنا على بالك هذه المرة؟

فهمس في حرج: أوه! مون آمي.

ــ لا. في الواقع أنا عاتب عليك، كانت رسائلك نادرة جداً، وحين تصل كانت تصل مقتضبة. لا. حين كنت في بيروت كنت أكثر حناناً.

وأنقذ فياض نفسه بضحكة خبيثة: ولكن تلك باريس، أم نسيت ياصديقي؟

فأطلق روجيه ضحكة متسامحة: آه صحيح! وفي الواقع كان هذا ماقالته ماتيلد أيضاً. هاه.! – وأضاف بلهجة متآمرة– هل كنت سعيداً هناك؟

ــ هو هو هوه. كثيراً.. كثيراً جداً. باريس شيء آخر.

وكأن روجيه أحس بانزلاقه إلى حديث ما كان يجب أن ينزلق إليه مع ابنه، فأضاف بلهجة أبوية: ودراستك؟

ــ لا. جيدة. لاتخف

ــ وصلني تقرير عن هذا الأمر.. أنا فخور بك.

مشيا حتى طاولة قريبة من البحرة المزينة بالموزاييك.

ــ وماهو برنامجك الدمشقي، أعني كيف ستقضي وقتك؟! أنت لن تقضيه بصحبة ماتيلد فقط!

ــ آه. بالطبع لا. لدي بعض الأصدقاء هنا.

وهتف روجيه ولم ينتبه إلى لهجة الغيرة في كلامه: أصدقاء هنا.. في دمشق!

ــ نعم.. تصادقنا في باريس.

وتراجع روجيه طاوياً الغيرة في جوفه: عظيم. عظيم جداً –ثم بسرعة –: أهُمْ من عائلات محترمة؟

ـ في الواقع، هو صديق واحد، وهو من عائلة محترمة جداً، لديهم بستان في الغوطة، وسنقوم بنزهات ورحلات صيد هناك.

ـ عظيم. عظيم.

وفيما بعد، وبعد غداء آخر، ونزهات أخرى مع ماتيلد قال فياض لروجيه متذمراً:

ـ هذه المدينة، لاأعرف. أحس فيها بالغربة. ربما غربة تفوق غربتي في باريس!

ـ لاتنسَ أنها مدينة جديدة عليك.

ـ لا.. ليس المدينة، بل الناس. أحسُّني غريباً بينهم.

ـ ماذا تعني؟

ـ عالم آخر أحسُّني منفصلاً عنه. أوه! بل اعتقد أني يجب أن أعرف الكثير عنه.

ـ ولِمَ لا؟! هذا واجب.

ـ أنا حائر. كيف أفعل هذا..؟

ـ افعل كما صنعت حين وصلت المدينة أول مرة، احمل خارطة وزُرْ شوارعها، حاراتها، أزقتها، أسواقها، مساجدها، كنائسها، وستصبح صديقاً لها.

ـ أظن أني سأفعل ذلك منذ الغد.

ـ عظيم، ولديَّ الخرائط والكتب المرشدة، وإن شئت صحبك مرافقي نجدت.

ـــ لا. لاأريد مرافقاً. أريد أن أجول وحيداً.

ولكن ماتيلد لم تسمح له بذلك. قالت: لا. فإياد.. هذا غير معقول. وأنا؟ ووضعت ذراعها تحت ذراعه في رقة تدعوه فيها إلى مصاحبتها في جولة إلى المدينة: ألا تحبُّ صحبتي؟

ـــ آه.. مدام! قالها بعتب خفيف ولكنها تابعت: الحقُّ إني لم أفد شيئاً من زيارتك. أريد أن أراك. أن أصحبك في جولاتك. أن نستعيد الصداقة القديمة بيننا. أتذكر؟

وكيف لايذكر؟ تلك العناقات الصغيرة، تلك المداعبات الرقيقة، تلك النزهات الطائشة على ضفاف العاصي. وتنهد.

ـــ اسمع.. يجب أن تدعوني إلى الغداء اليوم.

ـــ ولكن إلى أين؟ أنا لاأعرف البلد!

ـــ إلى شيه ميشو.

ـــ وأين يقع هذا الشيه ميشو؟

ـــ قريب من ساحة المرجة. هيا.

ركبا الترين، وكان يمكن أن يركبا سيارة روجيه لولا أنها قالت: سئمت من ركوب السيارات، وروجيه لايحب ركوب الترين، فهذا لايتناسب مع كوماندان في الجيش الفرنسي. وأطلقت ضحكة حارت بين السخرية وبين إنهاء الجملة على طريقة ماتيلد.

لم يختلف المطعم عن أي مطعم باريسي صغير. الستائر حاجبة النور، الطاولات النظيفة، المفارش المكوية، نسخ اللوحات الشهيرة، السكون المفروض، نظرات الخدم الجانبية تحاول تصنيف الزبائن ضمن

خاناتهم الحقيقية. وزقزقت ماتيلد: مكان باريسي حقيقي.. أليس كذلك؟

ــ بالطبع.. بالطبع.

اقترب رئيس الخدم، فخاطب ماتيلد باحترام يوحي بأنه يعرفها جيداً:

ــ بِمَ تأمرُ سيدتي؟

وكانت لكنته الفرنسية رديئة، طلبت ماتيلد طعاماً لكليهما، وللحظة أحسَّ فياض أنه لم يفارق باريس، فالطاولات والجدران والخدمة والطعام كان كله فرنسياً، وماعدا الضجة العربية تتسرب من الشارع بين الحين والآخر، وماعدا نظرات الخدم المتسائلة والمشوبة بشيء من الوقاحة يرمقونهما بها بين الحين والآخر، فقد كان لفياض أن يشك في أنه في واحد من مطاعم الدرجة الثانية في باريس. ولم تستطع ماتيلد الصبر على الصمت، فوضعت كفها على كفه بحنو: فياض. أنت تستطيع التأثير على روجيه. سئمت هذه المدينة، سئمتها، فها أنت ترى، ليس في المدينة مايُسلِّي.

وتشاغل فياض بمضغ لقمة يحاول أن يسبر ماتريد ماتيلد الوصول إليه.

ــ لم يعد يصغي إليّ، بل ويقول إن سأمِي راجع إلى وحدتي. حسن.. هذا صحيح إلى حد ما. أنا وحيدة فعلاً. ثم.. ها أنت ترى. أسبوع كاف لمعرفة هذه المدينة ظهراً لبطن.. المدينة صغيرة آه..! ليس فيها ما يغري بالفرح.. أين المسارح والكازينوهات؟ أين السهرات الليلية؟

وكأنما تعبت من الحديث الطويل في موضوع واحد، فمسحت جبينها بمنديلها الحريري كمن يحاول مسح ذكرى كريهة، ثم لم تستطع الصمت، فتابعت:

ــ مجموعة الضباط الذين نساهرهم محدودة.. ليس لديهم إلا الحديث عن الذكريات التي اشتروها، والسجادة التي رآها أحدهم بالأمس في باب

شرقي أو الحميدية، أو الشارع الطويل، وكان سعرها غالياً، فلم يشترها، فلما عاد في اليوم التالي وجد أن مكتب المندوبية قد اشتراها ليرسلها هدية إلى باريس.. وأن.. وأن.. أوه فإياد! أرجوك حاول إقناعه، أخبره أنك تحسُّ بالوحدة هناك، - وأطلقت ضحكة فاترة- أنا أعرف أنك تحاول خداعي حين تتظاهر بالبراءة، وأنك لاتحس فعلاً بالوحدة هناك، ولكن إكراماً لي - حاول أن تتخيل وحدة تحدثه عنها، فلعله يقبل ويقدم طلب نقل إلى هناك لنعيش معاً، فإياد لم نعش مجتمعين لسنة واحدة، لماذا؟ ألا تحب أن نعيش معاً، ومدت كفها الصغيرة فمسحت على كُمِّ جاكيته الأبيض في دلال - أووه كم أتمنى أن نعيش معاً، أعتني بك، تصحبني في النزهات في باريس، تقص عليّ أسرارك الصغيرة هاه. صحيح، متى ستقص عليّ أسرارك الباريسية الحقيقية؟

ـ أوه.. مدام.. ليس الأمر كما تتصورين.

ـ بون، بون، فحدثني عما لا أتصور.

ولما عاد إلى حكاية قاطعة التذاكر قالت: لا. أنت مسكين. لايبدو أنك تحسن الاستفادة من وقتك جيداً في باريس، فإياد. اسمعني جيداً، العمر لايعاش إلا مرة واحدة، فإن لم نحسن الاستفادة من كل فترة كما يجب هرب العمر ونحن معلَّقون إلى الأماني.. انظر.. هاهو العمر يمضي، وها أنذا تجاوزت الأربعين - وأطلقت ضحكة محرجة - وروجيه كما تعرف.

تنهدت، وابتعدت بناظريها إلى النافذة المطلة على الشارع، لم تكن قد تذوقت بعد إلا بعض المقبلات، ورأى غيمة الحزن الخفيفة تظلل الوجه الأسمر الجميل، وللمرة الأولى استطاع فياض أن يلمح تحت الماكياج الماهر تجاعيد تحاول الإعلان عن نفسها، وللمرة الأولى رأى

في الشعر الليلي قبساتٍ بيضاً لم يُحْسنِ الصباغ إخفاءها جيداً، تابعت:

ـ في بعض الليالي، وحين يكون روجيه مناوباً، وتمضي الصديقات كلٌّ إلى منزلها أصاب بالأرق، فأراجع نفسي، وأتساءل عن هذا العمر الذي قضيته. ماصنعت فيه؟ أحلام. أحلام. ولاشيء سوى الأحلام. لم ننشىء منزلاً في فرنسة، لم نكوِّن صداقاتٍ تساعدنا في شيخوختنا هناك. أنت تعرف، هؤلاء العسكر - قالتها في ازدراء مُرٍّ- ليسوا فرنسة. ربما لاحظت ذلك. أليس كذلك يافإياد؟

ـ بالطبع ياسيدتي، بالطبع، ولكن روجيه..

ـ روجيه شيء آخر.. روجيه أخطأ مهنته، أو أخطأ زمانه، أو أخطأ التعبير عما يريد، روجيه ليس عسكرياً حقيقياً، أما هؤلاء الحثالة. أوه.! لا.. ياإلهي لاأستطيع تصور شيخوختي بعيداً عن واجب العمل أقضيها في مسامرة هؤلاء الأشخاص وزوجاتهم التافهات.

ـ ولكن.

ـ لا يافإياد.. يجب أن نرجع إلى فرنسة.. وهناك سأتفرغ لك قليلاً. سأعتني بك. سأفتح لك صالوناً، وأقيم استقبالات، وأهيىء لك فرص تعارف مع الفتيات الراقيات، فِتيات المجتمع الحقيقيات، لا أولئك التافهات ساقيات المطاعم وقاطعات التذاكر في شبابيك المسارح. لا.. فإياد.. لا. أنت تستحق شيئاً أسمى من هذا.

وكان فياض يستحق شيئاً آخر فعلاً، أما هذا الشيء الذي استحقه فياض والذي نسيه منذ تخلى عن خرافه التسعة وجدائه الستة، فكان ماقدمه إليه إياد في مقهى النوفرة حين قدم إليه عرنوس والمقدم معروف.

(١١)

كانت مأساة حقيقية، فالبقرة تخور، تخور وتجول في المكان ضاربةً فخذيها بذيلها في قوة، تجول وتتحكَّك بشجرة التين المربوطة إليها، حاول إلهاءها، فطرح في مذودها كثيراً من الشعير، بل أضاف إليه بعضاً من الجلبانة. تشممته قليلاً، ازدردت بعضه، ثم رفعت أنفها إلى الشرق، وأطلقت خواراً حرّك الآلام في قلبه، مسكينة، يجب أن تعجّل وإلا فات الأوان. هذه الخسة، هذه الخسة لماذا؟ كان قد اتفق مع أبو مسعود على إعطائه كيلة حليب كل يوم تشربها عجلته اليتيمة، فلِمَ بخل؟ ألم يدرك أنه سيحتاج إليه ثانية؟

أهو الخوار البعيد، أم الروائح البعيدة؟ لايدري. ولكنها نفرت فجأة من مكانها تحاول قطع رباطها مستجيبة للنداء البعيد، وضحك في سرّه ضحكة خفيفة: لو كانت النساء على هذه الشاكلة لكانت فضيحة.. ثم تراجع قليلاً، أم تراهن كذلك؟ ولكن لا..

ونظر إلى أم إياد في جلستها المسترخية تخيط قميصاً، تأمّلَ منظر وجهها الجانبي السمين المرتاح المستغرق في ذاته. كان يسمي جلستها المسترخية هذه بينه وبين نفسه بالجلسة البقرية. ولكن، لا. البقرة كما ترى شيء آخر. ها هي تهيج وتهيج. البقرة حائل، ولا بد له من استعارة

فحل أبو مسعود، ولكنه يعرف أنه لن يعيره أبداً، فلقد خذله في العام الماضي، وهو لن يغفرها له؛ خذله وترك العجلة تذوي وتضوي حتى كادت تموت، صحيح أنها أخيراً لم تمتْ، ولكنها ضعفت وضعفت، وربما لن تستطيع الحمل لموسمين آخرين إلى أن يقوى جسمها، ولكن.. أف.. لِمَ فعل ذلك؟.. ولكن.. يا إلهي! كيلة حليب يومياً من أجل نطَّةِ ثور لن يخسر الثور منها شيئاً! أف.. خسر أم لم يخسر، ها أنت تحتاج إليه هذا العام ولن يستجيب لك.

كان قد أرسل أبو محمود المرابع منذ الصباح يبحث بين الجيران عن فحل. صحيح أن فحل أبو مسعود لايعلو عليه فحلٌ في الجوار ولكن، مالعمل؟ أنبوس يده حتى يعيرنا الثور؟! وقام إلى السور، تلصص بين شجيرات توت السياج، وخوخ الدب، تأمله. يا إلهي! أية فخامة؟ كان بجرمه الضخم شيئاً جميلاً حقاً، الساقان العاليتان، الفخذان المكتنزتان، السنام المرتفع، القرنان العاجيَّان المعافيان، وكأن الثور أحس بتلصصه فرفع رأسه ينظر إليه في غضب، وحين أطلقت البقرة خوارها المتطلِّب، كشَّر عن نواجذه يتشمم الهواء ثم أطلق خواره القوي، ودون أن يلتفت إلى البقرة أحسَّ بحركتها العنيفة تحاول التخلص من رباطها، والاستجابة إلى النداء الحُرِّ، البري، لم تهذبه لغة.

خارت البقرة ثانية وشبَّت على ساقيها رافعة قائمتيها الأماميتين إلى أعلى، وأغاظته حركتها: لعينة، وتقدم منها فضربها على خطمها بالقضيب:

ــ ألن تهدأي قليلاً؟

أنَّت البقرة بألم، ثم أدارت ظهرها إليه، وغمست خطمها في المذود تأكل، ولكن ذيلها لم يستقر إذ ظل يضرب فخذيها بقوة عصبية وضحك

في خجل: اللعينة.

نظر إلى زوجته، كانت في استسلامها الهادىء المسترخي تعضُّ على الخيط تقطعه قبل أن تعقده، فلم يتبقَّ منه في الإبرة إلا طول أصابع لاتمكنها من الخياطة. جلس على المصطبة أمام البيت، وأخذ يراقبها، فلم تنظر إليه، ولم تأبه لمراقبته، كانت غارقة تماماً في عالمها الداخلي. لايمكن أن تكون مستغرقة بالخياطة إلى هذه الدرجة، إنها منغمسة في عالمها الخاص، ترى ماالذي يدور في ذهنها المُشَحَّم ذاك؟

الخوار البعيد، وقفزت البقرة تشب ثانية. يا الهي! يجب أن يحضر أبو محمود بالثور. أي ثور. ليس مهماً الآن أن يكون ثور أبو مسعود، أو أي ثور في العالم. المهم أن تحمل حتى لانخسر حليبها لهذا الموسم، نظر إلى فوق إلى صقالة الدالية. هه – العناقيد مكيَّسة كلها وهمهم لنفسه ضاحكاً: لن تسمح لدبور بسرقة حبة.

أف، ليتني لم آت إلى البستان هذا اليوم. لو ظللت في الشام، ومضيت إلى الخان في البزورية أما كان خيراً لي؟ ولكنها. هه! قالت إن خلقها قد ضاق والصيف يكاد ينتهي، وتريد أن تخرج إلى المزرعة. وتفضل سيدي ماالذي حصلنا عليه؟! همَّ البقرة. لو لم آت لكان هَمُّ البقرة مسؤولية أبو محمود، فإن لم تحمل، أو فات أوانها لكان لنا أن نوبخه ونعاقبه و.. نحتج بأي شيء. أمَّا الآن تفضل سيدي.. أنت الذي أغضبت أبو مسعود ولو لم تغضبه بمنع كيلة الحليب لكان الحل موجوداً والمشكل منتهياً.

اللعين. صار يستطيع مناقشتي. كيف سمحت له؟ كيف؟ ثم لماذا أغضب من أجل بقرة؟ حملت أم لم تحمل، ما لي ولها؟ المستودع في الخان ينتظرني وأكياس السكر والرز والبرغل والكمون والعصفر تنتظر، وأنا، أشغل نفسي ببقرة لم تحمل، وثور لايريد صاحبه إعارته!

أفٌ مالنا أصلاً وللبستان! مالنا أصلاً ولهذه الهموم! كنا حين نريد السيران نمضي إلى بستان ابن عمي حمدان، وينتهي الأمر، بعض لحم ومعاليق ونقولات وكان الله بالسر عليماً، ولكن الست، ست الحسن، قالت: أريد بستاناً خاصاً بنا، بستاناً نرتاح فيه، بستاناً نتفرع ونخلع ثيابنا ونعيش فيه على كيفنا.. على كيفنا!

تفضل سيدي. شَفْ ماوصلنا إليه! أنا عبد الكريم الجوقدار، أبو إياد يصبح شغلي الشاغل ليس مايجري في البلد، ليس مايجري في الشام، بل هل حملت البقرة الشامية أم لم تحمل؟! هل يعيرنا أبو مسعود الثور أم لا يعير؟!

انتتر غاضباً، تاركاً البيت، فالممر المغطى بالعرائش إلى باب البستان. شد المغلاق الخشبي، أنّ الباب يدور على زعرورته، وخرج إلى الحارة المظللة بشجر الجوز. أف، اللعنة. أين أنت ياأبو محمود؟ أتعبتني أنت وبقرتك الشامية. حرام. بقرة ثمينة، لايجب أن نتركها تخسر موسمها. تفضل. وأنا.. أنا أترك الخان! لا بأس ولكن.. دمدمة بعيدة، الدمدمة تقوى.. ماالذي يجري هناك؟ آه! يصطفلوا. الحمد لله أن لدي بستاناً ألجأ إليه، أنا أعرف أنهم ربما قصفوا الشام، وقد فعلت خيراً حين تركتهم، وجئت إلى البستان، كم من الناس لديهم بستان يهربون إليه ياأبو إياد، كم؟ هه. مدَّ يده إلى جيب قمبازه، فاستخرج علبة المضغة. فتحها، واستخرج حفنة. جسَّها. مازالت طرية. دفعها تحت شفته العليا وامتلأ فمه فجأة باللُعاب، اللُعاب الحامض الحارق اللاذع، استرخى على المصطبة الطينية أمام باب البستان يستحلب المضغة حين سمع الدمدمة، يا إلهي! هل بدأوا القصف. دخيلك ياربُّ بيتنا بالشام أنت تعرف الخمير والفطير. الدمدمة تعلو. أف. ستلومني الآن، ستلومني ست الحسن لو أصاب البيت شيء.

قالت: دعنا نحمل الزبادي الصيني والصحون والطقم الموزاييك إلى البستان. هناك لن يصيبه شيء لو ضربوا الشام. ولكني أبداً لم أرضَ. أنا لاأتخلى عن بيت الجوقدار. قالت: شهراً فقط، ولكن أبداً. أسبوعين. أبداً. أنا لاأتخلى عن بيت الجوقدار. العمى. أبي مات فيه، وأمي ماتت فيه، وأتركه وأمشي؟ تفضل سيدي، فماذا لو أصابته واحدة من بومباتهم الآن؟ هاه.. قل هو الله أحد، ما هذه الأفكار يارجل؟! الدمدمة تطول، إنه القصف. لقد فعلوها إذن، أبو محمود، أين أنت يارجل؟ لو كان هنا لأرسلته إلى البيت في الشام يحفظه من اللصوص لو أصابته بومبة، والثور؟ اللعنة على الثور، لم تعد تهمني البقرة، وحملها، وعجلها، وحليبها، المهم الصيني والموزاييك والسّجّاد.. والليرات الذهبية ذخيرة العمر. يا إلهي. هل أنزل إلى الشام؟ لو أصابت البيت بومبة واحدة لانفتح على اللصوص، وانفضح سره، وعرف الجميع أني رغم كل مالدي لم أتبرع إلا بعشر ليرات ذهبية لهذه التي يسمونها ثورة. ولو لم.. أف. أبو إياد، ماهذه الأفكار الآن؟ ولماذا؟ الدمدمة تعلو تعلو.. تعلو.. والقصف يشتد. الدخان يعلو من بعيد، ولكنه من مكانه البعيد لم يستطع سماع أنّات الجرحى، أو عويل الهاربات من بيوتهن. وأخيراً، لم يحتمل أن تصيب البيت بومبة، وينفضح السر، ويُنْهَبَ ماقضى العمر في تخزينه.

وقال إياد: أترى هذه الجوزة؟

لم يكن في الجوزة مايلفت النظر كثيراً إلا أنها كانت راكعة على الأرض تغطي نصف باحة البيت بأغصانها اليابسة.

ولكنه حين قال: ــ أترى هذه الجوزة، استطاع أن يرى أن ما كان يظنه شجرة الجوز لم يكن إلا الأغصان الجديدة التي انبعثت من الجذع المقصوم لتشكل شجرة جديدة، اقترب من الجذع متخطياً الأغصان

اليابسة، فهرب سنجاب رمادي فاجأه بحركته العنيفة وهو يتسلق الجوزة بسرعة، كان الجذع عملاقاً. لابد أن عمرها يزيد على الخمسين عاماً.

وسأل فياض ببراءة: ماالذي حطًّمها بهذا الشكل؟

نظر إياد إليه مباشرة: قبلة الحضارة.

ــ لاأفهم.

بلا أفهم هذه بدأ عالم إياد الداخلي يتكشف، هذا العالم الذي غطاه بقهقهة مرجِّعة وحركات يدٍ خرقاء، ونظرة كلبية إلى العالم لاترى فيه إلا معمل براز متحرك. بلا أفهم هذه استطاع فياض مرة في العمر أن يجعل إياد ينزل رتاجات القلب، ويترك حمائم الروح تخرج إلى الهواء، ترمش بعينيها، وتتأمل العالم مذعورة مدهوشة قبل أن يمسك إياد بها ويعيدها إلى العش الأحمر النابض من جديد. قال وهو يقوده إلى المصطبة التي عاش عليها أبو إياد مأساة بقرته الحائل: تعرف يافياض؟ الحُبّ شيء مراوغ، عابث، يستطيع التنكر بكافة الأشكال والأزياء، يستطيع التخفي خلف قناع الغضب والحدة، والعادة اليومية بل، والكره، والتوتر الدائم.

ــ إياد، لا أفهم شيئاً!

وكأنما لم يسمعه، فأكمل محافظاً على النغمة نفسها: حين عدت إلى البيت من بيروت كانت الجنازة قد انتهت، وكانت ليلة العزاء الثانية في أولها، عانقني طويلاً، بكى، بكيتُ، بكيت ليس لفقدها فحسب بل لمفاجأة أن أرى هذا الدكنجي المتبلِّد كما كنت أسميه بيني وبين نفسي، هذا الإنسان المغلق على كيس الرز وكيس الكمون، هذا الإنسان الغاضب دوماً لانكسار كأس، ولضياع ملعقة، وللإسراف في السمن في الطعام، ولضياع ملاقط الغسيل الدائم، قال: راحت يا إياد. راحت، واعتصرني

بقوة يحاول منع مزيد من الدموع عن عينيه، فلم يستطع.

حين قرر أبو إياد للمرة الأخيرة أن يمضي إلى القنوات، إلى بيته يحافظ عليه من لصوص ما بعد البومبة، حين قرر ذلك فعلاً وصلت البومبة إلى بيته هو. ربما كان عبثاً من واحد من رماة المدفعية، ربما كانت غلطة تصويب، أو ربما أراد أن يخفف من الإصابات في المدينة، فرمى بعضها إلى البساتين حيث لا بيوت ولا نساء يمتن تحت الأنقاض، ولا أطفال يسعون وراء أمهاتهم مذعورين. وحين وصلت تلك البومبة أنهت بوصولها مشكلة بقرة أبو إياد الحائل، وحين خارت البقرة مقصومة الظهر تحت ثقل أقسى من الثقل الذي كانت تتشهاه أسرعت أم إياد إليها تحاول مساعدتها حين وصلت البومبة الثانية، فهشمت الجوزة لتقع فوقها تماماً ولتجمع لحمين ودمين و.. بقرة وامرأة، كان يسميها أبو إياد أيضاً بقرة.

صرخ أبو إياد، ونادى أبو مسعود، ونادى أبو محمود، ورفعوا الجوزة، ولكن بعد فوات الأوان فالاثنتان كانتا قد استجابتا لنداء الحضارة.

بعد أيام، وكان العزاء قد انتهى، والمقرىء قد نال مكافأته ومضى، والمُغَسِّلَة قد حملت ثياب المرحومة ومضت، وخلا البيت، البيت الكبير إلا من أبو إياد وإياد. قال الأب، وسيذكر إياد هذا القول كثيراً فيما بعد، قال وهو يدفع صينية الطعام من أمامه فلم تكن نفسه تشتهي الطعام وهو الأكول بلا حدود: ما أعرف؟ ما أعرف ماالذي يجري، لم أكن أحبها وأنت تعرف ذلك. كانت – إيه الله يرحمها – غليظة، بليدة، سامحني فالنبي يقول: اذكروا محاسن موتاكم، ولكنها، أف، لا تتقن الحديث ياأخي، ولا تتقن التزيُّن، ولم يكن بيتها نظيفاً، وكنت أثور عليها دائماً، أثور أريد منها أن تكون كما أريد. أن تكون كأمي –جدتك الله يرحمها–

في تدبير البيت والنظافة، وكنت أريد -ودائماً أردت- أن أتزوج عليها، ولكني كنت أنظر إلى ضعفها، عجزها عن مواجهة الحياة وحيدة وأتساءل: كيف ستعيش لو تركتها؟ من سيجلب لها الطعام والكساء؟ من سيهتم بها لو تخليت عنها؟ أعوذ بالله لو تخليت عنها يوماً واحداً، أسبوعاً لأكلتها الجرذان والخنافس، كانت – وأنت تعرف – ضعيفة، ضعيفة تماماً، لاتعرف التصرف، لا تعرف الدفاع عن نفسها، لا تعرف مواجهة الحياة، فكيف أتخلى عنها؟ ولمن؟ كنت أعرف أنها يتيمة، لا أب ولا أم، ولا إخوة ولا أخوات، ولو تخليت عنها لضاعت، ضاعت تماماً. كنت أنظر إلى وجهها الجانبي السمين البليد – آه كم كان طيباً!- ولكن لا.. ياإلهي، كانت بليدة، كنت أريدها كحسيبة خانم، تنطُّ على الأرض نطّاً، كنت أنظر إلى حمدان وفي القلب حرقة: كيف يملك جرأة الطلاق والزواج؟ كيف يملك القدرة على اتخاذ هذا القرار؟ هذه المرأة لم تعد تعنيني، طيب، انصرفي فتنصرف. أما أنت، فأنت الجديدة تعالي.. فتجيء، هذه القدرة كيف ملكها، ولم أملكها ونحن أبناء عم، كنت أتمنى ولاأستطيع، ثم أعزّي النفس فأقول: ربما ماتت فارتحت -وانفجرت سيول الدمع فجأة- وها هي ماتت ولكن يا إلهي! الآن فقط اكتشفت كم كانت تعني لي، الآن فقط اكتشفت أني.. أني.. ولم يجرؤ على قولها.

ولكن إياد جرؤ فقال: عاشا ثلاثين عاماً يتشاجران صباح مساء، يتشاجران من أجل بزاق البلاليع وخيوط الفضة اللامعة يتركها على جدران البحرة، يتشاجران على ذرق العصافير المنشور في باحة البيت لم تنظفه، ولم تكلف الخادم بذلك، يتشاجران على الطعام زائد الملح، وعلى الطعام المنسي دون الملح، ويتشاجران على الثياب ناقصة الأزرار، يتشاجران، ولا يعرفان أن شجارهما كان الحب نفسه، يتشاجران، ولا يعرفان أنهما قد اتفقا على تشكيل حياتهما بهذا الشكل، حبهما كان على

هذه الطريقة، تصوَّر!

ــ ولكن..

ــ توفي بعد ستة أشهر من موتها فقط، توفي.. هل أقول جوعاً؟ هل أقول شوقاً؟ هل أقول حنيناً، أم هل أقول ندماً؟ لأنه حين توفي كان قد نقص وزنه وهو الطويل الجسيم ليصبح ممكن الحمل بيد واحدة.

توفي وأصبحت فجأة يتيم الأبوين. إيه.

تنهد وقام عن المصطبة. وكأنه حين قام من جلسته أنهى العرض، وأعاد الحمائم الرامشة إلى وكرها، وأغلق الرتاجات العتيقة، وعاد إلى جلد التمساح الكلبي يلبسه، فأطلق ضحكة خرقاء وقال: وكانت هذه رسالة أصدقائنا المحضرين. هه. ما رأيك..؟

مشى، فتبعه فياض، اجتازا مسكبتي باذنجان ومسكبة بندورة. كان منظرها تحت الشمس الحاضنة فاتناً، انحنى إياد فاقتطف بندورة مسحها بكُمِّه، ولم يستطع فياض المقاومة فانحنى وقطف، ومسح، وكانت حموضة البندورة الساخنة محرشة، التفت إلى اليمين، كان البيت قد انفتح على البستان، وكانت الدالية منهارة مع صقالتها على الأرض، وعلى ماكان الحديقة المسوَّرة بشجيرات الورد وعرف الديك والخبازى، فانتشرت صفائح نباتات الزينة المبقورة والمهترئة، ومن أفواهها تدلَّت جثث لنباتات كانت جميلة. خطا إياد خطوات طويلة حذرة لا يريد الدوس على الذكريات، ولا يريد إيقاظها، وتبعه فياض، دفع باباً خشبياً متصلباً، فصرَّ يحتج بانزعاج وبدا في عمق الغرفة العكر السرير النحاسي الكبير المغطى بالعنكبوت والتراب، وهتف فياض منزعجاً: ولكن.. إياد.. لماذا..؟

ـ منعت المرابع من الاقتراب من البيت، طلبت أن يُترَكَ على حاله كما كان يوم استقبلا رسالة الحضارة من صديقنا ساراي.

ولم يحتمل فياض هذه السخرية الفاجعة، فترك الغرفة، باحة الجثث النباتية، وعاد إلى المصطبة، انتبه إلى البندورة المقضومة في يده، فرماها بعيداً ولحق به إياد: تألمت؟.. هه فماذا عني أنا إذن، هه؟.. ماذا عن المئات والآلاف ممن فقدوا بيوتهم وأطفالهم وثرواتهم؟ أتعرف حي الحريقة ذلك الحي الواقع بين سوق الحميدية والشارع الطويل؟ هذا الحي لم يكن اسمه الحريقة، كان اسمه سيدي عامود، هذا الحي الذي كان يحوي أجمل البيوت الشامية وأعرق العائلات، هذا الحي الذي كان يحوي كنوز الأيدي الشامية عبر التاريخ، النقش العجمي والخط العربي والبلاط القاشاني، الخشب المحفور والرخام الدانتيل، المقرنصات والمعرجات، الإيوانات والبحرات.. كله.. كله... راح بقبلة حضارية واحدة من صديقنا الاشتراكي ساراي!

وجلس: تلك أيام عاشها من كان في البلد فقط، فياض: لقد أحرقوا بدم بارد نصف المدينة، أحرقوها ليدمروا إرادة المقاومة ولكن..

وجاءت هذه المرة فرصة فياض ليسخر: ولكن.. ماذا؟

ونظر إياد إليه ثانية، إلى الوجه الدراقي النظيف المعافى، إلى العينين الخضراوين الهدباوين، إلى الخصلة البنية المتدلية على الجبين، وهتف لنفسه:

ـ ياإلهي، فياض أأنت سوري حقاً؟!

بعد أن سئم فياض صحبة روجيه وماتيلد وحواراتهما العقيمة عن البقاء في المدينة، أو الرحيل والعودة إلى باريس. بعد أن سئم من محاولة

روجيه تبني المدينة التي دخلها غازياً واصطناع كل مافيها من ثياب وأزياء وأدوات منزل، بعد أن سئم لغته العربية المهجنة، والبحرة التي اشتراها كاملة، وزرعها في حديقة البيت المستأجر في العفيف، بعد أن سئم الزجاج الذي غطَّى به باحة الدار ليحمي البيت من برد الشتاء، ويحتفظ بالبيت الشامي في الآن نفسه، بعد أن سئم السيوف والدروع والكزاغندات، بعد أن سئم الرانات، والرنكات المخلوعة عن مدارس هُدِّمَتْ لشقّ شوارع تمشي فيها الدبابات والمصفحات بسهولة، بعد أن سئم الطبنجات، والقرابينات، والكامات، والخناجر.. قال: سأنزل المدينة أتعرف عليها. وحين قال ذلك وافق روجيه بسرعة، فقد أراد للمدينة أن تتبنى ابنه، فتتبناه معه، قال، سأعطيك الخريطة. فقال: لا حاجة بي إلى الخريطة.. لدي صديق يعرف المدينة.

ومضى إلى إياد، كان البيت هذه المرة مختلفاً، مختلفاً تماما عن بيت روجيه ذي البحرة المزروعة في حديقة الفيلا المغطاة بالزجاج والمثقلة بأجران حجرية مستعارة من بيوت مهدومة، وبجرار متكئة على الجدران وقد تدلَّت من أفواهها حشائش الماء النضرة، والمقطعة بأقواس حجرية انتزعت من حارات عفى عليها الحريق فجمعت ونصبت أقواساً لحارات مفتوحة على الهواء والنور والفراغ، كان البيت مختلفاً عن بيت نجدت المنزوي بعيداً عن الباحة والمغلق على نفسه هرباً من قرِّ الشتاء وحرِّ الصيف، مختلفاً عن إيوان نجدت المجَّدر بالزجاج والذي ابتكر بحيلته هذه حلاً لانفتاح الإيوان على الطبيعة والحياة، كان البيت الذي لم تصبه البومبة التي خاف منها أبو إياد، فتكشف، لو أصابته، للصوص عن سجاده العجمي المخزون للزمان وعن ليراته الذهبية المحفوظة لغدرات الأيام كبيراً، كبيراً بباحته المبلطة بالرخام الأبلق وببحرته دائمة الدفق وبإيوانه الفسيح المفتوح على الباحة والمسقوف بلوحات ساذجة اختلطت

فيها المرايا والنقش العجمي والحفر العربي بلوحات إيطالية التصميم والألوان عن نساء يستحممن إلى جانب نافورة مظللة بأشجار شديدة الخضرة متدلية الأغصان على بحيرات نيلية الزرقة، يسبح فيها حسناوات أوروبيات الأنف والعينين.

التقطت عينا فياض كل هذا بسرعة قبل أن يقدم إياد له القهوة، ويسأله عن الأيام التي قضاها في المدينة وكيف قضاها، ولكن فياض قال بسرعة: إياد.. دعنا نتجول في المدينة.

وضع إياد فنجانه الفارغ على الطاولة الصغيرة، لبس جاكيته وقال:

ـ هيا.

ـ إلى أين؟

ـ نتسكّع

وتسكعا، فنفضا غباراً عن قبور، ومسحا خيوط العنكبوت عن مزارات، وتأمَّلا قباباً في مساجد، وتلمَّسا نقوشاً في منابر، وقاسا نسب المثلثات إلى المربعات إلى المثمنات في محاريب وأخيراً، ألقى بهما التعب في مقهى قريب من الجامع الكبير، الجامع الأموي، مقهى صغير منزوٍ يمتد إلى جانب بحرة كبيرة ازدهرت بنافورتها العملاقة تنثر الماء والرطوبة، فأسموا المقهى على اسم النافورة فصار اسمها مقهى النوفرة، وسيذكر فياض هذه الزيارة كثيراً.. سيذكرها مع إياد، ومع منصور، بل مع سعيد خادم المقهى الذي لن ينسى أيضاً زيارتهما الأولى. وقال إياد بلهجة الدليل السياحي: انظر، هذه هي دمشق، تتكىء بظهرها إلى الأموي، وأمامها تمتد هذه البحرة الشاربة من بردى بنافورتها الدائمة وحمامها العتيق.

وكأن اللهجة الجادة لاتناسب إياد، أو أنه لايستطيع الحفاظ عليها طويلاً، فأشار إلى ثياب بيضٍ كثيرة معلَّقةٍ على حبال ممتدة عبر الشارع، وقال:

ــ أما هذه فمنا.. شف.. ومطَّ الكلمة حتى أقصاها.

ــ مامعنى هذا..؟

وأطلق أخيراً ضحكته المرجعة: مناشف المستحمين يغسلها الحمامي بعد كل زبون، ثم ينشرونها في الشمس لتجف.

ــ ها ااه!

كان من سيصبح سعيد خادم المقهى، وصديق فياض حين لايتبقى له أصدقاء، يتأملهما باستغراب، الفتى الرقيق الناظر إلى كل شيءٍ باندهاش، والفتى الضخم الممتلىء، مرجع القهقهات يتأمل ماحوله وكأنه يملك كل شيء.

كان منظرهما متنافراً مع المكان بزِّيهما الأوروبي، ومتنافراً بانتظارهما من يقدم لهما طاولة وكرسيين. واقترب سعيد يمسح كفيه بالوزرة المحيطة بخصره، وقال إياد متبسطاً: ألن تجلسنا، أم تريدنا أن نظل واقفين؟ ونظر سعيد حوله مستغرباً، فالطاولات خالية والكراسي مكوَّمة، فلِمَ لايجلسان؟ ولكنه بسرعة تفحص كراسيه، فانتقى أجودها، وأحدثها لوناً، وانتقى طاولة معدنية صغيرة صفَّ الكرسيين حولها: تفضَّلا. وقال إياد بعد أن جلسا: التمر هندي عندك، كيفه..؟

ــ بيخدم شوارب الطيبين.

ــ طيب اسقنا تمر هندي.

أشار سعيد بكفيه إلى قلبه بخفة، ثم إلى رأسه مطيلاً من ملازمة كفِّه رأسه، ثم انسحب.

وأخذ فياض يتأمل المكان والرواد، وكانوا يغضون أبصارهم بأدب أمام نظراته المتفحصة الوقحة ولايعرف أنها وقحة، راقب قنابيزهم، وشراويلهم، وكوفياتهم، وطرابيشهم، عباءاتهم، وجلاليبهم، واحتفظ لنفسه بملاحظة عن هذا الكرنفال، ولم يقلها لإياد.

كان التمر هندي معطراً بماء الزهر، وكانت قطع الثلج المجروش تعوم فيه، تذوقه بطرف الشفة وتمتم: هم..

وقال إياد متسائلاً: هه؟

ـ شراب ممتع فعلاً.

لم يدرك فياض سبب زيارة المكان، ولم يسأل لِمَ تخلَّى الرواد عن الباحة -حيث الهواء ورطوبة مابعد العصر تنثرها النافورة، فتجعل المكان متعة حقيقية- إلى عمق المقهى المغلق المغلف بدخان النراجيل والسكائر، ولكن إياد لم يتركه يتلذذ بنعمة الإصغاء إلى خرير النافورة، وتأمل كرنفال الثياب، فأشار إلى رجل سمين معتمٍّ بعمامة من الأغباني الملفوف على طربوش فاقع الحمرة، وقد برم شاربيه الأسودين إلى الأعلى في اعتزاز، وجلس على الكرسي الخشبي الكبير، ثانياً واحدةً من ساقيه تحت وركه مقيماً الأخرى، أما نربيش النارجيلة، فقد امتد من يده الممسكة بالمبسم حتى النارجيلة المرفوعة على طاولة قريبة، وكان يقول شيئاً لابد أنه يلذ للمستمعين من حوله، فقد كان يشير بمبسم نارجيلته حين ينتزعه من فمه ليكمل حديثه، ثم يعود به إلى فمه لتقرقر النارجيلة ثانية.

وقال إياد: أتعرف من الرجل؟

ـــ وكيف لي أن أعرف؟

ـــ إنه أبو كاعود الفوال، قبضاي العمارة والنوفرة، وأحد رجال الثورة المعروفين.

ـــ تعني أحذ أولئك الذين حملوا السلاح في حركة الخامس والعشرين.

ـــ نعم.

والتفت فياض من حوله: والفرنسيون. كيف تركوه؟

وهز إياد رأسه في استهتار حزين: انتهت الثورة يافياض، وهذا أوان التحركات السلمية فقط.

وكرر فياض وراءه: هاه.. التحركات السلمية.! ثم وكأنما أراد أن يتأكد فتابع: كيف؟

ـــ الأحزاب السياسية، الوفود، المؤتمرات، وأطلق ضحكته الممرورة: نحن ندخل الديمقراطية ياصديقي، أليس هذا ماتريد؟

ولم يلتقط فياض سخرية إياد فقال: أظن هذا أكثر منطقية.! ألا تعتقد ذلك؟

ونظر إيادِ إلى فياض الذي لم يلتقط جرحه ثم هز رأسه في غموض: ربما.

خرج سعيد من المقهى يحمل سطلاً ملأه من البحرة، وأخذ يرش منه الماء على الأرض المبلطة بالحجارة البازلتية السود: لاتؤاخذنا.! قال وهو يمرُّ إلى جوارهما يرشُّ الأرض. فرغ السطل، فملأه من البحرة، ثم دار به نصف دورة رشَّ بها الأرض البعيدة عن المقهى. وعبق المكان

برائحة تراب خفيفة، وأخذت الكراسي تتزحزح وتتجمع ليجد فياض وإياد نفسيهما يجلسان وحيدين فالتفت فياض إلى إياد: ماالذي يجري؟

ــ لاأعرف! ثم نادى الخادم فسأله، وضحك سعيد معتذراً: إنه وقت الحكواتي. قالها بخجل ضاحك أن يقول شيئاً كهذا أمام أفندية متعلمين ــ تسلية الدراويش.. وضحك إياد حين ابتعد الخادم: ــ تسلية الدراويش، إنه يتملقنا، تعال، تعال.

حمل كرسيه، فتبعه فياض، واقتربا من الحلقة، ولكن الخادم ماإن رآهما حتى شقَّ الحلقة بسرعة: أتحبَّان سماع الحكواتي؟

ــ ولِمَ لا؟

ــ إن كان كذلك، يمكن أن نختار لكما مكاناً أفضل.

ــ لا.. هذا مناسب.

ولكنه أشار إلى اثنين من الجالسين في الصف الأمامي، فأخليا كرسييهما، وتقدمهما تحيط بهما نظرات الجموع المستغربة لمجيء أفندية متعلمين إلى سهرة كهذه، ولكنهما اتخذا مجلسهما الجديد بهدوء.

كان الحكواتي العجوز نحيلاً حتى الشحوب، وكانت لحيته البيضاء الخفيفة تثير الشفقة، وكان إلى جانبه كيس قطني أبيض يشي بأن مافيه كتب، وكان ينظر إليهما باستغراب متوتر، ولكن إياد بادر فحيا، فردَّ التحية باحترام، ولكن الارتباك لم يختفِ تماماً.

ــ ياأهلاً وسهلاً، ياأهلاً وسهلاً ــ قال الحكواتي في ترحيب مبالغ فيه، ثم أكمل وقد تمالك نفسه مسيطراً على الموقف ــ كنا نقرأ على الإخوان سيرة الملك الظاهر.. هذا السلطان الذي حرر برَّ الشام من الفرنجة اللئام ــ وتوتر شيء ما في فياض، فما معنى هذا؟ــ ولكن

الحكواتي التفت إلى الحاضرين ــ حتى يعرف الإخوان ماكنا نقرأ ــ وهمهم الحاضرون بأريحية مستجيبين: طبعاً طبعاً، فتابع: وكان الملك الظاهر بيبرس – رحمه الله – قد صار سلطاناً بمساعدة المقدم إبراهيم الحوراني، والمقدم جمال الدين شيحة أبو الملاعيب والحيل ومقدم المقدمين معروف، وكان السلطان صلاح الدين – رحمه الله – قد كسر الفرنج وطردهم من بيت المقدس فلم يبق لهم إلا طرابلس وعكا وصور وبعض الساحل، وكان الكثيرون منهم قد هربوا إلى قبرص فجعلوها مملكة لهم ومن هذه الجزيرة صاروا يؤذون المسلمين.

وحدَّق في فياض وإياد وكأنه يقول: هه.. مارأيكم؟ ولكن إياد هزَّ رأسه في استحسان، أما فياض فقد شعر أنه قد وقع في فخٍّ حقيقي، فما معنى هذا؟ ولمَ لم يتذكر هذا الحكواتي من كل حكايات العالم إلا حكايات الملك الظاهر والفرنجة والصليبيين؟ وتابع الحكواتي: وكنا قد توقفنا بالأمس عند قصة ابن المقدم معروف، هذا الذي ولد في بلاد الإفرنج حين اختطفت أمه الفرنجية الحامل به، فنشأ فرنجياً، وكبر فرنجياً، وصار من أعدى أعداء الإسلام وأشدهم بأساً وكان المسلمون حين يسمعون باسم عرنوس، عرنوس؟ وضحك فياض لنفسه، ولكن هذا اسم الحي الذي يسكنه نجدت ــ يصابون بالرعب، فهو القاتل، وهو الفارس، وهو مشتِّتُ الجماعات، ومفرِّقَ الزرافات.

وفجأة تغير صوت الحكواتي فامتلأ بالحزن: أما عرنوس ابن الطيبين، طويل القامة، جميل الهامة واللي على خده شامه قدُّ قرص العنبر، فكان عريض المنكبين واسع الصدر قوي الزندين، سريع الحركة، نمر بن نمر، وله سطوة تقطع الظهر، والشجاعة تشهد له وما تشهد عليه، فنظر إلى المقدم إبراهيم الأسمر الطويل واللي دراعه مثل

دراع الفيل، وعيونه السود بيرعبوا لو شفته بالليل.

وصاح إبراهيم: رسول، وما على الرسول إلا البلاغ، سلامي على من اهتدى، وخشي عواقب الردى، واللعنة على من كذب، وتولى. قال عرنوس: ماذا تريد؟ قال له: معي كتاب من أمير المؤمنين، قال: هاته لنقرأه، فأعطاه الكتاب ففضَّه وقرأه، وإذ فيه خطاب من أمير المؤمنين الملك الظاهر بيبرس: إلى الملك عرنوس.. اعلم أنك من نسل الأمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، ولست من نسل الفرنجة اللئام، والواجب عليك ياولدي أن تعرف أصلك لتكون على بيِّنة من أمرك، فأبوك المقدم معروف بن جمر سلطان القلاع والحصون صاحب الأصل الأثيل، فاترك الآن أعداءك وأعداءنا واحضر إلى عندي، إني أنصحك، ولن أغشَّك، ولا تظن أني أقول ذلك لأخدعك، أو أني خائف منك، فأنا أعرف أنك لاتحتمل جولة أو جولتين حتى تكون في قبضة يدي أنت وجيشك وبالختام السلام على من اهتدى، وخشي عواقب الردى، واللعنة على من كذب وتولى.

فلما قرأ عرنوس الكتاب تعجَّب وقال لجوان الخوان: اسمع مايقول لي الملك الظاهر. قال: أنا ابن المقدم معروف.. قال جوان: هذا كله خوف منك لئلا تملك البلاد منه، فاكتب له الجواب بالحرب. فكتب الجواب مثل ماقال له جوان، وأعطاه للمقدم إبراهيم الحوراني، فأخذه وسار إلى عند مرافقه سعد، وركبا فرسيهما، وعادا إلى أن وصلا إلى السلطان، فأعطى إبراهيم الجواب إلى السلطان، فقرأه، ووجده بالحرب والطعان، فمزَّقه ورماه، ثم اصطفت العساكر على الجانبين،

وقُرعت الطبول، فخرج من الأعداء فارس في الحديد غاطس، صال، وجال في الميدان، وطلب المبارزة، فغار عليه المقدم حسن

المشناتي، وزعق فيه، وضربه بالحسام على رقبته أزاح رأسه عن جثته، فنزل له الثاني ألحقه بأخيه، والثالث دحاه، والرابع أرماه، والخامس كذلك ماخلاه، ومازال يقاتل، ويجندل من اللئام إلى أن قتل منهم ثلاثين، فوقفت عنه فرسان الأعداء مما لاقوا من شجاعته وقوة زنده، فلعب في الميدان، وصار يغير عليهم، فلما أعياه الأمر ولم ينزل أحد إلى الميدان رجع إلى الخيام، فهنأه الرجال بالسلامة وترحب به السلطان وتشكّره على فعاله، وثاني يوم نزل المقدم حسن النسر بن عجبور، ففعل أفعالاً في الميدان تعجز عنها صناديد الرجال، فقال المقدم إبراهيم الحوراني: أريد من مولانا السلطان أن يسمح لي غداً بالنزول إلى الميدان لأني تشوقت للقتال. فقال له الملك: مقامك محفوظ عندي ياإبراهيم لمقاتلة الأبطال، فسكت إبراهيم.

ودامت الحرب عشرين يوماً، وكل يوم تخسر الأعداء جملة فرسان حتى ضجَّت الإفرنج، وشكوا للملك عرنوس، فقال جوان الخوان: ياملك، هذا شيء يطول شرحه.. أؤمر العساكر بالحملة جملة حتى تبلغ الأرب. قال عرنوس: حتى أنزل أنا، وألتقط فرسانهم، وبعدها تحمل العساكر جملة، وفي الصباح أعلم الملوك أن لاأحد يبرز إلى الميدان لأن الملك عرنوس يريد النزول إلى الميدان، فنزل عرنوس وهو راكب جواده، متقلِّدٌ بسلاحه ومصفَّح بالحديد، ولما توسط الميدان صال، وجال، وطلب مبارزة الفرسان، وقال: دونكم والقتال، فبرز له أيدمر البهلوان، فتضاربا، وتقاتلا، وتباعدا، وتقاربا قدر ساعة حتى تعب أيدمر، فانقض عليه عرنوس، واقتلعه من سرجه، وأخذه أسيراً، فبرز له الأمير علاء الدين، فما جال معه إلا قليلاً حتى طعنه بكعب رمحه شقلبه، فنزل إليه الأمير سنقر، وبعده الأمير بشتك ثم الجلولي أخذهم كلهم أسارى، وثاني يوم نزل المقدم النسر بن عجبور، وتقاتل مع عرنوس ساعة، فعرف عرنوس

أنه بطل شجاع وقرن منّاع، فاستلَّ من تحت فخذه حربة ماضية، وقذفها على المقدم بن عجبور، فأصابت فخذه، فقال له عرنوس: اذهب الآن وداوِ جرحك، فعاد النسر من الميدان وهو مكسوف.

فلما رأى معروف فعال ابنه عرنوس سُرَّ وابتهج، ثم دُقَّتَ طبول الانفصال، فلما علم السلطان أفعال عرنوس غضب غضباً شديداً، وقال لإبراهيم: جاء دورك فانزلْ غداً لعرنوس وائتني به ذليلاً مهاناً. قال: السمع والطاعة ياأمير المؤمنين. وثاني يوم من الغد برز عرنوس إلى الميدان، وطلب الفرسان للمبارزة، فتأهَّبَ إبراهيم للنزال، وأراد أن يركب فرسه، وإذا بالمقدم خاله معروف أتى إليه، وقال ياابن الشمطا مرادك تنزل لولدي عرنوس وتكسر نفسه وهو ابن خالك، قال إبراهيم: الملك أمر، قال: ولو أمرك. ضيِّعها. لأني أخاف عليه منك لأنه لم يزل طري العود. قال: كيف نعمل ياخال. قال المقدم معروف: أنا أنزل إليه، وأنت واجه السلطان، ودبرها. قال إبراهيم لخاله معروف: تفضَّل، انزلْ وحسبي الله.

ثم إن معروف عندما نزل ولده عرنوس إلى الميدان برز إليه، فقال له عرنوس: من أنت أيها الشيخ. قال: أنا معروف أبو عرنوس الواقف أمامي لقتالي. اسمع ياولدي: أنا أبوك، وأمك مريم بنت ملك جنوا، والآن هي موجودة عند والدها، وقاعدة حزينة مقهورة لأجل فراقك، والآن أنا جئت إليك راجياً أن ترحم شيبتي وتطيع أمري، واعلم أنك أنت ولدي، وهذه الشامة التي في وجهك بوجهي مثلها بالذات، وأنت لست ابن مغلوين، فمن أين للقرود أن تلد الأسود؟ فأنا عندما رأيتك تفوقت على الفرسان فرحت بك وسررت، والآن قاتلني لأرى ماتعرفه من أبواب الحرب والطعان، ثم إن عرنوساً صار يقاتل أباه، ويضربه ضربات

صائبات، وأبوه يبطلها، ويعلِّمه الذي لايعرفه من فنون الحرب إلى أن زال النهار، ورجع معروف من الميدان.

أما إبراهيم، فسار إلى السلطان، فقال له الملك: أين عرنوس ياإبراهيم؟ قال: ياأمير المؤمنين عرنوس فارسُ شديدٌ، وبطل صنديد، وإن شاء الله غداً آتيك به أسيراً مهاناً، فاطمأن الملك. إلى ثاني يوم، أراد إبراهيم أن ينزل إلى الميدان عندما برز عرنوس، وإذ بالمقدم معروف أقبل وقال لإبراهيم: أرجوك أن تسمح لي أن أنزل إلى ابني، فسمح له، فبرز إلى ابنه، وصار يعلمه فنون الحرب إلى أن زال النهار ورجع من الميدان.

ودام هذا الحال ثلاثة أيام، فغضب السلطان وقال: غداً أبرز إلى الميدان، فخاف معروف على ولده من السلطان، فكتب كتاباً، وأرسله إلى عرنوس وقال له: خذ حذرك، فإن السلطان غداً سيبرز لك، ويأسرك، فاربط وسطك بالسلاسل إلى السرج، فإذا أراد أن يقتلعك من فوق السرج، ويأسرك تكنْ ثابتاً، فكُنْ على حذر منه لأنه جبار لايصطلى له بنار، فلما وصل مكتوب معروف إلى ابنه عرنوس أتى بسلسلة من حديد ولفَّها على خصره، وجعل لها أربع حلقات، وعمل لكل حلقة سلسلة وثبَّتها في السرج حتى صار هو والسرج قطعة واحدة، وثاني يوم برز إلى الميدان وقال: مايبرز لي إلا السلطان! فأعلموا الملك أن عرنوس برز إلى الميدان وقال: مايبرز له إلا أنت يامولانا، فتعجب السلطان وقال: كيف صار عنده خبر أن مرادي أبارزه في الميدان، ثم نهض السلطان الظاهر، واستعد للقتال، وقدموا له الجواد الأدهم، فركب وانحدر إلى الميدان، وصار يتقاتل معه ساعة من الزمان إلى أن رفع السلطان الدبوس وضرب به عرنوس، فتلقى عرنوس الضربة بالترس، فثنت يده إلى كتفه، فشعر أن كتفه انخلع من قوة الضربة، أما عرنوس فضرب

السلطان بالسيف على رأسه، فتلقى الظاهر الضربة بالدبوس، فانكسر السيف، ومابقي بيد عرنوس إلا قطعة من السيف، فعند ذلك انقضَّ عليه السلطان، وقبضه من خصره، وأراد أن يقتلعه من بحر سرجه وإذ هو والسرج قطعة واحدة، فعرف السلطان أنه مثبتٌ نفسه بالسرج، عند ذلك قوَّى عزمه، وشدَّه بساعده، وقلعه هو والسرج من ظهر جواده وغار به وهو رافعه بيده إلى أن وصل إلى باب الصيوان، ورماه إلى الأرض، وقال: ضعوه على نطع الدم، فإذا لم يطع أباه ويسلم اقتلوه.

أما عرنوس، فإنه صحا من غشيته، فرأى نفسه في محلٍ الإعدام والسَّيَّاف منتظرٌ أمر السلطان بقطع رأسه، فغمَّض عينيه ونام، سبحان الذي لاينام، ففي هذه الأثناء رأى جده الإمام علي أمير المؤمنين يقول له: اعلم أن أباك معروف من أولادنا وأنت ابنه، فأسلم. فقال له عرنوس: ومن أنت يازينة الأخيار؟ قال: أنا علي بن أبي طالب. فقال عرنوس: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، فأسرع إبراهيم إلى خاله معروف وقال: أريد منك البشارة ياخال، إن ولدك عرنوس أسلم في هذه الساعة.

وتعالت أصوات الجالسين أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. تأمل فياض الوجوه المستكينة وقد انتفضت بالعزة، والوجوه المستسلمة وقد ملأها الفخار، وتساءل: ولكن ماعلاقة هؤلاء الدكنجية، والسمانين، واللحامين، والحماميين بأولئك الذين حملوا السيف ورفعوا الدبوس؟ وتابع الحكواتي:

فقال له معروف: اطلب مني ماتريد، قال ياخال بعد عمر طويل أطلب منك أن توصي لي ببذلة السلاح، والسيف ذي الحيَّات. قال: هما لك ياإبراهيم، ولايلبس بذلة الزرد، ويحمل ذا الحيات إلا أنت لأنك أنت

السابع، والموعود بنقلهم وحملهم. فتقدم إبراهيم ووضع يده على جبهة عرنوس فأفاق من سهوته وأقرَّ بالشهادتين.

وارتفعت الأصوات ثانية بالشهادتين وخيَّمَ على المكان جوٌّ من الخشوع جعل فياض يتوقف عن مراقبة الوجوه ويكتفي بسماع الحكواتي الذي تابع:

فلما سمعه أبوه المقدم معروف كان أفرح الناس بولده عرنوس، وتقدَّم، وخلَّصه من نطع الدم، وصار يقبله، ثم أخذه لبين إيادي السلطان وقال: ياأمير المؤمنين: ولدي عرنوس أسلم، فنهض الملك واستقبله، وصافحه، وقال له: هنيئاً لك بما أُعطِيْتَ يابني، فاطلب مني ماتريد. ثم أجلسه بجانبه، وقال عرنوس: أريد ياأمير المؤمنين أن أسير إلى الجيش الذي معي أعرض عليهم الإسلام، فمن أسلم قبلناه، ومن أبى رحَّلناه إلى بلاده، ومن طغى وتجبر، وأراد القتال قاتلناه، فقال السلطان: افعل ماتريد، نَجَّحَ الله أعمالك. فركب عرنوس جواده ورجع إلى جيشه.

رفع الحكواتي رأسه، تنهَّد، فتنهد الجميع وقال: وبكرة إن شاء الله نكمل لكم الحديث، ونشوف مايصير مع عرنوس بن معروف.

كانت خيمة الليل قد رفعت عمدها منذ أمَد طويل، ونظر فياض إلى السماء حين خرجا من المقهى، فلم يرَ فيها إلا نجوماً صغيرة بعيدة تتلصص بعيونها الصغيرة من خلال أوراق الدالية، سمع الهمهمات وسمع: الله يعطيك العافية، ويَسْلَم ها الفم و.. كانت يد الحكواتي مشبوكة بيد إياد وهما يخرجان من المقهى، وفهم فياض بحسدٍ خفيف أن إياد استطاع أن يبني جسراً مع هذا الرجل العجوز حامل الحكايا القديمة، سلَّم على فياض وعلى عينيه نظرة ممتنة متآمرة، ولم يفهم فياض لمَ شعر بأن الرجل كان يشكرهما على أنهما استمعا إليه؟!

ابتعدا ووقع أقدامهما يصدي في القباقبية، وصلا سوق الصاغة العتمة وحين وصلا المسكيَّة لم يستطع إياد الحفاظ على الصمت فالتفت إلى فياض:

ـ هه، مارأيك؟

ـ لاأعرف.

ـ مااللذي لاتعرفه؟ ها أنت زرت المدينة ورأيت ماضيها، وها أنت بالمصادفة تسمع تاريخها، تاريخهم هم، لا تاريخ الكتب، تاريخ البطولات والفتوحات والتحرير و.. أف، لم لاتتكلم؟

ولم يجد فياض مايقول، فقد كان ذهنه مايزال مشغولاً بقصة معروف وعرنوس، والملك الظاهر، والفداوية، والفرسان، وللحظة تساءل: أليس هو التاريخ نفسه الذي قرأه لدى غليام وأسامة، ولكنهم يتناسون الأسماء المجلجلة الكبيرة العظيمة، ويختارون أسماء صنعوها هم، ورأوا فيها أنفسهم، ولكن من عرنوس هذا؟ من عرنوس هذا؟ وماقصة زواج معروف بابنة ملك جنوا، وهذا الابن عرنوس إلى من ينتمي حقاً؟ إلى أبيه العضوي، أم إلى الفرنجة الذين ربوَّه و.. كيف؟ وفجأة شعر أنه يجب أن يعرف كل شيء، فالتفت إلى إياد: أهي قصة طويلة؟

ـ أية قصة؟

ـ تلك التي سمعنا بعضها، سيرة الملك الظاهر.

ـ هه، رأيت الكتاب مرة، أعتقد أنها ربما كانت ألفاً وخمس مئة صفحة، ربما ألفان.. شيء كهذا.

ـ آه! كبيرة.. كبيرة جداً. تعرف.. أفكر بقراءتها.

ــ أعجبتك؟

ــ كثيراً.

ــ حسن، سآتيك بنسخة منها.

ــ لا.. تستطيع؟

ــ بالطبع؟

ركب فياض الترامواي المتجه إلى الصالحية مودعاً إياد وعلى رنات جرس الترامواي أخذ اسم عرنوس يرنُّ مع إيقاعات الجرس، عر.. نوس.. عر.. نوس.. ثم لم يلبث أن تحوّل إلى مع.. روف.. مع.. روف..

وحين اجتاز الترامواي بوابة الصالحية أخذ اسم جديد يتسلل.. أسا.. مة.. أسا.. مة.. وقبل أن يعي هذا التحول كان الترامواي قد وصل فعلاً إلى عرنوس، وسمع قاطع التذاكر يعلن، ساحة عرنوس، فهرب أسامة وعاد عر..نوس..إلى جرس الترامواي، ولكنهما ما إن وصلا الجسر الأبيض حتى غاب عرنوس ثانية، وعاد أسا.. مة.. أسا.. مة.

دخل البيت. قبّل ماتيلد. سأل مجاملاً عن روجيه:– ولكنه في الخارج يسهر مع رفاقه في النادي، انتظرك طويلاً، لِمَ تأخرت؟ ثم، ياالهي! لم أنت شاحب؟ أهناك مايزعجك؟ ولكنه تخلَّص منها بلطف، ومضى إلى مكتبة روجيه. أشعل النور الكهربائي، فهاجمته مباشرة الرماح والدروع وقمصان الزرد والحراب والطبنجات والقرابينات، وهتف: ياإلهي! أيُّ هذه الرماح أو السيوف كان لعرنوس، أو لإبراهيم الحوراني، أو.. أيها كان لأسامة؟

اقترب منها، تفحصها، تأملها، تنهد قليلاً واستدار ليعود إلى غرفته ولكنه لم يحس برغبة في النوم: وفجأة تمنى لو كانت سيرة الملك الظاهر بين يديه الآن لقرأها، وعرف مصائر هذه الشخصيات التي أرّقته وأقلقته، اتجه إلى الكتبية، استعرض العناوين وفجأة رأى اسم أسامة و..استلَّ الكتاب. استلَّ مذكرات الرجل الذي عاش في شيزر، وحارب الفرنج، وصادقهم، وفاوضهم، وشهد اندحارهم من القدس.

أخذ الكتاب، مضى إلى غرفته، قلَّبَ في الكتاب الذي قرأه منذ لقائه إياد عدة مرات، قرأ مقطعاً من هنا، ومقطعاً من هناك، وأحسَّ بتعب اليوم كله يحل عليه فجأة، وطرح الكتاب على الطربيزة إلى جانبه و.....

(١٢)

قناديل وأنوار، أسرجة وثريات، شموع وكافور، بخور وطيوب، عيون مظللة بالأزرق والأخضر والبنفسجي، وعيون ضيقة الفتحة امتدت شرطتها حتى الأصداغ، أنوف دقيقة، وأنوف مسطحة، وجنات حمر وصفر وزرق، شفاهٌ لِعسٌ وسُمرٌ وملونة.

دوار خفيف لفَّه وهو يجول بعينيه: فيليبا يافيليبا أين أنت..؟

أثداء كبيرة مظلَّلةٌ بتدرجات الوردي، أذرع ممتدة من المقاصير.

ـ حبيبي.

ـ عصفوري.

ـ غرامي.

ـ تعال.

ـ جَرِّبْ، عِشْ حبي مرة.

كفوف صغيرة لفتيات لم يجتزن الرابعة عشرة، أنامل دقيقة كقطع السكر، وأذرع سمينة، وآباط تنزُّ بروائح الند والصندل. يتقدم. لغات ولغات، عربية وتركية، يونانية وفرنجية، ألمانية ونورماندية، همسات

وفحيح، أنين وألم، وجوه شبقة، وعيون فرحة، عيون ذليلة وهمسات وقحة، و.. يتقدم.

مقاصير تمتد منها أذرع عارية التفّت حولها ثعابين الذهب والفضة، أصابع نحيلة وطويلة، خواتم عقيق وزبرجد، زمرد وياقوت، أصابع ممتلئة عرقى سمينة، أظفار مقصوصة حتى اللحم وأظفار طويلة مطلية بالحناء، الأذرع والأصابع تمتد، ترجو، تتوسل، تغري، تتساءل، تلحُّ، تتشعبْنَ متطاولةً.

– فيليبا يافيليبا أين اختفيت؟

قهقهة ماجنة إلى اليمين، يلتفت، مؤخرة ذكرية ضخمة مرتفعة في وقاحة مرحة وساقان بيضاوان صغيرتان و.. يتقدم..

فتاة في ثوب رقص نصفي نشرت ذراعيها وهي تتمايل نصف سكرى، طفلة مازالت، عرفها من ثدييها الطفلين، ولكن الأصباغ الوقحة لوثت وجهها حتى مايعرف إلا للمتمعن، اقترب قليلاً يتفحصها، ورحب السكارى بمقدمه فرحين:

ـ أهلاً بالأمير.

ـ مرحبا بأميرنا.

ووسَّع أحدهم له مكاناً إلى جانبه، انتظرناك طويلاً، لكنها ليست فيليبا. روائح النبيذ والتعرق الفاسد، صليل الخلاخل والتصفيق وطبلة بعيدة، البخور الخفيف والإضاءة الضعيفة، ولكن لِمَ تخليت عني واختفيت يابؤبؤ الروح؟ أنت تعرفين أني تخليت عن الجميع من أجلك، فكيف تمضين وتتركينني؟!

يفارقهم. يتقدم. يتمسَّح به. يلتفت إليه مفاجأً، جميل الوجه والقدّ طال

شعره حتى قذاله، الأصباغ تلوِّن الوجه الجميل، كم يكره تلك الألوان يلطخون بها وجوههم.

ـ ثيدي.. هل أمضي معك إلى الحديقة؟

نظر إلى الوجه الجميل طويلاً، وأحس بالشفقة والحنان والمرارة، وتذكر صديقه القديم الذي هجره منذ شهور. كان يشبهه، وكان كريتيا كهذا الغلام. تمسَّح به ثانية، أعطافه اللينة الرقيقة، كم يتمنى لو يأخذه بين ذراعيه، ولكن فيليبا.. فيليبا هجرته، ويجب أن يعود بها و..تركه وتقدم.

مقاصير صغيرة على الجانبين، أَسِرَّةُ ونمارق، زرابِيُّ وطنافس، ديباج واستبرق، سندس وحرائر، فتيات من الصين، من الهند، من بلاد الرس، من بلاد البلغار، من النورمان، من الفرنج، من الألان، من القوط، من بلاد العرب، شقراوات، وسمراوات، وصفراوات، كواعب ونواهد، معصرات وعوانس، نَصَفَات وكهلات، كل الطعوم موجودة يأندرو نيكوس، وماعليك إلا أن تشير بأنملة من أناملك، فيكنَّ عند قدميك، و.. لكنه يتقدم.

فيليبا، يافيليبا، يالهفة الأمل وحبَّ الأربعين، كيف تتركيني وتمضين؟ والى أين.. إلى حيث هددت! آه ياإلهي! ماأقسى قلب المرأة!

كانت قد ضبطته يغازل تلك الجارية الهندية التي أنهكها الرقص فسقطت في حضنه، فهل في ضمِّها و..قبلة من ثغرها، حرجٌ.

قالت وهي تقسم: لو رأيتك مرة، مرة أخرى تنظر إلى أخرى لأمضين إلى ماخور أبولو، وسأعلن للجميع أني معشوقة الأمير الأكبر اندرونيكوس، وسترى كم أجمع من مال، ومن عشاق.

ولم يأبه للقسم في حينها، فأميرة كفيليبا أخت بوهمند أمير أنطاكية

لن تفعلها، ولكنها ثانية ضبطته و..اختفت، اختفت من قصرها، واختفت من قصر الكونت بوهموند، واختفت من كاتدرائية الأحد، واختفت عن الصديقات، عن الأهل، عن الأقرباء، عن الجميع، ولم يكن يجرؤ على السؤال عنها صراحة، فالكونت بوهموند لم يرضَ أبداً عن هذه العلاقة، ولم يكتفِ بعدم الرضا، بل أرسل يشكوه وهو رسول بيزنطة العظيمة لإصلاح ذات البين بين بوهموند وطوروس الأرمني، فتخلّى عن الوساطة، وانغمس في متع أنطاكية.

ـ ولكن هل أستطيع ألا أنغمس، وهذه أنطاكية، وفيها ولد الحب، وأقامت أفروديت أول عرش لها؟!

لم يستطع السؤال، ولكنه رشا الخادمات والوصيفات والخصيان، فهمس أحدهم بأنها أقسمت أن تنتقم منه.. كيف؟ لا أعرف.

ورنَّ قسمها في ذهنه كالناقوس: أتراها فعلتها؟.. وتقدم.

أصابع قاسية تعتصر قلبه، أنا؟ فيليبا؟ ماخور أبولو؟ يصطدم رأسه العالي بشيء فيئنُّ من المفاجأة، يلتفت، مشكاة وزيت منسكب ونور يتأجج، يتحسَّس رأسه، الصلع المهاجم ياأندرونيكوس، ولكن فيليبا كانت تحبه، كانت تقول: أحب الرجل الرجل، لا الرجل المخنث. آه! راحت أيام كنت تهرب وكنَّ يلاحقن، ولكن ما زلن يلاحقن.. انظر.. الأيدي تمتد، ترجو، تتوسل وماعليك إلا أن تشير حتى يقدمن.

أووووخ، هؤلاء المأجورات، وهل لك من فضل على أي سوقّي وغدٍ من أسواق بيزنطة أو أدرنة، أو أنطاكية، سوقيٌ سرق من سيده بضعة دراهم، وجاء يسعى وراء حبهن، أنسيت؟

ولكن، فيليبا يافيليبا، كيف طاوعك القلب ومضيت، علمت القلب قد

تُيّمَ، فتدللت، وعلمت أن للكهل صبوة، فتأبيت، ولكن، وقهقه قهقهة خفيفة، ألم تكن المخطىء؟ أكان يجب أن تسعى وراء تلك الدانمركية الشقراء، وشهق ياإلهي! أي طول، أي طول وجسد؟ وذلك الشعر. لا. ليس أشقر، كان أبيض، فضياً، بلاتينياً، وتلك العينان، ولكن، لا. فيليبا شيء آخر، فيها نار المتوسط وقسوة النورمان وشهوة الفرنج. و.. تقدم.

ردف نحيل وشعر طويل تسلل من مقصورة قريبة، أسرع وراءها: فيليبا. التفت الوجه الملطخ بالأصباغ. كانت العينان تركيتين.

ـ أميري.

عرفته:

ـ لا.. ليس أنت.

ـ في الحديقة مقصورة مافيها إلا شحرور وخرير ماء.

ـ أراك فيما بعد.

ـ إنها الفرصة فلا تفلتها.

ابتعد. صاحبته القهقهة المجروحة الماجنة، لم يكن يفعلها سابقاً، ولكن فيليبا ملأت مابين القلب والروح والوجدان. ملأته حتى.. لكنه.. يتقدم. أأنت واثق من أنها هنا ياأندرونيكوس؟ تترك كل حانات أنطاكية، مرابعها ومنتزهاتها، وتلجأ إلى هذا المكان؟ ولكن، إنها هددت به أتتذكر؟ وانطلقت *(لماذا)* منه صارخة فضرب كفه على فخذه. انتبه. تلفت من حوله كانت الباحة خالية إلا منه، فالفصل خريف والبرد ألجأ الرواد إلى المقاصير.

انسحب.

ـ سيدي.. مبكراً تنصرف.

التفت إليها. آه! دسبينا! كنت الجمال فيما مضى. أما الآن؟

ـ أهناك مايحزن سيدي؟

كتل اللحم الأبيض المنبثقة من فتحة الإبط، الصدر العارم الضخم، كم كان إغراء فيما مضى.

ـ ألا تشرب كأساً؟ وسحبته من ذراعه إلى مقصورتها المجللة بالديباج.

الوجنتان الممتلئتان، العينان المختفيتان وراء اللون الأزرق المحيط بهما، الحمرة الصاخبة في الشفتين والوجنتين، شرطة الكحل الزرقاء تصل إلى الصدغين، الشعر المجعد والمعقرب حتى يغطي الجبين والأذنين.

ـ ألم تريها يادسبينا؟

ـ من. أيها الأمير؟

ـ فيليبا.

ـ وهذا ماجاء بك إلينا؟

ـ وهذا قليل؟

ـ أتحبها أيها الأمير؟

ـ كآخر قشة في البحر يتعلَّقُ بها الغريق.

ـ فلِمَ خنتها؟

ـ وتعرفين؟

ـ حدثتني!

ــ الطبع النكد. ولكن، ولكن..

ــ ولكن ماذا..؟

ــ فيليبا في القلب جرح مايندمل إلا بها.

ــ وتعود إلى الدانمركية لو عادت؟

وهتف في ارتعاش: وتعرفين مكانها؟

انشقت الستارة لتبدو عارية إلا من الحُسن، انشقت الستارة فاندفق العطر الفاغم مايترك للهواء مكاناً، انشقت الستارة ورأى الشعر الأبيض البلاتيني يغطي فيليبا فلقد صبغته لتنافس الدانمركية، انشقت الستارة وصرخ اندرونيكوس: فيليبا.

وفتحت ذراعيها في ارتخاء: تعال إلي أيها الوغد.

* * *

ارتعش الوجه ارتعاشة خفيفة، اتسعت العينان حتى بدت العروق الحمر في المؤق، ارتعش الوجه، فالخدان، فالشفتان، فالعنق، فالكتفان، فالذراعان المشدودتان جيداً، ثم انطلقت آهة ألم بدأت أنيناً، ثم تحولت لتصبح عويلاً، ثم نحيباً، ثم صراخاً، ثم انتفض الجسد كله في قسوة. انتزعت نفسها من أذرع الرجال المحيطة بها، وانتفضت في عنف أفلتها من مكبليها، ولكن سرعان ماسيطر الرجال على فزعهم، فأعادوا إحكام قبضتهم عليها، انتفضت، وأنّت، ونحبت، وعوت، وولولتْ، ثم أعولت، ونبحت، وأنّت، ومال الرأس مسترخياً على الأيدي القاسية المكبلة الخائفة من انفلات الشيطان منها.

اقترب منها، تحسسها، كانت هادئة تماماً، همس: ولكنها ماتت، اضطرب الفرنجي قليلاً، ولكنه تمالك نفسه بسرعة: استراحت.

كان رسول بوهمند قد وصل إلى شيزر، فمضى إلى الشيخ الجليل مرشد يستأذنه في استعارة طبيبهم المشهور ثابت، ولكنه دون أن يتحرك من مكانه أحالهم إلى أخيه سلطان: إنه الأمير.

ـ ولكن..

ـ لقد تنازلت له عن إمارة المدينة والقلعة منذ أمد طويل. تستطيع أن تمضي إليه، وتسأله.

وحين غاب الرسول التفت أسامة إلى أبيه: سيدي.

ـ هه. قالها دون أن يرفع رأسه عن المخطوط أمامه. كان يخطُّ ختمته العشرين، وكان يزينها بأزاهير الذهب، وفواصل الأرجوان.

ـ سيدي.. أشتهي أن أمضي معه!

ـ إلى أين؟ ولم يرفع رأسه.

ـ إلى أنطاكية مع ثابت!

ـ ماذا؟ صرخ وهو يرفع رأسه ـ تمضي إليهم. برجليك. إلى أنطاكية؟

ـ ولكننا في هدنة.

- وهل لهؤلاء البرابرة هدنة؟.

ـ سأخفي سيفاً تحت ثيابي.

ـ ومايفعل سيف في أنطاكية؟ أسامة.. هل جننت؟

ـ مولاي أشتهي أن أراها.. درة الشام وميناؤها.

ـ لا. لا أستطيع التفريط بك.

ـ مولاي أرجوك. ضقت بشيزر ومؤامراتها. عمي.. أنت تعرف. لايحبني.

ـ ماعليك من عمك.. أنت في بيتك وعند أهلك.

ـ أشتهي أن أسوح قليلاً.

ـ امض إلى دمشق، إلى حلب، الموصل، ديار بكر، مالك ولأنطاكية؟

ـ مولاي، لاتمنع عني هذه الفرحة أرجوك.

العينان السوداوان العجوزان الكابيتان، تتأملان الرمح السمهري الأسمر النحيل، اللحية السوداء الخفيفة، العينين السوداوين البراقتين المتحديتين الملتمعتين. العينان تصطدمان بالعينين، والرجاء يصطدم بالخوف. وأدركت العجوزان أن الفتيَّتين مصمِّمَتان، فرضخ رغم الحنو ورغم الخوف.

ـ لابأس. ولكن احملْ رسالة معك إلى بوهموند.

ـ سأفعل.

ومضى مع طبيب الأسرة إلى أنطاكية يتفرج على الفرنج في مدينتهم، مضيا لكن غير مقاتلين، مضى مع ثابت يحلم بالمدينة التي أضاعها ياغيسيان التركماني قبل سنوات.

الأقواس المتقاربة، البيوت المتحجبة عن الخارج إلا من شرفات خشبية. ياإلهي.. المدينة ماتزال أنطاكية، ولم يتغير فيها إلا النساء يحملن كراسيَّهن الصغيرة يجلسن عليها في الحارات وأمام الأبواب، أقنية الماء، فالنواعير الصغيرة تحمل الماء إلى الحارات العليا، أسواق البنادقة والبهارات، الفلفل والقرنفل والبهار وجوز الطيب، أسواق محاصيل الشام، القمح والشعير والحمص والفول تُكوَّمُ أكواماً وتكالُ بالمُدِّ والصاع، سوق البيازنة والدروع والرماح والتروس الزرد والرانات والكزاغندات، أسواق الجنوية والخيول الغالية الضخمة والأفراس العربية والحمير

والكدش والبراذين، ياإلهي! أنا مازال في الشام ولولا هذه اللكنات الغريبة إغريقية، وفرنجية، ونورماندية، وسلتية لظن نفسه يتجول في دمشق، أو حلب، أو حماة.

وغمزه ثابت في جبنه أخيراً: يجب أن نمضي إلى بوهموند، ومضيا.

أحسن الكونت استقبالهما، وقدم ثابت أسامة على أنه مساعده، فحوّلا إلى جانب من القصر اجتمع فيه بعض المرضى المقربين من بوهموند والميؤوس من علاجهم.. و.. جيء بالمرأة.

كانت غولاً أشقر عملاقاً منفوش الشعر واسع العينين طويل الأظفار الوسخة، وكانت رائحة من حموضة، وبول، وبراز تنبعث منها، فتحيلها إلى حيوان مخيف، وقال ثابت في هدوء: أطلقوها، ترددوا قليلاً، ولكن نظرته الواثقة جعلتهم.. يطلقونها.

الوحش الناري الموجوع، الوحش المنطلق من نار تحترق في القلب والأحشاء، أطلقت المرأة الألم صرخة حار أسامة فيها. أكانت عواء ذئب أم خوار ثور، أم تألم إنسان؟ ضربت رأسها بكفين قويتين، شدت شعرها لتخرج خصلاته الشقر بين أصابعها، أمسكت بثوبها من جيب الصدر وبجذبة واحدة تمزق الثوب لتنطلق حمامتان كهلتان مقصوصتا الأجنحة. تحرك الحرس الفرنجي في قلق.

ولكن ثابت أشار بجانب خنصره يأمرهم بالصمت، نظرت في وجوههم في رعب ولكن، هل رأتهم؟ وفجأة رأت النافذة المطلة على الباحة تبعد عشرات الأمتار، وقبل أن تنطلق إليها أشار ثابت إلى الحرس فسدوا النافذة بأجسادهم، وأطلقت ثانية نواحاً محروقاً، فانطلق الدخان من فمها حزيناً. قال: دعوها. فأطلقت أنيناً قاسياً. قال: دعوها، فتهاوت في مكانها خرقة بيضاء ملطخة بألوان رمادية ورصاصية. اقترب منها،

لمسها بإصبعه فأطلقت ضحكة مجلجلة بلهاء، أمسك بكتفها وفجأة انطلق العواء المجروح.

سأل عن إصابات حديثة فحدثوه عن ضربة عصا في الرأس.

ـ مَنْ؟

ـ الزوج.

أعطاها مقيئاً فانطلق الدم نافورة من الحلق، قال لأسامة: لديها قرحة في المعدة. سأل عن الخل والخردل إن كانت تأكلهما، فضحكوا: وهل يؤكل طعام دون خل وخردل، فأمر بمنعهما عنها، تفحص رأسها حيث الضربة، ولكن الجرح كان قد اندمل، أمر بحجزها وإطعامها طعام الصيام فقط، وبمنع الخل والخردل عنها تماماً.

التفت إلى القَيِّم وطلب المريض الثاني وجيء بفارس عملاق كشفوا عن ساقه إذا بدمّل بحجم الرمانة، طَهَّر الدَّمّلَ، نظَّفه، فقأه، فصرخ الفارس، ولكنه دهنه بمرهم، وطلب أن يعاد بعد يوم، أو يومين ليرى ما آل إليه.

سئم أسامة، فهمس لثابت يستأذنه في التجوال في الأسواق والعودة إليه، فهزَّ رأسه موافقاً.

أنطاكية ثانية، رطوبة البحر وروائح الزنخ، وقنوات الماء الوسخ المكشوف في الشوارع، وهتف لنفسه: ولكن لماذا؟ وسدَّ أنفه وتقدم. سوق الصقالبة، ورأى أكوام الفراء، الثعالب والنموس، السمور والمنك، الدب والخنزير، الخروف والماعز، ومن بين أكوام الفراء رأى ذلك الفراء الأبيض الناعم الجميل، واقترب يتأمل، ويرى ونازعته النفس في الشراء، ولكن أيشتري مساعد طبيب فراء سمور لايصلح إلا لأمير؟ تردد قليلاً، ولكن الفراء الأبيض المبطن بحرير أدرنة جعله يحزم أمره.

تناول الفراء. تفحَّصه، قلَّبه، ثم سأل عن الثمن ولكنه في وقفته الطويلة تلك لم يلحظ أبداً تلكماً العينين الرماديتين القاسيتين تحدقان به، تتأملانه، تتفحصانه وكراهية تنمو، وتحول الرماد إلى فضة، ثم إلى رصاص، وتنطلق اليدان المتشنجتان نافرتا العروق لتمسكا بخناقه تصرخان: قاتل ابني، أيها الناس: قاتل ابني روجار.

تملَّص منها، حاول نزع مخالبها عنه، ولكنها تحولت إلى ذئبة تدافع عن جروها الوحيد، تحلَّق الناس، تجمعوا، وجوه صلبة قاسية وذقون متطاولة إلى الأمام، أنوف نحيلة طويلة حادة، عيون زرق ورمادية ورصاصية قاسية، شطبات في الجبين والخد والرأس، وأدرك أسامة أنه انتهى، فمن له بشيزر الآن، ومن له بسيفه، ومايفعل أمام هؤلاء المتقدمين المتربصين الشرسين، يتقدمون والشر في عيونهم، وتمتم: أين أنت ياثابت. أين الرسالة إلى بوهموند؟

امتدت أيدٍ إلى أجنابها تبحث عن السيف، وامتدت أيد إلى الخناجر. فجأة قفز إلى دكان الفراء، وحمل هراوة كانت فيها يدافع عن نفسه، ولكن ماتفعل الهراوة أمام هؤلاء الوحوش عثروا على فريستهم؟ لم يعد يسمع صراخهم وشتائمهم ولعناتهم، بل كان يرى وجهاً واحداً للموت الساذج السخيف، المخجل دون فروسية وشرف يتقدم.

وفجأة توقفوا، التفتوا إلى الخلف، فنظر حيث ينظرون، ورأى عربة تتوقف، ورجلاً يلبس الأرجوان ضخماً ينزل، وسمع حواراً، وسمع كلاماً، وفهم أنه يستفسر عما يحدث، ورآه يضحك ورآه يقترب، ورآه يأخذه من كتفه ويقول للمجتمعين مشتهي طعم الدم: ولكنه برجاسي، هذا تاجر أعرفه ولا شأن له بالسيف أو الرمح، بالقتل والقتال، تعال، تعال.

أخذه من يده، أصعده العربة، ورأى فيليبا، ولكنها كانت تلبس ثوباً نيلياً من المخمل.

وهتف ثابت غير مصدق: الأمير أندرونيكوس نفسه! ياإلهي!

ـ وتعرفه؟

ـ كان حاكم قيليقيا وهو ابن عم الإمبراطور.

أنَّ أسامة في تعجب وخجل، فلقد أصبح مديناً لهذا الرومي بحياته، هزَّ رأسه قليلاً وقال: يجب أن نعود إلى شيزر.

ـ ومرضاي؟

ـ ألم تعالجهم؟

ـ هؤلاء الفرنج، هؤلاء الفرنج، المرأة مصابة برأسها وفي معدتها قرحة، وتأكل الخل والخردل، فتهيج القرحة، ويهيج الألم في الرأس، فتفعل مارأيت.

ـ أيمكن أن تشفى؟

ـ يمكن إذا أُحسِنَ علاجها.

في اليوم التالي مضيا إلى الجناح المفرد للمرضى، رأى أسامة المرأة وتوقَّع هيجانها، ولكنها نظرت إليهما في ضعف، كانت قد أُلبِسَتْ ثوباً من الكتان، سقاها ثابت شراباً، وكانت قد أجبرت على الحَمَّام رغم رفضها، ورفض أهلها، فنعم شعرها، وعاد إليها بعض حسن مريض، قص ثابت بعض الشعر عن الرأس ليرى مكان الجرح، وأخذ يدهنه بمرهم حين دخل فرنجي يلبس الأسود وقد حلق شعره، وترك هالة منه على جوانب الرأس، وما إن رأى ثابت وأسامة يعالجان المرأة حتى بربر، ودمدم غاضباً، فانتحيا جانباً. وهمس أسامة لثابت: ماذا يقول؟ وتمتم ثابت في حزن: يقول ما لهؤلاء وللطب. في رأس المرأة شيطان يجب إخراجه.

وهمس أسامة: وسيخرجه الآن؟

ــ دعنا نتفرج على حماقة الفرنج.

استخرج الفرنجي سكيناً حادة فحلق شعر المرأة كاملاً حتى رأوا بطيخة الرأس البيضاء. تلوَّتِ المرأة رافضة ولكن أربعة أمسكوا بها وبسرعة شطب رأسها بالسكين راسماً صليباً عليه، انتفضت المرأة تعوي من الألم، ولكنه لم يعبأ، وبربر ثانية فسأل أسامة: مايريد؟

ــ يريد ملحاً صخرياً خشناً.

ــ ولكن لماذا..؟

ــ لاأعرف، سنرى الآن.

جيء بالملح. ملأ كفه منه، وحشا الجرح بالملح، فصرخت المرأة، صرخت وأنّت، وعوت، ونبحت، وأعولت، ثم هدأت.. اقترب منها ثابت، لمس رقبتها، وقال متعجباً: ولكنها ماتت.

نظر الفرنجي من حوله بهدوء وقال: لقد استراحت.

ترك أسامة الجناح، ومضى إلى غرفته، وعلى طريق عودتهما إلى شيزر حدثه ثابت عن الفارس ذي الدمّل وكيف مضى الفرنجي الطبيب إليه فسأله: أتفضل أن تعيش برجل واحدة، أو أن تموت برجلين؟ ومن الطبيعي أن يفضل الفارس الحياة برجل واحدة. فطلب الطبيب فارساً قوياً أمره، أن يقطع الساق المصابة بفأسه بضربة واحدة، ولكن الفارس المضطرب لقطع ساق صديقه بالفأس لم يحسن الضربة، فكررها، فمات الجريح.

وهتف أسامة: ياإلهي! كيف استطاع هؤلاء البرابرة انتزاع كل هذه المدن والبلاد منا؟

(١٣)

الكتب، الكتب الملعونة، المؤرقة، الموقظة أحلاماً ماكان لها أن توقظ، الكتب الشريرة طاردة السعادة عن القلوب، الكتب الباعثة الأرقَ في الروح الساكنة الساذجة السعيدة، هذا الدرب اللعين الذي ما إن تلجه مرة حتى لاتعرف الخروج منه من بعد.

قدَّم إياد له سيرة الملك الظاهر وقال:

ـ اقرأها ياعم، ثم حدثني عنها.

وخلا إليها، سخر في البدء من سذاجة أفكارها، من تقسيمها العالم إلى أبيض وأسود، الفرنجة الكفار الملاعين المسطحون تماماً، والأمر لايحتاج إلى نقاش كثير، هم الشر، وهل يحتاج الشر إلى تسويغ وتفسير؟! أمَّا المسلمون فكانوا الأقوياء الطاهرين المضحِّين، وكل ماكانوا يحتاجون إليه هو القيادة، القيادة فقط وهاهو الملك الظاهر يتقدم ليصبح القائد، وأخذ عالمٌ جديد يتشكل أمامه، عالم متكامل الرؤية ولو ساذجةً، عالم صار يفهم منه فياض المعنى الحقيقي للقلاع والإقطاعات وأمجاد الفرسان الطامحين إلى إقطاعات، ومحاولات السكان الوطنيين طردهم من بلادهم، تعرَّف على الفداوية، وتعرف على المقدَّمين وبطولاتهم، تعرَّف على الشعب

العادي الخارج من الحمأة دون فروسية، ودون بطولة في عتمان بن الحبلة، وهزئه بالسلطات حتى إذا مأأراد الله له الرضا جعل السيدة زينب تسلمه بنفسها وإن في الحلم خادماً لبيبرس الموعود الذي لم يصبح الملك الظاهر بعد، تعرَّف على جوان الخوَّان، ورغبته الحارقة في إزالة دولة الإسلام، وكان عليه أن ينتظر سنوات وسنوات طويلة من القراءة، والتمعن، والتساؤل حتى يكتب على دفتره جريدي الورق سراسي الإلصاق: ــ كان الإسلام لهم هوية، هوية يتمايزون بها عن الآخر، وكان هذا حقهم، ولكنهم حين غرقوا في هذه الهوية، ونسوا أنها صفحة من تاريخ حضارة طويل، ضاعوا أمام البدو القادمين من فيافي آسية، لم تهذبهم حضارة، ولم يتشربوا ثمار تفاعل الإسلام مع الحضارات الأسبق حين حملوا القشرة الخارجية لتلك الهوية، وصاروا الورثة وإنْ عاقِّين لذلك التراث العظيم، أولئك البدو الذين ماكانوا يريدون إلاَّ نهب القطعان والهرب بها دون محاولة الثقاف المشعل الذي كان يذوي أمام التمزق والتشتت، تعرف عليهم في المقدم جمال الدين شيحة، ووقوفه الصارم أمام جوان الخوَّان، وفي إبطاله ألاعيبه ومقالبه، وأخذ العالم يصغر أمام فياض، ورأى روجيه الشاب يقف على البرج المتقدم في قلعة شيزر ليهتف: غليام لوبلان هل سدَّدنا الدين؟ هل سدَّدنا الدين؟ وسمع السهول وجدران القلعة تصدي: هل سددنا الدين؟ هل سددنا الدين؟ وفيما بعد سيتساءل: ولكن حتَّامَ تظل الديون حية والفوائد تدفع؟ حتَّامَ يظل الأجداد يلاحقوننا لدفع ديونهم التي لم يدفعوها؟

ونظر إلى وجه روجيه على مائدة الإفطار، نظر إليه متفحصاً محايداً للمرة الأولى دون حبٍّ، ودون خوف، ودون امتنان، وأخذ قناع النبل في التهتك من حول وجهه، وأخذت صورة الرومانتيكي الحالم بعالم مضى تتشقق ليتبدَّى وجه جديد، وجه حفيد غليام الراغب في الانتقام

لجراح جده، تلك الجراح التي ردَّته إلى أوروبة أشلَّ الساق ضعيف الأخرى، رأى الوجه الواقف فوق قلعة شيزر مُكوِّراً كفيه، جاعلاً منهما بوقاً يخاطب به أرواح الأجداد، وفجأة تساءل: ماذا عن ديوننا نحن؟ وفجأة تغير السؤال فصار: ولكن لِمَ نسينا، ولم ينسوا؟ لِمَ ظل حفيد غليام يتذكر، ونسي أحفاد أسامة، وشيحة، وعرنوس آخر أيام نصر أحرز في حوار الشرق والغرب؟

كرر النظر إلى وجه روجيه على مائدة الإفطار، يحاول أن يكون محايداً، ولكن ذكرى العناقات الصغيرة وشدَّات اليدين على الكتفين، والاعترافات القلبية بين الحين والآخر حركت دفئاً صغيراً في القلب، فمنعته من الحياد، ولكنَّ شيحة وعرنوس وأسامة ومعروف تقدموا، وذكَّروا بمفاخرهم في طرد الفرنجي من بلادهم، ذكَّروا بأحلامهم التي تركوها من خلفهم يرددها الحكواتية ويحفظها الحافظون.

وأخذ فهم جديد يتسرب إليه، ينبت في القلب كبذرة غافية تتلمس أوائل شعاعات شمسَ الربيع تحت التربة الصامتة، أحسَّ حكَّةً في جلده، فمدَّ أصابعه تتلمس، وضحك حين رأى أوائل ريش تنبت في جسده وتساءل: أتراني سأتحول إلى طير؟!

وهتفت ماتيلد في غضب متدللة: ولكن فإياد.. هذا غير معقول! هل جئت إلى دمشق لتقضي الوقت في القراءة وفي أحلام اليقظة؟

واعتذر، واستسلم للإلحاح، وفي نادي الحامية نظر إلى قبعة روجيه الموضوعة على الطاولة، وللمرة الأولى يراها منفرة عدائية بشكلها المدور المستفزّ، وبرفرفها الواقي من الشمس المتحدي. نظر إلى روجيه، إلى وجهه الجانبي يرشف كأس نبيذه بهدوء وهو يتأمل الناس خارج سياج الياسمين، تأمل شاربيه الكليمنصيين، وأحسَّ ألم فراق صغيراً

يتسرب إليه، ورأى قناع النبل يتشوه،رأى ذلك الوجه الهادىء المتزن وهو يكوّر كفيه في حركة مسرحية يخاطب الريح ويصرخ: هل سددنا الدين.. الدين.. ين..؟

وعرف طريق سوق المسكية دون إياد، وأدمن الكتب القديمة تروي أشواق أولئك البسطاء دون تعقيد، فسمع أحزانهم، وأنصت إلى شكواهم من الغيم الأسود حطَّ عليهم، ولايرون منه مخرجاً.

وصرخت ماتيلد: ولكن فإياد، لن تقضي إجازتك لدينا كلها في القراءة!

وحار في الإجابة، ولكن روجيه تقدم لإنقاذه: دعيه فأنا أفهم أشواقه. وهتفت: أية أشواق؟ شاب في مثل سنه يجب أن يحمل القيثارة، ويقف تحت نافذة الحبيبة، لا أن يعانق هذه الأوراق النخرة!

وأجاب فياض بسرعة: ولكني أقف تحت نافذة الحبيبة.

وسألت في غير فهم: كيف؟

ـ أبحث عن أميرة ضاعت منا منذ زمن طويل.

ـ منا.. من.. نا.. من. نحن؟ أنت؟

وغرق في الحيرة هذه المرة، ولكنه بعد قليل سمع صوتهما في المكتبة، تعمَّد الإنصات ليسمع ماتيلد: أنا خائفة ياروجيه، خائفة على الولد، ربما خسرناه. وسمع روجيه يتمتم، وتخيله على عادته يهزُّ كتفيه في تبرم: من يدري، من يدري؟

ولكنه بعد أيام قليلة فقط درى وعرف أن الولد كما سمته ماتيلد في طريقه إلى الضياع.

كان إياد قد صحبه إلى البستان في كفرسوسة، وأراه القبر الذي ماتت تحته البقرة الحائل والتي كانت السبب في حيرة عبد الكريم الجوقدار في ذلك الصباح الطويل ينتظر فحلاً لايدفع أجره كيلة حليب كل يوم، أراه الجوزة المحطمة، وأراه عرش العنكبوت على السرير الذي كان عشَّ حبٍّ دكنجي حقيقي، وعلى الطريق حاول أن يسترسل، ولكن فياض استدار إليه فجأة: إياد، سأتركك.

ــ تتركني. لماذا؟

ــ أريد أن أمشي وحيداً، أعرف الطريق إلى الشام، أريد أن أهضم كل هذه الأفكار التي حطَّت عليّ فجأة، أريد أن أعيد تنسيقها في هذه العلبة، وأشار إلى رأسه، لن تنزعج من سلوكي؟ هه.؟

وهزَّ إياد رأسه في حيرة مغلفة بالفهم، ورأى فياض يستدير ويبتعد. رأى ظلال الحور والجوز تتناوبه، رأى غيوم غبار صغيرة تتزوبع حول قدميه، رأى علب صفيح عتيقة تقرقع مصطدمة به، ورأى الظلال الكثيفة الكثيفة تبتلعه.

* * *

الروشن العظيم المسوَّر بالطلاقات والمزاريب، بقايا الرصاص المذاب ماتزال عالقة عليها مشكلة فضة قاتمة ملساء، الصفصاف والطرفاء والحور والجوز البعيد، يتّماهى، ويتماهى ليصبح مسطحاً أخضر لا نهائياً، الثعبان الفضي المرتعش يخترق المسطح الأخضر، يختفي، يلوح، يتمرأى، يتبدى، ثم يتحد الجميع في لوحة خضراء ماتلبث أن تصطدم بالكتل الخضر العملاقة المتسامقة إلى السماء.

وقال وهو يشير إلى الجبال البعيدة في الغرب: يقال بأن في تلك الجبال خير البزاة في العالم.

هزَّ رأسه وهو ينظر إلى تلك الجبال البعيدة: ربما، ولكنني أُفضِّل الصقور، وهم يأتونني بها من ديار بكر.

ـ ربما، ولكن، هل جربت البزاة مع الكلاب الزغارية؟

وقهقه: طبعاً، كلاب، كلاب عظيمة، لاتحتاج إلى تدريب، أتعرف.. كان لدينا كلبة منها ولدت خمسة جراء، خرجنا مرة إلى الصيد، فلحقت بنا واحدة من هذه الجراء، أطلقنا الباز وراء كركي، ولكنه أفلت منه بعد أن أصابه، فسقط إلى النهر، شيء عجيب، الجروة الصغيرة التي لم تفطم بعد، ألقت بنفسها من التلة ـ حيث كنا نراقب ـ إلى النهر تريد الكركي الساقط، ولو لم يسارع غلماننا بإنقاذها لغرقت، ضحكنا كثيراً في ذلك اليوم، من علَّمها، من أفهمها أن الكركي وهو يزيدها وزناً أربع مرات على الأقل فريسة لها؟!

ضحك، وضحك، وردَّدت الأبراج القريبة ضحكاتهما.. رفع أسامة يده فأسرع غلام كان يقف في الظل إلى حيث الأميران وانحنى:

- مولاي.

ـ الفاكهة.

انحنى الغلام، ومضى مسرعاً بينما اقترب غلام آخر يحمل المبخرة، فلفَّ بها من حولهما ثلاث مرات، ثم انحنى أمام أسامة الذي تناولها منه، أعطاها للأمير أندرونيكوس الذي مررها تحت ثيابه، تحت إبطيه، ثم وضعها على منضدة قريبة، ففرك يديه فوقها عدة مرات، وأخيراً رفع كفيه، فخلَّل بهما لحيته وشعره الطويل. شكراً قال وهو

يناوله المبخرة. تناولها أسامة، فقام بالطقوس نفسها، ثم رفع يده، فأسرع الغلام يحمل المبخرة، ويختفي.

كان بوهموند قد اشتكى إلى الإمبراطور، ثم كرَّر الشكوى بمرارة، فالأمير، الأمل الحصيف الشاعر المفاوض الذي أرسل ليكون السفير والمصالح بين بوهموند أمير أنطاكية وطوروس الأرمني، تحوّل إلى العاشق الملتهب لا يأبه لسمعة ولايخشى فضيحة، وكانت قصته مع فيليبا قد تحولت إلى حديث المدينة، وحين وصل بهما الأمر إلى التردد على مواخير أنطاكية لم يعد الأمر يُحتَمل، فأرسل بوهموند إلى الإمبراطور ـــ الحليف ـــ السيد شكوى مبطنة بالتهديد، الأمر الذي أغضب الإمبراطور، وأسعد الإمبراطورة الحاقدة على ابن العم الخطير هذا، فأمعنت في الدسِّ عليه، وأدرك أندرونيكوس أن العودة إلى القسطنطينية قد تعني الفضيحة والإهانة، والبقاء في أنطاكية سيعطي أعداءه الفرصة للانتقام منه، وهكذا تحولت فيليبا إلى عبء، وتحولت أنطاكية إلى سجن محتمل، وفي لحظة إشراق قرر وفعل، فحمل الأموال التي جباها من كيليكيا وأنطاكية، ومضى ولكن إلى الجنوب، إلى بيت المقدس حيث الملك أموري المحتاج دائماً إلى فرسان، والمتشوق أبداً إلى حلفاء أقوياء وأغنياء.

كان حفل الاستقبال الذي أقيم في قصر أموري مترفاً كما اعتقد أموري، فلقد قدم فيه الكثير من اللحم والكثير من الخمر، وحاول أندرونيكوس أن يكون لبقاً فأقدم على الفخذ التي طرحت أمامه ينهش منها، ويلعن ساعة ترك القسطنطينية، ينهش حتى تلوثت لحيته وشارباه تماماً بالدهن، ولكن.. عليه أن يكون اللبق والمجامل، نظر إلى الخمر التي حملوها إليه في جرة كبيرة ليشرب منها مايشاء مؤمنين بأنهم كرَّموه كأكثر مايمكن لأمير أن يكرم حين وضعوها كاملة أمامه، ولاحظ أموري تردده في حمل الجرَّة إلى حلقه، ففهم، وغمز واحداً من السقاة فأسرع إلى

الخزانة، وجاء بكأس فضية كانت قد غنمت في الحملة الأخيرة ضد بعلبك، تركوا الجرة أمامه والكأس، وفهم أن عليه أن يصبّ لنفسه، فصبَّ. كانت الخمرة قوية ولاشك، ولكنها كانت خاماً، بكراً لم تخلط بمسك، ولم تعطر بياسمين، أفٍ لهؤلاء الفرنج! وشرب، وشرب، ومزح، شرب، وحدث، شرب، وجامل، شرب، وسمع قهقهاتهم الخشنة المجلجلة، ونظر إلى أموري يتقافز في مجلسه وهو يضحك لنكتته عن الجارية التي أخطأت عشقيها فأدخلت سيدها، واعتذارها واعتذاره حين ضبطتهما السيدة، وبسرعة وكالعادة استطاع أن يصبح نجم الحفل ومركز السهرة، وكالعادة كسب بسحره واسمه وثوبه الأرجواني الكثير من الأصدقاء ولكن.. فكر.. أي أصدقاء؟ وحين لاحظ كيف يمسحون أفواههم وذقونهم الحليقة بأكمامهم اضطر إلى أن يمسح لحيته وشاربيه بكمِّه، وبحسرة لاحظ البقعة التي خلفها الدهن على كُمِّه، ولكنه بلباقته التي أنمتها حياة البلاط لم يظهر شيئاً من استيائه لما يجري.

أسبوعان انقضيا، أسبوعان من مجاملات وحفلات وعشاء، وحفلات عشاء مضادة. أسبوعان من أرقٍ وصداع ومراجعة للنفس إن كان الخطأ في العشق، أم في النفس اللينة للعشق، أم في كونه ابن عم الإمبراطور ومايعنيه هذا من كثرة الحُسَّاد والغيورين والنمامين المتملقين، أسبوعان انقضيا حزم فيهما أمتعته أكثر من مرة يريد القسطنطينية وليكن مايكون حين دخل أموري يجرُّ سيفه الطويل، ويخشخش الزرد على صدره ليعلمه بأن مجلس الفرسان قد انعقد، وأنهم قرروا إعطاءه بيروت إقطاعاً، فبيروت شاغرة ولا حجاج ولا فرسان على الطريق، فهل يقبل؟ وَقبِلَ.. وكيف لايقبل وبيروت ستكون حبل النجاة والخلاص والبعد عن هؤلاء الأجلاف؟ وفكر. سيقيم بلاطه الخاص، وسيحمل إليه تقاليد بيزنطة ورقيها وجمالها ولغتها، وسيحاول أن يجعل منها جزيرة ضمن هذا المد

من الغباء. وانتشر الخبر بسرعة بين الإمارات الصليبية الصغيرة، الإمارات المتناثرة بين البحر وبين الجبل، بين القلاع والحصون، انتشر الخبر ووصل عكا حيث كانت ثيودورا.

حين قبل أندرونيكوس إقطاع بيروت ما كان يريد إلا الخلوة في هذه المدينة الصغيرة البعيدة عن الضوضاء والحروب، ماكان يريد إلا الخلوة ومراجعة النفس فالرجل في الثامنة والأربعين، وقد رأى الكثير وعاش الكثير وحارب الكثير، وسالم الكثير، وقد آن له أخيراً أن يرتاح، ولكن سمعة العاشق المغامر والأمير المخاطر ماكان لها أن تتركه يرتاح، فحين وصل الخبر إلى ثيودورا انتفضت وهتفت: يا إلهي! أهذا معقول؟ أندرونيكوس في الشرق وفي بيروت، ياإلهي أيمكن للأحلام...؟! آه..

ورأت الطفلة تتعلق بطنف النافذة، تتعلق وتطلٌ لترى الفارس العملاق الممشوق يشق شوارع بيزنطة ومن ورائه الفرسان والتابعون.

رأت الطفلة تتوسل، وترجو لتخرج في نزهة إلى غلطه، وما تريد غلطه، بل تريد رؤية الفارس الصياد يتبعه البازدارية والفهادون والكلابون، رأت الطفلة تستمع إلى الخصيان والجواري يتحدثون عن مغامرات أندرونيكوس في قصور بلاخير ناي، وبوكليون، وفي لحظة وحي ركعت أمام العذراء وسألتها أن تحرمها من كل شيء شريطة أن تهبها.. أندرونيكوس. ولكنها كانت تعلم في أعماقها أنها لن تكون لأندرونيكوس أبداً، فهو ابن عمها المحرَّم عليها، والكنيسة والبلاط لن يسمحا أبداً بالزواج بين ابني عم، ولكنها مع ذلك ركعت، وذرفت دموعاً طفلية ترجو أن تسمح الرحيمة العذراء بذلك، ولكن البلاط.. البلاط القاسي الساعي دائماً وراء مصالحه السياسية العليا وجد لها الزوج وكان المصلحة في أمير عكا، ومضت إلى الجنوب.. الجنوب البعيد، الجنوب

الذي بربره الفرنجة بروائحهم الوسخة وطقوسهم العجيبة.. مضت إلى عكا وركعت أمام العذراء، وعاتبت، ورجت، وأخيراً غرقت في مؤامرات البلاط وفرسانه اليانعين فاختفى أندرونيكوس كحلم طفولة بعيد، وفجأة مات الزوج، قتل في إحدى المعارك مع المسلمين، ووجدت نفسها الأميرة البعيدة الوحيدة، ولكن دون حجب البلاط البيزنطي وتشدده، فأنست إلى الشرق تصنع منه بيزنطة صغيرة جديدة، وكانت تظن بل وتعرف أن أمراء كثيرين ينتظرون منها الإشارة ليصبحوا أمراء عكا ولكنها كانت تختبرهم وترفض، تختبرهم وتعتذر، وحين سمعت عن قدومه إلى أنطاكية أملت، وحين سمعت عن عشقه فيليبا خابت، وحين سمعت عن قدومه القدس فكرت في المُضِيِّ إلى القدس، ولكن وقبل أن تحزم أمرها عرفت أنه صار في بيروت.. فأرسلت إليه تستزيره.

رنَّ اسم ثيودورا كجرس ذهبي عتيق، رنَّ الاسم فاستيقظت القسطنطينية المدينة النفي، رنَّ اسم ثيودورا فاستيقظت القصور والبحيرات ورحلات القوارب ورقصات الجواري المُلثَّمات، رنَّ اسم ثيودورا فانبثقت روائح الندِّ والصندل وخمر الياسمين، رن اسم ثيودورا، فاستيقظ الفتى والشاب والمراهق، وحبال الشرفات المعلقة، وتسللات مابعد العتمة إلى المقاصير المضببة بالبخور. رنَّ اسم ثيودورا، فحنَّ عرق قديم إلى أحلام أنستها إياه فيليبا، وأنطونيا وماريانا و.. انتبه فجأة، ولكنها طفلة، وبسرعة جاءه الجواب، أية طفلة وهي الأرملة في الحادية والعشرين عاماً؟ لم يقتضه التردد إلا ليلة وصول الرسول، فحين جاء الصباح كان في طريقه إلى عكا يصحبه فرسانه وتابعوه وحرير دمشق وعطور فارس.

انتشرت الفضيحة في الشام الفرنجية بسرعة، الأميران البيزنطيان المحرمان معاً في عكا، انتشرت الفضيحة لتنتقل من عكا إلى صور،

ومن عسقلان إلى أنطاكية، ومن بيت المقدس إلى القسطنطينية، وانسحب العاشق من عكا إلى بيروت تحت إلحاح أموري، ولكن ثيودورا لم تنسحب فلحقت به إلى بيروت لتقيم معه علانية، عشيقة لم تباركها الكنيسة.

غضب الإمبراطور، غضب، واحتدَّ، غضب وثار، وأذكت الإمبراطورة ثورته ضد هذا المدنِّس للعائلة الإمبراطورية، هذا الأحمق لم تُنضِجِ السِّنُّ فيه شيئاً، هذا المارق لايحترم كنيسة، ولا يأبه لإمبراطور، هذا الـــ.. وأرسل الإمبراطور أمراً صريحاً بالقبض عليه وإعادته إلى القسطنطينية، وأدرك العاشقان أخيراً أن الأمور قد وصلت نهاياتها الطبيعية، سألها الافتراق فرفضت، سألها الحل، فقالت: أنت الرجل الكبير الأمير الثري، ويجب أن تجد أنت الحل. وانقضت ليالي الأرق دون حلٍّ، انقضت ليالي التساؤل والمهلة التي وضعها أموري لأندرونيكوس ليتصرف قبل أن يضطر إلى القبض عليه امتثالاً للإمبراطور دون وصول إلى قرار وأخيراً قالت ثيودورا وهي تصبغ وجنتيها بالبنفسجي البيزنطي: اسمع.. لن نستسلم لبلاهة هذا الأحمق.

كان يعرف أن ثمن الاستسلام رهيب، فهزَّ رأسه: أموري لا يستطيع مخالفته، وقد يرسل فرسانه في أية لحظة للقبض علينا.

ــ ولكن أموري ليس تابعاً للإمبراطور، إنه ملك بيت المقدس.

ــ صحيح، ولكنه لن يُغضب الإمبراطور من أجل أميرين بيزنطيين طائشين.

التفتت إليه، رنت بعينيها السوداوين العميقتين المغطاتين بشرفتين من جفون نتف شعر حاجبيها، ورفعت إلى الأعلى غرابين محلقين، وتحولت العينان إلى بحيرتين ممطوطتين، وهتف: ياإلهي! لابد أن فيها

دماء تركية. هاتان العينان. هاتان العينان كانتا السحر، وكانتا الغموض، وكانتا الدلال، وكانتا.. أف.

وفحَّت: أندرونيكوس. يجب أن تصنع شيئاً.

وصرخ وقد أُسقِطَ في يده: ولكن، ماذا أصنع؟ البيزنطيون والفرنج صاروا ضدنا ــ ثم أنَّ في ألمٍ ــ حين أجد الحُبَّ، الحب الحقيقي، الحب الحارق أجده محرماً، ويتألب العالم كله ضدي ــ ثم في استسلام ــ لو كنت رجلاً عادياً، لو لم أكن أميراً، لو كنت برجاسياً عادياً لاختطفتك، واختفينا في واحدة من المدن الصغيرة لا تهمنا كنيسة، ولا بيزنطة، ولا فرنجة، ولا..

ــ يكفي.. لقد قلتها.

ــ ماذا قلت؟

ــ قلت لو كنا برجاسيين لهربنا واختفينا، حسناً، فما الذي يمنعنا؟

ــ يمنعنا أنّا أميران، ولن يتركونا، سيلاحقوننا، سيقلبون الأرض بحثاً عنا، وسيتحول الجميع إلى كلاب صيد تسعى وراء الفريسة الثمينة.

ــ لابدَّ ــ صرخت ــ لابدَّ ــ كان ذلك مايرهبه ويعجبه فيها، تلك الإرادة الصلبة والقدرة على اتخاذ القرار، تلك الإرادة التي جعلتها تترك عكا إلى بيروت لتعيش معه عشيقة دون أسرار الزواج الإلهية ــ لابد من مكان نستطيع الهرب إليه والاحتماء فيه من الإمبراطور، من أموري، من بوهموند، أووه، أندرونيكوس، أنت رجل بارع جداً في استعداء الناس، كيف استطعت جعل كل أولئك الناس أعداء لنا، وفي لحظة شعر قال: أولئك الذين لايعرفون الحب أعداء لكل من يحبّ.

قضيا الليلة الأخيرة في القصر قبل وصول فرسان أموري

يستعرضان كل الإمكانات، قبرص، ولكن الإمبراطور سيستعيدهما كأية شاتين ضالتين، فرنسا. لن يستقبلهما هناك أحد، فلقد دنّسَا أسرار الزواج، ولن يُغضبوا الإمبراطور من أجلهما، صقلية. ولكن النورمان حلفاء الإمبراطور. إنكلترا، ياإلهي من يمضي إلى هذه البلاد المتبربرة، وأخيراً وبعد علكِ منديلها الحريري لفترة همست: لم يبق أمامنا إلا عماد الدين.

ــ أجننت؟

ــ لا.. لم أُجَنَّ، ولكن أعطني خياراً آخر.

ــ نمضي إلى أعدائنا المسلمين!

ــ لابد أنهم سيحترمون لقبك الملكي ودمك الإمبراطوري.

غُصَّ بالفكرة، قلّبها، شرب زجاجة نبيذ كاملة يفكر بينما استلقت بكامل ثيابها في سريرها مفتوحة العينين تفكر، وحين توقفت عن الحوار أدرك أن الخيار صار كله له هو، وعليه أن يقرر. دمشق، ياإلهي. حمص. حماة. حلب. كيف. كيف سيستقبلونه؟ وماذا لو قبضوا عليه وبادلوا الإمبراطور عليه؟ يبادلون؟ يبادلون.. ولم لا. وبأي شيء؟ ثم هو أخيراً كافر لايعنيهم.

أطلق الديك صيحته الأولى ونفخ البوّاق نفخته الأولى ورددت الأبراج رنة الجرس الأولى، ولابد من صنع شيء، لابد. أفٍ! بدأ الأمر مع فيليبا. لو أني تزوجتها. ولكن تلك المجنونة قادرة على فعل كل شيء، تلك المجنونة القادرة على كل فضيحة، تلك المجنونة التي لم يكن يطيب لها الحب إلا في العربة الملكية المغلقة، وفي منتصف السوق، وتحت أصوات الباعة والدّلاّلين. أوه! ياإلهي! ثم.. ثيودورا. ثيودورا، فيليبا، وبهدوء تسربت الذكرى. برجاسي وهراوة وفراء وحلقه رعاع

و.. ينكشف عن الأمير أسامة بن منقذ أمير شيزر. وهتف في فرح: صحيح، أمير شيزر.

انتصبت في جلستها: ماذا قلت؟

ـ أسامة! الأمير أسامة أمير شيزر! لقد سبق أن أنقذته من موت محقق.

ـ أتثق به؟ سألت بلهفة.

ـ إنه فارس، والفارس المدين لايملك إلا الوفاء.

مع أضواء الفجر الأولى، ومع روائح الأعشاب تنفضُ عنها ندى البحر، ومع أرانب ماقبل الهروب من نور الصباح تسلل العاشقان في عربتهما الملكية يودعان القدس ويريدان شيزر.

طبل بعيد وأجراس صغيرة معلقة إلى قدمي صقر محوِّم ترنُّ، ونباح مستعطف، والأمير الأرجواني الذي لم يعُدْ أرجوانياً منذ دخل شيزر بجسده الضخم ووجهه اللحيم ولحيته السوداء لم يشبها البياض، يقف منتصباً على فرسه الأشهب يراقب وأسامة يصدر أوامره السريعة، كان الأسد يطلُّ برأسه من الأجمة، فيزأر، ثم ينسلُّ عائداً فجموع الصيادين، والكلابين، والفهادين ترعبه، ولكن، لايمكن تركه وقد حُرِّش وجرح، صحيح أن الجرح لم يكن قاتلاً، فلم يزد عن سهم في الفخذ، ولكنه بهذا الجرح صار مؤذياً ولن يتخلى عن ثأره.

اقترب الغلمان من الأجَمَة يضربون طبولهم وأسامة مستعد بقنطاريته، ولكن الأسد ظلَّ متخفِّياً في الأجمة، بَوَّاقٌ يقترب بهدوء حتى يصبح في الأجمة تقريباً، يوجه بوقه وينفخ، ولكنه بدل أن يرهب الأسد، فيخرج إلى حيث الصيادون وأسامة المنتظر برمحه العملاق مَدَّ الأسد

ذراعاً طويلة واختطف البواق، تعالى صراخ الغلمان، انتشرت موجة من سهام ضاعت في الأجمة، ولكن الأسد وضحيته اختفيا. لابد من صنع شيء، فكّر أسامة لابدَّ من صنع شيء، والأمير الضيف يراقب. كانت الأجمة أسفل التل والأسد يحمي ظهره بالتل، فكَّر قليلاً، ثم همز فرسه ومضى بعيداً، دار حول التل، تسلَّقه، وأخذ ينزل بفرسه التل بهدوء، كانت المغامرة كبيرة، فلو تزحلق الفرس لأودى بهما إلى حيث الأسد الجريح ينتظر ولكن، لاخيار يجب إخراجه من مكمنه، الفرس ينزل مرعوباً فلقد شمَّ رائحة الأسد وأسامة يعتمد على قنطاريته بين الحين والآخر جاعلاً منها عكازاً له وللفرس. وصل الأجمة، حدَّق. هاه! هناك ساحة خالية في المنتصف تماماً، ورأى الأسد. رآه يعضُّ السهم في فخذه يحاول انتزاعه ولكنه لم يرَ البواق. لابد أنه طرحه في مكان ما، اقترب قليلاً، رفع الأسد رأسه، رآه، رفع القنطارية يستعد ولكن الأسد لم يمهله، الأصوات البعيدة، أصوات الصيادين والغلمان والكلابين والفهادين تصله، تصل بعيدة ضعيفة هامشية، ولكنه لايلتفت، الأسد يخور، يهرُّ، وأخيراً يجمع كتلته الضخمة وينطلق سهماً يريد هذا الذي اعتدى على حرمة تلِّه.

كانت القنطارية تنتظر، وما إن صار في المدى المناسب حتى انطلقت القنطارية لتخترق الأسد فيتدحرج معها محطماً إياها حتى القاع، وعندئذ، عندئذ فقط سمع التصفيق، وكان أندرونيكوس يشير إليه من بعيد محيِّياً..

حملت الغزلان والأرانب والكراكي والإوز، وقال أندرونيكوس:

ـ سنتعشى اليوم من عرق الأمير أسامة.

جهز اللحم بسرعة، وكان العشاء، وأرسل بالغزال الأبيض المشوي إلى ثيودورا حيث كانت تنتظر في جناحها الخاص.

على العشاء بعد أن مرَّ الخادم بالإبريق على الضيوف يغسلون أيديهم، ثم يناول كلاً منهم منديلاً من الكتان الأبيض يتنشَّف به، لاحظ أندرونيكوس خادماً آخر ينفض العطر على أيديهم قبل أن ينتقلوا إلى المائدة الضخمة التي دعا إليها الأمير سلطان ابتهاجاً بوصول الأمير أسامة.

كانت رحلة طويلة مرهقة، تلك التي اضطر إليها أسامة، كانت الرسالة خشنة رغم محاولتها التهذيب واللباقة: ضيفك صار عبئاً. ضيفك صار التهديد الرومي والفرنجي، نحن قمنا بما علينا، ولكنه يريدك أنت، يقول إنه يعرفك منذ أيام أنطاكية.. وأنت في مصر ترتع، تعال واستقبل ضيفك.

قرأ أسامة الرسالة، كرَّر القراءة وضاق منه الصدر، فما له ولشيزر وللشام كلها الآن؟ ماله وللحروب والصراعات والشقاقات بين عماد الدين ومعين الدين صديقيه القديمين؟ ماله وللـــ.. ولكنه أنقذ حياتك ياأسامة في أنطاكية! ولكن ذلك تم منذ سنين.. وسنين. إنه الدين ياأسامة! ولابد لكل دين من سداد.

ادعى رحلة صيد، أقلَّ من المرافقين، حمل ماخفَّ وغلا وانطلق ليلقى عمه سلطان بعد طول فراق، وماكان يريد هذا اللقاء.. ولكن.

بعد العشاء، وانسحاب الضيوف، انسحب أسامة وأندرونيكوس إلى الروشن العظيم المسوَّر بالطلاقات والمزاريب ليجدا المجلس وقد أُعِدَّ، ومعطفان من فراء السمور ينتظران، تدثَّرا، وجلسا يراقبان النجوم والغرب الغارق في العتمة الخضراء. اقترب خادم يحمل طبقاً كبيراً من النحاس امتلأ بالرمان والتفاح والسفرجل. تسلل بأرجل مطاطية، فوضع الطبق على منضدة صغيرة بينهما، ثم تسرب بهدوء دون كلمة.

قضم أسامة سفرجلة، ولم يتكلم، كان يريد لأندرونيكوس أن يبدأ الكلام، تنهد أندرونيكوس ولم يتناول حبة فاكهة، ولم يقضم سفرجلة كما فعل أسامة بل قال:

ـ حين يستعرض الإنسان التاريخ يصاب بالرعب، أثينا وفارس، بيزنطة وبغداد، صراع وقتال، وقضمة من هنا تليها قضمة من هناك، ثم قال بعربية نظيفة: وتلك الأيام نداولها بين الناس، ولكن فجأة ـ ثم تساءل بحزن ـ: أتراها فجأة؟ يأتي هؤلاء البرابرة المتوحشون، وانتبه إلى أسامة يلتفت إليه بحدة، فقال بسرعة مفسراً: هؤلاء الفرنج والنورمان والألمان.. ياإلهي! إنهم لايعرفون كيف يأكلون، لايعرفون كيف يلبسون، لايفرّقون بين الندّ والصندل، لايميزون بين الأرجواني والأحمر، لايعرفون الخطب ولا الفلسفة، لم يسمعوا بالشعر أو يروا إيقونة.. فجأة يأتون بشهية وحشية ورغبة في القتل مرعبة، يأتون كقطعان جائعة، فيلتهمون كل شيء، لاتهمهم مكتبة، ولايعرفون قيمة لتمثال. كل مايريدون مزيد من الأرض، ومزيد من القتل، ومزيد من الدماء، أووه، كأني أرى نهاية العالم.

وصمت، وصمت حتى سمعا صرير الجنادب البعيدة، بل وحتى نقيق الضفادع في النهر البعيد أسفل القلعة، ولم يستطع أندرونيكوس المثقل بأحزان النفي القديم، وأحزان رؤية البرابرة يقضمون جمال بيزنطة وبغداد كما قال. أكمل: كنت أنظر إليهم فأرى تفتُّحهم العجيب، وشهوتهم الرهيبة، وأحسُّ بالخوف، أتراها نهاية عالم وبداية عالم؟

ونظر إليه أسامة طويلاً في عمق متسائل: أهو أندرونيكوس الماجن القديم الذي طبقت شهرته الشام كلها من يتحدث هكذا؟ ولكن إرهاق الرحلة وإرهاق صيد اليوم، وإرهاق السهر جعله يستسلم لهذا النوع من

الحوار، فيقول: هؤلاء الفرنج لعنهم الله راقبتهم طويلاً، ولكني لم أرَ فيهم مايُميَّز إلا القوة والشجاعة، وهذه موجودة لدى الحيوان، أما الإنسان ــ وأطلق حكمته القديمة ــ أما الإنسان فيتميز بالعقل والحكمة والشعر.

أمَّن الآخر على قوله بهزة رأس عميقة، وردد: صحيح.. الإنسان يتميز بالعقل والحكمة والشعر.

(١٤)

تلك الصداقة العجيبة انطلقت من نقار، ومن فياض: أأنت سوري حقاً؟ تلك الصداقة التي أخرجت فياض من عالم الأمير البدوي الغازي وسباياه الفاتنات لتحمله إلى دمشق وتعيد النظر في أسامة وغليام، تلك الصداقة التي فتنتها زيارات الحارات العتيقة، والقبور العتيقة، والمدارس والخانقاهات العتيقة، وتحسَّس الأجداد العتيقة، تلك الصداقة الرائعة المريعة التي نخرت في عظام فياض حين حملت إليه هموماً وأفراحاً وجذوراً وأجداداً ماكان يريدها، تلك الصداقة التي جعلتهما يتبادلان أسامة وعرنوس، شيزر وحصن صلاح الدين، وجعلتهما أخيراً يصلان إلى ماكان يجب أن تصل إليه كل صداقة تبدأ هذه البدايات، فقال فياض ردّاً على إياد الذي قال:

ـ لايجب أن نلغي تراثهم الذي تركوه لنا.

ـ تراثهم؟ تراثهم.. أحتم علينا أن نعيش دائماً في ظل تراث الآخرين؟ ثم وحين يدعوه للقاء الشهبندر لصنع شيء يحركون به مستنقع السكون المحيط.

ـ ولكن إياد! تتحدث عن ثورة، وعن ثوار، وأنا لاأرى ثورة ولا

ثوَّاراً، أنا لا أرى على العشاء لدينا إلا رجالاً يسعون وراء من يوصلهم إلى المندوب السامي، يطلبون وظيفة أو وزارة، أين أولئك الذين تقارنهم بميرابو وروبسبيير؟

وقال بهدوء واثق: موجودون، ولكن القيادات فضّلت الطريق السلمي والمفاوضات.

ــ وأنت؟

ــ في قلبي جمرة لاتنطفيء، يجب قلع المحتلين من هذه البلاد، نحن الجيل الثاني، ماذا صنعنا إذا قارنا أنفسنا بهم؟ يجب أن نصنع شيئاً ــ وصمت قليلاً ــ اسمع. البلد كلها هائجة، فرنسة رفضت التوقيع على المعاهدة، والبلد تنتظر شرارة، وتهيأ لإلقاء قنبلته ــ دعنا نشعلها.

ــ كيف؟

ــ نصنع شيئاً. اسمع. هؤلاء الناس الذين وصفتهم بالسعي وراء المنصب والوزارة ــ ماذا تسميهم؟

ــ سَمِّهم أنت!

ــ إنهم الحاجزَ يمنع شعبنا من السيلان كنهر لايحجزه سَدٌّ.

ــ والعمل؟

ــ دعنا نُسقِط هذا السدَّ.

ــ وبعد.

ــ سيتحرك السيل الكامن لايعرف قوته.

ــ وبعد.

ــ ستستيقظ الثورة من جديد، وستُطْرَد فرنسة من بلانا!

ــ تظنُّ ذلك ممكناً؟

ــ بالطبع!

وصمت فياض يفكر في هذا الحوار الذي انزلق إليه، وقفز روجيه وماتيلد إلى الواجهة، الوجه الحنون والشاربان الطيبان، وشهوة سماع كلمة بابا التي لم تُقَلْ، والعينان اللعوبان، والخصلة الطائشة، والغمزة الماكرة، وسمع روجيه يقول: سنشتري بيتاً كبيراً في سفح قاسيون، وستحصل على العمل الذي تريد، وعندئذ قد أتقاعد ونعيش معاً، آه كم أشتهي أن أجلس إلى المقهى أدخن النارجيلة كما يدخنونها دون تفكير بالمستقبل، ولاخوف من قادم الأيام! اسمع.. سنتان وتكون إلى جوارنا في دمشق هنا، أم تحب العودة إلى شيزر؟

ولم تحتمل ماتيلد صمت فياض، واعتبرته جبناً، فقالت في حدة: ولكنا لن نقضي بقية عمرنا في هذا الجحر ــ ورأت تقطيبة روجيه، فرأت الاستعانة بفياض: أليس كذلك يافياض؟ ولما لم يتدخل تابعت محتدة: روجيه.. أحبُّ باريس، وأحب أن أعيش السنوات المتبقية لي في مجتمع متحضر، أرجوك.

ورأى فياض روجيه ينظر من شرفة البيت المطلة على الحديقة المغطاة بالزجاج الغاصَّة بأقواس حارات لاتؤدي إلى حارات، وعلى بحرة لاتشرب من بردى، فيرى البيوت البعيدة تطلُّ من خلال أشجار المسك والنارنج وقال: أحببت هذا البلد، وأتمنى أن أعيش فيه.

ولكن ماتيلد لم تستسلم، فتابعت هجومها: ولكن الحرب قادمة، روجيه انتبه، الألمان يستعدون، ولاأحد يعرف متى ينفجر هذا الصمت المخادع؟

وصرخ إياد: أكره هذا الصمت، ماالذي يحيلك أحياناً إلى شبح واسع العينين مفتوح الأذنين لايسمع ولايستجيب؟

ــ أفكر في هذه المتغيرات تسرع من حولي.

ــ إن بدأت التفكير الصامت مع نفسك، فستظل تفكر إلى الأبد.

ــ والعمل؟

ــ نفكر معاً، أو نتحول إلى العمل.

وألحت *(كيف)* وكأنه لايملك غيرها فهو مايزال يرددها.

ــ لاأدري، لاأدري، ولكن ماأعرفه شيء واحد، السَّدُّ الذي يحجز شعبنا يجب هزُّه.

وسيكتب فياض فيما بعد على دفتره المسكين: وفي تلك الأيام كانت كلماتٌ كالشعب والثورة والتغيير ماتزال بكراً، لم يدنِّسها استعمال الخطابات الببغائي ولا ملاعب كرة الصحافة.

ولكنه مازاد في يومه ذاك على: ألديك اقتراح؟

ــ دعنا نفكر معاً.

بدأ الأمر مزحة هازئة من فياض، فماذا يمكن لهما وهما الفتيان الأعزلان المعزولان في هذا الجو المسالم المفاوض المترقب لحرب لم ينس سابقتها بعد أن يصنعا.

أراد أن يقول لينهي المزاح وهو يرى نزهتهما تفسد، وبدلاً من التمتع بهذا البستان الجميل، وشرب كأس رخيَّة إلى جانب الساقية الوديعة، والتلذذ باللحم المشوي، والباذنجان المقلي، والسَّلَطات يعدُّها المرابع، هاهو ينجرُّ إلى الحديث عن الماضي والمستقبل، ووجوب تغيير

الحاضر بهزّ السدّ، وجعل النهر يغرق الحواجز الواقفة في طريقه، وقال إياد: أنت درست الكيمياء ويمكنك أن تفيدنا كثيراً.

وتوتر فياض، وتوقفت الكأس بين اليد وبين الفم، فماذا يريد من الكيمياء؟ وبغباء رفض أن يفهم مايراد له أن يفهم: الكيمياء، لاأفهم.

وبحماسته التي تجعل جسده كله يتحرك، اليدين، والوجنتين المتقلصتين والعينين المتضيقتين: سأبدأ من البداية، كل الزعماء، ومشايخ الحارات الذين اتصلت بهم خافوا، ورفضوا الفكرة تماماً.

وسأل فياض مرتاعاً: اتصلت بهم إذن؟!

فكرر في ألم: ورفضوا الفكرة تماماً.

وتورَّط فسأل: ولكن.. أية فكرة؟

ــ ستعرفها عما قريب، هم يقولون لاداعي لإراقة الدماء، مادمنا نستطيع كسب مانريد بالمفاوضات والكلام الحلو.

ــ هاه.

ــ برافو، أحبك، تعجبني سخريتك يافياض، كنت أنتظر ردة الفعل هذه، صح، لايستحقون أكثر من هاه. ولكن. أضاف بألم جعل الوجنتين تسترخيان والعينين تتسعان ــ هذه هي الحقيقة، هم يستمتعون بتبادل الكراسي، ومتع الكراسي، ولذا فإن أية ضجة أو قلقلة ستسبب لهم الإزعاج.

ــ وهم.. يكرهون الإزعاج.

ــ ليس الإزعاج فقط مايكرهون.. بل ظهور أشخاص جدد على المسرح يبرزهم القتال والحركة غير الحزبية.

وانجر فياض غير مدرك المُوْحَلَة التي ينجرُ إليها، فقال: وهم يخافون المنافسة.

ـ تماماً ـ قاطعة ألقاها.

وككل لعبة منطقية لابد أن تستجر الأمور تواليها قال: وهل يجب انتظار سماحهم.

ـ بالطبع لا. وهذا ماكنت أتمنَّاك أن تقوله ـ كان الجواب المنتصر انتصاراً نهائياً.

وأحسَّ فياض لهنيهة بالورطة، وبخاصة بعد الجملة المنتصرة التي قالها إياد فقال في ضعف: ولكن.. إياد ماذا ستفيد مني؟ أنا غريب تماماً عن البلد، غريب عن الناس، لا أعرف أحداً، وكل من أعرف هم من الفرنسيين أو أصدقائهم من الموظفين الكبار.

ـ لا.. هؤلاء لانريدهم.

ـ فبمن تريد هزَّ السد إذن؟

ـ بنا!

ماذا؟ همس فياض لنفسه: ماذا؟ هل جُنَّ الولد، وتمتم: بنا؟

ـ نعم.

وبيأس قال: ولكن من نحن؟

ـ أنا وأنت!

وأطلق فياض ضحكته التي طال حبسها والتي خلصته من توتّر الموقف، فلا بد أن إياد يهزل: تعجبني، أحبُّ النكات الجيدة!

ـ لا.. أنا لاأهزل، كل الثورات الكبيرة تبدأ بحركة صغيرة.

ـ ولكن إياد، فتّح عينيك، خمسة سنغال كافون لإرسالنا إلى جزيرة الشيطان.

ـ لن نمكّنهم منا.

ـ أتريد قتالهم بـــ.. نا، وتريد ألا نمكنهم منّا؟

ـ فلمَ حدثتك عن الكيمياء التي تدرسها!؟

وبإصرار تابع: ستجهز لنا لغماً نضعه في طريق إحدى دورياتهم، وسينفجر، وينفجر معه السكون الدَّبق الذي نعيشه.

وصمت فياض يفكر، الولد جاد إذن، ولكن، لغم؟ من صُنعنا نحن؟ و..تفجر به واحدة من دورياتهم.. ويفجر معه السكون الدبق.. وشهق ياإلهي! إياد.. ولكن.

ولكن الآخر أكمل حصاره: فياض لاتتردد.

ـ لاأعرف تركيب الألغام ـ وظن أنه هرب.

ولكن الآخر الملحاح لايعرف التردد قال: تعرف مبادىء صنع المتفجرات، وسنصنعه على طريقتنا.

ـ وموادهُ الأولية؟

ـ نشتريها من السوق، معظم التجار أصدقاء للمرحوم أبي.

ـ ولن يكشفونا؟

وللمرة الأولى يكتشف أنه صار لديه ***نا وهم*** وأن.. **هم** كانوا الفرنسيين، وسيذكر هذه اللحظة طويلاً طويلاً فيما بعد وببرودٍ قال إياد:

سنحرص على ألا يكتشفونا.

وعلى العشاء نظر فياض إلى وجه روجيه يمضغ لقمته ساكناً، يمضغ ويتلذذ وعيناه تنظران إلى الداخل. لم يكن يعرف أن شجاراً حاداً قد جرى قبل قليل بين روجيه وماتيلد حول السفر إلى باريس، ولكنه تساءل: فيمَ يفكر الآن؟ وبرهبة متوترة كرر: أتراه يُظنُّ ولو لثانية أن من يجلس إلى طاولته قد شرع في إنشاء مخبره البدائي في بستان إياد بكفرسوسة؟ وبلذة غريبة مختلطة فكّر: أتراه يعتقد ولو للحظة أن هذا الابن الذي وهبه سنوات من عمره، وهبه الحبَّ يعدُّ الآن لتركيب لغم يوضع في طريق إحدى الدوريات الفرنسية ليفجرها، وفجأة وقفت اللقمة في الفم، وتشنجت الأصابع على الشوكة، ياإلهي ماذا لو كان روجيه في إحدى هذه الدوريات؟ ماذا لو أصيب روجيه، أو قتل بلغم من صنع يدي الولد الذي رباه؟

ونظر إلى اليدين الضخمتين الطيبتين اللتين طالما داعبتا الرأس، وأخذتا باليد، واحتضنتاه: ياإلهي! أيمكن أن أكون.. أنا.. السبب؟!

نظر إلى ماتيلد، كانت تنظر إلى وجهه في رعب: فإياد، أهناك مايؤلمك؟ أتحسُّ مغصاً ما؟

وكَمَن أُمْسِك به عارياً، أو يرتكب عاراً قال في ارتباك وقد أرعبه رؤيتها مافي داخله وقد تسرب إلى الخارج: لا. لاشيء.

ولم تُرِدْ أن تقول له إن الذعر في وجهه، والاصفرار الذي علاه قد أرعبها، فنظرت إلى روجيه الذي قال بصوته العميق المهدأ: أهناك مايضايقك يافإياد؟

ـــ لا.. لا شيء. اعذروني.. مغصٌ خفيف.. سأمضي إلى غرفتي.

وانسحب، انسحب ليبدأ صراع يستغرق الليل كله، الليل الطويل، ليل الأرق، وليل الخوف، وليل الحساب: كيف لم أفكر في هذا قبل الآن؟ كيف لم أفكر في احتمال قتل روجيه؟ كيف سأنظر إلى ماتيلد لو عدت يوماً، ورأيت الوجه الحنون الطائش الظريف وقد تأطر بالسواد، والعينين الماكرتين المداعبتين اللعوبين وقد أطفأهما الحزن؟ هل أقول: أنا قاتل الفرح في عينيها؟ هل أقول: أنا الجاحد يقطع اليد التي ربتت على رأسه اليتيم، ولكن.. لا.. لا.. كيف لم أفكر في هذا؟ كيف؟ كيف؟

وأطل الصباح على عينين حمراوين ووجه مرهق و.. مضى إلى إياد.

ـ ولكنه واحد منهم يافياض، بِمَ يفترق عنهم؟

وبعنادٍ ألحَّ: لا.. إنه ليس واحداً منهم.. صدقني.. إنه..

ـ إنه ماذا؟ وأخيراً نفض الشكوك في صدره كلها مرة واحدة: فياض هناك شيء ما غريب في العلاقة بينكما.

وعاد إلى صدفته العتيقة يحتمي بها، ويهرب من الاعتراف بروجيه وماتيلد أبوين، فتمتم: كان صديق أبي، وكان من رعاني بعده، هناك أشياء عاطفية بيننا لايمكن شرحها بالكلمات.

ـ هاه، فهمت ـ وصمت قليلاً يجول في المكان ـ وهل نوقف مشروعنا لأن علاقة عاطفية وصداقة عميقة ربطت بين أحد أبناء الوطن وبين واحد من أدوات العدو الباطشة؟!

ـ ولكنه ليس كذلك، ليس كذلك أبداً، إنه روجيه الحالم الرومانسي الذي أحب الشام و..

ـ حسن، أنا آسفٌ يافياض، لابأس، وبلؤم فحّ: ـ هناك دائماً عذر

ما موجود لتبرير هذا التراجع أو ذاك.

وأصابت الطعنة موقعها: إياد.. ماذا تعني؟

ـ ماسمعت تماماً.

ـ ولكن.. كان ضعف التمزق قد أنهكه.

ـ وعلى أية حال، من قال إني بلا أصدقاء بين الفرنسيين؟ من قال إني بلا أقرباء بين الفوج السوري؟ من قال إني لاأتوقع أن يصاب أحدهم؟ ولكنها الحرب ـ هدرت قوية ـ حرب الاستقلال يافياض.

كان الصوت جليلاً والكلمات نهائية، فصرخ فياض منساقاً للدور الذي وضع فيه، صرخ مقهوراً كسيراً محزوناً: ولكنه روجيه، أنت لاتفهم ياإياد!

ـ بل أفهم، وأفهم كثيراً، ولكنها الحرب، هذا الإله الباطش لايتوقف أمام الأفراد وعواطفهم، إنها الحرب تشعلها ولاتعرف من يكون الوقود!

ـ فما مبررها إذن؟

وانطلقت مجلجلة كنذير سماوي: العدل.

ولكن فياض الحائر الممزق ما استطاع إلا أن يكرِّر: العدل، أين العدل؟

ـ أين العدل؟ إنه في عدم احتلال أرض الآخرين، إنه في الحفاظ على هويتنا، شخصيتنا، ثقافتنا المساوية دون ترفُّعٍ ودون تَنَقُّصٍ.

ـ وهذا يسوّغ الحرب؟

ـ طبعاً، فإن لم يكن العدل مسوِّغها كانت الفوضى والخراب والشر والقتل المجاني!

ـ والعمل؟ ترددت ضعيفة.

ـ راجع ضميرك، فإن أحسست بعدالة ماننصنع، فتعال إليَّ نبدأ هزَّ السدِّ.

وسمع الحكواتي يقول: أنت منّا ياعزنوس، أنت من المسلمين الكرام ثم تحورت بهدوء لتصبح أنت من العرب الكرام، ولست من الفرنجة اللئام، ولكن الوجه الأحمر الطيب، المقطوع بشاربين أبيضين عملاقين تقدم: فإياد، أهناك مايزعجك يافتى؟

وبصوت جريح قال: إن كان الخيار بهذه الحدِّية.. لا. لا. لاأستطيع.

وصمت، وصمت، وطال الصمت حتى صار عذاباً وأخيراً رفع إياد عينين حمراوين:

ـ لابأس. إن كنت تحبه إلى هذه الدرجة وجدنا حلاً وسطاً.

وتعلَّق الغريق بالقشة المسكينة: ماهو؟

ـ نختار يوم عمليتنا حين لايكون على رأس عمله.

وأراحته الفكرة، ولكن فجأة تذكر: ولكن، ربما استدعي بطريقة مفاجئة؟!

ـ نختار يوم مرضه.

ـ ومن يتحكم في مرضه؟

ـ أنا.

ـ كيف؟

ـ حين نحدد يوم العملية أعطيك دواءً مسهلاً تحتال لإضافته إلى

طعامه فيلزم بيته وننهي عملنا.

انجلت الغمامة السوداء ووجد فياض نفسه يعمل على تحرير الوطن ولايتسبب في الأذى لروجيه الحبيب، المداعب، الرابت على الرأس، المحتضن الودود، والحالم.. بإقطاع في الشرق لن يتحقق.

* * *

كانت صفائح الكاز الفارغة والبارود والبنزين، والفتائل سريعة الاشتعال، والصواعق البدائية مكوَّمةً في المطبخ العتيق، وعلى الوجاق عتيق السواد، وفي النمليَّة التي أكل النمل والعفن كل مااختزنته تلك المرأة السمينة الهادئة التي كان عبد الكريم الجوقدار يسمي منظرها الجانبي بالبقرة الهادئة. وقال إياد متهيجاً:

ــ أتخيَّل اللغم الأول، وكيف أنه لن يفجر الدورية الفرنسية فحسب، بل وهذا الهدوء الخادع وانتظار سلام لن يعطى دون ثمن ــ وبلهفة سأل ــ: متى تنهي تركيب اللغم الأول؟

وبحكمة الساحر القديم مالك الأسرار همهم فياض: لن يستغرق الأمر طويلاً، ثم وهو يتجه إلى كومة الكتب الفرنسية المركومة على سحاحير مقلوبة ــ ولكن دعني أراجع ماكتب هنا عن صناعة المتفجرات، انظر، هناك نوعان ممكنان من الألغام، ألغام للأفراد، وألغام للآليات.

ــ ولكن طبعاً نريد لغماً مضاداً للمصفحات.

ــ وقوة الانفجار؟ قالها شارد الذهن يطالع ماكتب بالفرنسية ــ كم؟

ــ مايكفي لقتل أكبر عدد ممكن من أفراد العدو.

ـ ولكنه سيكون لغماً كبيراً.

ـ لانريده صغيراً، فيغطون على أنبائه بينما يبدأون البحث عنا، أريد الشام كلها تفزع لانفجاره حتى إذا ماقبضوا علينا بطريقة، أو بأخرى فزعت الشام كلها لإنقاذنا.

وانتفض فياض رافعاً رأسه: تتحدث عن القبض علينا وكأنه جزء من العمل.

وبأريحية المستعد للشهادة قال إياد: بالطبع، أم تظنها لعبة؟ إن لديهم مكتبهم الثاني النشط.

ولم تعجب فياض الفكرة، فقال متوتراً: هل يعني هذا حتمية القبض علينا؟ وفهم إياد توتره، فقال يطمئنه: لدينا ورقة قوية لن تمكنهم من القبض علينا. وبلهفة سأل فياض: ماهي؟

ـ مازلنا هواةً، ولاسجلات عنا لديهم.

ونفخ فياض ساخراً: ونعمت الورقة.

ولم يرد إياد للحديث أن يسرقهم: لنترك الثرثرة الآن ونبدأ العمل مارأيك؟

وأخيراً وصلت رحلة الراعي اليتيم سيد قلعة الخراف التسعة والجداء الستة والأمير البدوي الملاحق بحسناوات يطلبْنَ السبيَ، أخيراً إلى نهايتها، فلقد قرر عرنوس أخيراً، وكان عليه أن يدفع ثمن قراره. هذا الثمن الذي سيظل يدفعه حتى نهاية العمر، وفي الوقت الذي أخذ فيه يخلط المواد ويرتبها في نصف صفيحة الكاز الأعلى المقسومة إلى نصفين لحم نصفها الأسفل المملوء بالبنزين تماماً، ثم يضع البارود، الحصى، القطن، الفتيل، كان إياد يتحدث عن المفاجأة التي ستصيب

السياسيين قبل الفرنسيين، وكان صوته يصلُ من باحة الدار حيث كان يعدُّ الغداء لكليهما. قال: وأخيراً وبضربة واحدة سننهي الهدوء المائع وزلاقات السياسيين البليدة وسنعيد لرجل الفعل مكانه وحجمه الحقيقيين و.. نادى فياض:

ـ تعال لترى بعينك.

وجرى إياد: هه.. طمني.

ـ اللغم الأول جاهز، ولكن يجب أن نجرِّبه أولاً، فلا يمكن طرحه للاستعمال مباشرة. لاتنس أنه لغم هواة.

ـ أنت على حق، يجب أن نجربه.

ـ ولكن أين؟ نحن لن نجربه هنا في البستان.

ـ بالطبع لا. اترك هذا الأمر لي، سأفكر في مكان لتجربته.

تغديا، ثرثرا، حررا وطناً لم يكن يأبه بهما، ثم ركب إياد دراجته الهوائية مودعاً فياض الذي عاد إلى روجيه وماتيلد.

أسوار البساتين مدكوكة التراب المغطاة بعسالج الفول وأشواك الحقول، أشجار الجوز المطلة على الدروب مابين البساتين، النهر الصغير، وشجيرات توت السياج وخوخ الدب. سنجاب يقفز وشحرور يغرد، ودراجة هوائية تسعى في الدرب مثيرة زوبعة من غبار ناعم، كانت كل البساتين مسورة، وكل النهيرات والسواقي تغصُّ بالماء، وكل الجسيرات ضعيفة، وكان يتقدم. رمانة مفتوحة الفم تطلُّ ولايملك مقاومة، يقطفها، يريح دراجته، يتلمظ وهو يقضم الحبات الوردية، وبعد. وبعد يجب أن يجد المكان الذي سينطلق منه التفجير الأول، المكان، ياإلهي! يجب أن يكون معلماً، فما يدريك؟ ربما يصبح المحجَّ والمزار، وستقف

الأجيال التالية أمامه بخشوع: من هذه النقطة انطلقت شرارة الثورة الكبرى.

هيَّجَه الحماس، ألقى الرمانة وامتطى الدراجة الهوائية مشرعاً صدره للريح والمجد القادمين.

انفتحت الأسوار الترابية، وتراخت شجيرات توت السياج.

ـ آه.. بيادر نادر، إذن، ياإلهي! كيف لم أفكر فيها قبل الآن؟

كان المكان مثالياً لكل شيء، فسحة كبيرة وأشجار عجوزة عملاقة والأهم من هذا كله كانت القناة الرومانية، أسند دراجته.. اقترب من القناة، أطلَّ وصرخ: أنتم يامن بنيتم هذا المكان، تذكروا ولتحفظ ذاكرتكم جيداً هذا اليوم. تردد قليلاً.. وقد أحسَّ بسخرية صغيرة، أجال ناظريه في المكان، كان المكان خالياً تماماً، لا أناس ولاحيوانات، أف، وألقى كلمته التي كان يتحرَّقُ طويلاً لقولها إذ وقف منتصباً وصرخ: من هذا المكان الهادىء ستنطلق أولى شرارات الثورة.

* * *

في اليوم التالي التقيا، حملا الصفيحة الحذرة على الدراجة، لفَّاها بِكيسَي خيشٍ عتيقين وتقدما يحدوهما مارشٌ لايسمعه غيرهما، وأخيراً همس فياض:

ـ المكان بعيد؟

وأجاب الآخر بهمسٍ في وقار: وصلنا تقريباً.

اجتازا الممر الأخير بين أسوار البساتين. توقف إياد. وأشار إلى

فياض ليتوقف.

ــ ماذا؟ همس فياض.

ــ توقف قليلاً. سرِّح عينيك في المكان.

ــ لماذا؟ ماالمميز فيه؟

ــ ألا تعرف بعد؟ احفظ اسم المكان جيداً.

ــ لماذا؟ ألحَّ فياض.

ــ لأن التاريخ سيذكره دائماً، سيذكره على أنه المكان الذي انطلقت منه الشرارة الأولى.

ــ ماسم المكان؟ قال فياض يسايره، فقد كان يريد أن ينتهي من المهمة بسرعة قبل أن يفاجئهما أحد.

ــ اسم المكان بيادر نادر.

ــ وسنجري التفجير هنا؟

ــ لا، بل إلى الأمام في القناة الرومانية.

ــ ثانية؟ هتف فياض، ثم تمتم لنفسه: أيجب لكل مكان أن يذكرنا بمرور أولئك الناس؟

تقدم إياد يجرُّ الدراجة ويسندها من اليمين، وتبعه فياض يسندها من اليسار.

قال إياد: أترى؟ المكان معزول تماماً.

ــ صحيح لم نرَ إنساناً منذ أول الدرب.

وصلا القناة المسماة بالرومانية والتي تَعِبَ المئات من الأجداد في

حفرها، تصوينها، سقفها، تثقيبها، وجعلها تدور حول المدينة والريف تجمع الماء الجوفيَّ المتسرِّب من الشقوق إليها، إلى أن تحيله نهراً جوفياً يسقي البساتين المنخفضة، ومع ذلك فقد دعوها بالرومانية.

ــ ولكنها جافَّة، قال فياض.

ــ لابد أنها تهدمت هنا وهناك وتراكم الردم والهدم فصارت إلى ماترى.

حملا الصفيحة ووضعاها في القناة الحجرية. كان إياد قد أعدَّ حفرة بحجم الصفيحة منذ الأمس.. جهَّزَ الصاعق الذي لن ينفجر لوزنٍ يقلُّ عن مئة كيلو، وفجأة تذكر فياض: ولكن من أين سنأتي بالآلية لتفجيره الآن؟

وأسقط في يد الفتيين، فمن يضحي بآلية يفجرها في تجربة كهذه.

ــ والعمل؟

ــ لاأعرف. دَخَّنَا سيكارتين، لاما نفسيهما، تراجعا، أقدما، وأخيراً انتفض إياد: تعال.

ــ إلى أين؟

ــ تعال.. تذكرت شيئاً رأيته في الطريق.

ركب الدراجة يعدو، وعدا فياض وراءه، ولكنه اختفى عن ناظريه بعد المنحنى الأول، وصل ليجده يقف وقدمه اليمنى ترتاح في فخر على رحىً ضخمةٍ قديمة مهجورة متروكة لجلوس المتعبين وربط الحمير، بينما انتصب جسمه فوقها كفارسٍ لاتنقصه إلا القنطارية يتحدى التاريخ.

ــ ماهذا؟ سأل فياض.

ــ هذه هي الآلية التي ستدخل التاريخ معنا. ساعدني.

ــ فيمَ ؟

ــ سنأخذها إلى القناة، ونجعلها تدور على محورها كعجلة حتى إذا ماوصلت إلى حيث الصفيحة قفزت عليها وضغطت على الصاعق، وأرتنا فعالية اللغم.

كانت الفكرة معقولة، رفعا الرحى، دحرجاها، وتدحرجا معها، تشطَّبت ركبهما وأكواعهما، تعفَّرت ثيابهما تماماً حتى ماعاد يعرف لونها، ولكن.. وسمع إياد من بعيد من الداخل صوتاً مدوياً يهتف: على الرحى أن تقفز لتفجِّر اللغم الذي سيفجر هدوء هذا العالم المتآمر..

وتدحرجت الرحى أخيراً، فشقت لنفسها طريقاً في التراب الجاف لم تقربه نقطة ماء منذ شهور، تدحرجت فشقَّتْ لنفسها طريقاً عبر أدغال الشوك والعليق، وأعشاب البرية العنيدة على الموت واليباس، وأخيراً.. الخندق.. القناة الرومانية الهاجعة منذ قرون، قال: يجب ألا تخطىء طريق اندفاعها وإلاَّ فسيصعب علينا استرجاعها ثانية من القناة.

وهزَّ فياض رأسه معجباً، إياد يفكر بكل شيء، نظر إياد من حوله وقال: تعال. وتبعه فياض. جاءا بغُصنَي شجر يابسين، ثبتاهما في بداية المجرى يصنعان منها سوراً لطريق الرحى إلى حيث الصفيحة المدفونة أسفل القناة. نظر إياد إلى الرَّحَى، إلى السور الغصني، إلى الصفيحة ثم قال: ولكن، يجب أن تنزلق الرحى بسهولة لتندفع إلى الصفيحة..

عادا إلى الأشجار. قطَّعا بضعة أغصان صغيرة. نشراها على الأرض فتمهدت. نظرا إلى ماصنعا في فخر، وأخيراً أطلق إياد حكمه الأخير: الآن تنطلق الشرارة!

أقاما الرحى من رقدتها، كانت اللعبة طريفة، صحيح، ربما كان فيها

موتهما، ولكنها تظل.. طريفة.

اندفعت الرحى في مجراها الغصنيّ، استلقيا يحتضنان الأرض، وينتظران انطلاق الشرارة.. اصطدمت الرحى باللغم، سمعا تفجر الصاعق، شما رائحة البارود ولكن اللغم لم ينفجر، رفع إياد رأسه متسائلاً: ننظر؟

ــ ننظر.. قال الآخر مستسلماً، ورأيا دخاناً خفيفاً ونسيساً وخيبة.. لقد فشل اللغم.

ــ والعمل؟

ــ لاشيء.

ــ ألا نفحصه؟

ــ لا.. فما يدريك متى ينفجر؟

ابتعدا، وكان ذلك خيراً، إذ ماكادا يصلان أولَ الممرِّ بين البساتين يجُرَّان الدراجة المنهكة حتى انفجرت الأرض، واهتزَّ الشجر، وخُيِّلَ إليهما أن زلزالاً هزَّ الدنيا، لم يرتعب إياد، بل انقضَّ على فياض يعانقه: نجح اللغم، نجح اللغم.

عادا إلى القناة الرومانية ليريا أجمل حريق شاهداه يأكل العواسج والأشواك وتراب أرض القناة المشبعة بالبنزين، كان سقف القناة قد خُسِفَ لعشرات بل ربما لمئات الأمتار: وهتف إياد فخوراً: لقد فجَّرنا القناة الرومانية.

عند مدخل القناة كانت اثنتان من بنات آوى تجرجران جسديهما المحطمين مبتعدتين تعويان في ألم، وقال إياد: ترى كم قتل الانفجار منها

في عمق القناة؟ وجاء الجواب عواؤها المكتوم الممزّق.

التفت إلى فياض وقد ملكه الانفعال: هه مارأيك كم يقتل لغم كهذا من الفرنسيين؟

وتمتم فياض حائراً: لاأعرف. الانفجار تمَّ، ولكن.. متأخراً وهذا لن يفيدنا في شيء.

ــ غير مهم، المهم أنَّ المبدأ صحيح، سنأتي بصاعق أشد قوة. هيا. مضيا ملاحقين بعواء بنات آوى المحبوسة في القناة وروائح الشوك والعوسج المحترقة وقناة عمرها قرون كانت قبل أن تدركها يد الإهمال تسقي بساتين من تين وزيتون.

وقالت ماتيلد وهي ترى ثياب فياض المتسخة: أووه.. فإياد.. أين كنت؟ ثم.. ماالذي حل بثيابك؟ ــ وأضافت ضاحكة ــ أتشاجرت مع الأولاد في الحارة؟

وتمتم الآخر في اقتضابٍ لايحتمل المزاح فقد كانت تجربة اليوم ممضَّةً: كنت في رحلة صيد مع إياد.

ــ آه! إذن غَيِّرْ ثيابك بسرعة، روجيه سيصطحب إلى العشاء وحيد بك مدير التحري، ستتعرف إليه وسيكون ذا فائدة لك.. فمن يدري؟

وأطلق فياض قهقهة داخلية: مدير التحري في بيتنا وسأتعرف إليه، أتراه يمكن أن يخمن بما يُعَدُّ له من مفاجآت؟

مضى إلى غرفته يغتسل ويغير ثياب روبن هود ليعود فياض الولد المهذب باريسي الدراسة والسلوك.

(١٥)

في الترامواي لم يكن الجرس يرنُّ هذه المرة عر.. نوس، عر.. نوس.. حاول أن يركز، ولكن الجرس كان يرنُّ.. أسا.. مة.. أسا..مة.. بيا.. در.. نا.. در.

اتضح كل شيء فجأة، ياإلهي! كان ضيِّقَ الصدر منذ الصباح يحسُّ انزعاجاً وقرفاً، عزاه أول ماعزاه إلى إكثاره من الشراب على العشاء مع روجيه ووحيد بك ومنير بك، ولكنه تذكر أنه لم يكثر من الشراب، فقد كان همه الأول مراقبة هذين الرجلين الغريبين مدير التحري ومدير الشرطة يساهران روجيه رئيس الفوج السوري، كانا يتحدثان بفرنسية عامية مكسرة، ولكنهما كانا يعوِّضان عن هذا بقهقهات فصيحة.. تأمل الوجه اللحيم الزيتوني والشاربين الصغيرين على طريقة الفراشة.. الخدان الممتلئان بالطعام، والنثار المتطاير مع كل قهقهة، وتمتم لنفسه: ياإلهي! أهؤلاء من يقررون مصير البلد.. كان منير بك النقيض الكامل لوحيد بك، كان أشقر، نحيلاً، رياضياً صموتاً حيي الابتسامة، وكان يضارع في ترفعه وأناقة أكله روجيه إن لم يفقه، ولكن دون أن يتفوه بجملة واحدة مفيدة، وسيكتب فياض عنه فيما بعد: كان الصورة المحلية للباريسي ولكن دون روحه.

ولكن.. رن..ترن.. رن.. ترن.. لا.. ليس هذا مايضايقه وليس هذا ماجعله يستيقظ مكروباً مضطرباً.. وقال لإياد:

ـ الحلم ياإياد.. الحلم.

ـ أي حلم ـ وفجأة أشاح بيده مبعداً الفكرة مفضلاً العودة إلى موضوع اجتماعهما.

ـ فياض.. أرجوك. دعنا الآن من الأحلام، ولنفكر في الخطوة التالية.

ـ ولكن الحلم هو خطوتنا التالية.

ـ كيف؟ مازلت لاأفهمك. اسمع. أنا متعب منذ الأمس.

ـ وأنا أكثر تعباً. ولكن. إياد، إكراماً لله.. يجب أن تسمعني.

تنهَّدَ مستسلماً: تفضل ياسيدي.

- بعد أن مضيا، وانتهى العشاء ـ ولم يسأله إياد عمن مضى، وضايق فياض هذا قليلاً، ولكنه قرَّر معاقبته فلا يذكرهما له ـ مضيت لأنام، ولكني لم أستطع النوم.

ـ ولمَ لم تتناول منوِّماً؟ قال ببرود متهكم.

ـ إياد.. قال محذراً.

ـ حسن. حسن. سأسمع.

ـ حاولت النوم، أطفأت النور، عددت الأغنام تخترق باب الزريبة متابعاً النصيحة الخالدة للأرِقين.

ولكن فجأة تبدلت الأغنام لتصبح أسامة ومصطفى وحسن وعرنوس و..

ـ عمَّ تتحدث؟ ـ قالها بنزق.

ــ هه.. تفضل.

ــ لا. ليس الآن. فأنا لن أحدِّثك الآن إلاَّ عن الرؤيا.

وكرر إياد في ملل: قُلْ، وأرحنا إكراماً لله.

أمسك فياض بسيرة الملك الظاهر يقلِّبُها حين جافاه النوم، ولكنه سئم السذاجة فيها، فأمسك بمذكرات أسامة، وأخذ يقرأ..

القلعة العظيمة الأسوار، الأبراج الشامخة. رماة السهام والمقاليع، المجانيق المنتصبة، الأمير برسق، والأمير اسبهسلار، والخيول المترفعة تنظر إلى القلعة ترفع الصليب الفرنجي متحدية.

وقال برسق: إنها أفامية يا أمير أسامة قلعتهم المتقدمة، يجب وضع حدٍّ لأذاها.

التفت أسامة حوله، كان فياض وحسن ومصطفى ومسعود وعبد الرحمن، قال: يجب أن ننقب السُّوْر.

التفت فياض حائراً: كيف؟ ولكن مجموعة من الخراسانيين أسرعت لتنفيذ المهمة. جيء بدبابة مغطَّاةٍ بجلود الثيران المقوَّاة. جُرَّت. دخلوا تحتها، انضمَّ إليهم فياض. أخذوا يتحدثون لغة غريبة، ولكنه كان يفهم. وصلوا إلى السور، أخذت الحجارة والرصاص المُذابُ والماء المغلي تنسكب عليهم، ولكنَّ جلود الثيران كانت تحميهم. بدأوا النقب.. حاول فياض مساعدتهم، ولكنهم لم يهتموا، فاكتفى بالمراقبة. المعركة مستمرة في الخارج بين المجانيق والمجانيق والسهام والسهام.. حفروا المجرى الأول.

جاؤوهم بالطعام تحت الدبابة. نصبوا عُمُدَ الخشب الأولى دعَّموها بالعوارض حتى لايقع النفق واستمر الحفر. كان فياض يشعر أنه منهم وليس منهم.. يشارك ولا يشارك، ولكنه لدهشته لم يكن يشعر أنه

الغريب، صحيح أنهم يتكلمون بلغات غريبة ولكنه يفهم، صحيح أنهم لم يوجهوا إليه حواراً، ولم يسمعوه حين حاورهم ولكنه كان يفهم. النفق يمتد، وعُمُدُ الحماية تُنْصَبُ، والعوارض تقام، والنفق يمتد، ويمتد حتى يصل إلى أساس البرج. جاؤوا بالخشب الجاف، رصفوه. أشعلوه وهربوا. انتشر الحريق قوياً. فأحرقَ الكلس.. وأحرق الملاط.. وسقط أحد الجدران، ولكن البرج مازال قائماً.

ـ والعمل؟ صرخ الأمير برسق، وحار أسامة في الجواب. النفق حفرناه، والكلس أحرقناه، ولكن البرج مايزال قائماً.. والعمل؟ صرخ برسق في غضب. أقسم: لئن لم يسقط البرج اليوم لأقطعن أيدي النقّابين جميعاً.

ذُعِرَ الخراسانيون فلقد فعلوا كل ما بإمكانهم، صنعوا كل مايجب والنفق احترق، انهدم، ولن يستطيعوا حفره ثانية، عندئذ تقدم فياض. قال: اعطوني صفيحة كازٍ فارغة، فجاؤوا بها، هاتوا بنزيناً، فجاؤوا به، البارود، الحصى، القطن، الفتيل، الصاعق، صنع لغمه البيادر نادري، واختفى تحت دبابة، ومضى إلى أسفل البرج، دفن الصفيحة، أشعل الفتيل وهرب، نظر إليهم يراقبون القلعة في قلق حين دوى الانفجار، الانفجار العظيم، الانفجار الذي أسقط البرج ودكَّ السور وفتح القلعة أمام المهاجمين.

نظر أسامة إلى فياض للمرة الأولى فرآه، نظر إليه مندهشاً وسأل: فياض، أأنت منا أم منهم؟! قال فياض بسرعة: بل منكم ياسيدي. منكم.

ـ ولكنك غير مستعد كأصدقائك، أين درعك؟ أين رمحك وسيفك؟ أين حصانك؟ ونظر فياض إلى أصدقاء الناعورة، حسن ومصطفى وعلي وعبد الرحمن ورآهم يركبون خيولهم الرشيقة وإلى جانبهم قنطارياتهم العظيمة، وعلى صدورهم دروعهم الزردية -وتابع أسامة: ثم ماهذه الثياب السخيفة؟ أأنت منا أم منهم؟

نظر فياض إلى ثيابه ليرى أنه يلبس الثياب الفرنجية، فخجل، خجل كثيراً، فها هم يستعدون للمضي إلى التحرير، وهو غير مستعدٍّ، ليس هذا فحسب، بل هو يلبس لباس أعدائهم. استدار أسامة بحصانه وقال: إلى اللقاء يافياض، الحَقْ بنا حين تكون مستعداً.

ركض وراءه، حاول اللحاق به، رآهم يدخلون أفاميا، يحرِّرون ويأسرون، ورأى نفسه مكبوحاً في مكانه لايستطيع التقدم ــ صرخ:

ــ مولاي، ولكن أين مكان اللقاء؟

التفت أسامة وكان يقف بحصانه أعلى البرج: هناك، وأشار بيده إلى الجنوب، ولكن مالنا وللجنوب؟! أنت تتجه غرباً للتحرير فلِمَ تشير إلى الجنوب؟ واندفع فياض في سيل من كلام مضطرب يتحدث عن ولاء وإخلاص، عن صداقة ووفاءٍ، وعن دَيْنٍ يجب أن يوفَّى حين رأى فجأة وحيد بِكْ يضحك ضحكته المقهقهة ناثراً فضلات الطعام على وجهه. التفت إلى روجيه ليراه يحدِّق به بعينيه الهادئتين ويسأل: فإياد، أهناك مايضايقك يافتى؟

التفت عنهم ورَنَا إلى بعيد إلى حيث مضى أسامة، صرخ: مولاي، أليس من علامة؟

ومن بعيد جاءه الصوت ولكنه كان مختلطاً بصوت عرنوس وإياد: كفرسوسة، بيادر نادر، كفر.. سوسة.. سة..

لم يطُلِ الصمت بينهما كثيراً إذ قطعه إياد فجأة: أهذه هي الرؤيا؟ وشعر فياض بالخيبة ولكنه تابع: أنت على حق. ولكن كان يمكن أن أقول إنها أضغاث أحلام لو لم يذكر كفرسوسة وبيادر نادر.

ــ هه. وزمَّ إياد شفته السفلى قليلاً ــ فياض، تعرف؟! هناك شيء لاأفهمه عنك! وتردد قليلاً قبل أن يتابع في رقَّةٍ ــ أهناك ماتحب الحديث إلي عنه؟ أعني حول روجيه وماتيلد، وما علاقتك بهما، وأهلك في حماة

الذين لم تزرهم، وشيزر والأمير أسامة؟

صمت فياض تاركاً إياد يسترسل في أسئلته محاولاً العثور على جواب لايكشف عن حياته السرية، لايكشف روجيه وماتيلد، ولكن الأسئلة تتراكم والإلحاح يمور، ولابدَّ من الجواب، فقال فجأة يغيِّر مجرى الحديث:

ـ ثم كانت الرؤيا الثانية.

ـ الرؤيا الثانية؟

ـ حرائق ودمار، خراب وانفجار، بيوت جميلة فيها قاعات كبيرة وإيوانات مطرزة النقوش تتهدم، بحرات تتمزق، أشجار خضر، وكباد أصفر يحترق، نساء خدرات يمزق هدوء حياتهن الحريق والخراب، أقواس حجرية تتساقط، دانتيلا الرخام تقع تحت منجل أسود لا يرحم.

ـ كأنك تتحدث عن حريق سيدي عامود.

ولكن فياض لم يأبه للمقاطعة: وحين خنق الحزن قلبي، وانتقل البكاء إلى حلقي المخنوق رأيتهم يخرجون، من خلال الركام يبعثون، من قلب النار يطلعون، من هديم البيوت الجميلة ينبثقون.

ولم يطق إياد الانتظار فهمس: من؟

ـ حسن ومصطفى وعبد الرحمن وعلي وأنت وأنا، وأنا، وأنا، أصدقاء بلا وجوه ووجوهٌ بلا أجساد، خرجوا جميعاً يلبسون ثياب أسامة، خرجوا شاكِّي السلاح مكلَّلين بنورٍ ناريٍّ غريب، سيف يضرب فتنهار دبابة، ورمح يُطلَق فيسقط مدفع.

ـ وبعد، همس إياد بلهفة.

ـ أخذت الدبابات باصقة النار تنسحب خائفة، والمدافع تجمع

خراطيمها فتخفيها تحت آباطها، وتتراجع، وأخذ الدخان ينقشع والوحوش تختفي، وسمعت هتافاتٍ وتهليلاتٍ وصرخات فرح كانت كلها تشير إلى شخص ما، كانت تهتف لأسامة، لأمير شيزر، لابن منقذ، وبحثت من حولي. لم يكن هناك الأمير أسامة، ولكن الأصابع كانت تشير إليه والهتافات تحيِّيه، عاودت البحث عنه، ولكن الهتافات تصرخ، أنت، أنت، وليس غيرك، فلم لاتردَّ التحية؟! نظرت إلى ثيابي، فإذا بي ألبس ثياب الأمير أسامة، ثيابه كاملة غير منقوصة، ولكن. ياإلهي! لا. لايمكن. تحسَّسْتُ وجهي، فأحسست لحية خشنة في كفي، فارتدَّت يدي مرعوبة، إن كان أسامة من يُحيُّون، فمن أنا؟ تعالت الهتافات ثانية تحيِّي وتهتف، كان الجميع يطالبون بكلمة، بتحية ترد على خطابهم.

أشرت إليهم بكفي ليصمتوا، فصمتوا. تقدمت إلى أول المنصة، رفعت ذراعي وصرخت الكلمات فيَّ، كلماتٍ لم أردها، كلمات لم أفكر بها، لم أهتف بها، بل هتفت فيَّ: أيها الأجداد، هل سدَّدنا الدين؟ هل سدَّدنا الدين؟ لم أشعر بغرابة هذا الهتاف كما لم يشعروا لأن الجواب كان عالياً. نعم، نعم، طردنا الفرنجة، وحررنا الوطن.

كان فياض يقصُّ ويستطرد دون أن ينظر إلى وجه إياد، بل إلى النافذة زرقاء السماء، لم يكن يقصُّ قدر ماكان يريد أن يسمع نفسه يقولها بصوت عالٍ. التفت بخجل من عرَّى نفسه أمام الغريب ليجد إياد معلقاً إلى شفتيه يسمع في اهتمام متشرب، وأخيراً همس في رجاء: أكمل، أكمل!

ــ انتهى!

ــ ماالذي انتهى؟

ــ الحلم.

وفيما بعد سيذكر إياد هذا الحوار، سيذكره وسيذكِّر به فياض،

ويقول: قدرتك العجيبة على نقل أفكارك، الحرارة التي تصوغها بها، فياض، كنت أعرف أن فيك بذرة الكاتب والخطيب السياسي منذ البداية، ولكنه بدل أن يقول هذا الكلام في حينه قال بعد صمت طال: ولكنك لم تجبني على سؤالي الأول؟

ومتوتراً سأل: أي سؤال؟

ـ شيزر، الأمير أسامة، حماة، روجيه وماتيلد، حدِّثني فياض، أنا أخوك، ألا تثق بي؟

ومثقلاً بأحزان الاعترافات والأحلام، والنوم المتقطع المرهق، وتجربة بيادر نادر وبدفق إياد العاطفي، مذيب الحواجز، اندفع يحدث مطرق العينين الهاربتين من المجابهة ومبارزة العيون، فحدَّث عن البدايات، عن شيزر، عن الخراف التسعة والجداء الستة، عن روجيه وماتيلد، عن شيزر وغليام، عن المدارس الداخلية، عن الانفصال المرعب عن الأمس، حدَّث عن كل شيء، وحين انتهى رفع عينيه متوقعاً اشمئزازاً، اتهاماً أخلاقياً، ولكن إياد مازاد على أن شدَّ على كتفه في حنوٍّ: حياة غريبة، غريبة فعلاً يافياض، ولكن ها أنت ترجع إلينا أخيراً.

وقال فياض في انكسار: وتظنني رجعت ياإياد؟

فأطلق إياد ضحكته المرجعة: ماذا؟ أنسيت الرؤيا؟ لقد رجعت يافياض. لقد رجعت.

انتفض روجيه على رنين الهاتف المُلحِّ، حاول تجاهله بأن رفع السماعة، ثم أعادها إلى موضعها، نظر إلى المنبِّه كانت الخامسة، فما قلة الذوق هذه؟ ولكن الهاتف عاد إلى الرنين الملح، لم يَعُدِ التجاهل ممكناً، فرفع السماعة، وقال بصوت غليظ حشرجه تدخين الغليون الطويل: نعم.

وبنعم هذه انقلب الهدوء في البيت فجأة إلى فوضى عارمة سمع منها

فياض انقلاب كرسي، واصطفاق باب عنيف، وانكسار إبريق ماء، فأسرع في بيجامته يرى ماالذي يجري؟ ولكنه رأى في قمة الدرج حيث كان يقف ماتيلد بقميص نومها وشعرها المنكوش ووجهها غير المُزوَّق تعدو وهي تتمتم: مصيبة. مصيبة حقيقية. آه ياربي! هل ستعود الأيام السود ثانية؟!

ونزل إليها بهدوء ليسأل وقلبه ينبض في لهفة: ماالأمر؟

نظرت إليه لتراه مفاجَأةً: صحوت أيضاً؟ ـ ثم تتمالك نفسها ـ لا.. لاشيء. يجب ألا تهتم بهذه الأشياء.

ولكن صراخ روجيه وصل فياض من غرفته حاداً: استدعي الطبيب. ألا تسمعين؟ ولم تملك إلا أن تضحك، ولكن، ماحكاية الإسهال هذه؟ لمَ لم تمض منذ الأمس إلى الطبيب؟

وجاء صوته الغاضب من غرفته ثانية: أليس هذا بسبب تجاربك الجديدة في الطعام؟

تمتمت شيئاً ما وهي تنسحب بسرعة، ولكن الهاتف رنَّ ثانية، ولم يحاول فياض رفع السماعة، ولكنه عرف أن روجيه قد رفعها في هاتف غرفته لأنه صرخ في غضبٍ: ماذا؟ ثلاثون جريحاً؟ هل جننت؟ أيُّ لغم هذا؟ عليَّ اللعنة.

وسمع فياض صوت السماعة تعاد إلى مكانها، ورأى الباب يفتح بعنف وروجيه يخرج بقميص بيجامته عاري الساقين ولحيته غير الحليقة، وأسرعت ماتيلد إليه تحاول إيقافه، ولكنه دفعها جانباً: يجب أن أسرع لأكتشف ماجرى بنفسي.

وصرخت ماتيلد، ولم ير روجيه فياض من موقعه بعد: ولكنك لن تستطيع المضي إليهم بحالتك هذه!

وزأر ثانية: لاأستطيع! لماذا بحقِّ السماء.. هه؟ بسبب هذا الإسهال السخيف؟ أتريدين أن تُرْفَعَ التقارير عن تمارضي وإهمالي؟

دفعته إلى غرفة النوم ثانية، ولكن الدمدمة لم تتوقف. تحرك فياض قليلاً من موقعه يريد الاستماع، ولم يجد إلا طاولة الطعام يجلس إليها حين فُتِحَ الباب بعنفٍ، وخرج روجيه بثيابه العسكرية دون أن يحلق لحيته.

ـ هاه. فإياد.. صحوت؟ صباح الخير.

ـ صباح الخير ياسيدي ولكن ماالأمر؟ أراك مكروباً.

استطاع فياض أن يلبس قناع البراءة كاملاً، ولكن الآخر لم يملك إلا أن يكمل ثورته.

ـ هؤلاء السفلة. هؤلاء السفلة، لقد فجروا لغماً في دورية من دورياتنا الليلة أوووه! ووضع يده على بطنه.

ـ أنت مريض ياسيدي؟

ـ لا. لابأس. يجب أن أسرع. ولم يستطع التخلي عن تهذيبه فأضاف ـ أراك على الغداء هه...

صحبته ماتيلد إلى الباب الخارجي تمسح على ثيابه، وتشدُّ على أكمامه، وماتريد ترتيبها بقدر ماكانت تتمسَّحُ به خائفة، عاد فياض بسرعة إلى غرفته، فغيَّرَ ثيابه، ولكن ماتيلد تشبَّثَتْ به مرعوبة ترجوه عدم اللحاق بروجيه، ولكنه أصرَّ ومضى.

وقال إياد: ضربة حظٍّ عجيبة.

ـ كيف؟

ـ حظُّ الغشيم.

وصمت فياض ولم يكن قادراً على ألاعيب الكلام، فما زالت صورة روجيه ويده على بطنه، وصراخه العنيف تملأ خياله.

كانا قد حدَّدا موعد زرع اللغم بالأمس وهما يتغدَّيان، فلم يعد هناك مجال للتأخير، قال إياد: الليلة سنزرعه. حبذا لو تنام هنا. مارأيك؟

ــ ولكني لم أخبرهما عن غيابي.

ــ فاهتفْ لهما. وابق. لن تستطيع العودة في هذا الوقت المتأخر.

وهتف، وعتبت ماتيلد، وحزن روجيه، وأصرا على عودته مهما تأخر الوقت ولكن ماتيلد رجته ألا يتأخر، فلن يتعشيا قبل حضوره. ولم يستطع فياض الرفض وقال إياد: لابأس، ربما كان هذا أفضل للتغطية، سنمضي المساء هنا، ونزرع اللغم، وتذهب فتنام عندهم، فإذا ماوقعت الواقعة كنت بعيداً، وكان هذا خيراً ومُبعِداً الشبهة عنك.

ومضيا.

الليل وطريق الفحامة الموحش، بستان الحجر وأشجاره الهادئة، وسِكَّة قطار الحجاز والتي لم تعد تقود إلى الحجاز، وصلا كشك محصل الإنتاج الزراعي المغلق، كانا قد حددا مكان زرع اللغم في حفرة جاهزة كانت البلدية قد حفرتها بعرض الطريق لإصلاح أنبوب مجاري عتيق. بدا العمل سهلاً لايحتاج إلاَّ إلى معولٍ ومجرفة وصفيحة ثقيلة محمولة بحرص على الدراجة. زرعا اللغم، موَّهاه، نثرا التراب، وضعا حجارة عشوائية على الطريق لإجبار المُصَفَّحة على المرور فوق اللغم، وعادا إلى القنوات عبر باب السريجة المعتم.

كان هناك بضعة دكاكين تهيىء نفسها ليوم عمل جديد غير مدركين أن السنغال والمغاربة والفوج السوري سيهاجمونهم بعد ساعات، سيحطمون الدكاكين، وينثرون البضائع في الشارع باحثين عن زارعي اللغم.

نظَّف فياض ثيابه. غسل وجهه ويديه. عاد الولد المهذب. صحبه إياد وعلى الطريق قال: لاتنس الدواء المُسَهِّل، ضاعِفِ الجرعة اليوم.

ركب سيارة. وجدهما ينتظرانه على العشاء المتأخر. شرب الشاي معهما، وشربه روجيه ممزوجاً بالدواء المسهل المضاعف.. قبَّلهما، ومضى إلى غرفته لينام نوماً دون أحلام هذه المرة.

وقال إياد: لم أستطع النوم كما استطعت، فمضيت إلى الفحامة قبل الفجر.

اختفى إياد في بستان الحجر ينتظر انفجار شرارة الثورة الكبرى، تلك الشرارة التي ستعيد رجل الفعل إلى مكانه الحق، مُبعِدةً زلاقة السياسيين وثرثراتهم التي لاتنتهي.

قال: ولكن حظ الغشيم جعل اللغم لاينفجر حين مرَّتْ فوقه المصفَّحة الفرنسية.

وهتف فياض في قلق: رغم الصاعق الجديد؟

ــ الصاعق الجديد؟ ــ وخنف في سخرية ــ كل ماأضاف الصاعق الجديد هو صوت قوي كان كافياً لإرعاب القافلة وإيقافها للبحث عن سبب الانفجار.

ولم يستطع فياض كتمان لهفته: هه.

ــ نزلوا من آلياتهم، اقتربوا من مكان انفجار الصاعق ليشاهدوا صفيحة مسكينة لا توحي إلا بسذاجة صانعها، حاول أحد السنغال زحزحتها غير منتبه في غبشة الفجر الأولى إلى نسيس النار في البارود، وفجأة انفجر اللغم، تماماً كما حدث في بيادر نادر، انفجر متأخراً عن موعده، ولكن في الموعد المناسب هذه المرة، وارتمت الجثث والمِزَقُ موزَّعةً مابين سكة القطار وبستان الحجر نفسه ــ أتصدق؟

ــ يالِلهي! ــ هتف فياض مرعوباً لوصف المشهد، وأكمل إياد: ليس هذا فحسب، بل حتى أولئك الذين لم يَطُلْهم الانفجار طالهم البنزين المشتعل، وأطلق قهقهة قوية: هذه المرة كانت ضربة موفقة، ضربة موفقة تماماً.

وأنَّ فياض مضطرباً: يالِلهي!

ولكن الآخر استمر متهيجاً: وكان عليك أن تسمع أنينهم وصراخهم وشتائمهم بلغات الأرض كلها حتى تعرف مبلغ نجاح لغمنا.

نظر فياض إلى الوجه الممتلىء، وهو يضيِّقُ عينيه دون أن يقهقه مرجِّعاً طالباً مشاركته الضحك، ولهنيهة تمنى لو لم يشارك في هذه العملية، ولكن صورة الجموع تحيي أسامة: أنت، أنت، وليس غيرك، جعلته يتجاهل هذه الأمنية، ولكنه حين استمع إلى روجيه مساء وهو يتحدث عن الجرحى والشوهى تمنَّى ثانية لو لم يكن السبب، أما حين انطلقت الصحف المحلية كلُّها تنهال على الفاعلين بالشتم والقدح والذم والاتهام بالسادية، وحين استمع إلى رؤساء الأحزاب يتبادلون المنابر وزوايا الصحف يعلنون تبرؤهم من الفِعْلة الدنيئة، فقد تمنى لو لم يترك باريس أصلاً، ولكن الضربة المؤلمة الحقيقية كانت من الناس العاديين، الشعب الذي أَمِلاً في تهييجه وإخراجه من حالة السكون الدَّبِق كما وصفه إياد، الشعب الذي لم يحرك ساكناً، وحتى حين تحرشا بهم في السوق نفسه لم ينبسوا ببنت شفة إذ حسبوهما من التحري، والشجاع منهم اكتفى بإدارة وجهه والتمتمة: ومادخلنا؟ فُخَّار يكسِّر بعضه.

اشترى إياد صحف اليوم التالي جميعها، الصباحية والمسائية، قرآها وحَرِجا، قرآها وجُرِحا، قرآها وخابا، وألقى بها فياض إلى الأرض في مرارة. كانت العينان الخضراوان مظلمتين والبشرة الدرّاقية قد جفَّتْ، ولكن إياد جمعها من الأرض، قصَّ المقالات كلها، الزوايا، الخطب.

راقبه فياض باستغراب، سخر منه سرًا، ولكنه فيما بعد وحين تصبح هوايته، بل مهنته الوحيدة قراءة القصاصات والذكريات التي اعتادت مزابل المدينة اقتناصها بعد ولادتها بيوم واحد سيعود لهذه القصاصات، وسيقرأ عن الجريمة النكراء دون مسوّغ، فالدولة السورية في طريقها لتوقيع المعاهدة مع فرنسة، وماهذه العملية الوضيعة الدنيئة المجرمة إلا محاولة متواطئة لجعل فرنسة تطيل أمد بقائها في سورية، وماهؤلاء الذين قاموا بها إلا أذناب وضيعون، وعملاء رخيصون مأجورون مجانيون، وسيتنهد فياض طويلاً. سيتنهد كلما أعاد قراءة هذا السِفر العظيم الذي لم يحمل سواه إلى غرفته الكئيبة في البادرائية.

عاد إلى البيت، وسيحدثه وحيد بك عن مظهره ذلك المساء فيما بعد وأثناء التحقيق معه: حدسي، حدسي الذي لايخيب أخبرني أنك تعرف شيئاً عن هذه الجريمة، وجهك الأصفر وعيناك الزائغتان، ولعثمة الإجابة، حدسي. ياإلهي! لايخيب أبداً. ولكن روجيه عانقه بشدة، شدَّه إلى صدره كمن يستقبل غائباً أطال الغياب. قدَّم له روجيه كأس مارتيني رشف منه رشفة وصمت، ولكنه حين سيعود، وسيعود كثيراً إلى هذه الليلة سيذكر أنهما غيَّرَا الحديث بعد حضوره، فهو يذكر جيداً أنه سمع وحيد بك يقول، وكان مايزال في الدهليز المؤدي إلى الصالون: لا. إنهم مجرد هواة. صدقني. اللغم ساذج. ثم سمع روجيه يصرخ: ساذج؟ لقد جرح ثلاثين من رجالنا، وقال وحيد بك: دعنا لانتساق وراء المبالغات، كانت الجراح سطحية، وبعض الحروق كانوا هم المسؤولين عنها، فلولا غباؤهم.. أووه كوماندان لوبلان، أي جندي مدرب يعرف شيئاً عن الألغام ما كان له أن يقترب من لغم انفجر صاعقه ولم ينفجر!

دخل الصالون. رحبا به. جاملاه وغيرا الحديث. وعرف فياض أن الحوار الطويل، الطويل سيأخذ مجرى جديداً منذ اليوم.

(١٦)

الكرنفال. آه! تلك الشهوة الأزلية لتغيير الجلد، الشخصية، التاريخ، الذكريات، الجنس، أن تخرج مرة من لونك وصوتك وماضيك لتصبح الآخر، أن تتحقق أحلام الطفولة وطفولة الأحلام، فتصبح الآخر، وتراقب الأنا المختفي وراء قناع من ورق أو قماش أو زواق. الكرنفال، استعادة تجارب الإنسان منذ الرقص حول النار وحديث الهمهمات، وحتى حذلقات بغداد وبيزنطة وباريس، أن تملك أن تقول مرة ماتريد، وتعيش ماتريد، وتمثل ماتريد ولا اعتراض، فاللعبة متفقٌ عليها والقواعد معروفة: اخرج من جلدك مرة في العام، ليلة يمكنك فيها أن تتحلل من الماضي، ومن المستقبل، وتعيش للَّحظة، للدقيقة، للساعة، أن تحِبَّ وتُحَبَّ لمجهولك الذي تقدمه اللَّحظة، لا تقاليد ولا آداب، ولا نفاق، الإنسان كما هو ـــ إن شاء ـــ البكر دون مجتمع أو لغة أو دين أو ثارات..

كانت ماتيلد قد طلبت إلى فياض أن يجهِّز نفسه لحفل نادي الصداقة السوري الفرنسي السنوي. قالت: حفل جميل، لم نكن نعرفه في حماة، فقد كنا مذعورين دائماً هناك، ولكن، كما ترى، الأمور هادئة الآن ـــ نظر فياض إلى حماستها في استطراف، ولم يكن قد زار بستان كفرسوسة مع إياد، ولم يكن قد دخل معه في تلك النقاشات التي قادتهما

أخيراً إلى لغم الفحامة بعد ــ الجالية كلها تنتظر هذا اليوم في لهفة، عام كامل، عام من الجفاف والرسميات، وحروب المكاتب الصغيرة والنزاعات على الكراسي المستمرة، فإذا ماجاء هذا اليوم خلع الجميع ثيابهم، واختاروا الاستتار وراء وجوه أخرى وأقنعة أخرى وباروكات أخرى.

وقال روجيه: سنتسلى كثيراً. ستستطيع ببساطة أن تكتشف أحلامهم الصغيرة وقد حملوها فوق باروكاتهم، هاه ــ وضحك ــ كلُّ الأخطاء مغفورة، العاشقون المتوارون، والعاشقات المتهتكات، والأبطال المخصيون ــ وأطلقت ماتيلد ضحكتها الغنجة خَجِلةً ــ والقادة العاجزون، والشعراء الذين تصارعوا قبل لحظات على الفرنك والفرنكين. إيه. ياصديقي: هذا هو سحر الكرنفال مُطلِقُ الكمائن والخفايا والغرائز، ومسقط الرسميات والشكليات والمراتبيات.

انتحت به ماتيلد جانباً: ما الثوب الذي ستختاره؟ حارَ في الجواب ولكنه تخلَّص بلباقة: سيكون مفاجأة.

ــ مفاجأة؟ مفاجأة لمن؟

ــ أوه للجميع.

ــ لابد أنك أحضرت معك من باريس شيئاً خاصاً.

ــ أوه. مدام، اتركي لي بعض سحر المفاجأة.

ورغم الجرحى الثلاثين وأخبار الحرب القادمة التي سيطر شبحها على الصحف ونشرة الأخبار فقد أصرَّ الكولونيل غارلان على قدسية يوم الكرنفال. قال لروجيه على الهاتف: يجب ألاَّ يتغير شيء في برنامجنا ياعزيزي هه. يجب ألا يشعر الوطنيون بقلقنا. طبعاً. طبعاً.. التحقيقات

لن تتوقف. أراك في الكرنفال.

وقال إياد: بالطبع يجب ألا تفلت مناسبة كهذه.

ـ وأنت؟

ـ لم يدعُني أحد. ثم.. غيابك سيلفت الأنظار اذهب ياعزيزي.. اذهب.

وقال البواب في فرنسية شرق المتوسط الزلقة: ماالاسم الذي يحبُّ سيدي إعلانه؟ تردد فياض هنيهة قبل أن يهمس: الأمير أسامة بن منقذ!.

استدار البواب إلى ساحة نادي الصداقة يعلن بصوته العالي:

ـ الأمير أسامة بن منقذ.

التفتت بعض الوجوه تبتسم. تقدم. حيًّا سيدة شابة ابتسمت له بإحناء الرأس لابد أنهما التقيا مرة من قبل. يلتفت. هاه! هارون الرشيد! يتجه إليه يحدِّق، أووه الكابيتين أنطوان مساء الخير ياسيدي.

ـ مساء الخير ياسيدي لاأرى الكومندان لوبلان.

ـ لابد أنه على الطريق ياسيدي.

ـ أنا مشتاق لرؤيته. سهرة سعيدة ياسيدي.

يبتعد الكابيتين ويبتعد فياض. ينتقي طاولة منزوية يراقب المدعوين، ثلاثة من هارون الرشيد. جاريتان متهتكتان. محظية زنجية ولكن آه! لا. ماري كلود: لم تحسني صباغة وجهك جيداً. أف، أولئك الإمّعات دون خيال، الذين يفضلون إخفاء وجوههم وراء قناع أسود فقط، آه! نابليون! عملاقٌ يتقدم، ولكن يا إلهي ما أسخف منظرك يا حاج سعدو في ثياب نابليون. مثل هذه القامة والكرش الكبيرة؟

البواب يعلن: السلطان صلاح الدين.

يلتفت فياض إلى الباب. الكوماندان مارسيليوني. آه صلاح الدين ويفكر ساخراً: يوم تبادل الأدوار ولِمَ لا.. صلاح الدين؟

دقت الساعة تعلن الحادية عشرة فتدفَّق المدعوون واشتد الضغط على البواب لإعلان أسماء المصطفين ينتظرون الدخول.

ـ الخليفة هارون الرشيد.

ـ الخليفة هارون الرشيد.

وهمهم فياض: يبدو أن شعبيتك عالية ياسيدي الخليفة!

ـ السلطانة روكسانا.

آه ماتيلد! ماتيلد يارفيقتي. ماأحلاك في ثوب السلطانة هذا! ترى فياض يقف ملوِّحاً لها، ترسل قبلة في الهواء على رؤوس أصابعها، ثم تتجه إليه، ريتشارد قلب الأسد، يتأمل الداخل. لا. لا يعرفه. ولكن لا.. إنه وزير الإعاشة صلاح بك. ها.. لايمكن أن تكون قلب الأسد. لايمكن! ولكنه يدخل يجرِّر سيفه الإنكليزي من ورائه في عنجهية.

فيكتور هيغو، يدخل، تسمع صيحة استغراب مكتومة أوه! لا. ينظر فياض ولكن.. إنه وحيد بك مدير التحري.. ياإلهي! ويريد أن يكون فيكتور هيغو.

طارق بن زياد. أوه! ضابط فرنسي آخر.. ياإلهي! ممتعٌ تبادل الأدوار هذا، ممتع. وتصل ماتيلد: حبيبي، آه! كم أنت جميل في ثياب الفارس العربي هذا.. من أنت؟

ــ أنا؟ ألم تعرفي بعد؟

ــ لا.

وبلهجة من حسم الأمر أخيراً يقول: أنا الأمير أسامة بن منقذ!

انكمشت ماتيلد كمن تلقَّى صفعة. انكمشت كمن عرفت أن صفقة العمر ضاعت. انكمشت مرتمية على الكرسي الذي كان قد قدمه لها بدءاً، ثم تناولت كأسه المليء بالعرق، فشربته دفعة واحدة وقبل أن تدرك ماتشرب، انقبض وجهها والتفتت إليه:

ــ عرق؟

ــ نعم.

ــ أووه.. قالت بانزعاج.

قرَّب كرسيه منها، وضع يده على يدها الصغيرة في تعاطف:

ــ أهناك مايزعج سيدتي؟

ــ فإياد.. فإياد.. ألم يكن من الأفضل استشارة روجيه قبل هذا؟

ــ لماذا؟

وحارت. كيف تقولها؟ وأخيراً غيَّرت الحديث تاركةً المجابهة إلى وقت آخر: هل ستشرب الليلة عرقاً فقط؟

ــ لديكِ اقتراحٌ آخر؟

ــ بعض المارتيني!

ــ بكل سرور.

وفكر وهو يمضي إلى البار: ماتيلد تنحدر لتصبح سِكِّيرةً عتيدة.

وصل البار. تتابعت نداءات البواب. تكاثر هارون الرشيد، صلاح الدين، تيمور لنك، السندباد، علي بابا، وشهبندر التجار، ولكن واحداً فقط كان ذا خيال روائي فاختار أبا فراس الحمداني.

على طريق عودته إلى ماتيلد يدافع وينزلق بين الحضور في رقة، أحسَّ متعة صغيرة تنسلُ إليه، وفكر، هاهو سحر الكرنفال يتسلل إلى القلب الذي أثقله إياد بالأفكار، والأحزان، والأجداد. رفع زجاجة المارتيني يخترق أمواجاً من ريتشاردات وصلاح الدينات، من تيمورلنكات وهارون الرشيدات، آه الكرنفال! ـــ سحر التحولات، والتناسخات، والتقمصات الإرادية، سحر التبدلات ولذّة التغيرات، اقترب من طاولة ماتيلد، ولكن فجأة تذكر ياإلهي! لم يسمع عن روميو واحد، أليس هذا غريباً؟ ليس من قيس واحد أو ليلى واحدة، كلهم ملوك وحكام، ضباط وغازون، فرسان وقراصنة، شعراء وشهبندرات.. أوَ قد اختفى الحب والعشق من ذاكرة هؤلاء الناس؟!

ـــ أوه عفواً سيدي.

التفتت بوجهها البيزنطي الطِّلاء وشرطة الكحل الطويلة، وثعابين شعر الميدوزا، والوجنتين البنفسجيتين، وللحظة تخيّلَ أنه يعرفها، كانت قد ثقبت حذاءه بكعبها القاسي تقريباً، وهمس: ولكن، من أنت؟

ـــ ثيودورا أميرة عكا ياصديقي!

ـــ سهرة سعيدة ياسيدتي.

مضى دون أن يفهم شيئاً، ولكن شيئاً كان ينغَلُ في عمق الذاكرة يقول إنه يذكر هذه المرأة.

هارون الرشيد يراقص عاهرة زنجية، وفيكتور هيغو يدبُّ مع

كليوباترا، أبو فراس الحمداني يتظارف راقصاً مع ماري أنطوانيت. آه! ولكن ثيودورا، أفٍ.. أي اختلاط وأية بهجة؟! وارتفع صوت البوّاب يعلن وصول دفعة جديدة: السيد السندباد وقمر الزمان.

ودخل في عباءته وسرواله وعمامته المكوَّرة: آه لا.. لم تحسن التخفي أيها الكولونيل غارلان. لا.. لم تحسن التخفي جيداً.. و.. وهذه القمر الزمان.. هه. تنحني في تواضع مفتعل، كان قد وصل طاولة ماتيلد التي لم تستطع كتم ضحكتها: قمر الزمان.. تصوَّر! ثم هسهست بضحكتها الماكرة تكرِّر: قمر الزمان.

ــ تعرفين معنى قمر الزمان؟

ــ بالطبع، وهذا ماأثار سخريتي، تخيل جوزفين ذات الردفين الفيليين، قمر الزمان.. هاه.. آه.. هاه..

وانطلقت في ضحكة ماجنة جعلت فياض ينحني عليها: سيدتي، أرجوك.

ــ آه دعني، أرجوك. دعني من التعقل لهذه الليلة فقط ــ ولما لاحظت وجومه ــ فإياد.. إنه الكرنفال.. اضحك واسخر، وتمتَّع.

ــ ثم تمالكت نفسها قليلاً ــ آه فإياد قناع التكبر والبرود والانعزال هذا أبعدْهُ عن وجهك قليلاً، لهذه الليلة فقط.

وفجأة علا صوت البوّاب ثانية: الأمير أسامة بن منقذ!

لا.. التفت فياض في دهشة.

فمن يعرف الأمير أسامة غيري؟ كان روجيه بشاربيه العظيمين ومشيته الثقيلة، وهمست ماتيلد: ألم أقل لك؟ كان يجب أن تستشيره. وفكَّر

فياض: آه روجيه! أما يزال أسامة يسيطر على روحك؟ وحاولت ماتيلد تهوين الأمر: ستكونان زوجاً ظريفاً من الأمير أسامة.

ـ ولكن، كيف؟ لماذا؟

ـ ألم أقل لك؟ كان يجب أن تتفقا. ليس لطيفاً أن يلبس فردان من العائلة نفسها الثوب نفسه. هذا شؤم. صدقني.

وقفت على رؤوس أصابعها تشير إليه، ولكنه لم يلحظها: فإياد، ناده. ولم يجد في نفسه الجرأة على القيام، ولكنها ألحَّت: فإياد.. إنه يبحث عنّاً. أنت طويل، وسيراك، نادِه.

اضطر إلى القيام والإشارة له، كانت شفاه روجيه تتحرك في مرح وهو ينحني لإحدى السيدات، لابد أنها مجاملة ما.

ـ آه.. فإياد.

صاح وهو يقترب من طاولتهما.

ـ مساء الخير ياسيدي.

ـ مساء الخير. مساء الخير. هاه! جميل ثوبك. ولكن، من أنت؟

وأسرعت ماتيلد: فارس عربي.

ولكن فياض لم يستطع السكوت، فقال: الأمير أسامة بن منقذ. ووجمت ماتيلد، ووجم روجيه: آه أسامة! الأمير أسامة! ـ وأضاف محرجاً ـ ليتك أخبرتني قبل أن ألبس ثوبه.

وأخيراً جاءت لحظة الفصل، لقاء أسامة وأسامة، لقاء التاريخ المستدعى بالتاريخ المدَّعى، وهمهم فياض في لا مبالاة: هه لابأس. ولكن الآخر أصر على حقه: لا.. هذا لايجوز ـ ثم هرب من المجابهة

متحجِّجاً ــ فردان من العائلة نفسها في الثوب نفسه؟! لا.. هذا فأل سيء..

ــ سأمضي إلى البيت إن شئت ــ قال فياض باتراً.

ولكزت ماتيلد روجيه فلان: لا ليس الأمر هكذا.. ولكنك لن تستطيع دخول المسابقة.

وأسرعت ماتيلد تلفلف الموضوع: هذا غير مُهِمٌّ.

جلس.. صببت له كأس مارتيني، ولكنه قال: لا.. أفضل العرق.

انتصب فياض بأريحية: سأحضر لك بطحة جديدة.

ــ لا. لا داعي. سأحضرها بنفسي.

مضى إلى البار وكان من الواضح أنه متضايق، ضربته ماتيلد برجلها من تحت الطاولة: ألم أقل لك. إنه حزين في داخله الآن. حرمته متعة التفرد وأنت تعرف ذلك.

ــ ولكن، ماذنبي أنا؟

ــ إنه يعتقد أنه صاحب الحق فيه ــ وأضافت ضاحكة ــ بقية من ألعاب الطفولة.

التفت فياض إليها في اهتمام: ولكن لِمَ يعتقد أنه صاحب الحق فيه؟

ــ ألم يكتشفه؟ ألم يمضِ إلى قلعته؟ ألم يبحث عن قبره؟

ــ ولكن أسامة شيزري، وأنا أقرب إليه.

أشاحت بيدها بلا اهتمام: أف.. مالي ولهذا؟ تقاسماه فيما بينكما.

مع عودة روجيه الواجم وشربه الكثيف الواجم بلا توقف، مع عدم

ضحكه لنكات ماتيلد المتطاربة، مع عدم استجابته لتعليقاتها على لباس وتصرفات الراقصين والراقصات، اتضحَ أخيراً أن جو السهرة قد تكهرب. ورغم ذلك فلم تيأس ماتيلد، دعته للرقص فاعتذر، ونظر فياض في عينيه، ورأى شيئاً منطفئاً فانكسر القلب. دعت فياض للرقص، فحاول الاعتذار، ولكن نظرة الرجاء في عينيها والخوف من الدمعة الحائمة في العينين أرعبته، فقام.

حاولا العثور على مكان لأقدامهما بين الأقدام المتناحرة الكسولة والأكتاف المتدافعة، وأخيراً عثرا على ركن بعيد عن النور والزحام.

كان فياض يحاول الهرب من عينيها المكافحتين للقبض عليه، وكانت تُصِرُّ، وأخيراً ضربته بركبتها في نزقٍ، فالتفت إليها قالت: ضميرك يؤنبك أليس كذلك؟

ــ أنا.. لماذا؟

ــ فإياد. لم أعد أفهمك هذه الأيام! لِمَ سرقت منه حلمه؟

ــ أنا! ولماذا أسرق حلمه؟ شخصية أحببتها فلبستها، وغداً ينتهي كل شيء.

ــ لا.. الأمر ليس بهذه البساطة. روجيه يطنطن بأسامة منذ شهر، وجاء بثيابه منذ أسبوعين. أنسيت؟

وهزَّ برأسه أنه لم ينسَ.

ــ فلم سرقت منه أسامة؟

وهتف متشكياً: لم أسرقه. إنه للجميع. انظري كم هارون الرشيد في الحفل الآن؟.

ــ صحيح.. ولكن ليس من المعتاد أن يختار شخصان من العائلة نفسها ثوباً واحداً.

وانتبه فياض إلى أنها كانت هذه المرة غاضبة فعلاً. وذكر عيني روجيه المنطفئتين فأحسَّ بالحزن: ربما أخطأت.

ــ فلم لا تعتذر إليه؟

ــ حاولت.

ــ لا.. بل حاولت أن تحرد إلى البيت.. هل ستعتذر؟ أرجوك.

ونظر فياض إلى الوجه الملطَّخ بالأصباغ العثمانية والشعر المعقرب والمقرطب، ورأى التجعيدتين بين الحاجبين ترجوان، آه، تلك اللحوح الظريفة. هل تستطيع لها مقاومة؟: لابأس.

ــ فأخرجني من هذه الدوامة لنصلح له سهرته.

دافعا الناس، لطما أردافاً، ودفعا أكتافاً، داسا على أقدام، وديس على أقدامهما، برفق حيناً، وبخشونة لطيفة مغلَّفة ببسمة حيناً حتى وصلا الطاولة، ولكن.. أين روجيه؟ نظر فياض من حوله، علا كرسيه يبحث عنه بعينيه، ولكنه اختفى، وقالت ماتيلد بلهفة متحرّقة:

ــ هاه.. أرأيته؟

وهز رأسه نافياً: لا أثر.

ــ طيب. اجلس، ربما مضى إلى الحمام.

وطمأن نفسه ليطمئنها فقال ــ رغم أنه عرف في القلب أنه فعلها ومضى ــ: ربما.

صبَّ لها كأساً جرعته بسرعة، وأخذت أصابعها ترتجف: كأساً آخر

لو سمحت.

ـــ ماتيلد.. ستسكرين.

ـــ ولم لا أسكر؟ إنه الكرنفال، ومِمَّ أخاف؟ معي رجلان ـــ وفجأة اختنق صوتها ـــ بل ربما وا..

وقاطعها فياض بخشونة: ماذا تعنين؟

ـــ لاشيء.. هات لنا زجاجة أخرى.

ومضى يخوض المعركة ليأتي بالزجاجة الأخرى وفي طريق عودته كان يحمل أملاً ولو ضعيفاً في وجود روجيه على الطاولة، ولكن الطاولة، كانت خالية إلا من ماتيلد: لم يعد؟

ـــ لم يعد.

ـــ سأسأل البواب عنه.

ولكنها أمسكت بذراعه في قوة: لا.. لاتسأل.

ـــ لماذا؟

وأخيراً قالت في انكسار: أعتقد أنه مضى إلى البيت. أعرف كيف يتصرف حين يكون غاضباً فعلاً.

نظر إلى العينين متمنيتي البكاء، وأحسَّ دمعات تهيج في قلبه، وكاد يفسد كل شيء ولكن الضجيج علا معلناً افتتاح المسابقة لأحسن زي وألطف شخصية، وانفرط عقد الكتلة المتراقصة، المتدافعة، المترادفة، المتكاتفة لتصبح خرزات ملونة بألوان غريبة انتثرت على الطاولات، عندئذٍ وجد فياض الفرصة فقال: سأسأل عنه.

رشفت رشفة كبيرة وهزَّت بكتفيها غير مبالية: كما تشاء.

مضى إلى البواب وسأل، ولكن البواب أخبره بغير اهتمام أنه مضى منذ حوالي نصف ساعة، ولما سأله إلى أين؟ قال: إنه لايعرف، ولكنه كان متضايقاً، ثم انتقل إلى السؤال، فسأل إن حدث ماأزعجه؟ ولم يجب فياض، بل عاد إلى ماتيلد التي لم تنتظر.. بل سألت: عاد إلى البيت.. أليس كذلك؟ وهزَّ رأسه في خيبة: نعم، قالت في انكسار: ألم أقل لك؟

ـ نمضي؟

ـ لا.. سنثير اللغط.. يجب أن نبقى.

هذه السهرات المجنونة حيث ينفلت كلُّ عقال، وتُحَطَّمُ كل البروتوكولات، وتنهار كل الحواجز كما يحدث في باريس كما يعرف فياض، وكما يتضاعف الأمر في المستعمرات كما حدثوه كثيراً، فالضغوط النفسية، وخوف القتل المفاجىء، والإحساس بالذنب الخفي، وانكسار الأحلامِ، تتراكم وتتراكم حتى يكون يوم الكرنفال، فينفلت كل شيء، وكان يمكن لفياض أن يتوقع كل شيء في ليلته تلك إلا أن يقوم ليلقي خطاباً ماكان يريد إلقاءه.

حين صعد الكولونيل غارلان إلى المنصة المدوَّرة بعمامته المدوَّرة، وسرواله الكتاني الأبيض، وحقيبته المعلقة إلى كتفه بدا للوهلة الأولى سندباداً حقيقياً لولا عيناه الزرقاوان المحمرتان المثقلتان بالبوردو اللتان كانتا تفضحان تنكره، قال: سيداتي، سادتي، مساء الخير، سهرة جميلة في دمشق الجميلة، سهرة أتمنى أن تتكرر كثيراً قبل أن تقع الحرب.

علت الهمسات المستهجنة، المحتجة، أهذا وقتها؟ نحن هنا لننسى، حاولت قمر الزمان الانضمام إليه، ولكن ثيودورا جذبتها من ثوبها فأعادتها إلى مكانها. وتابع غارلان: كلنا يعرف بالأزمة السياسية الآن في البلد، وكم كنت أتمنى لو كان معنا السيد رئيس مجلس الوزراء.

وكان على فياض أن ينتظر يومين طويلين يزور فيهما نجدت، ويصالح روجيه، ويحسّ بالشرخ في علاقتهما، الشرخ الذي جعل البرود يتسرب في حديث روجيه إلى فياض قبل أن يسأل إياد عن معنى كلام غارلان ليقول له: إن البلد تعيش أزمة سياسية حقيقية، والعلاقات متوترة بين المندوب السامي ورئيس مجلس الوزراء، والشائعات تملأ البلد عن احتمال حلٍ الوزارة.

وتابع غارلان بصوته المثقل بالبوردو: لو كان معنا السيد الرئيس لكانت طمأنينتنا أكبر، ــ وتابع متأنئاً ــ لو كان معنا السيد رئيس مجلس الوزراء لكانت بهجتنا شامية حقاً، ولكن ماذا نفعل؟ وأُطلق ضحكة متطلبة ذكرته بضحكات إياد المرجِّعة وإشاراته طالبة المشاركة ــ لن تستطيع جمع الحظِّ كلِّه في سلة واحدة.

حاول أن يقولها نكتة وأن يجعل الآخرين يضحكون، ولكنهم لم يضحكوا فلقد أحسُّوا النذير في كلامه، وأحسَّ التوتر في الجو، فلم يتابع مزاحه.. قال:

ــ هذا التقليد الجميل، هذا الاحتفال نخلع فيه ثيابنا ونلبس فيه أحلامنا. انظروا من حولكم، هارون الرشيد، علي بابا، صلاح الدين، السندباد ــ وأشار إلى ثيابه ــ خلاصة ثقافة وحضارة وشخصية هؤلاء الناس الذين نعيش بينهم، ولكن هل تعرفون عنها الشيء الكثير، أم أنها مجرد أسماء؟!

علَتْ بعض التعليقات الماجنة، والقهقهات النسائية الخليعة، فقد انتصف الليل وضرب الشراب رؤوس الحاضرين، ورأى فياض ثيودورا.

ــ آه ثيودورا ثانية.. ياإلهي! من هي؟ كانت تحاول التهادي حتى

منتصف الأوركسترا حيث وقف الكولونيل غارلان، ولكنها تعثرت بشيء، وما كانت بحاجة للتعثر بشيء لتقع، فقد كان ماشربته كافياً لإعثارها، وعلت القهقهات، وقام علي بابا ليساعدها على العودة لطاولتها، فأبت، وأصرَّت على الوصول إلى غارلان الذي احمرً وجهه، فهتف محرجاً: آه سيدتي! لعلك تتلطفين بالعودة إلى طاولتك.

ولكنها بلهجة ملتوية قالت: بل أريد أن أقبلك.

ابتسم أولاً لجملتها، ولكن الحرج مالبث أن تعاظم محتجاً: سيدتي.

ــ قبلة واحدة.. أيها الكولونيل.. قبلة واحدة.

وهنا حاول أن يخفف الحرج متظارفاً: سيدتي، ولكن لماذا؟

عند لماذا هذه ألقت ثيودورا بقنبلتها الكرنفالية: آه! لاشيء ولكن.. أحسُّ غثياناً في معدتي.. و.. أريد شيئاً يوقف هذا الغثيان.

انطلقت القهقهات المنتظرة ماجنة معربدة مصحوبة بالأكُفِّ الملوِّحة والأيدي المتهاوية، وحاولت قمر الزمان القيام لنجدة رئيسها ولكن ردفيها العظيمين لم يتخلصا من المقعد بسهولة، وهسهست ماتيلد إلى جانب فياض ضاحكة، بينما تابعت ثيودورا مثقلة اللسان: اعذرني ياكولونيلي الظريف، ولكني.. لم أجد ليمونة واحدة في كـــ.. ل.. هذا الماخور.

علت القهقهات ثانية، ولم يرض فيكتور هيغو بهذه الإهانات لسيده، فجرى إليها ليجرَّها إلى مكانها، وعلت صيحات الاستهجان:

ــ اتركها.. اتركها أيها التحري القذر.

ولم يجرؤ وحيد بك على الالتفات لمعرفة شاتمه، بل اكتفى بالانحناء فوقها والهمس بشيء ما، فانصاعت، وعاد بها إلى طاولتها، حاول

الكولونيل التماسك وابتلاع مظاهرة ثيودورا، فقال: دعونا نشكر مدموازيل توماسيني على دعابتها الظريفة ــ وفكر فياض ــ: إذن فهي مدموازيل توماسيني. أف! أذكرها. أذكرها ولكن متى؟ كيف؟، وتابع غارلان: لقد بعثت بعض المرح في سهرتنا، ولكن، أيها السادة، دعونا نفكر، كثير منا قد أمضى سنوات في هذه.. المدينة، ولكن، هل حاول معرفة شيء عنها؟ هاهي السنوات تنقضي، ونحن نقيم هذا الحفل كل عام تقريباً، وها معظمكم يختار شخصيات الشرق التي.. كانت عظيمة ليقضي معها حفل سهرتنا هذه – وصمت قليلاً قبل أن يبلغ بخطبته الذروة ــ أيها السادة: ماذا نعرف عن الشخصيات التي نحاول تقمصها؟ هه.. ماذا نعرف؟

علت همهمات وتعليقات ومجونات قبل أن يتابع: أقترح أن تكون المسابقة لا لأجمل زيٍّ، فالفائز سيكون من بذل نقوداً أكثر، أو لمن أحسن انتقاء خياطه، وهذا لا فضل كبيراً له فيه، ماذا لو غيرنا العادة لهذا العام؟

وعلت هذه المرة صيحات: كيف؟ كيف؟

أشار بيده يطلب إصغاءهم، فأصغوا: ستكون الجائزة لأفضل حديث عن الشخصية المتقمَّصة.

وارتفعت صيحات الاستهجان: هووه، ولكنه أصرَّ:

ــ هه.. مارأيكم؟

كان السُكْر قد تعتع معظمهم، فانصرفوا عن الإصغاء إليه، وبذا لم يجدْ كثيراً من المعارضين، وبما أنه كان الرتبة الأعلى بين الحاضرين، فقد حُقَّ له أن يشير إلى مديري النادي ليرتبوا المسابقة.

ولكزت ماتيلد فياض ليقوما، ولكنه فضّل البقاء، وفيما بعد سيذكر

أنها كانت على حقٍّ، فلو قاما.. آه ياإلهي! ـــ وسيكتب ولكن هل يملك الإنسان قراءة الغيب؟ ـــ وعاتبته كثيراً فيما بعد على البقاء، فلقد فسدت السهرة تماماً، وكأنما لم يكن يكفينا ـــ كما قالت ماتيلد ـــ: الصدام غير المعلن بين فياض وروجيه حتى يأتي هؤلاء السكارى المحبطون، الممنوعون من ممارسة ساديتهم، الخائفون من الحرب القادمة، والشامُّون رائحة الفاشية تنتشر في العالم المستعدّ لاستقبالها بكل الإحباط الناغل في القلب.

أعلن الكولونيل بدء المسابقة بهارون الرشيد، فقام يتخبط بين الطاولات واحد منهم، واحد من أولئك الهارونات الذين مازالوا يستطيعون الوقوف على ساقَيهم، تخبط بين الطاولات، حاول الكولونيل إسكات الحاضرين فلم يستطع إلا أن يزيد من القهقهات والقفشات والتعليقات الساخرة، وأخيراً صعد هارون الرشيد إلى المنصة، فأصمتهم بعمامته الضخمة وطيلسانه الأسود يقف بين الهارب والتشيلُّو والدرامز والأبواق النحاسية الضخمة.. وتحدث، تحدث عن الجواري الشبقات، الملتهبات، المنتظرات في غرفهن، كل تعدُّ نفسها لاستقباله، ولذا..- وأطلق قهقهة رخيصة ـــ فهو يعتذر من الحاضرين، فأمامه واجب طويل طو.. يـــ..ل.. لهذه الليلة.

قهرٌ خفي وحزن جيلاتيني أخذ يزحف على فياض وهو يرى هذه السخرية والقهقهات والإشارات الجنسية، وقالت ماتيلد وقد رأت حزنه: الحيوانات. لا. لايحقُّ لهم السخرية من رجلكم. لا. لايحق.

وانتبه فياض إلى أنها تسمي هارون الرشيد (رجلكم) أتراها أحست ببدء انفصاله عنهما؟ أتراها حدست؟

تتالت الإهانات والتجريحات، فصلاح الدين سارق القدس ورئيس

اللصوص، وعلي بابا شقيقه السري وصديقه، أما السلطان سليم فلعنة البشرية وفسادها، وكليوباترة العاهرة التي ماترتاح في قفزها من حضن إلى حضن، نظر فياض إلى وحيد بك رئيس التحري ليجد أنه كان أول الضاحكين، أما الحاج سعدو فقد كان يستقبل الخطباء لدى عودتهم ليساعدهم على الجلوس في مقاعدهم دون أن يقعوا.

انتفض فياض من مجلسه، وحاولت ماتيلد منعه، إذ يبدو أنها حدست ماسيفعل، ولكنه لم يكترث، مضى إلى حيث المنصّة وانطلقت التعليقات تسخر وتقهقه، قامت ثيودورا لتنضمَّ إليه، ولكن غارلان منعها بقوة، ووجد فياض نفسه يتحدث، يتحدث بطلاقة مَنْ لم يشرب سوى كأسين، بطلاقة من اكتشف عَطالة الزمان، فحدثهم عن صلاح الدين، صلاح الدين الذي طردهم وطهَّر القدس منهم، عن هارون الرشيد ملك العالم ومشعله.

حاول بعضهم السخرية منه، ومن روجيه الذي خرج به من الظلام والذي لولا وجوده لكان مازال الفلاح لايُعرَفُ له أبّ، فذكر فياض شيزر وأسامة.. وانهمر أسامة يعايرهم، ويذكرهم بما فعل من شيزر بقلاعهم وفرسانهم ورجالاتهم، من شيزر الشوكة التي شقّت خاصرتهم حتى أدمتها، من شيزر التي أتوا إليها الآن وقد حال بها الزمان ودار دولابه، فجعلهم يجعجعون، ولايجرؤ مدير التحري على الاعتراض، يتنطّعون، ولايجرؤ الحاج سعدو على الثورة لدينه وحَجّه.. و..

ورآها تتقدم، رأى ماتيلد نصف السكرى تتقدم، فحاول إكمال حديثه، ولكن عثرة ماأسقطتها إلى الأرض، وسمعها تصرخ: فاياد، فاختنق الكلام في حلقه وجرى إليها يرفعها ويضمها إليه فقالت في ضعف: اخرجْ بي من هذا المكان. أتوسل إليك..

التفت إلى الآخرين المشغولين بشرابهم وطعامهم، كانوا قد نسوا، أو هذا مابدا له كل ماقاله، فلقد عادوا إلى شرابهم وقهقهاتهم ومداعباتهم الغليظة، ولم يبقَ في الحلبة إلا غارلان وثيودورا التي عرف فيما بعد أن الجميع كانوا يعرفون أنها عشيقته التي صحبته من فرنسة حين رفضت زوجته صحبته إلى البلاد المتبربرة.

شدَّته ماتيلد من ذراعه، فخرجا يكاد يحملها، وفي العربة ــالحنطورــ كان حوارهما صامتاً، كان كلٌّ منهما يوبخ الآخر، يعتذر ويصالح، يغضب ويراضي حتى انفجر الحوار الداخلي إلى الخارج، قالت: ماالذي جعلك تُصابُ بهذا الجنون؟

وكان حوار عذاب حقيقي لفياض، فكيف كان بإمكانه أن يشرح لها عذاب عرنوس الذي اكتشف غربته عمن ربوّه؟ كيف يشرح لها أشواق الشيزري الضائع المضيَّع إلى أب حقيقي وَجدٌ وقلعة ورمح وحصان؟ كيف يشرح لها هذا كله وهي التي لاتحتمل حديثاً جدياً لخمس دقائق؟ ليس هذا فحسب، بل كيف يفسر لها فشل تجربة عمرهما في تطعيم نفسيهما إلى هذه الأرض الغريبة عنهما؟ كيف؟ كيف؟..

رأت الدموع في عينيه والصوت يتهدج، فضمته إليها، وكانت رائحتها مزيجاً من عطر ومارتيني وحنان، تمتمت: فإياد.. هذه السياسة الحقيرة التي يكثرون الحديث عنها هذه الأيام مفسدة، فإياد، لاتدعها تخرجك من عالم سعادتنا الهادىء، نحن نحاول القيام بواجبنا ودون إزعاج أحد، لاتدع أولئك الآخرين يزعجوننا، فإياد.. أرجوك.

كان في كلامها نذير خفي، ولكن مامعنى هذا؟ لم يكن يستطيع الإلحاح في السؤال، أو انتظار الجواب، كان رنين النذير موِّتراً للقلب، فصمت، وتابعت بعد قليل وهي تربتُ على كفه: روجيه يحبك، أنت

لاتدرك أية أحلام يحملها لك، أي مستقبل يعدُّ لك، لاتدرك الخطط التي يقضي الأماسي في وضعها من أجلك.

هذا الحنان المتدفق قطرات تنسال على أرض لم تعرف الريَّ أبداً، وهذه الربتات الرقيقة، آه! تلك الربتات الرقيقة على كتف الراعي سيد القلعة الخرابة والخراف التسعة والجداء الستة. واستيقظت عواطف، وانتعشت أحزان، واعتصره الخوف، وكان عليه أن ينتظر سنوات يسترجع فيها هذه الحوارات، ويحللها ليدرك أنه كان المِشْجَب يعلِّقان عليه أبوتهما الموقوفة ورغبتهما في التبني المقلوب، مقلوب؟

وصلا البيت، وقالت ماتيلد وهو يساعدها على القفز من العربة: فإياد حبيبي، لن نتركه يقضي ليلته حزيناً، سنصالحه هه؟

ـ لابأس.

كانت غرفة المكتبة مضاءة فقالت: إنه في المكتبة. تعال.

بعد سنوات وسنوات وحين سيخلو فياض بنفسه في تلك الغرفة الكئيبة المزينة بصور وقصاصاتٍ والمبلَّطة بمزق لأوراق ملونة وبقع سراس يابس سيكتب على دفتره جريدي الورق: الآن وبعد اكتمال الصبا وشيب الأحلام وشيخوخة الرؤى لن أستطيع مهما حاولت نسيان مكتبة روجيه في تلك الليلة، إضاءتها بالشموع المعلقة إلى الشمعدانات النحاسية والمطروقة، المشاكي المتوهجة في المكان، المنقل الكبير والمتوهج بالفحم، جلسة روجيه في ثياب أسامة لم ينزع حتى العمامة، البساط الأحمر فوق التوطاية، و.. الوسائد المغطاة بالدامسكو والأطلس.

كان المسرح معدَّاً لاستقبال النظارة، وكان الممثل في أوجِ تألقه.. كان فياض قد زار المكتبة كثيراً من قبل، بل ومن بعد، ولكنه أبداً لم

يشهد عرضاً كهذا، وأبداً لم يدهشه العرض كما أدهشه في ليلته تلك، جلود الخرفان، الفروة الملقاة جانباً في إهمال متعمد، دّلات القهوة في المدفأة الجانبية، السيوف والبنادق، القرابينات والطبنجات، الإضاءة المؤثرة المسلَّطة عليها، كان روجيه قد هيأ نفسه للقاء فياض داعماً نفسه بكل الأسلحة التي يملكها، بالأشواق والعواطف والرغبات والمعارف التي يملكها.

كانت ماتيلد قد هيأت فياض لذلك اللقاء، وهدَّأتْ كثيراً من توتره فألانت عنفه وخضَّدت شوكه، وكانت خلوة روجيه وحيداً قد ألانت كثيراً من توتره وعنفه، فلم يصطدما، بل تلقى الأب القديم الابن مخوف الإباق بحنانه القديم، تحاضنا، تباوسا، وجلسا يشربان القهوة من الدلَّة في المدفأة القريبة.

وقال روجيه بعد قليل وبعد أن هدأت عواطف الصدام المتوقع:

ــ ولكن لِمَ اخترت أسامة للحفل؟

وليهرب فياض من السؤال المفاجيء قال: اخترته؟

ــ نعم! ــ قال الآخر بإلحاح.

وببطء قال فياض: ربما، لأني أحسست، أني انتمي إليه.

وبحدَّةٍ رمقتهما ماتيلد متخوفة، وقال روجيه: ولكن، كيف؟ أنت لم تكن تعرف حتى بوجوده.

ــ وقد عرفت.

ــ ولكن ماذا عني أنا؟ أنا الذي عاش طفولته وشبابه واكتهاله يحاوره ويسائله، أنا مَنْ انتظر لقاءه سنوات.

وببساطة قال فياض: ولكنك لم تلقه!

- صحيح، فهل لقيته أنت؟

ولم يستطع فياض الجواب، فكيف يجيب، أيحدثه عن عرنوس، واكتشافه زيف الأرض التي عاش عليها؟ أيحدثه عن إياد، ورغبته في صنع شيء يحرك مستنقع النوم في الوطن العتيق؟ أيحدثه عن الخطط يضعانها لجعل سورية تخرج من نير فرنسة؟ أيحدثه عن مشهد وقوفه فوق القلعة ينادي ذلك الجد الأسطوري غليام لوبلان يسأله إن كان قد سدد الدين؟ أيحدثه عن إحساسه بالدين واجب السداد لأسامة أيضاً؟ أيحدثه عن الأشواق أثارها روجيه فيه لتقليده في حب الأجداد والبحث عن بقاياهم لتسديد ديونهم؟ أيحدثه عن إحساسه بسرقته أسامة وشيزر كما حاول سرقة المشكاة من قبر سيدي منقذ؟

نظر إلى شاربيه الكليمنصيين الرماديين، ورأى نظرة الرجاء في العينين ترجوان ألاّ يحطمَ الحلم، ابتلع ماكان يدور في الذهن، وقال في مراضاة: ولكن أنت من أيقظ أسامة فيَّ، فهل تلومني على ذلك؟

ولم يلمه، ولكن النظرات والتعامل والبرود غير المعلن فيما بعد أكد لفياض أنَّ الشرخ بدأ يشق لنفسه طريقاً أساسياً في حياتهما، وأن إحساساً جديداً بكبر الولد الصغير بدأ يدبُّ فيه.. و.. ورغم أن روجيه أخذ يراوغ هذا الحسَّ الجديد إلا أن مقالة فياض في جريدة الأضواء جعلته يؤمن أخيراً أن الشرخَ أصبح نهائياً..

(١٧)

فراك عثماني وسموكنغ فرنسي، قمباز من الألاجا وعباءة من وبر الجمل، عمامة درزية ولفة أغبانية، طربوش أحمر وكوفية بيضاء، وجوه لحيمة مدورة ووجوه مسنونة سوداء الحاجبين قطع خطوطها السمر الشاربان ليشكلا مع الحاجبين أغربة منذرة، لحىً سابغة البياض ولحى مهذبة السواد، قامات مليئة مرتخية الكروش المختفية وراء الصدرية، وقامات نحيلة ملفوفة بشال كشميري.

تأملهم طويلاً طويلاً، تأملهم يحاول ألا يلفت النظر، ولكنهم شيئاً فشيئاً أخذوا يتحولون، هارون الرشيد في سلطانه بلا حدود، خالد بن الوليد فاتح الشرق والغرب، أبو العباس السفاح، معاوية وشعرته التي لاتنقطع، صلاح الدين، نور الدين، عماد الدين، عرنوس... ياإلهي! — همس — أتراه الكرنفال الآخر؟! كانوا يجمجمون ويغمغمون، يهتفون ويهزون بأذرعهم عالياً، أتراه الكرنفال الآخر؟ ولكن دون لعب هذه المرة، في تلك المرة كانوا يسكرون ويلعبون، أما هنا فهم لايشربون إلا التمر هندي، والقهوة المُرَّة، ولكنهم انتقلوا مرة واحدة إلى الخطابات، إنهم لم ينتظروا منتصف الليل، ولم ينتظروا ثمل البعض أو الكل، بل ها هم يتقمصون الأدوار، يلبسونها ويعيشونها، وهمس لإياد مازحاً: إنهم أكثر

إتقاناً لأدوارهم، ولكن إياد كان منشغلاً عنه، فلم يسمعه، كان يهتف مع الهاتفين: حرية، شعبية، حرية.

نظرا إلى هارون الرشيد على المِنصَّة، كان يصرخ مخاطباً الغيمة: اهطلي حيث تشائين، فخراجك عائد إلي ــ وتمطّى بالكلمات ــ إليَّ هنا في بغداااد.. وتعالت الصرخات المتحمسة التي اندمجت لتصبح صرخة واحدة، وعاد الخطيب يصرخ: شارلمان، شارلمان هذا البربري أهديته ساعة من صنع بغداد ــ وتوقف وقفة تمثيلية ليقوي الوقع ــ فارتعب منها، وهرب رجال البلاط.

وتعالى الهتاف والصراخ، والتفت فياض لإياد، ولكن الآخر كان غارقاً تماماً في الصرخة الموحدة مذيبة الكلمات المتحولة إلى صوت أشبه بالبشري، مُدوٍّ.

وقام صلاح الدين، فتحدث عن القدس منتهكَة العرض، عن الأراضي مدنَّسة الشرف، قال: ودفعتهم إلى حطين، إلى الجبل الأشمَّ، ومنعت عنهم الماء، وكان الصدام، الصدام الكبير بين فرساننا وفرسانهم، هزمناهم، وصرعنا منهم من قاوم، وحين انتهى الأمر جاؤوني بهم جميعاً ــ وسيكتب فياض في دفتره جريدي الورق: ورنَّتْ كلمة ***(جميعاً)*** المنفصلة هذه ممطوطة حروف العلة بأذني رنين ***جميعاً*** الأخرى التي سأسمعها كثيراً في خطب إمام جامع البادرائية في غرفتي الكئيبة جمعاتٍ إثر جمعات ــ وتابع: نظرت إليهم من علٍ، نظرت إليهم من فوق، وقلت كما قال الرسول الكريم: اذهبوا ــ وتمطّى اللسان في الحلق ــ فأنتم الطلقاء.

وسيكتب فياض: وتدافع الممثلون الكرنفاليون متقمصو الأجداد الماضين، تدافعوا يلبسون عباءات الأجداد، يرددون عبارات الأجداد،

شاعرين بفخر الأجداد، ولكنهم بعد انقضاء الحفل والعودة إلى دكاكينهم الصغيرة سيفتحون دفاترهم المزيتة وسيسجلون في دفاتر الأرباح والخسائر نتائج حفلهم ذاك.

كان فياض قبل أن يصحب إياد إلى هذا الحفل الذي وصفه إياد بقوله: سيكون هناك الدكتور الشهبندر وسيخطب، وستسمع أشياء لن تسمعها في مكان آخر. كان فياض منذ ليلة الكرنفال وغارلان وروجيه وأسامة وماتيلد قد قضى يومين قاسيين، يومين تنازعه فيهما، الإقدام والإحجام، الخوف من خسارة العش الحنون روجيه وماتيلد، والرغبة في لبس أسامة حتى النهاية.

بدأت المعاناة منذ الصباح التالي: بدأت مع الصداع العنيف، الصداع المزلزل، الصداع الذي تحسُّ فيه بأن رأسك مثقل بأطنان العذاب، هز رأسه يحاول طرد هذا الثقل ليبدأ الصداع الحقيقي، صداع آخر كأنه ماكان ينتظر إلا الإذنَ بالبدء ليستولي على مملكة الألم، صداع تحسُّ فيه بأن الدماغ منفصلٌ عن الجمجمة، فهو يخضخض فيها ناشراً مختزن آلام الليلة السابقة كلها، لم يكن قد شرب الكثير، فلِمَ هذا الصداع إذن؟ أراح رأسه على الوسادة ثانية، نظر إلى الستائر الثقيلة مسربة بعض الضوء. فكر بأحداث الليلة السابقة وجنون الكرنفال وخطابات الجنون، وتسرب إليه حديثهما من تحت، كانا يفطران ولا شك، حاول أن يفهم شيئاً، ولكن ما تسرب لم يزد عن همهمات وهسهسات.

استيقظا مبكرين إذن؟ وهزَّ رأسه، روجيه العسكري الذي لايتأخر في النوم، ولو في إجازة، وماتيلد التي لاتتركه يفطر وحيداً أبداً.. أينزل؟ ولكن لماذا؟ من أجل صدام جديد؟ أم من أجل مجاملات جليدية أخرى؟

سمع الكراسي تنزلق على أرض غرفة الطعام، انتظر متوتراً قليلاً

ثم سمع صوت الباب الخارجي يغلق: مضى إذن، ولكن إلى أين؟ اليوم إجازة، وفجأة انتصب السؤال عارياً: ترى إلى أين وصلوا بتحقيقهم في لغم الفحامة؟ ياإلهي! وحاول أن يواريه بشرشف، أيمكن أن يصلوا إليهما؟ انتصب مرتعداً عند هذه الفكرة، ولكن الصداع آآخ.. هذا السائل المخضخض في الجمجمة. السائل الناري، سائل الوجع، آآخ، ولكن. أيمكن أن يصلوا إليهما؟ هدأ ارتجاج السائل وفكر: كيف ستستقبل ماتيلد الفكرة لو وصلوا؟ وروجيه؟ آآخ السائل الألم.

تحامل. مضى إلى الحمام. وضع رأسه تحت الحنفية، رعشات البرد تفتح آلاف النوافذ الصغيرة خلف الأذنين، في الجبين، في العينين، ارتخاء الأنف المتوتر، رفع الرأس، أغلق الحنفية، يبحث عن المنشفة مغمض العينين، واندفع صوت ماتيلد: صباح الخير.

يفتح العينين، تنزلق قطيرتا ماء إلى العينين، يغلقهما بسرعة، يجفف الشعر الطويل وهو يهمهم: صباح الخير.

ــ سمعت صوت الماء في الحنفية، فقلت لابد أنك استيقظت.

الثرثرات دون معنى، الكلام، الأصوات الهاربة من رعب الصمت والحوار مع الداخل، الكلمات القناع والهرب من إنزال أغلفة الصدر وترك الدم الحار يكشف نفسه للدم الحار.

غيَّر ثيابه بسرعة، ونزل، كانت تنتظره في الصالون الكبير ــ غرفة الطعام استوقفت عجلته: ألن تفطر؟

ــ لا شهية لي.

ــ والصداع؟ لن تقاوم الصداع إلا بفنجان قهوة قوية وقطعة كرواسان.

أصرَّ على الاعتذار، فلديه موعد، وأصرَّت على إفطاره معها فلم تفطر مع روجيه كان متعجلاً أيضاً، الضراعة في العينين والرضوخ، الثرثرات المجانية والضحكات المستعارة، رِدْفَا جوزفين، ومجون توماسيني، وتبجُّح غارلان، وهزَّات الرأس الموافقة مع الضحكة الملصقة إلى الشفاه: إلى أين؟ إلى أين؟

إياد. لا. لن تمضي إلى إياد.. لقد اتفقا على الافتراق لفترة، لايجب أن يجلبا إليهما الانتباه. إلى أين؟ إلى أين؟

يقبِّل الجبين الدافيء. يرى الدمعتين. ياإلهي! هاتان الدمعتان، هاتان الدمعتان إلام تظلان معلقتين في العينين؟

يمضي. الجسر الأبيض، عرنوس، الصالحية، سوق ساروجة، وتبتلعه المدينة، تبتلعه باحثاً عن شيء لايعرفه، تبتلع المدينة فياض المتخبط من ساروجة إلى القرماني، المرجة، السنجقدار، الحميدية، الأموي، يتوقف أمامه، يدخل. يتنفس بعمق، يرى الناس تتجه إلى اليمين، يلحق بهم، يتوضأون، ينفُون ويتمضمضون، يفكر قليلاً، لم يفعلها في حياته. الرضا على الوجوه، يتأمل الاستسلام الرخيَّ لبرودة الماء، الماء ينزلق عن الكوعين، عن الكاحلين، عن الوجوه المبتلة بقطرات عالقة على اللحى والشوارب، والخدود الحليقة، شيء ما يجذبه، يشمِّر، يغسل اليدين، يقلِّد جاره، يغسل الذراعين، الكوعين، الوجه، يمسح الشعر الخرنوبي الطويل، ينظِّف الأنف، الأذنين، يتعثر، يقلِّد، يغسل القدمين، ينظف مابين الأصابع، يخرجون مناديل قطنية كبيرة من الجيوب ينشفون بها أنفسهم، يبحث في جيوبه، منديل حريري صغير مطرز لايصلح لهذه المهمة، ينشِّف وجهه فقط، يسدل كُمَّي الذراعين، يرخي ثنيات ساقي البنطلون، يلحق بالناس، يقف مثلهم، يرفع كفيه إلى الأذنين، يتأمل الجدار

العملاق، يرفع الرأس، يرى القبة الضخمة، يُكبّر كما يُكبِّرون، العُمُد العملاقة، يفكر: ماذا أصنع ها هنا؟ يسمع ترنيمة الأمام، يتأمل. ماذا أصنع هنا؟ يركع معهم. يتمهل قليلاً ليسجد بعد سجودهم كما يسجدون، تؤلمه أصابع القدمين، ولكنه منساقٌ، الإمام يسلِّم، فيسَّلم كما يسلِّمون بعضهم ينتصب ليصلي وحيداً، ماالذي يفعلون؟ يتأمل الشفاه تتمتم، أف! هذا الاستسلام، هذا الرضى، هذه الراحة ولكن، أفلم يسمعوا بانفجار الفحامة؟ يتبعثرون، يمضون، يقوم، يتجول في الجامع، قبر النبي يحيى، النقود المكومة والأيدي المتشبثة ترجو، وتتوسل، وتتمنى، ليته يستطيع أن يفعل مثلهم، ولكن أفلم يسمعوا بلغم الفحامة؟ يتمشى، هنيئاً لهم، ليس لديهم روجيه منافس، ولا ماتيلد حنون، يخرج إلى الباحة، أسراب الحمائم، وأسراب الأطفال تطاردها، المئذنة العملاقة ذات الشكل المربع الغريب، استند بظهره إلى جدار المسجد مواجهاً الباحة كما يستندون، يفكر، يتأمل، ينظر إلى قدميه، الجورب المثقوب.. متى؟ أقذار الحمائم العالقة بالقدمين، البنطلون متكسر الكيَّة متسخ البياض، يحزن، ماالذي جاء بك من باريس يافياض؟ أما كنت هناك أكثر سعادة، أما كنت؟.

الساعات تمضي، أذان العصر وخلو الباحة إلا منه مستنداً بظهره إلى الجامع يتأمل البحرة والحمائم والتاريخ النائم، ينتصب حزيناً متوجعاً من تصلُّبِ ظهره واتساخ ثيابه، ولكنه أبداً لم يفكر في أنَّ امرأة لم يعرفها بعد سيوجعها، ويعذبها حتى تخترق المدينة طولاً وعرضاً، ثم لاتجد كما وجد ملجأ إلا في الأموي ثم لاتحسُّ بمرارة مأساتها إلا حين ترى اتساخ ثيابها، وتمزق جوربها، فتمضي إلى قدرها.

لبس حذاءه، دخل ليل سوق الحميدية، خرج إلى نهار جمال باشا، وحملته القدمان التائهتان، السؤال يلحُّ، يتهرب منه في تأمل لافتات المحلاَّت، يراوغ السؤال، ويلح، ينزل إلى المرجة، والسؤال يلح، يركب

الترين والجرس يرنُّ، ترنُّ. تران. رن. تران. رن. تران. يتنكر السؤال لينزلق ماذا لو، وصلوا إليهما.. ماذا.. لو.. وصلوا.. إلينا؟

الترين يقف والجابي يعلن: عرنوس.. عرنوس؟ ويقفز من الترين بسرعة. الخطوات تحمله، أهو يوجهها فعلاً، وأخيراً، يجد نفسه أمام الباب وقوسه المدهون بالأبلق، يتوقف قليلاً ينتظر سماع أصوات الحساسين والبناديق، ولكن لا، ليس هنالك أصوات حساسين ولا بناديق، ليس هناك كمان صغيرة ولا ضربات أجراس فضيَّة صغيرة.

أصاخ متعمداً. آه! هناك عصافير. ولكن، لا. ليست تلك الأصوات.. كانت شهقات بيضاً طويلة، ماهذا؟ أصاخ ثانيةً، وسوسات ناعمة، وكركرات، ضربات جرسٍ نحاسيٍّ متقطِّع. ماهذا؟ أفسد سمعه، أم ماذا؟ لم يطقِ الانتظار. ضغط على الزر الجرسي وانتظر.

انفتح الباب وهتف نجدت مُفاجأً: فياض! غير معقول! تفضل.

دخل الساحة، بحث بعينيه عن الأقفاص، لاتزال معلَّقةً على الجدران.

ـ تبدو متعباً ـ نظر إلى ثيابه ـ أين كنت؟

وحشرج: كنت أتجول في المدينة ـ ثم اعتذر ـ مررت من عرنوس فقلت أُسلِّم.

ـ يامرحباً. يامرحباً. تغديت؟

وكذب: نعم.

ـ ولكنك متعب ـ ثم بأبوية ـ أهناك مايضايقك؟

ـ لا، ولكن المشوار.

ــ آه صحيح ــ ثم بلطف ــ شاي أم قهوة؟

ــ لا. شاي وشاي كثير.

ــ تكرم. قال بفرح، ومضى.

تأمل الأقفاص، اقترب منها، الشمس أعلى الجدار وأوراق شجرة الكباد القلبية، يتلفَّتُ، هاه، شجرة دراق زهري صغيرة، يقترب منها.

ــ حملت هذا العام خمس حبات فقط، تباشير.. لو عرفت أنك قادم لاستبقيتها لك ولكن ــ أضاف باعتذار ــ الأولاد كما تعرف.

ضحكا.. صبَّ الشاي. رشف الرشفة الطويلة الأولى. ياإلهي! إنه جائع.. كيف لم يحسَّ بالجوع إلا الآن؟

نظر إلى الأقفاص المعلَّقة المستورة بقطع كتان أبيض تفصل مابين الأقفاص وأراد أن يتكلم: هاه. وماأخبار البناديق؟

ــ هاه ــ وأطلقها فرحة ــ تذكُرُها؟

ــ بالطبع.. أنسيت محاضرتك القديمة عن الحساسين؟

ــ سئمتها ــ قال بحزن ــ أحببت أن أغيِّر!

ــ ولكن، وهذه الأقفاص؟

ــ أحببت أن أغيِّر.. بناديق حساسين، بناديق حساسين، أف!.

ــ ولكنك كنت متيماً بها.

ــ صحيح ولكن ــ أضاف باعتذار ــ الإنسان يحب التغيير.

ــ هه ــ استحثه.

سئم نجدت أخيراً بناديق الحسون، صحيح أن أصواتها لاتعلو عليها

أصوات.. صحيح أنها احتفظت بقوة صوت الكناري وتلاوين الحسون، ولكنها ـ اكتشف فيما بعد ـ جمالياً ليست جميلة. فيها شيء بريٌّ يعيدها ولاشك إلى الجد الأول الذي انطلق منه الحسون والكناري، صحيح أنها احتفظت ببعض حمرة وجه الحسون. ولكن أين منه حمرة الحسون القانية النضرة؟ صحيح أنها احتفظت ببعض صفرة جناحي الحسون، ولكن أين منها صفرة جناحي الحسون الفاقعة.

ـ والكناري؟

ـ الغريب أنها ترجع دائماً بالكناري إلى أصله البرِّيِّ، بغض النظر عن لون الأم صفراء أم بيضاء، أم رمادية، فهي ترجع إلى البني المصفرٍّ قليلاً، والأقرب إلى لون الدوري. لا. الكناري بألوانه ـ التي ابتكرها الإنسان وَثبَّتها ـ أجمل بكثير.

ـ فرجعت إلى ماانتقته الطبيعة إذن، هل تربي الكناري الآن؟

ـ لا، بل أبحث عن مغامرات جديدة.

ـ لاأفهمك.

ـ في الطبيعة طيور مغردة كثيرة، فلم لا أجرب بندقتها؟

ـ هاه؟

ـ تحصل على أصوات جديدة، وألوان جديدة.

ـ هاه. استحثه ثانية.

ـ فجربت الصفري وهو أقرب الطيور إلى الكناري، ولكن الخبيث رفض!.

ـ لا.

ـ بل رفض أن يغرد في القفص، ولكن ـ ياإلهي! لابد أن يغرد ـ كل الطيور تغرد.

ـ ولم يغرد أبداً..؟

ـ انتظرته طويلاً، كمنت له، واكتشفت أنه يغرد ولكن شريطة ألا يراني ولكن، هاه. أين تغريد الحسون؟! بل أين تغريد الكناري؟! لا شيء إلا شهقات طويلة وبعض البربرات، ومع ذلك أصررت، أريد بندوقه.

ـ ولم تحصل عليه؟

ـ أبداً.. جربت الحمري.. الألماسي.. الطرنجان.. الشرشور. السنّ ولكن كما ترى ـ أشار بيده إلى صف الأقفاص الطويل المنشور أمامه في أسى ـ لم أنجح في بندوق واحد منها.

خيَّم الصمت على البيت، صمت كانت العصافير فيه تحاول فهم مايجري من حوار، أحسَّ فياض بالغثيان بعد ثلاثة كؤوس من شاي في معدة فارغة، وأحس نجدت أنه لايريد مزيداً من الحديث عن هذه الخيبة. استأذن فياض. طلب نجدت منه البقاء. أصرَّ، وقبل الوصول إلى الباب الخارجي عاد الجرس النحاسي الإيقاع يرن. تن. تن. تن. تن. التفت إلى الأقفاص. ماهذا؟

وردَّ نجدت باحترام: إنه عصفور السن، إنه الأمل الآن، أرجو أن أتمكن من بندقته.

عاد إلى البيت ليجد ماتيلد في الصالون تمسك بمجلة باري ماتش تقرأ ولاتقرأ، رفعت رأسها وهتفت: فإياد. أوه فإياد أين كنت؟ كدت أموت من القلق.

سأل عن روجيه فأشارت إلى غرفته الشرقية مغلقة الباب: أنا تعيسة

يافإياد، هجرني الجميع، لماذا؟ ضمَّها إلى صدره في حنان. آه ماتيلد، ماتيلد الرقيقة. نشرت أطباق الطعام، أكل بشهية، حاول أن يثرثر معها ولكن اللسان ثقيل، سألت: فإياد. فيك شيء تغيَّر منذ رجوعك من باريس، ثم وكأنما تسأل نفسها: ماالذي تغيَّر فيك؟ وأصدى الصوت في داخله: صحيح فياض، ماالذي تغيَّر فيك؟. ماالذي... تغير.. فيك؟

الليل، الليل الطويل دون نوم، والباب المغلق وماتيلد المهجورة تطرق باباً، فيجيب صوت حزين لايحتمل المسامرة، وتطرق آخر، فيجيب صوت خائب لايريد المسامرة. وفيَّاض وأسامة والملك الظاهر وشيحة وعرنوس وآلام السؤال يريد الهروب منه ولايستطيع: أتراه، ذاك المحصن بقرابينات وكزاغندات ومشاكي قد وصل إلى سرِّه فهو يتعذب هناك بين دلاَّته وفراء خرفانه وطبنجاته؟ وأخيراً هبط عليه النوم، سواداً دون أحلام.

ومضى إلى إياد: ألم نتفق على الافتراق لفترة؟

ـــ لم أستطع. نهار فظيع وليلة كئيبة.

ـــ اسمع. الليلة سيقيمون احتفالاً يخطب فيه الشهبندر، أفلا تأتي؟

ـــ لماذا؟

ـــ يريد أن يراك!

ـــ حدثته عني؟

ـــ نعم!

ـــ وعن..؟

ـــ نعم.

ــ ولكن إياد. هل جننت؟

ــ إنه الشهبندر ــ قال معاتباً ــ أم نسيت؟

وأخيراً.. أخيراً جداً كما قال إياد، صعد إلى المنصة، صعد بقامته العملاقة ووجهه المربع، فصمت الجميع، وبهدوء اختفت الأقنعة، اختفى هارون الرشيد، واختفى صلاح الدين، اختفى طارق بن زياد، واختفى معاوية، ولم يبق على المنصة إلا كهل عادي لايميِّزه إلا شاربان مربعان صغيران، وهمس فياض لنفسه: ياإلهي! ولكن لِمَ هذان الشاربان الذبابيان؟ ولكن إياد لم يجب والشهبندر لم يجب، بل تحدث عن وطن يحلم به، وطن دون أحقاد دينية، دون أحقاد طائفية.

وطن يؤمن بتاريخ واقعي، تاريخ يبدأ مع العرب، قال: ليس لسورية مجد أكيد وتاريخ حافل إلا منذ الفتح العربي، واستيقظ أسامة يتمطى في فياض. قال: أرأيت؟ وتابع الرجل: رابطة العروبة أقوى من أن تصاب في قوتها وروحها مادام القرآن يجمعها، وأحسَّ فياض برد الماء ينزل عن كاحليه في ميضأة الأموي، وأحسَّ بالانتعاش. قال: نحن عرب قبل أن نكون سوريين، وقام عرنوس أمام الظاهر، قال: ها أنذا عدت ياأمير المؤمنين. ثم قال: الأمة التي لاتسفك دمها في سبيل الوطن لاتستحق تقدير الوطن. قال: خير لنا أن نغرق متحدين من أن نعوم متفرقين، وقال.. وقال.. وقال.. كان يتحدث ولايخطب، كان يتكلم محاولاً الإقناع دون أن يحاول الشقشقة المقعقعة كما حاول الآخرون، وبهدوء أحسَّ فياض ضباباً هادئاً ينتشر من الرجل ينتشر ليحطَّ على الموجودين، ضباباً أبوياً حانياً، ضباباً متسللاً يبحث عن المسام يتسرب فيها دون قسر أو قهر أو خطب.

وصرخ إياد، وانتبه فياض إلى الجمع المسحور يصرخ: حرية،

شعبية، حرية، فصرخ معه هذه المرة بصوت لايخجل: حرية، شعبية، حرية. والتفت إياد إليه مُفاجأً ولكنه لم يعبأ بلفتته، أما إياد فلقد ابتسم لنفسه في مكرٍ: ها أنت تتخلى عن تحفظك البارد أخيراً!.

كان فياض قد سمع عن الشقاقات بين الكتلة الوطنية وبين الشهبندر، ولكن الشهبندر قال: إن الشرق ينظر إليكم بعيون مجهرية، إنه يقرأ أخباركم ويستمع أحاديثكم، ولو تفرقتم لقال إن الشهبندر وإخوانه أدعياء في الوطنية ــ أتريدون أن أصفق للكتلة الوطنية، فلنحيي الكتلة الوطنية.

وانطلق الجميع يصفِّقون وصفَّق فياض وصفَّق إياد، وهتفوا جميعاً: حرية، شعبية، حرية، وأكمل الشهبندر ــ أتريدون أن أصفق للجبهة الوطنية المتحدة؟ فلنحيي الجبهة الوطنية المتحدة ــ وصفَّق الجميع وهتفوا: حرية، شعبية، حرية. وتابع الرجل الذي أخذ يتحول إلى أب ــ أتريدون أن أصفق لعصبة العمل القومي؟ وصفقوا، وهتفوا، وتابع: أتريدون أن أصفق لكل الأحزاب السورية التي تعمل بإخلاص؟ فلتحيا الأحزاب الوطنية السورية.

انتصب الجميع واقفين يصفقون ويهتفون، وأخذ فياض يصفق ويهتف ولكنه ودون أن يرغب فعلاً بذلك انتزع نفسه متسرِّباً من التيار الجماعي المسيطر المهيمن المبتلع، وأخذ يراقب الآخرين يصفقون ويهتفون، وانتبه إلى أن سحر الكرنفال قد زال، وأن الأقنعة قد ذابت وأن الجميع قد تحللوا في كتلة واحدة هاتفة مصفقة مندمجة لاترى إلا الزعيم المنتظر طويلاً أمامها لتذوب فيه وذاب فياض.

وقال إياد: ولكنك أنت الذي طلبت البقاء للتعرف إليه!

ــ على العكس ــ هتف إياد في حماس ــ يجب أن يعرف أيَّ رجل أنت، وعمَّ تتخلى من أجل الوطن.

كان الشهبندر قد وافق على اصطحاب إياد وفياض إلى بيته حين التصق إياد به، وهمس له بشيء ما، فالتفت الدكتور إلى فياض بوجه سمح وعينين أبويتين رَضيَّتين، وأحنى رأسه بالتحية من بعيد، فانحنى فياض في فرح وقد شعر أخيراً أنه وجد الأب الذي أضاعه منذ زمن طويل طويل.

دخل الشهبندر حاملاً صينية القهوة، فانتفض الشابان خجلين:

ياعيب الشوم. لا والله، دعني أحملها عنك، ولكنه بجانب كفه الطليقة أشار إليهما بالجلوس أنتما في بيتي. ياأهلا وسهلا.

تناول إياد وفياض فنجاني قهوتهما واقفين، فأشار إليهما بالجلوس، وضع الصينية على طاولة صغيرة أمامه. رفع الفنجان، رشف رشفة، وقال لفياض: حدثني إياد عن كل شيء، ليتكما استشرتماني قبل فعلها.

وصدم فياض، فما معنى ليتكما استشرتماني. قال: الثورة المسلحة تحتاج إلى جو غير هذا الجو الذي نعيشه. نحن الآن في زمن المفاوضات. ألا تقرآن الصحف؟

وأجاب إياد بسرعة: بل نقرأها. نقرأها ياسيدي.

وقال فياض بمرارة: بل قرأناها جيداً ياسيدي!

وأدرك الشهبندر المرارة التي عناها فياض، فقال: لقد رأيتما بأعينكما إذن. الشامتون كثيرون، والغيورون على الأمن والاستقرار كثيرون، والمعاهدة لم توقع بعد، وسيفهم الآخرون أنكم أردتم وأد المعاهدة بفعلتكم هذه.

وانتفض فياض ثانية: أفيسمي مغامرة الفحامة فعلة؟ فعلة فقط؟

ولكن الشهبندر تابع: حين يكون الجو العام مهيئاً للثورة، حين يكون

الناس جميعاً، أو معظمهم، أو جزء كبير منهم على الأقل مستعداً للثورة تكون الثورة. أما المغامرات الفردية فإنها لاتفعل إلا أن تقوي من بطش المستعمر. صدقوني. خضت ثورتين وحكمت بالإعدام مرتين، وعشت اندفاعكما هذا مرتين، ولكن.. ونظر فياض إلى إياد يريده أن يتحدث، يريده أن يدافع عن عمليته التي أراد منها إيقاظ الناس من مستنقع النوم الهادىء، ولكن إياد كان مطرقاً برأسه يسمع، ويهز رأسه في استسلام التلميذ المطيع، وفجأة غضب فياض، فما معنى هذا إذن؟ صرخ:

ــ وماذا عن دور الطليعة إذن؟ الطليعة المضحِّية المثوِّرة الـــ..

وقاطعه الشهبندر بهدوء: عليك أن تُعِدَّ الأرض قبل أن تلقي فيها ببذرتك، انظر من حولك. ودار الشهبندر برأسه في المكان. أترى الأرض مستعدة لبذرتك الطليعية؟ وتذكر فياض مانشيتات الصحف تتحدث عن الخيانة، عن المؤامرة، عن التخريب، عن المدسوسين على الأمن ومعاهدة الاستقلال، وحنى رأسه في حزن.

ــ أرأيت؟

ــ فماذا ترى إذن؟

ــ هيئوا الأرض.

ــ كيف؟

ــ أنتما شابان مثقفان. حدثني إياد عن حبك التاريخ، عن دراستك الصليبيين، عن شيزر وأسامة، عن خطابك ليلة الكرنفال.

وهز فياض رأسه في حزن: فلم يكتم أمراً إذن.

ــ أبدآ الكتابة بالصحافة، نوِّرا الناس، ذكِّرَاهم بماضيهم، أيقظا حب

الوطن فيهم.

ـ بالصحافة؟ هتف فياض في حزن.

ـ نعم بالصحافة، إنها الوسيلة للوصول إلى قلوب الناس.

وقال إياد: ولكن أية صحيفة ستستقبل مقالات شبان مجهولين لم يعرف عنهم أحد شيئاً بعد.

ـ لا. هناك صحيفة يسعدها أن تستقبل مقالاتكما.

ونظرا إليه متسائلين.

ـ خليل بك صاحب صحيفة الأنوار يريد إنعاش صحيفته بدماء شابة، هل أتحدث إليه؟

وتحمس إياد، وتبعه فياض، وسيكتب فياض على دفتره جريدي الورق: وكانت هذه هي الخطوة الأشد فعالية في تغير فإياد الشيزري إلى فياض الشيزري وقرأ روجيه مقالة فياض يتحدث فيها عن أسامة وشيزر وغليام، وغَصَّ قلبه بالحزن، فقد عرف أن فياض قد اختار طريقه الخاص بعيداً عن روجيه وماتيلد أخيراً..

(١٨)

لم تكن مفاجأة كبيرة لروجيه، ولكنها كانت ــ رغم كل توقعاته منذ ليلة الكرنفال ــ مفاجأة حاول امتصاصها، ولكن وخزة القلب الذي انتظر لسنين سماع كلمة بابا ولم يسمعها كانت جارحة، قرأ الجريدة.. التفت إلى ماتيلد ممتقعاً مرتجف الأصابع وقال: مدام أخاف أنّا قادمون على أيام صعبة.

رفعت رأسها عن فنجان قهوتها الصباحي ولم تفهم، فقد كان فرح صغير يلفها، فها هما الرجلان اللذان أحبتهما أكثر من أي شيء في العالم يجلسان حولها يتناولان إفطارهما بهدوء. قالت: أنت تضخم الأمور دائماً.

ولكنه بلهجته الثقيلة قال دون أن ينظر إلى فياض الذي فهم كل شيء بسرعة: لا. الأمور مختلفة هذه المرة.

وبسخرية خفية قالت: أيسمح سيدي بشرح ما أزعجه من هذه الجريدة العربية؟

التفت روجيه إلى فياض فجأة مواجهاً: فإياد، ماذا تحاول أن تصنع بحق السماء؟

ولجأ فياض كعادته مؤخراً إلى التجاهل: ماذا أحاول أن أصنع؟ أشرب قهوتي.

وهدر روجيه يشير إلى الجريدة: وماهذا المقال الذي نشرته هاهنا؟

وهتفت ماتيلد فرحة: مقال لفإياد بالصحف؟ أوه. ياإلهي! ـ خطفت الجريدة ـ وصرت تكتب بالصحف؟ أوه روجيه كم أنا سعيدة! فإياد سيصبح كاتباً.

وهدر الصقيع الجريح فجأة: ماتيلد أرجوك.

ـ لماذا؟ كان يجب أن تكون فرحاً. ابنك صار كاتباً!

ـ صار كاتباً؟ لقد صار مهيجاً. هل أقرأ لك ماكتب؟

ـ بالطبع. بالطبع. يجب أن أعرف مايكتب.

وضع فنجان قهوته بهدوء مفتعل. أرجع كرسيه إلى الوراء، اتجه إلى النافذة، نظر إلى أقواس الحارات التي لاتؤدي إلى حارات، وقال مثقل القلب: صديقك هذا المدعو إياد.

واعتصر قلب فياض.

ـ إنهم يحققون معه الآن!

وصرخ القلب الجريح المكتوم، قبضوا عليه.. ياإلهي! ولكنه قال متماسك الصوت: لماذا؟ إن كان الأمر أمر المقال فأنا من كتب المقال.

التفت روجيه هذه المرة: لا. ليس لهذا السبب، ولكنهم ـ وانحنى فوق فياض ـ لاحقوا مشترياته من البارود والصواعق.

عرف فياض أخيراً أن الأمور قد وصلت إلى نهايتها. أتراهم عرفوا؟

وتابع روجيه: أرجو ألا يكون لك علاقة بالأمر، وإلا فسيكون الأمر خطيراً.

ومتحشرجاً قال فياض: ماذا تعني ياسيدي؟

ـ لم ينته التحقيق معه، وهو ينكر شراء البارود والصواعق رغم شهادة البائعين ونحن نبحث الآن عن المستودع الذي يحفظ فيه مواده المتفجرة..

وضعت ماتيلد، كفها على ذراع فياض مجروحة: فاياد. أهذا معقول؟

ولم يصغ روجيه لماتيلد فتابع: وساقنا إلى الشك فيه بدؤكما المفاجيء بالكتابة في صحيفة الشهبندر.

كان فياض يتوقع هذه الثورة بالأمس حين نشر مقاله في صحيفة الأنوار، فلِمَ أخفى هذه الثورة حتى اليوم؟ ولكن روجيه لم يمهله، فصرخ فجأة متخلياً عن بروده: فإياد. إكراماً لله. لِمَ تفعل هذا؟ بمَ أسأنا إليك حتى تكافئنا بهذا؟

ولم يجد فياض أمامه إلا أن ينكر: لا علاقة لي بالأمر كله.

ـ ولكنه صديقك الوحيد. حدثني عنه وحيد بك مطولاً. أتُنكِرُ؟

ـ لاأنكر.

ـ أفلم تكن تعرف بمشترياته تلك؟

ـ لاأعتقد أنه اشترى شيئاً مما تذكره.

وصرخ روجيه هذه المرة بغضب: فإياد. لقد ربيتك كرجل، ويجب أن تتصرف كرجل.

لم تحتمل ماتيلد هذه الثورة، فانتصبت موقعة فنجان قهوتها لتقف بينهما: روجيه. أرجوك.

ــ كيف؟ ألا ترين؟ إنه يضعنا في الموقف المحرج. ابني وفي بيتي، ولا أعرف بما يعدُّ ضد جيشنا وحكومتنا.

وهتفت مجروحة تكاد تبكي: روجيه. غير صحيح، هذا غير معقول، فإياد، قل إنَّ هذا كذب إكراماً لي، قل إنه كذب.

ولم يستطع القول إنه كذب كما لم يستطع قبول التهمة ضد إياد، فصرخ روجيه: قل شيئاً.

فهمس وقد أُحيط به: لاأعرف عم تتحدث ياسيدي!

انتفض روجيه مبتعداً إلى النافذة، وأطل ثانية على الجرار المنحنية تقذف بثعابينها الخضر من أفواهها الواسعة وتمتم: حسن.. سأقبلها كلمة رجل منك ولكن، إن ثبت أن لك علاقة بهذا الأمر فسيكون حسابنا عسيراً، عسيراً جداً يافإياد.

غادر روجيه البيت، وحطَّ الوجوم على مخلوقين يحاولان العثور على لغة تنقل الأحزان والخيبات والعتابات. أخفقا، وانتصب فياض يحاول المغادرة ولكن ماتيلد تشبَّثت به، حاولت جعله يتراجع عما يمكن أنه انتواه، انطلقت اللغة فجأة، فحدثته عن الماضي؟! ياالهي! أليس من علاقة بين الناس إلا ماتحول إلى ماض، حدثته عن طفولته، عن حبهما له، عن تعلقهما بكل حركة قام بها، عن ترويضهما للجدي البري الذي كان، عن الآمال والطموحات التي علقاها عليه، قالت: إن كنت قد تعلقت بسورية إلى هذه الدرجة، فبإمكاني قبول عروض روجيه بشراء بيت في سفح الجبل، وبذا نحقق الحلمين، حلمك وحلم روجيه، هه. فإياد. سنتان

وتتخرج، وروجيه قادر على أن يكفل لك الوظيفة التي تريد، فاياد. ووضعت يدها على كفه في تلك الحركة الأنثوية العتيقة ـ والتي سيتساءل عنها في دفتره الجريدي فيما بعد: ماالسحر الكامن في تلك الحركة التي تلجأ إليها النساء حين تعجز اللغة عن التعبير؟ أية طاقة أو قوة تريد أن تنقلها من الجسد إلى الجسد دون لغة وسيطة؟ ـ وتابعت: روجيه يحمل لك أحلاماً كبيرة، يريد لك أن تكون سيد أقرانك، فلم تريد إغضابه؟

وبحردٍ قال: أنا لاأريد إغضابه!

ـ فما معنى مغادرتك البيت الآن؟ إن له معنى واحداً، إنك تكافىء الغضب بالغضب، والثورة بالثورة. فإياد ليس لي في الحياة سواكما. لاتجعلني أرى تحطم البيت الذي بنيت.

ـ ولكن، مدام. اتهامات خطيرة مايتهمني بها.

ـ حسن. فأخبره أنها اتهامات كاذبة، وألاّ علاقة لك بالأمر. ألك علاقة بالأمر؟

ـ مدام. أنت تحرجينني.

وانتفض الرعب في وجهها فشوّهه. فإياد. أنت تخيفني. أيعني هذا أن لك علاقة بالأمر؟ أيعني هذا أنك ساهمت بتفجير اللغم، وقتل جنودنا؟

ولم يشأ الاعتراف فيقطع آخر الجسور المحتملة، ولم يشأ الإنكار، فربما كان روجيه يعرف كل شيء الآن فيبدو كاذباً، قال: ولكني كنت نائما بالبيت ليلة الانفجار. ألا تذكرين؟

ـ ومايدريني بهذه الأمور؟ ولكن، فإياد.. كلامك يوحي أن لك اطلاعاً على الأمر بشكل ما.

وهرب من الإقرار بالمجابهة: مدام.. أرجوك.. أحسُّ شيئاً في روجيه قد تغيَّر منذ ليلة الكرنفال. أتذكرين؟

ـ كان ذلك خطأك.

ـ لنفرض. فهل يستدعي خطأي هذا البرود، وهذا الغضب، وهذه الثورة؟

وأخيراً تخلَّت عن كل تحفُّظٍ، فقالت في حزن: فإياد. يجب أن تفهمه، روجيه خائف، عسكر البلد كلهم خائفون. الحرب على الأبواب. وألمانية قد أشرعت أنيابها، أفلا تدرك ذلك؟

وهزَّ رأسه في فهم: أدركه، أدركه. ولكن ماذنبي؟

ـ ذنبك.. ذنبك؟ ـ رددت حائرة ـ ربما كان في هذه الجريدة. ماذا كتبت فيها؟

ـ لاشيء، ذكريات عن شيزر والأمير أسامة.

ـ هاه.. شيزر وظنَّت انها فهمت، فقالت في رقة: أتحنُّ إليها؟

ـ أحياناً.

وضعت ذراعها على كتف فياض البعيد، وألقت برأسها على كتفه القريب، وقالت في رقة فتية: أتحب أن تزورها لبضعة أيام؟.

فوجىء فياض بالعرض، وفوجىء بالفرصة تقدم، وتعطي استراحة للمحاربين يفكرون، ويعيدون الحسابات من جديد، فقال مندفعاً: ربما، أتريدين الحق؟ ربما كان هذا سبب التوتر.

ـ حسن ـ قالت بلهجة الأم المشترطة قبل مكافأة طفلها ـ فاسترضه حين يجيء، وأعدك أن نمضي لقضاء أسبوع هناك.

وعدها، وفرحا، وأخذت الأمور تسير في مجراها الطبيعي. استأذن وغادر ليروِّح عن نفسه قليلاً، ولكنه ما إن ابتعد عن البيت قليلاً حتى استأجر سيارة طار بها إلى كفرسوسة، إلى البيت الذي شهد موت البقرة الحائل لم تجد ثوراً لإحبالها، دخل البيت المهدوم والخالي إلا من سرير نشر العنكبوت فوقه مملكته. مضى إلى المخبر القديم ليخفي بقايا المغامرة المتفجرة، بقايا الفتائل والصواعق والبارود ليرميها في البئر في ساحة الدار حين سمع صوت وحيد بك يطل من فوق شجيرات توت السياج متهكماً: مرحبا فياض بك.

وسيكتب فياض: وكان ذلك الاصطدام الأول مع التحري، مع المكتب الثاني، مع الشعبة السياسية، مع المباحث، مع الشرطة، مع الدرك والجندرمة، مع قوى القمع الليلية السود، مع الصفعات الأولى في الحياة، مع الاتهامات الأولى، مع الازدراء والتحقير، مع الإهانات الأولى في الحياة منذ دخول روجيه قلعة أسامة يبحث عن ثأر لجده غليام.

وقال له وحيد بك بعد جولة تحقيق منهكة: فياض.. أم تفضل أن أقولها فإياد؟ ولم يرد فياض على تهكمه، فتابع: سأقص عليك حكاية: زعموا أن ملكاً تساءل، لِمَ لايربي الناس الجرذان يتسلَّون بها كما يربون الكلاب والقطط والحمائم والعصافير؟ طلب، فجيء بجرذ صغير لطيف وضعه في قفص، أمر بغسله فغُسِل، وبتعطيره، فعطِّر، وصار منظره مقبولاً، أخذ يغذيه يومياً بالعسل والفستق واللوز والجوز، وكان يتوقع من الجرذ السِمَنَ وقبول مداعبة سيده، ولكن الجرذ أخذ يرفض الطعام وأخذ ينحل يوماً إثر يوم، غيَّروا الطعام، غيَّروا القفص، غيَّروا المكان، الشمس، الهواء، الماء، ولكن الجرذ حافظ على نحوله واصفراره وذبوله، استشار النطاسيين والخبراء، والمروضين، والمربين، ولكنهم أبدوا العجز عن فهم السبب، وأخيراً جاء البهلول فقال: أعطه لي يامولاي، وسترى

كيف أرده لك معافى في أسبوع.

أعطى الملك البهلول الجرذ، فأخذه وألقاه في كنيف مسوَّر، وتركه ومضى. عاد إليه بعد يومين ليجده وقد ترعرع وسمن، وأخذ يأكل مما حوله. تركه يومين آخرين إلى أن استعاد نشاطه الكامل وعافيته، التقطه بملقط ومضى به إلى الملك الذي دهش حين رآه وقد استعاد عافيته ونشاطه، فسأله:

ـ ولكن كيف؟

نظر وحيد بك إلى فياض الموثق أمامه، وقال: مولاي، الجرذان خلقت للكنيف والمزابل، لا للقصور والفستق واللوز. أنت حرمته جوه وحياته ونعمته حين حملته إلى قصرك، وأنا أعدت إليه حياته حين أعدته إلى الكنيف.

رمى وحيد بك فياض بكلمة الكنيف من تحت حاجبيه الثقيلين المنحدرين على عينيه، وتابع حكمته: عندئذٍ عرف الملك، وإنْ متأخراً، أن الجرذان خلقت للكنيف لا للقصور، فإذا ماأجبرتها على القصور، عضّتك من كفك وهربت إلى قصرها في الكنيف. أفهمت يافاإياد؟

قال اسم الأخير ساخراً، ولم يستطع فياض الموثق، متورم القدمين، إثر فلقة الأمس، مبتلّ الثياب بعد سطول الماء القذر المسكوبة عليه إلا أن يصمت.

(١٩)

كانت المرة الأولى التي يراها دون حجاب، فاندهش، لم تكن رومية، بل لم تكن فرنجية، راقب عينيها السوداوين المغطاتين بجفنين اختفيا تحت الحاجبين المنتوفين المعاد رسمهما بالقلم، وتساءل: ياإلهي! إنها ليست رومية، المرأة تركية، ولكنها أميرة ومن الأسرة الإمبراطورية، فكيف لاتكون رومية؟ كانت قد نزعت حجابها، وأرخت شعرها الفحمي الطويل.

وقالت تجيب عن سؤال مجامل عن حياتها في صور: أف. هؤلاء البرابرة تفوح منهم دائماً روائح الحنظل والبهار، لايعرفون الحمام، لايعرفون العطور، لا يعرفون الغناء. ياإلهي! كيف استطاعوا الوصول إلى هذه البلاد؟

أنصت أسامة بهدوء يتساءل: أترى مايسمع أفكارها، أم أفكار هذا المسترخي جانباً بجسمه الضخم المتكيء بكوعه على وسادة مثنية تاركاً لجسمه الراحة الكاملة، يشرب النبيذ وينصت في احترام.

عرف أندرونيكوس أخيراً أن القلعة ليست لأسامة، فمنذ وفاة مرشد أبيه ضايقه عمه سلطان، ضايقه يريد رحيله، فالقلعة صغيرة، ولا تتسع

لأميرين، وابن سلطان أحق بالإمارة من أسامة. ضايقه حتى اضطره إلى الرحيل والبحث عن مستقبل بعيد عن شيزر وقلعتها.

لاحظ أندرونيكوس الجفوة المهذبة لدى سلطان قبل أن يعود أسامة من رحلته إلى ديار بكر كما أخبروه، ومن مصر البعيدة كما عرف فيما بعد، فحرج للورطة التي أورط أسامة ونفسه فيها، ولكنَّ أسامة مالبث أن وصل، واختفى سلطان. بعد عدة أيام من وصول أسامة قال أندرونيكوس على استحياء: ألا نكاتب عماد الدين؟

وكأن أسامة لم يكن ينتظر إلا أن يسمع هذا السؤال حتى تنتعش الذكريات أمامه تتلوّى قال: عماد الدين..، تنهد: أحببته كثيراً، كان فيه كل ماأحب، وكل ما أتمنى. القائد العسكري الموهوب، والجند الكثير، والرغبة في صنع ملك.

تنهد.. ونظر إلى الليل الطويل البعيد الحاطّ على سهول الروج ومستنقعات الغاب، ولهنيهة رأى الخنازير البرية والجواميس والنمور تسعى بين القصب المنتصب بين الوحل وبين الماء، ولكن ثيودورا تحركت برقة تصب لأندرونيكوس، ولنفسها، فانتبه أسامة. نظر إليهما يشربان بهدوء. وفكر: يالإلهي ما أثقل الديون! كان يتمنى لو لم يصغ لعمه سلطان، وظلّ في مصر يتشاغل عن الرسالة ومرسلها وفحواها، ولكن، الرجل أنقذه، والدائن يطلب دينه، والدين يستحق الوفاء، ولكن، على أية حال كانت مصر قد تحولت إلى عبء، وكبل، وعذاب، خلفاء يموتون، خلفاء يقتلون، وزراء يتآمرون، ووزراء يقتلون، وجيوش وزراء تدخل القاهرة فاتحة، وجيوش وزراء تنسحب هاربة، المؤامرات، الوسخ، المؤامرات.. يالإلهي! إلام وصلت مصر؟!

كانت الرسالة جارحة: أنت في مصر تنعم بالرخاء والرفاهية، ونحن

نعاني الجهاد ضد الفرنج، ثم لاتكتفي بهذا، فترسل إلينا بضيفك الرومي يطلب دينه، ومانستطيع رفضه، فأنت أخيراً ابن أخينا، تعال ولو متنكراً، تعال ولو هارباً، فأنقذنا من هذا الرومي. لو عرف الإمبراطور بوجوده لدينا لهاجمنا، ومانستطيع له دفعاً، أسامة. عمك يطلب إليك: تعال. وخذ ضيفك.

وكرر أندرونيكوس: فلنكاتب عماد الدين..

وصمت أسامة، فبمَ يجيبه؟ هل يحدثه عن الجفوة بينهما منذ تخلى عنه، ومضى إلى معين الدين في دمشق؟ هل يحدثه عن الجفوة بينهما منذ أرسل يستدعيه إليه فمضى إلى مصر يظن السعادة هناك، ومايعرف المستنقع الذي فيه؟ ورنَّ السؤال ثانية: لم لانكاتب عماد الدين. ونظر إلى الرومي، ولكنه كان يشرب بهدوء يحدق في الليل البعيد، ولهنيهة تساءل: مالذي يفكر فيه هذا الرجل الآن؟ كان بإمكانه أن يرسله إلى معين الدين، ولكن أعداءه هناك لو عرفوا أنه ينتمي إليه لفعلوا المستحيل لتسليمه إلى الفرنجة، وأندرونيكوس لايعرف عن أعدائه في دمشق.

كان بإمكانه أن يرسله إلى عماد الدين، ولكن عماد الدين لايعرف أنه في الشام فلقد جاء متنكراً، ولو عرف لما سكت عنه، فلقد كاتبه طويلاً يطلب عودته. لِمَ لانكاتب عماد الدين؟ ولكن، ياإلهي! ماذا أقول لعماد الدين؟

تنفَّس سلطان الصعداء حين وصل أسامة، فها هو الحمل ينزل عن ظهره. تنفس الصعداء، وأبدى الفرح والترحاب. وقامت الأعياد في شيزر.. و.. صحب أسامة أندرونيكوس في رحلات صيد، ولكن في إمارة عمه سلطان، سابقه على خيول أصيلة لاتُسبَق، ولكن لعمه سلطان، اصطاد بصقور وبزاة وشواهين نادرة، ولكن لعمه سلطان، ويوماً إثر يوم طفت الأحزان القديمة التي غلفتها لباقة أسرة اعتادت أخلاق الإمارة

منذ عدة أجيال، ويوماً إثر يوم أخذ أسامة يحسُّ البرود والجفوة رغم أن القبلات والتحيات ازدادت، وكثرت، وتتالت لسبب ولغير سبب.

وأدرك أسامة أن القلعة تضيق به ثانية، فاصطحب ضيفه، ومضى إلى بيته الكبير في الضيعة التي تركها له أبوه قبل أن يموت.

انتبه أندرونيكوس إلى شرود ضيفه، فعزاه إلى سؤاله عن عماد الدين، وماكان يريد إحراجه قدر ماكان يحاول مشاركته البحث عن حل. صبَّ كأساً كبيراً آخر، وهرب إلى ماكانت ثيودورا قد بدأته، فقال وكأنما يكلم نفسه: هذا السؤال الملح الذي سألته ثيودورا وسأله أندرونيكوس من قبل، سأله سوتيروس، وسألته لنفسي كثيراً وطويلاً.. كيف، ولدينا العلم ولدينا المال، ولدينا الكنائس العظيمة والقصور الفخمة، والمكتبات الكبيرة والعقول الجبارة، كيف.. وهؤلاء البرابرة ينقصهم كل شيء؟!

وقال أسامة بقلب حزين: ولكن لديهم شيئاً لاتملكونه، إنه شهوة الحياة، والقدرة على بذلها من أجل الحياة ــ تردد قليلاً ــ أعتقد أن الأمم الكهلة..

ــ ماذا؟ سأل أندرونيكوس يقاطعه مندهشاً: هل قلت الأمم الكهلة؟

ــ نعم.. الأمم الكهلة ــ قال أسامة يهز رأسه في حزن ــ الأمم التي فقدت شباب المغامرة والدهشة أمام الحياة. كل شيء موفور، فالقلب أدرك كل اللذائذ، والعقل أجاب عن كل الأسئلة، وماذا بعد؟ ماذا بعد إلا الدوران في طاحون لذائذ لم تعد يافعة، والإجابة على أسئلة لم تعد مدهشة؟ أما هم.. أولئك الأطفال لم ينهكوا اللذات، ولم يجيبوا السؤالات، فشهوتهم للحياة أقوى.

وصرخت ثيودورا: ولكنهم يضحون بها بسهولة.

ــ لأن الحياة التي يطلبونها أثمن مما لديهم، أما الأمم الكهلة، فما يطلبون لايساوي مايفقدون.

ذعر أندرونيكوس للجواب وما كان يتوقعه، وذعر للحزن على وجه أسامة الذي كبر كثيراً منذ فارقه في أنطاكية وما كان يتوقعه. من بعيد جاء صياح ديك مبكر، أصاخوا إليه يهربون من متابعة الحوار الحرج، ولكن صوت حسو أندرونيكوس النبيذ عكَّر صفاء الصياح الذي مالبث أن أجاب عليه عواء ابن آوى بعيد، بعيد.

قالت ثيودورا وهي ترفع غيمة الشعر الأسود وتجمعه خلف رأسها: أحسٌ بالنعاس، وأظن أني سأستأذن.

فقال أندرونيكوس وهو يضع كأسه الفارغ أمامه: أنت على حق، يجب أن نستيقظ مبكرين، فأمامنا رحلة طويلة منذ الغد.

كان أندرونيكوس قد لاحظ أن البيت غير آمن. صحيح أنه كبير، وأن جدرانه عالية، وأن بوابته حديدية، وأنه يبدو قوياً، ولكنه قوي ربما أمام هجمة لصوص مذعورين، أمَّا لو قرَّر جندٌ ما مهاجمته، فلن يصمد، وقال لأسامة: أمر مخجل أن يأسرني بعض التركمان ولاتستطيع حمايتي، وخجل أن يضيف، ولكن أسامة فهم: أو تهاجمهم حملة فرنجية أو بينزنطية فيؤخذ أسامة مع ضيفه.

كان أسامة يتمنى أن يصحبهما إلى عماد الدين، ولكن أسئلتهما الملحَّة عن البرابرة الفرنج وانتصارهم على بيزنطة أيقظت في أسامة أسئلة ماكان يريد لها أن تُسألَ، فلقد تذكر، وخجل أن يصرِّح بذكرياته أمام هذين الروميين.. تذكر.. تذكر.

كان الحصان يخبُّ بطيئاً، فالتفت إلى الوراء، كان غبار بعيد يرتفع

شيئاً فشيئاً ليشكل غيمة هشَّةً ضحلةً، كانت قطرات العرق تصطادها، ثم تنحدر بها إلى موق العين، فتلهبه، كان يريد مسح قطرات العرق، ولكن المناديل كلها اتسخت، وكان ألم في العجان يضايقه، فأن تركب حصانك لشهور متتالية لاتنزل عن صهوته إلا لقضاء حاجة أو لساعات النوم ليس بالشيء الممتع.

التفت إلى جاره، كان ينظر إلى الأمام بثبات، وكانت عيناه الضيقتان ولحيته الخفيفة مكربة، ولكنه فكر: قائد جيد. صحيح أن فيه قسوة، ولكنه قائد جيد، كان عماد الدين الصديق القديم قد سبقهم إلى الموصل، وطلب من الغسياني صلاح الدين قائده أن يطهِّر حصون الخابور حيث سيلتقيان في نصيبين، وكان على أسامة قائد الفرسان أن يكون مع الغسياني.

نظر إليه ثانية بجانب عينه، كان الوجه يهتز ببطء مع اهتزاز الحصان، وكانت العينان نصف مغمضمتين، والوجه جامداً، والقبضة مشدودة على الزمام، ولهنيهة تساءل: أتراه نائماً؟ ولكنه لم يأبه للسؤال، ولم يأبه للجواب، فقد ظل الجواد يخبُّ، وظل الوجه التركماني يهتزُّ مع خبب الجواد.

كان مقصدهما حصن الصور، وكان يجب أن يصلا إليه مبكرين، فالبادية مكربة، والتعب والإرهاق والغبار قد أخذ من الرجال كل مأخذ، فهم لم يمروا بماء منذ تركوا الفرات، والرجال بحاجة إلى راحة وماء واغتسال قبل أن يبدأوا الحصار.

أرخى زمام الحصان قليلاً، واستسلم إلى هدهدته، وأخذت الخوذ والقنطاريات ورماح الفرسان المتقدمين تغيم ضائعة في غيمة الغبار الهشَّة حين سمع الغسياني يتمتم، ولم يعبأ أسامة، فالغسياني متعب كأسامة والرجال، ولكن التمتمة علَتْ: أأنت نائم ياأمير أسامة؟ التفت إليه، ولم

يرد، فتابع الآخر: أتظنهم يصمدون أمامنا طويلاً؟ وفهم أسامة أنه يعني الأرتقي حاكم الصور، وتابع الآخر: يجب ألا يصمدوا ياأمير أسامة، فالرجال متعبون.

همهم أسامة: فلِمَ لانريحهم قليلاً؟

ــ إن ارتاحوا تفرقوا. ألا تعرف التركمان؟

ــ والعمل؟ أنت تقول إنهم متعبون.

ــ لابد من غنيمة بين الحين والآخر، غنيمة تلهيهم عن تعبهم، غنيمة تتركهم معلقين إلى أمل الغنيمة التالية.

ونظر أسامة إليه مباشرة. قال وهو يهز برأسه مؤكداً: وأنت؟

ــ أنا؟ قال الغسياني دهشاً ــ أنا واحد منهم.. صحيح أن حصتي أكبر، ولكن، لابد من غنيمة، سبايا، حصن، بعض الأموال.. أنت تعرف ــ فجأة هاجمه ــ ماالذي يعلقك بالحياة ياأسامة؟

ــ أنا؟

ــ نعم أنت. شيزر وانتزعها عمك منك.. وولاية من الأتابك لن تنال، وإقطاعاً لن تقطع، فغنيمة عماد الدين....

ــ لا.. لاتغتب الأتابك عماد الدين ــ قال بحدة ــ.

ــ نحن وحدنا ــ قال الغسياني هازئاً ــ وأنت أكبر من أن تشي بي، وأنا لامصلحة لي في الوشاية بك.

ــ فلم لا نترك هذا الأمر؟

ــ يحيِّرني عماد الدين ياأسامة، أنا أعرف أن لكل فارس غنيمة، ماغنيمة هذا الرجل؟

ـ الوحدة!

ـ لتكون المملكة أكبر؟

ـ بل ليكون خصم الفرنج أكبر!

ـ هاه.

صاح فارس يعدو، فانفتحت العيون وتيقظ الوجه، وانتبه أسامة. وصل الفارس أمام الغسياني: الخابور ياسيدي.. الخابور..

لم يكن الفرسان يحتاجون إلى أمر، فالخيول الكسولة تيقظت فجأة، والفرسان نصف النائمين تنبهوا، وانطلق الجميع إلى النهر.

كان منظر الفرسان ينزلون إلى النهر بخيولهم، تراشقهم بالمياه، تأوههم وهم يسكبون الماء على خيولهم وعلى أجسادهم المرهقة، روائح العرق البشري والحيواني، متعة الماء بعد جفاف البادية والرحلة الطويلة، كان كل شيء مثيراً لنشوة البدوي العتيق و.. لكن الحصن قريب والغارة ممكنة! انسحب أسامة مع فرسانه إلى أعلى التل يراقبون، ولكن الحصن الأبيض الأبراج والأسوار كان صامتاً، صامتاً تماماً، وكأنه لم يعرف بقدوم عساكر عماد الدين، أو عرفوا ولم يهتموا، فهم واثقون من مناعة حصنهم.

الحصار، الحصار الطويل، السهام الطائرة، والمنجنيقات الثقيلة ولاحجارة في المكان فاستعيض عنها بالأشجار تقطع عن ضفاف الخابور ويرمى بجذوعها الملتهبة. النقابون تحت الدبابات والزيت المغلي والرصاص الذائب والعودة المبهورة.. ولكن، وتمتم الغسياني: طال هذا الحصار دون فائدة ياأمير أسامة، وكما سئمت ـ وأشار إلى الرجال ـ فلا بد أنهم سئموا. وقال أسامة:

ـ مالعمل.. نحن فرسان وهم يرفضون الخروج.. والحصن كما ترى منيع والنقابون كما ترى خسروا عشر دبابات، ولم يصلوا إلى برج واحد ينقبونه؟!

صمت، وصمت، فالحوار تكرر، والأحزان الصغيرة تكررت حتى السأم، نظر أسامة إلى وجوه الرجال المرهقة، كان يعرف أية أفكار تدور خلف هذه اللحى السود والخوذ المغطاة بالغبار، كان يعرف أية أحلام بصبايا صغيرات يُنتزَعن من أمهاتهن بحق السيف، وكان يعرف أية أحلام بحلِيٍّ وجواهرَ وأموالٍ تنتزع حلالاً بحق السيف، وفكر: ولكنهم مسلمون ـ وجاءه جواب الغسياني لسؤال سبق: فلِمَ يقاومون؟

كان أكثر مايضايقهم في ذلك الحصار هم الجرخيون، إذ لم يكن في سلاحهم شيء من الفروسية، أو البراعة، ولكنه يصلح لرد المهاجمين، فكان يكفي أن تضع السهام على الدولاب المشدود، وتنتظر قدوم الأعداء، فإذا ماقدموا وجهته إليهم ليبدأ الدولاب بإطلاق السهام المتتابعة التي لابد أن تصيب وتقتل، وصار الفرسان والمشاة يدركون خطرها، فما إن يروا موجة السهام المتتابعة حتى يتفرقوا، فالسهم الذي لم يصبك لايعني أن أمامك فرصة حتى يهيِّيء النبال قوسه لأن السهم التالي سيصيبك حتماً، وطال الحصار، وأخذ الرجال يلعبون النرد، ويدعِّمون الخيام، ويشوون اللحم. وبدا من الواضح أن الحصار سيطول ليصبح حصار الجوع حين وصل رسول عماد الدين: لقد وصل إلى نصيبين، فلم يلقَ الرجال هناك وهو في طريقه إليهم، وخجل الغسياني. أمر الرجال بالاستعداد، والنقابين بتهيئة الدبابات والهجوم على الحصن، ولكن الزيت المغلي أحرق جلود ثيران الدبابات والجروخ انقضت على النقابين، وتفرقوا ثانية.

هاجمت المجانيق الحصن، رمت بأشجارها، بنيرانها، ولكن الحصن

امتصَّ الهجوم. وتمتم أسامة: هذا الأرتقي العنيد.

حين سمع عماد الدين تقرير الغسياني هزَّ رأسه بهدوء. لابأس سنملك الحصن غداً. أشار إلى أسامة، وانطلقا بعيداً. سأله عن الحصن، عن المقاتلين، عن النقابين، عن الدبابات، وأخيراً وصلا تلاًّ رملياً صغيراً يشرف على الحصن. قال: اجلس، وجلس. تغير الحديث فجأة، فلقد نسي عماد الدين الحصن، فأخذ يحدثه عن الفرنجة وشجاعتهم وقتالهم الشرس، ولكنه الآن في سبيله إلى ضمِّ الجزيرة كلها إلى الموصل وحلب وحماة في إمارة واحدة، سينطلق منها إلى الرها ليضمها إلى إمارته، وعندئذ سيكون لديه مملكة، مملكة حقيقية كبيرة، ذات موارد يستطيع منها توجيه هجومه الكبير إلى الساحل، وسيبتدىء بأنطاكية. يجب أن يكون لنا منفذ إلى البحر. أليس كذلك ياأمير أسامة؟

ووجد أسامة نفسه ينجرف في الحماسة مع صديقه القديم. صحيح. لو استرجعنا الرها، وضممناها إلى حلب والموصل وحماة، ثم استعدنا أنطاكية، ياإلهي! هل لدى الفرنجة قوة موحدة كهذه؟

تحدثا، ووازنا، وثرثرا، وابتهجا، ورأى أسامة الحلم القديم ينتصب أمامه يافعاً، دولة واحدة قوية تواجه الفرنج، ولكن، جاء الصوت قوياً: مولاي.. مولاي.

انتصب عماد الدين، وركض أسامة نحو الصوت: هنالك جيش يتقدم نحو الحصن.

وصرخ عماد الدين: أسرعوا باستكشافه، ولكن الغسياني اقترب مهموماً، فقدوم عماد الدين وانفراده بأسامة شهادة ضده.

حشرج: إنهم رجال الأرتقي يامولاي.

ـ أوصلت النجدات؟

ـ يبدو الأمر كذلك ـ ثم تابع في تفارح ـ وربما كان الأمر أفضل، فلعلهم يتجرأون، ويخرجون من وكرهم.

وكان ماتمناه الغسياني، فلم تشرق شمس اليوم التالي حتى فتحت أبواب الحصن، وخرج الفرسان والنبالة والمشاة، ومن مرصده العالي راقب أسامة وعماد الدين المشهد الرائع للجيشين المتقابلين، الرماح المنتصبة، والخوذ اللَّمَّاعة، والخيول المزردة، وحمحمة الخيل، وتهيُّج الفرسان، وتوتر النبالة، والأصوات البعيدة البعيدة التي ارتقت إليهم فوق التل، قال عماد الدين: هيا، وانطلق بحصانه منحدراً يتبعه أسامة. تنصَّف عماد الدين الجيش يراقب، وأخذ أسامة يتجول بين فرسانه حين رأى أحد المشاة يركض هارباً، تابعه بنظره مندهشاً ولكنه يعدو باتجاه مشاة الأرتقي. سمع صراخ الجند الغاضب، والتفت ليرى الغسياني ينظر إلى المشهد حانقاً مذعوراً، ثم يضرب حصانه بفخذه، فينطلق إلى صف المشاة حيث هرب الرجل، وسمع الهمسات: جاسوس. خائن. مدسوس. نظر الغسياني إلى جار الهارب وقال لحرسه الذي يتبعه: خذوه. وصرخ الرجل مذعوراً: ولكن لماذا؟ سأله بغضب: من هذا الذي انهزم هارباً إلى جيش الأرتقي؟ صرخ المأخوذ مذعوراً: والله ماأعرفه يامولاي! نظر إليه بعينيه الضيقتين غير مصدق، ثم همس: وسِّطوه. وصرخ الرجل رامياً نفسه تحت أقدام الحصان: مولاي أقسم بالله إني لم أعرفه، ثم ماالذنب الذي أذنبته؟ ولكنه كرر: وسِّطوه!

لم يحتمل أسامة المشهد، فاقترب من الغسياني وهمس: اسمع ياأمير صلاح الدين، ربما كان الرجل بريئاً - ولكنه جاره..- وهل يعرف كل مقاتل جاره؟ يجب أن يوسِّطوه.. اسمع، تأمر باعتقاله، وتحقق في الأمر،

فإن كان يعرفه أو يمتُّ إليه بصلة ضربت رقبته.

هدأ الغسياني قليلاً، وكأنه مال إلى فكرة أسامة حين سمع من الجند صرخة ضائعة: ماهذه القسوة، يهرب واحد من الجند، فيؤخذ جاره إلى القتل؟ التفت الغسياني إلى كتلة الجند العمياء يريد معرفة القائل، ولكن الكتلة ماجت مُضيِّعةً كل مَعْلَمٍ، أحدَّ النظر ولكن دون فائدة. التفت إلى قائد حرسه، وهمس في صرامة: وسِّطوه، جرَّ الحرس الرجل جانباً، وشدوه أمام عيون الجند إلى أوتاد أربعة، جاء الجلاَّد بسيفه الكبير وضرب بطنه، فاندلقت الأمعاء البيض والمعدة الحمراء، والبراز الأصفر لتمتزج جميعاً في صرخة الرجل الذي لم يكن له من ذنب إلا أنه كان جاراً للهارب.

أمر عماد الدين بالهجوم، والتقت الفرسان، وانهزم رجال الحصن، ولم تستطع الأبواب ابتلاعهم، ففروا إلى الخابور، إلى البادية، ولم يبق أمام الحصن إلا أن يعود إلى الحصار ثانية، ولكن منظر الرجل الموسَّط بأمعائه المندلقة ومعدته المبقورة وصراخه الطويل الطويل يطلب موتاً كان عليه أن ينتظر طويلاً طويلاً حتى يحلَّ عليه ببركته لم يفارق أسامة.

نظر أسامة إلى مجلس أندرونيكوس وثيودورا الفارغ وكاد يقول: ولكن شهوة الحياة اللعينة هذه.. ياإلهي! كم حَوَتْ من شهوةِ موت وقسوة وانتهاك لحياة الآخر! ثم تراجع ثانية وتساءل: ولكن أتراها شهوة الحياة نفسها التي ترخص الموت، هي مايجعل موت الآخر أشد رخصاً؟ أغصَّهُ السؤال، فقام: ولكن مانهاية تقدم الإنسان إذن إن دمرت شهوة الموت لديه كل حياة؟

مضى إلى النوم فأمامهما في الغد رحلة طويلة، ولكنه ماكاد يندسُّ في الفراش حتى عاودته ذكرى الحصن، ولهنيهة تساءل في ضيق يحاول طرد

الذكرى: ولكن.. مالذي يذكرني بهذا الحصن الصغير الآن وقد فتحنا عشرات الحصون والمدن؟ ولم يُفِدْهُ هذا الاستنكار، فلقد هاجمته ثانية صورة الجيش المحاصر وعماد الدين يقترب من السور، ويصرخ غاضباً وهو يلعن الجرخيين، هؤلاء الذين جرحوا من جنده حتى الآن العشرات. – أنتم أيها الجرخيون الملاعين، فعلتم مافعلتم، ولم أكن موجوداً.. أما الآن فأنا هنا، وأنا أقسم بأرواح أجدادي لئن قتلتم واحداً من جندي منذ هذه اللحظة لأقطعن أيديكم جميعاً. أمر المنادي أن يطوف حول الحصن، وينادي بهذا النداء ليسمعه الجرخيون ولا عذر لهم بعد ذلك.

طاف المنادي وتأمل أسامة المشهد ساخراً، يتساءل وماذا بعد؟ وسقط الحصن أخيراً، وبينما كان الفرسان والمقاتلون يتدفقون إلى الحصن أصاب سهم واحداً من جند عماد الدين، فسقط في الخندق و.. مات، رأى أسامة الرجل يسقط، وصمت، ولكن عماد الدين رآه أيضاً، وحين استولوا على الحصن واستسلم الجميع، وجيء بالمقاتلين الأسرى، وبينهم الجرخيون. قال عماد الدين: أقسمت ونقضتم يميني. اقطعوا أيديهم. تملَّصَ الجرخيون، توسَّلوا، وعدوا بالعمل مع عماد الدين، ولكن الوجه التركماني أزرق العينين الضيقين خفيف اللحية لم يتأثر قال: اقطعوا أيديهم.

تساقطت الأيدي، وانتشرت الدماء، وفاحت رائحة الزيت المغلي يسكب على الأيدي حتى لاتنزف حتى الموت، بينما كانت الغنائم تجمع أكواماً أمام عماد الدين.

تقلب أسامة في مرقده أرقاً وتساءل: أكان يجب أن يكون ثمن الملك الموحد الدم الكثير؟! ألم يكن هنالك من طريقة لجمع الوحدة والعدل؟ ألم يكن هنالك من طريقة لتثبيت الملك وحفظ الدم؟ وفاجأه صوت

أندرونيكوس يقول: هؤلاء الفرنجة كيف استطاعوا النصر علينا ولدينا العلم.. ولدينا المال، ولدينا المساجد العظيمة والقصور الفخمة؟!، وفجأة انتصب مذعوراً، فلقد انتبه إلى أن أندرونيكوس قال: المساجد العظيمة، ولم يقل الكنائس العظيمة.

وفي الصباح وحين انتظمت قافلة أسامة وأندرونيكوس للمضي إلى عماد الدين وصل رسول الأمير سلطان متهيجاً مرعوباً ليخبر بأن الأتابك عماد الدين قد قتل، قتله غلامه غيلةً تحت أقدام قلعة جعبر.

عرف أسامة أن فوضى جديدة في الطريق الآن، وأن السفر مغامرة غير مأمونة. همس لأندرونيكوس، وهمس أندرونيكوس لثيودورا، وعاد الجميع بخيولهم إلى الدار، وقال أسامة: ننتظر قليلاً إلى أن تنقشع الغيمة ونعرف من يكون الأمير الجديد..

(٣٠)

يومان طويلان انقضيا، يومان من فلقات وسطول ماء قذر تسكب على الجسد، يومان في كهف لا يرى النور، يومان من بقٍّ وجرذان وخفافيش تعبث في أبهاء القلعة العتيقة، العتيقة حتى صلاح الدين ونور الدين ومعين الدين، وفيما بعد سيكتب فياض في دفتره جريدي الورق: أفلم يبقَ من قلاعهم إذن إلا السجون والأقبية والجرذان وخفافيش الليل؟

يومان انتظر فيهما ماتيلد الحنون، فقد كان يعتمد على حنانها وعطفها وعدم تخليها عنه، ولكنه بعد يومي انتظار فهم أن غضب روجيه ومفاجأته بمشاركته إياد في مغامرة الفحامة كانت أكبر من التسامح، وهزَّ رأسه في مرارة، لا بد أنه منعها ــ ثم هز رأسه في حزن ــ ولا بد أنها رضخت، كان يرى سيل الزوار اليومي، ويرى السفرطاسات المحملة بأطايب الطعام والشراب والسكائر تُحْمَلُ إلى السجناء الآخرين، ولايُحَملُ إليه إلا صحنٌ نحاسي كبير يصبُّ فيه ملء ملعقة كبيرة من مادة هلامية يسمونها طعاماً.

كان هذا اكتشافه الأول لوحدته في الكون. لا أم، ولا أب، فلقد جحدهما، ولا أخ ولا أخت فلقد حرمهما في مدينة غريبة، الصديق الوحيد

فيها سجين، ولكن ياإلهي! فياض، ماذا صنعت؟ ها أنت تعود إلى شيزر في دمشق، وكل مافعلت هو أنك استبدلت قلعة كنت سيدها بقلعة أنت أرنب مذعور في سراديبها!

يسمع خطواتهم، ويسمع صوت سطولهم وسفرطاساتهم، ويشمُّ ريح طعامهم، ويعرف أنه المهجور المنبوذ.

يفتح السَّجَّان باب الزنزانة، فيضيء مستطيل رمادي يملؤه شبح ضخم يحمل سطلاً ينادي: فياض الشيزري. ويهزُّ فياض رأسه من مرقده البعيد: نعم.

ــ قُمْ.. لتأخذ طعامك.

يحمل صحنه النحاسي ليصبَّ له السائل الهلامي العجيب، يستدير جارّاً رجليه ليعود إلى مجلسه الأول حين يهمس السجان: اسمع.. أتعرف إياد الجوقدار؟

يلتفت فياض إليه في خوف. ماذا يريد؟ أتراه مدسوساً عليه ليعرف منه مالم يعرفه المحقق الذي لم يكن يحتاج إلى جهد كبير حتى يعرف كل شيء إلا الشيء الوحيد الذي أراد معرفته ولم يستطع فياض بذله، فقد كان يريد معرفة صلة الشهبندر بالقضية، ولكن فياض كان أمام هذه المعرفة صفراً لايفيد.

ــ هه. لاتخف. ليس لدي وقت كبير. أنت فياض الشيزري. أليس كذلك..؟

ولم يجد فياض مبرراً للنفي، فالرجل ناداه منذ البدء بهذا الاسم فهزَّ رأسه: صحيح.

ــ وهذا ماأرسله إليك إياد، خذ.

كان يخفي تحت ثيابه رغيفاً كبيراً محشواً باللحم، وعلبة سجائر، وتابع السجان: خُذْ يجب أن تشكر ربك، فلك صديقٌ ثريٌّ.

تناول فياض الرغيف والسجائر بلهفة، ولكن سؤالاً بارداً تردد في الفم قبل أن ينطقه: أهو من أرسل ــ وأشار إلى مابيديه ــ هذا؟

ــ طبعاً.. أم تظن أمك من أرسلها. اشكرِ الله يارجل. اشكره أن لك في السجن صديقاً ثرياً.

ــ ولكن.. أيدخلون إليه الطعام؟

ــ هوهوهوه.. بالطبع، أهله لم يتخلوا عنه. السفرطاسات لم تتوقف، والطعام والحلوى والسكائر لم تنقطع.

ــ ولكن، واختنق حلق فياض بالبكاء ــ ولكن لماذا؟

ــ له أهل وأقارب وأصدقاء. أما أنت فكما حدثوني. مقطوع.

جرَّ قدميه المكبلتين عائداً إلى ركنه القديم.. وضع الطعام والسكائر والصحن النحاسي إلى جانبه.. مقطوع.

أسبوعان طويلان انقضيا، أسبوعان عرف فياض فيهما الطعم الحقيقي للفلقات، والرفسات، والسباحة في ماء الزنزانة القذر، أسبوعان سيكتب عنهما فيما بعد وعلى دفتره الجريدي: ورغم السجون الكثيرة التي دخلتها فيما بعد، ورغم العذاب الأقسى الذي لقيت فيما بعد، ورغم العزلة الأكثر مرارة التي ذقت فيما بعد، فتجربة السجن الأولى ستظل العالقة في القلب والروح بصمة أولى لاتنسلخ.

انتشر خبر القبض عليهما في المدينة، وعرفت المدينة للمرة الأولى أن من قام بمغامرة الفحامة لم يكونا سياسيين محترفين، ولا مأجورين

لتعطيل التوقيع على المعاهدة، ولا عملاء إنكليز، بل كانا مجرد فتيين جامعيين لا ارتباط حزبياً لهما، وبهدوء أخذت الصورة تتغير، وأخذت الغشاوة تنكشف، والمضحك ان مستنقع النوم الذي فشلا في هزةٍ بمغامرتهما المتفجرة، هزّاه بسجنهما، فأخذت الصحف تتبارى في الدفاع عنهما، في التغني بهذين الشابين الحالمين بمجد جديد، واستقلال جديد لوطنهما، وأخذت الصحف تقتبس من المقالين اليتيمين، اللذين نشراهما قبل اعتقالهما، محللةً ومفسرةً خيبة الأمل التي أصيب بها الجيل الجديد، ضيق الصدر الذي حلَّ بالجميع في انتظار المعاهدة ولا معاهدة. وأخذت الهواتف والرسل في الضغط على وزارة الداخلية، وعلى قصر المستشار، ولم يكن الشهبندر الوحيد في اتصالاته، بل تحرك معه الكتلويون والجبهويون، وعصبة العمل القومي، وكل من وجد أنَّ الصمت في وقت كهذا خسارة، وأخذ الجميع يدَّعون الدفاع عن هذين الفتيين الشريفين النبيلين لم يحركهما إلا الرغبة في الاستقلال والتحرير.

أما فياض الذي لم يسمع بشيء مما يدور في الصحف خارج القلعة، فقد فوجيء حزيناً بانقطاع رغيف اللحم والسكائر، وحين سأل السجان هزَّ كتفيه في حيرة، ومضى، ولكنه حين أمسك به في اليوم التالي، وسأله ملحاً أجاب:

ــ لقد خرج.

ــ ماذا..؟

ــ أطلقوا سراحه.

لم يصدق فياض ماسمع، وحين حاول أن يقنع نفسه بأنها حيلة من المحققين لإضعافه لم يقتنع، ولكن اليوم التالي جاء ومعه سفرطاس محمل بالطعام، ورسالة من إياد يطلب إليه أن يصمد، فإطلاق سراحه قريب،

وعندئذٍ.. أيقن فعلاً أنه خرج....، خرج.

بعد عشرة سفرطاسات وعشر علب سجائر فتح السجان الباب في غير موعد السفرطاسات والسكائر، فاندهش فياض، ولكن السجان قال: مبروك. إطلاق سراح.

وجد إياد ينتظره في غرفة مدير السجن، وكان يريد ماتيلد، ولكنها لم تكن هناك.

أعطاه بذلة جديدة، وحين صدمه نور الحرية المبهر. قال: ستمضي معي إلى البيت، ولما لم يكن أمامه من خيار آخر، فقد مضى معه إلى البيت.

وقال إياد حائراً: عجيب ماتحدثني عنه، أوقد عذبوك كل هذا العذاب؟

وهزَّ فياض الذي اغتسل، وحلق لحيته، وشرب قهوته إلى جانب البحرة في بيت إياد الكبير الخالي إلا منه ومن خادم عجوز رأسه في حزن: كأنهم لم يعذبوك! وبسرعة خطابية قال إياد: أبداً.. حققوا معي، فأدليت بما أعرف. أفهمتهم أني مجاهد يسعى لتحرير وطنه وأني على استعداد لتحمُّلِ كل النتائج فختموا التحقيق، وتركوني.

وحاول أن يضحك على طريقته المرجِّعة، ولكن ضحكته بدت لفياض مبتسرة. ـــ على أية حال، لقد صرنا الآن مشهورين، بطلين وطنيين.

ولكن فياض ألحَّ: مالم أفهمه.. لِمَ عذبوني، ولم يعذبوك؟ ولِمَ أطلقوا سراحك، ولم يطلقوا سراحي..؟

وحار إياد قليلاً، ثم قال: لاأعرف ـــ وعاد إلى مزاحه ثانية ـــ ربما كانت توصية.

ــ توصية؟ ــ وضحك ضحكة باردة ــ ومن يوصي بتعذيبي؟

وألقى إياد قنبلته المغلفة بالمزاح: ربما روجيه. ربما أراد أن يلقنك درساً تعرف منه نهاية الدرب المقدم عليه.

وجاء الشهبندر، فهنأ، وحيا، وجاء خليل بك، فهنأ، وحيا. ودارت صينية الأفراح، وبدا كأن الشابين نسيا السجن في دوامة المهنئين الفرحين بوجود بطلين مثلهما في القنوات، وكان على فياض أن يذكر تلك الأيام كثيراً فيما بعد، حين تحدثه حسيبة عن زوار صياح، ومهنئي صياح، وصمت صياح الجريح، ولكن صمت فياض لم يكن له أن يستمر طويلاً، فلقد فاجأه إياد، وكان لايزال في البيجاما بقوله: هناك أجوتان يقود سيارة، ومعه سيدة فرنسية تريد لقاءك.

وانتفض فياض مذهولاً: سيدة فرنسية؟ رأيتها؟

ــ نعم.

ــ سمراء نحيلة؟

ــ نعم

وامتلأ القلب بالغبطة، فها هي تأتي وإن متأخرة، ولكن إياد تابع: ماتيلد.. أليس كذلك؟ وهز رأسه، وهو يغير ثيابه بسرعة فرحاً:

- بالطبع. ومن غير ماتيلد؟

ــ خمَّنتُ شيئاً كهذا. أتريد لقياها؟

وتوقف فياض حائراً، ثم انحط على السرير وقد أدركه حزن لم يعرف مصدره.

ــ كنت أنتظرها في السجن.

ولكن إياد ألحَّ في قسوة: أتريد لقياها؟

ـ كنت أنتظر رؤيتها حال خروجي من السجن.

وصرخ إياد في ملل: تسئمني.. أتريد لقياها؟

وانتصب فياض مهموماً: وكيف لاأريد لقياها.. إنها ماتيلد؟!

ـ حسن.. فغيِّر ثيابك، وسأجعلها تنتظرك في غرفة الضيوف.

ذلك الحوار الطويل الذي بدأ مع روجيه: إنه جميل أليس كذلك؟ ذلك الحوار الذي بدأ مع الجدي البري يقفز من صخرة إلى صخرة، ومن حطام عمود إلى حطام عمود حتى فاجأته يدا نجدت المعانقتان دون حب، ذلك الحوار الذي بدأ مع غليام لوبلان. هل سددنا الدين.. الـــ..دين..ين..ين.؟

ذلك الحوار الذي ربما بدأ قبل قرون وقرون مع غليام وأسامة، بل ربما أبكر من ذلك بكثير آنَ له أخيراً أن يصل إلى منعطفه الخاص.

فتح باب غرفة الضيوف، وشهقت، وغصَّ: ماتيلد، ماتيلد، اليد الحنون، والقلب العطوف، والرقة بلا حدود، ماتيلد النزق والركض بين صفصاف العاصي، ماتيلد الحكايات الساحرة التي عرف فيما بعد أنها لـــ(لافونتين)، ماتيلد الأغاني والعناقات الصغيرة، و..لم تستطع ماتيلد الصمود، فانفجرت بالبكاء وهي تندفع إلى حضنه: فإياد.. فإياد.. كيف استطعت فعل ذلك؟

اندفعت بجسدها النحيل الصغير لترتمي بين ذراعيه، ثم رفعت وجهها إليه وكأن العينين لم تكونا كافيتين، فرفعت أصابعها تتحسس وجهه تطمئن إلى أنه بين ذراعيها، وتمتمت: ياإلهي! إنه هو: فإياد طفلي الحبيب ـ وفجأة لم تستطع كتمان حنق عكفت على تربيته عامدة منذ

قبض عليه لتعاقب القلب الضعيف كما ستقول فيما بعد ـ يالهي! فإياد.. كيف استطعت فعل ذلك؟

وفوجىء فياض بالمنعطف قبل الأوان، فتمتم: مدام. أيمكن ألا نتحدث في الأمر، حدثيني عنك، كيف أنت؟

جذبها بسهولة، فاستسلمت. أجلسها على الكنبة الموزاييك التي ماتت زوجة عبد الكريم الجوقدار بينما كان في طريقه لحملها إلى بستان كفرسوسة، ولكنها لم تنتبه إلى أهمية الكنبة، ولم تنظر إلى الكتبية التي مازالت مملوءة بالزبادي الصينية النيلية النقش، والصحون الصينية السماوية، والوردية القائمة مسنودة إلى جدران الكتبية، والتي كانت آخر مافكر فيه عبد الكريم قبل أن يتلقى تحية الجنرال سراي الأخيرة. قالت تحاول عدم معاتبة فياض: كانت تجربة صعبة يافإياد. تجربة صعبة جداً. ماكنت أتخيل أن أمُرَّ بها، أما روجيه...

أحس فياض أن الحديث سينحرف ثانية إلى الحقل الخطر فأمسك بذراعها برقة: أراك نحلت قليلاً.

نظرت إليه في لهفة: وكأنك تهتم!

واندفع يرد التهمة: بالطبع أهتم، مدام. كوني عادلة! تعرفين كم أحبك!

الاندفاعة العاطفية ثانية: فإياد. فإياد القديم.. أوه!ــ وعصرتها الفكرة ثانية: يالهي! كيف فعلت ذلك؟ ـ ورأت التوتر على وجهه، فتراجعت بسرعة:

ـ آه! لساني.. لساني ـ تملّته ثانية في رِقَّةٍ: أنت. أنت أيها المسكين كيف احتملت هذه التجربة؟

وضحك في استخفاف: كان لابد من احتمالها، فلم يكن هناك خيار آخر.

مالتْ عليه على عادتها بوجهها وجسمها كاملين: كيف كان السجن هه؟ هل آذوك..؟

ورنت مزحة إياد في ذاكرته: ربما كان التعذيب بناء على توصية. وأسرع يجيب: أووه..لا.

وكررت متمتمة: أعني. هل.. عذبوك؟

وسارع ينفي: لا. لا. لا. أبداً. كنت سجيناً سياسياً، و.. أنت تعرفين.

وقاطعته: ماذا أعرف؟

ـــ يعني.. للسجناء السياسيين معاملة خاصة.

وسيكتب فياض على دفتره الجريدي ساخراً: كانت نبوءة ملعونة، فلقد عرفت فيما بعد أن للسجناء السياسيين كانت دائماً معاملة خاصة!

وتابعت ماتيلد: آه.. طمأنتني كنت أقول لروجيه.

وقاطعها ثانية فقد كان يخاف وصول الحديث إلى روجيه: لِمَ لم تدخلي نجدت معك؟

وأجابت بلا مبالاة وهي تشيح بكفها الصغيرة على عادتها: لا.. ليس من الضروري أن يسمع مانتحدث به.

وفجأة أشرق وجهها كمن عثرت على شيء أضاعته: هاه.. نسيت أن أخبرك ـــ كانت لهجة الثرثرة المرحة القديمة قد عادت ـــ وأشرق وجه فياض يستحثها: هه. اعتصرت كفه بفرح: وافق روجيه على العودة إلى فرنسة.

ــ ماذا؟ اختنق فياض فجأة، وشكر للمربع الكبير نصف العتم إخفاءه شحوبه المفاجيء. تمتم مكرِّراً في غباء: أوافق فعلاً؟

وأخذت تشقشق بسرعة: نعم. وقد قدم طلباً إلى المستشار الذي حوّله إلى المفوض، والمفوض حوله إلى المندوب السامي، والمندوب السامي حين عرف كم قضينا في الشرق من سنوات وافق على عودته بسرعة.

وتمتم فياض حزيناً: لا.

ولكن ماتيلد لم تفهم تماماً مايعني: ولِمَ لا؟ ألم يكن هذا ماننتظره؟! آه فإياد تصوَّرْ.. العودة إلى باريس، بناء بيت الشيخوخة.

ورأى فياض الكوَّة يهرب منها إلى المزاح: آه مدام، أية شيخوخة أنت..

وقاطعته وهي تحني وجهها وتنظر إليه بعينيها اللتين ارتفع بؤبؤاهما حتى غاب نصفهما تحت الحاجبين النحيلين: فإياد.. لِمَ إنكار الحقيقة؟ هذا هو الواقع.. روجيه على أبواب التقاعد. ولم يبقَ لدينا إلا أن يهتم واحدنا بالآخر ــ وأخذت لهجتها بالتسارع كعادتها قبل أن تنفجر بالبكاء ــ سأشتري بيتاً هناك في إحدى الضواحي في باريس، بيتاً ذا حديقة كبيرة أزرعها خضاراً ووروداً، وسيهتم بها روجيه في أوقات فراغه، بينما أملأ جدران البيت وأركانه بهذه الذكريات التي جمعناها من الجزائر، وحماة، وبيروت، ودمشق. سيكون بيتاً خاصاً، بيتاً متميزاً، سيعرف من يدخله للوهلة الأولى أنه أمام أناس عركوا العالم وعاشوا صعوباته ومسراته ــ واحتقن صوتها فجأة ورأى التماعة دمعة ما قبل الانزلاق ــ أما أنت، أما أنت، أنت فإياد ياصغيري.

وعرف أن الموضوع سينتقل إليه أخيراً، فاختصر الأمر بقسوة:

وماذا عني أيضاً؟ صُدِمَتْ لِلهجتهِ قليلاً، ولكنها تماسكت، وظلت التماعة دمعة ماقبل الانزلاق ثابتة: سنعود المجموعة القديمة. أتذكر أيام حماة وسعادتنا هناك، حفلات الشواء على النهر، أغانينا معاً؟

احتقن قلب فياض، وحاول أن يتماسك بهجوم خارجي.. ضغط على كفها متعاطفاً: مدام. مدام. ولكنها تابعت: ستعود إلى جامعتك وستنسى كل هذه الصبينات، وسأحاول ــ تنهدت ــ أن أعيد الصفاء إلى عائلتي هه.. قُلْ لي: هل ستساعدني؟

حار فياض فيم يجيب، بل ماذا يجيب، هل يعد؟ وبمَ يعد؟ وأية علاقة يمكن أن تقوم بعد هذا الشرخ العريض؟ لم تأبه لعدم إجابته بل تابعت شقشقتها بسرعة متعلِّقةً بالكلام قبل أن تنهار: ستعود إلى جامعتك ودراستك، وستكمل دراسة الكيمياء التي تحبها، أما الصالون.. الصالون الذي سأفتحه خصيصاً من أجلك، هوهوهوه. لن تصدق، سترى الصبايا اللواتي سيتحلقن في بيتي ليتمتعن برؤية ابني الحبيب.

ورأى فياض الحوار يتحول إلى الجانب الصعب، فأجاب بجفوة: آه مدام. أخاف أن أكون قاسياً معك!

ــ قاسياً ــ وانزلقت الدمعة الساكنة، وتمتمت: لا. لن تستطيع أن تكون أكثر قسوة مما كنت.

ــ مدام، أرجوكِ.

وانزلقت أخيراً فيما تحاشته طويلاً: روجيه غاضب، مجروح، لن تعرفه لو رأيته.

ــ مدام أرجوك ــ كرَّر في إلحاح.

ــ وأنا كما تعرف.. وانزلقت الدمعة الثانية هادئة، فلم يحتمل.

ضمَّهَا إليه في رقة، كانت قد استطاعت أخيراً خنقه بدموع لايعرف كيف هبطت على الحلق، فاختنق. وكتب فياض على دفتره الجريدي: أن تستطيع إلغاء كل هذه السنوات من العمر ليس بالأمر السهل، أن تلغي كل هذا الحنان، والعناقات الصغيرة، والربتات المداعبة. أن تلغي كل هذه القبل واللمسات اللطيفة، أن تلغي كل هذه الطفولة والمراهقة والشباب. آه ياإلهي!! ماأصعب الولادة الثانية! أن تخرج من الرحم وأنت في العشرينات من العمر بكامل وعيك.

أخذت الدموع، الدموع الصغيرة، الرقيقة الناعمة دون صوت، دون آهةٍ إلا قطرات رقيقة من عينين مفتوحتين تتسللان من العينين، من الوجنتين، من الشفة العليا، السفلى، وأخيراً همست: فإياد.. هل تستطيع أن تنسى؟

وبحلق مخنوق قال: لم أقل إني أستطيع!

ـ أنت غاضب من روجيه؟

ـ أنا؟ لا..

ـ فلمَ لم تسألني عنه؟

وكعادته التي اكتسبها دون أن يدري منذ أن عاد من باريس هرب من السؤال متظاهراً بالبراءة: أَفَلَمْ أسألك عنه؟

نظرت إلى وجهه مباشرة بوجهها الذي خلطت ألوانه دموعها الهادئة: فإياد.. أنت تعرف جيداً أني أفهمك. لا تحاول التظاهر بالبراءة.

واحتجَّ: مدام. ولكنها تابعت: اسمع يافإياد: روجيه غاضب منك، وأنت لو راجعت نفسك جيداً لاكتشفت أنه كان على حق في غضبه منك.

وتمتم في ضعف: ولكن، وقاطعته في قوة: لا لكن، ضع نفسك في

مكانه واحكم، ابن العمر الذي وهبتُهُ الأحلام، وعلَّقْتُ عليه كل رغبات العمر، ينكشف عن.. عن.. ياإلهي!! كيف أقولها؟

وهز فياض رأسه في مرارة: جاحد.

ـ لا ـ تابعت في قسوة ـ ليس جاحداً فقط، ولكن فاياد بحق السماء ماالذي جعلك تشارك ذلك المجرم في تلك العملية الحمقاء؟ خنقتها انفعالاتها فلم تكمل. نظر فياض إلى الوجه المخدد بالدمع لم تجففه، إلى تلك العينين السوداوين الحزينتين لم يعرفهما حزينتين، إلى تلك الرجفة على الشفة العليا تحاول كبت طوفان من الهياج والغضب، إلى أن تحكمت في نفسها، فتابعت: تعرف أنه كان من الممكن لروجيه أن يقتل في تلك العملية؟

وهتف فياض في حزم: لا.

ـ ولِمَ لا؟ روجيه جندي وكان يمكن أن يكون على رأس الدورية.

ولكن فياض كرر في حدة: قلت لك لا..

ونظرت إليه في حيرة: تبدو واثقاً من كلامك.

تمالك فياض نفسه ليقول في هدوء: كنت واثقاً من أنه لن يكون!

جفَّتِ الدمعات في العينين وإن ظل الوجه ملطخاً: كيف؟

ـ مدام لا تضطريني إلى قول ما لا أريد.

ولكنها تمسكت بالقشة بعرضها بقوة: لا. بل يجب أن تقول. ماتناقشه الآن مصيريٌ، إن فيه مناقشة حياة أوموت أعز شخصين في حياتي، زوجي وابني.

فتأتأ في ضعف: مدام، أرجوك.

ولكنها أصرت: لن أتركك. كيف طاوعك قلبك على المخاطرة بأبيك؟ ـ وتلعثمت قليلاً ـ بروجيه! أنسيت من روجيه؟

ـ مدام.. أنا لم أخاطر به أبداً!

ـ والفخ.. واللغم، والتفجير؟

واضطر أخيراً إلى أن يقول بلسان ضعيف: كان مقدَّراً له أن يكون بعيداً عنه.

ـ كيف؟ صرخت في غضب.

وأخيراً همس وهو ينظر إلى الأرض في إعياء: أنسيت الإسهال الذي أصيب به ليلة العملية؟

ـ الإسهال؟ ـ رددت في حيرة ـ صحيح، أصيب بالإسهال في تلك الليلة.

ظلَّ على إطراقته يحاذر اصطدام العيون: لم يكن إسهالاً عارضاً.

ـ وإذن؟

ـ كان عن دواء أضفته لشايه في ذلك المساء!

أمسكت بوجهه ترفعه إليها في غير تصديق: لا.

ـ بل هذا ماكان.

ـ إذن فقد كنت خائفاً عليه!

ـ كان هذا شرطي للمشاركة في العملية.

وكررت: إذن فقد كنت خائفاً عليه.

وسقطت أخيراً أقنعة التماسك، فانهار أمام لهفتها لانتزاع اعتراف

بأنه مازال إنساناً: مدام، وهل كنت أجرؤ على المخاطرة به؟ هل كنت أجرؤ على تخيله جريحاً، أو مصاباً بأذى بسببي أنا؟

شدَّته إليها، عانقته في قوة. أحسَّ دموعها تنساب على رقبته بهدوء:

ــ أوه فإياد، فإياد، ياحبيبي. لم تضع تربيتنا فيك إذن. لم تكن الجاحد يتنكر لكل تلك العواطف التي سفحناها تحت قدميك.. لم تكن.. وانسحبت من عناقه ــ آه ياإلهي! يجب أن أخبر روجيه. يجب.

انتصبت واقفة، ومسحت على وجهها بباطن كفها بسرعة، ولكنه لم يستطع القيام: مدام أرجوك لم تعد أعصابي تحتمل مزيداً من هذه الانفعالات.

ــ بل يجب. أنت لاتعرف ماجرى. المسكين كاد يموت قهراً، إنه يعذب نفسه، يعتقد أن خطأ ما فيه جعل ابنه يتحداه ويحاول قتله.

انتفض فياض مذعوراً: لا. لايمكن.

اتجهت إلى الباب: سأمضي وأخبره. كنت أعرف أنك لايمكن أن تصنع شيئاً كهذا.

أمسك بها قرب الباب: مدام. أرجوك، أرجوك، واختنق بالكلام، فاتجه إلى الباب: إلى أين؟

مسح وجهه بسرعة: سأرى ما أعدَّ لنا إياد؟

فتح الباب وهو يصرخ دون حاجة إلى صراخ: إياد.. إياد.

ولم يكن إياد بعيداً، فهمس حين رأى الوجه المخيف بدموعه واختناقاته:

ــ فياض مابك؟

ــ لاشيء ــ حاول التماسك، ثم أشار إلى الداخل ــ ولكن المدام تريد. وغلبه الاختناق ثانية، فهرب منه إلى حركة الجسد، أمسك بإياد بشدة، وجرَّه دون أن يعرف السبب إلى المربع الكبير، وقال يحاول مزاحاً: اسمع.. ألن تقدم لنا شيئاً؟

ــ بالطبع. بالطبع.

أدرك إياد الجو الذي كانا فيه بنظرة سريعة إلى وجهها، ولكنه تجاهل الأمر:

ــ ماذا تشرب سيدتي؟

مسحت ماتيلد أسفل عينيها بمنديلها الأصفر المطرز الصغير بحركتها الرشيقة المعهودة: لا. لاشيء شكراً. يجب أن أمضي.

وحاول إياد أن يمزح: ولكن، لا. سنسيء إلى سمعة العرب لو مضيت دون ضيافة!

ولما لاحظ جمودها أطلق ضحكته المرجّعة يستدرجها إلى مجاراته، ولكنها نظرت إلى وجهه مباشرة في كراهية تحمِّله ذنب كل ماحصل:

ــ العرب؟ هه.

نترت ثوبها الطويل، واتجهت إلى الباب. لحق بها فياض.

ــ مدام ابقي قليلاً.

ــ لا. يجب أن أرى روجيه. لم أعد أجرؤ على الابتعاد عنه طويلاً.

مضت، لحق بها فياض مهزوماً وعلى مبعدة، ولكنها التفتت إليه وقالت متلعثمة تحاول ألا تقع عيناها على إياد: ألا تحب.. أن تراه، ولو قليلاً؟

فاجأه الرجاء فلم يستطع التهرب: بالطبع. بالطبع.

ـــ متى؟ قالت باترةً.

ـــ سأحاول. قريباً.

وبعملية غير معهودة فيها قالت: سأنظم موعداً.

اتجهت إلى الباب الخارجي، وتقدم بسرعة ليفتحه: ومن يدري فلعلنا نسافر معاً.

لم يحاول إياد الحديث إلى فياض، ولم يحاول فياض فتح أسوار القلب، صعد إلى الفرنكة، تأمل أواخر العناقيد على الدالية، فتّتَ بعض أوراق صفر عليها، قتل خمسة دبابير وست زلاقط، وأخيراً لم يحتمل أكثر من ذلك، فنزل الدرج بهدوء محاذراً إياد، فتح الباب الخارجي وخرج إلى الحارات، فالشوارع، فالأسواق، يخترقها ولا يعرف أسماءها، يتأمل وجوهاً لايعرفها، وجامات محلات لايريد التسوق منها، ونقوشاً على مداخل مدارس وخانقاهات لايريد ولوجها، وأخيراً وحين رأى الأنوار تشتعل في الدكاكين، والشوارع تفتقد المارة عاد بقدمين منهوكتين إلى بيت إياد.

بعد أيام من محنة مكرورة، ودوران في طاحون مدينة لاتعرفه قال له إياد على الفطور الصامت: يجب أن تزوره يافياض.

وهتف فياض مرتاعاً: لماذا؟.. ـــ ثم أضاف في حزن ـــ هو لم يزرني في السجن، ولم يزرني حتى بعد خروجي من السجن.

ـــ ولكن.. ـــ متردداً ـــ أنت تعرف.. يستطيع إيقاف العقوبة عنك.

ـــ كيف..؟

ـــ يستطيع الحديث إلى المندوب السامي بشأنك، وربما سمحوا لك بالسفر إلى باريس لإكمال تعليمك.

ـــ لاأظنه يفعل، ولا أظنني أسأله.

ـــ يجب أن تحاول. يجب ـــ قال بقوة.

كان إياد يحسُّ بالذنب بحق فياض، فهو من وَرَّطه، وهو من جاء به من باريس على غير رغبة منه، وهو من وَرَّطه في مغامرة لم ينتج عنها إلا تحطيم روابطه العائلية، وحرمانه من إكمال تعليمه، فتابع وهو ينظر إلى وجهه الجامد:

ـــ فياض، ماذا ستصنع هنا في دمشق؟ أنا خائف عليك. أنا أستطيع إكمال دراستي في دمشق، في بيروت، أستطيع ألا أكمل. وأعيش من دخلي الخاص، أما أنت، ماذا عنك أنت؟

وبعنادٍ قال: سأبحث عن عمل، وسأكتب للصحف.

ولم تعجبه الإجابة فقال ملحاً: ولكن.. لم لاتمضي إليه؟

ـــ إنه ينتظر أن أمضي إليه.

ـــ فامضِ إليه إذن!

ـــ أف إياد.. هناك أمور لاأدري كيف يمكن شرحها بالكلمات.. ولكن.. ياإلهي هناك أمور لايمكن العبث بها!!

ـــ كيف؟

ـــ أنا من تخلى عنه في البدء.. في اليوم الذي قررت فيه الانضمام إليك لصنع ذلك اللغم كنت قد قطعت كلَّ الصلات العائلية معه.

ـــ أنا لاأطلب إليك إعادة تلك الصلات، ولكن، هناك صلات أخرى

كثيرة بينكما لا أرى مبرراً لقطعها.

ــ لاتضغط عليَّ أرجوك.

ولكن الضغط جاء هذه المرة من ماتيلد، فقد جاءت بعد أن ظن أنها لن تجيء: فإياد. سنسافر أول الشهر.

وغُصَّ القلب. أسيسافران فعلاً؟! أسيسافران ولن يراهما من بعد؟ أيسافران وتموت كل تلك السنوات والعواطف ولمسات الحنان؟ وتأتأ غير مصدق: إنهما يومان إذن؟

وهزت رأسها في حزن: نعم

حاول التشاغل بالقيام، بالاتجاه إلى الباب لطلب القهوة، ولكن تلك الدموع الملعونة، ذلك الضيف غير المرغوب فيه، قهرته، وقف أمام النافذة، أطلَّ على الباحة يحاول صدَّها، كتمانها، ولكنها غلبت بقسوة أكبر من أن تخفي، وأخيراً جاءه صوتها الرطب المختنق: فإياد. فإياد. ألن تقول له مع السلامة؟

التفت إليها وكانت قد اقتربت منه، ارتمت بين ذراعيه تنتحب: فإياد، لم أكن أظن أن لديك كل هذه القسوة!

ــ مدام.. مدام.. كيف تقولين هذا؟

ــ كيف طاوعك قلبك على عدم زيارته؟ أربعون يوماً يافإياد! أربعون يوماً طويلاً!

جفَّف دموعه بكُمِّه فسارعت بمنديلها الأبيض المطرز تبعد يده، وتجفف دموعه، فتمتم في ضعف مستسلماً: لاأعرف. لاأعرف. مدام كيف أواجهه، ماذا أقول؟

جرّته إلى كرسيه الأول، جلست، تمالكت نفسها: لاتقل شيئاً قُلْ مع السلامة فقط، هذا أقل مايستحق.

ــ لابأس، سأحاول.

وضعت يدها على ذراعه مواسية: كان قراراً محزناً غبياً.

ــ أعرفت به؟

ــ بالطبع، وكيف لاأعرف.

وهرب الكلام منه على غير رغبة: كان بإمكانه أن يوقفه. أليس كذلك؟

هزت رأسها في وقار: لا أعرف. ولكن، ــ قالت مؤنبة ــ: أنت من ركب رأسه، لو مضيت إلى المستشار، لو تظلمت أمام وزارة المعارف، لو تكلمت إلى روجيه، ولكنك لم تفعل شيئاً من ذلك ــ وبغضبٍ أكملت ــ كل مافعلت هو أنك حبست نفسك في هذه الدار العفنة فقط.

ــ إني أنتظر.

ــ ماذا تنتظر؟

لم يستطع فياض أن يخبرها أنه ينتظر شيئاً هاماً، ينتظر رؤيا عليها أن تحدده مصيره، لم يستطع أن يخبرها أنه منذ قدم دمشق وهو مسكون بأرواح وأفكار لايعرف على التأكيد مصدرها، لم يستطع وهل يستطيع، أن يخبرها عن أسامة وعرنوس وحصارهما الطويل له؟ لم يستطع، وهل يستطيع أن يخبرها أن ما ربّاه روجيه عليه من سكنى غليام له قد أَعْدَاه وسكنه، فهو مسكون لايعرف التخلص من ساكنه؟

طال الصمت وتحديق العيون المتسائلة وأخيراً قالت: تنتظره؟ ولم

يُجِبْ، فأكملت: لن يجيء ــ وفهم أنها فهمت أنه يعني روجيه ــ إنه أشد عناداً منك، لن يجيء. رجوته كثيراً. ألححت. توسلت، حدثته عن حرصك على سلامته، ولكنه أصر على وجوب تقديم اعتذار علني عما صنعت.

ــ أنا؟ هتف فياض مستنكراً.

ــ أعرف أنك لن تفعل، ولكن، هذا مايطلبه. قال: الكاتب الذي كتب بصلافة عن هزيمة غليام أمام شيزر، الكاتب الذي تحدث عن بطولة الأمير أسامة ووجوب تحرك أحفاده لسداد الدين.. فإياد.. ماذا كنت تعني بسداد الدين؟ ياإلهي كم رددها وبمرارة! ماذا كنت تعني؟

لم يستطع فياض الإجابة، فهل يحدثها عن وقوف روجيه فوق أسوار شيزر، ومناداته جده الأسطوري غليام لوبلان لسؤاله عن سداد الدين؟ هل يستطيع إخبارها عن حسّه بأنه المدين، وأن عليه أيضاً وفاء الدين؟ هل يحدثها عن تفجيره اللغم في محاولة لسداد الدين؟ هل.. وهل.. وهل..؟

ــ لابأس. لاتريد الكلام. لابأس، ولكن يبدو أنه مستاء جداً، مجروح.

ــ أتخيل ذلك. قال بوقار حاسم، وصمت، فصمتت، وأخيراً لم تحتمل الصمت، فقالت في صوت رتيب وهي تتمايل في مجلسها كندّابةٍ شرقيةٍ:

ــ كنت أتمنى أن نعود معاً إلى باريس، أن أعيش ماتبقّى لي من سنوات محاطة بك وبروجيه، وربما بزوجتك وأطفالك، بحياة عائلية هانئة مسلية ، وادعة. ولكن. ياإلهي! أيُّ سُمٍّ دخل هذه الحياة فجأة، فمزق

الأب عن الابن، وأحرق الحديقة، وقتل البيت الريفي وسمَّم الأحفاد، وتركني لحياة فارغة مملة مسئمة.. آه فإياد.. فإياد!

كان فياض يكره هذه اللحظات، يكرهها، فهي تجبر الإنسان على اتخاذ مواقف لايتخذها حين يكون القلب بارداً، يكره هذه الانهيارات العاطفية التي تجرِّد الإنسان من جِلْدِهِ وجَلَدِهِ، وتحيله إلى خرقة مطواعة ضعيفة، مالت عليه تحتضنه بتلك اليدين الضعيفتين، ففغمت أنفه رائحة المارتيني. آه! ماتيلد أيتها المسكينة أَصرتِ تلجئين إليه حتى في الصباح؟ فإياد، ألا ترقُّ لتلك النزهات كنا نقوم بها على ضفاف العاصي؟ فإياد، تلك الأغنيات التي كنا نغنيها في أمسيات السبت ألا تعني لك شيئاً؟

وأخيراً وصل فياض إلى تلك الحالة التي صار يعرفها أخيراً حين يضيق الحلق عن التنفس، ويتوتر المري، ويريد البكاء ولابكاء: كفى. كفى إكراماً لله. أنت تمزقينني.

ـــ تعتقد ذلك؟

ـــ مدام ـــ واجهها ـــ ماذا تظنينني؟ حجراً؟

ـــ لا. بل أعرفك. فإياد الوديع الرقيق الذي لم يرفض لأمه طلباً.

وقال في استسلام: مازلت فإياد الذي تعرفينه.. صدقيني.

وأخيراً جاءت لحظتها فأطلقت رجاءها بقوة: فلمَ لاتمضي معي الآن لزيارته؟

ـــ روجيه؟ قالها منهزماً وقد عرف أن الفخَّ قد أطبق عليه.

ـــ نعم.

كانت العينان السوداوان قد سال بعض كحلهما، فغابت ماتيلد الجميلة

الواثقة المسيطرة، ورأى أمامه امرأة ضعيفة مثيرة لشفقة جارحة، أضافت في توسُّلٍ: ستجيء. هه.. أرجوك يافاياد.

أطرق برأسه مستسلماً: حسن.. أنا قادم معك.

* * *

حين قاد نجدت فياض إلى غرفة الاستقبال التي يستقبل فيها روجيه عادة الزوار العابرين والزوار الرسميين أدرك فياض مغزى الإشارة، فالمكتبة الشرقية كانت لاستقبال الأصدقاء المقربين فقط.

ـ أهلاً موسيو فاياد.

كانت اللفتة واضحة، لم يتقدم لعناقه، بل مدَّ كفاً حاول أن تكون صلبة، ولكن فياض لحظ الرعشة رغم الموقف الحيادي، تلك الرعشة التي يعرفها لدى روجيه عند الانفعال المكبوت، تلك الرعشة التي يرعش بها قمة الخد ونهاية الجفن، لم يستطع فياض أن يكون أقل رسمية، كان يتمنى أن يشدَّه إليه، أن يحتضنه، أن يكشف عن العواطف التي يعرفها فيه كما يعرفها لدى ماتيلد ولكن واحداً منهما لم يكشف عن خبيئته.

ـ احتراماتي سيدي. قال فياض يشدُّ على يده. أشار روجيه إلى كنبة قريبة من النافذة.

ـ تفضل بالجلوس.

هذه الحركة التي تبدو أليفة بين الغرباء، كم بدت باردة وحيادية وجافة أمام فياض!

ـ شكراً سيدي.

جلس فياض، وبدأ حوار عجيب.. حوار أشبه مايكون بالقفز في حقل ألغام أمام مَنْ تحب، تخاف أن تدوس لغماً فينفجر فيك، ولاتريد أن تبدو مضحكاً أمام من تحب وأنت تتحسس مواقع أقدامك في خوف ثم تقفز كقرد، قال: دمشق لطيفة في الخريف.

ــ إنها لكذلك ياسيدي.

ــ ربيعها مليء بالرياح والغبار. أما الخريف فهو الفصل الهادىء.

ــ يسمون خريفها بالفصل الذهبي.

حدَّق روجيه في فياض مباشرة والتماعة دهشة في عينيه: كيف؟

ــ إنه فصل تساقط الأوراق الحمر على الأرض، فصل تَحَوُّلِ الشجر إلى حاملات للذهب على الأغصان.

ــ آه! جميل! هذه فكرة شعرية.. أهي من أفكارك؟

ــ لا ياسيدي، بل سمعتها من أهل البلد.

ــ آه! تنهد فيما بدا لفياض خيبة ــ عظيم! هاه.. سمعت أنك تعاقدت مع جريدة الأضواء.. هل ستواصل الكتابة؟

ــ أعتقد ذلك.. لقد اكتشفت في نفسي شيئاً كنت أجهله.

ــ همم. الكتابة شيء رائع، شريطة أن يكون الإنسان موهوباً.

أدرك فياض الغمزة، فقال في تواضع: كل الناس يعتقدون في أنفسهم الموهبة ولكن الأيام فقط ما يكشف الصحيح من الزائف.

ــ همم.. أرجو أن تكون من الصحيح.

دخلت ماتيلد تحمل صينية عليها زجاجة مارتيني وكؤوس، وقال

روجيه معاتباً: ماتيلد.

ولكنها رفضت في مرح: لا. لاأريد عتاباً. دعوني أحتفل بهذه المناسبة. دعوني أرجوكم.

هزَّ روجيه رأسه في استسلام: لابأس.

ــ هذه مناسبة قد لاتتكرر ثانية. من يدري؟

وهدر روجيه محاولاً السيطرة على صوته: ماتيلد!

ــ اعذرني ياروجيه ــ كان صوتها مبتلاً بنقيع روحها ــ اعذرني ــ كانت على وشك البكاء ــ لاأستطيع وصف مشاعري الآن. أنا فرحة وحزينة، فرحة وحزينة جداً.

اختنق صوتها ولم يحتمل فياض، فمال إليها. ضمته إليها، كانت صغيرة وضئيلة جداً، ومثيرة للحنان، انزلق دون إرادة منه ليركع أمام كنبتها، وأخذ يربت على ركبتها بحنان: مدام. أرجوك. أرجوك. ضمته إليها في رقة جعلته يحسُّ باختلاجها الضعيف على رأسه وكتفه: فإياد.. فإياد.. ليت كل ماجرى كان حلماً، كابوساً ينقضي مع طلوع الفجر.

وعلا صوت روجيه يهتف محاولاً كبت انفعاله: ماتيلد.. لم أعد أستطيع الاحتمال. أتريدين لي أن أخرج؟

أبعدت رأسها عن كتف فياض: لا. لا. بل ابْقَ. سأحاول التماسك.

عاد فياض إلى مكانه، وعاد روجيه، أما ماتيلد فصبت كؤوساً ثلاثة.

التفتت إلى روجيه: ألا تشرب نخب هذه المناسبة؟

وهمهم روجيه: حسن. سأشارك في شرب هذا الكأس فقط.

ــ وأنت يافاياد؟

ـ بكل سرور ياسيدتي. قال في شهامة.

رفعت كأسها، وقالت: من أجل صحة طيبة وحياة سعيدة وذكريات جميلة دعونا نشرب.

رفع فياض كأسه، وجرع جرعة صغيرة راقب أثناءها روجيه وهو يقلب الكأس كاملاً في حلقه، كان من الواضح أنه يحاول السيطرة على نفسه، قلَبَتْ ماتيلد كأسها ونظرت إلى فياض: لَمْ تشرب كأسك؟

ـ اشرب بهدوء.. كالعادة.

نظرت إليه بعينيها السوداوين اللتين طالما أداختا الرجال قبل أن تغبشّهما الأحزان الجديدة وقالت تحاول المزاح: آه! أيها الأبناء القساة. كيف يمكنكم التماسك أمام جنون الآباء؟

ـ مدام. أرجوك. دعينا نحاول التماسك.

هزّت رأسها وصبّت لنفسها كأساً آخر، ووجد فياض نفسه يساق إلى الدرب المسدود فحاول الهرب: هاه حدثيني أين ستقيمون في فرنسة؟

ـ لاأعرف حتى الآن! ولكنا سنرسل إليك بالعنوان، بالتأكيد سنرسل إليك عنواننا ومن يدري ـ قالت في أسف ـ ربما رأيت أن من الممكن زيارتنا.

وأحسّ فياض مرة ثانية باللغم يتحرك تحت قدمه، فالتفت إلى روجيه:

ـ أسيكون عملكم في باريس ياسيدي، أرجو أن يكون كذلك؟

كان روجيه قد استند بظهره إلى ظهر الكنبة يحاول الاسترخاء حين فاجأه السؤال، فقال من تحت شاربيه العظيمين: وعدوني بباريس، ولكن

لا أحد يستطيع التأكد مما يفكر به الرؤساء.

ــ صحيح.. قال فياض بوقار وقد شعر أن الحوار قد انقطع ثانية.

صبت ماتيلد لنفسها كأساً آخر. وحاولت أن تصبَّ لروجيه، ولكنه وضع كفه فوق كأسه. كان كأس فياض مايزال مليئاً، شربت كأسها الثالثة، وأخذت خيوط عنكبوت الصمت البارد تتسلل إلى المكان، وأخذ فياض يحسُّ بالبرد حين طرق الباب، فاهتزَّت خيوط العنكبوت الهشة، ودخل نجدت. تنهد روجيه في استبشار. وتنهد فياض فلقد جاءت النجدة من الخارج.

ــ صناديق الكتب والأثاث في طريقها إلى بيروت الآن ياسيدي.

ــ عظيم. شكراً.

وجد فياض أن عليه أن يقفز قفزة أخرى قبل أن يتسلل العنكبوت:

ــ إذن فقد أرسلتم بالأثاث؟

ــ الشرقي فقط. الكتب والذكريات، السيوف والأرابسك.. هه.. أنت تعرف.

عبث روجيه بشاربه قليلاً ثم أضاف يمسك بالخيط قبل أن يفلت: ذكريات طيبة ستظل تذكرنا بهذه المدينة الجميلة.

وقالت ماتيلد: الأصدقاء خير من الأشياء. ولكن..

انفجر اللغم أخيراً. وعليك أن تنبطح إن لم ترد التمزق أو التلوث أو.. أخذت الجلسة تتحول إلى عذاب، ورأى فياض أن الجلسة استنفدت، وأن كل إطالة تعني مزيداً من العذاب، فرشف ماتبقى في الكأس دفعة واحدة، ووضعه على الطاولة. انتصبَ: أستأذن!

لم تصدق ماتيلد فهتفت في انزعاج: ولكنك ستبقى حتى الغداء.

ـــ لاأعتقد. أنا على موعد مع صاحب الجريدة.

كان روجيه يراقبه بجانب عينه، كان يتمنى بقاءه حتى الغداء، ولكنه كان يخشى رفضه، فلما دعته ماتيلد صار مكرهاً على دعوته أيضاً. قال:

ـــ ابقَ وتغدَّ معنا.

ـــ أشكرك ياسيدي.

وقف روجيه يودعه، ورأى فياض نجدت ينظر إلى مايحدث في حيرة، رَمَتْ ماتيلد بنفسها بين ذراعي فياض: اذكرنا يافاياد. اذكرنا أرجوك. سأكتب لك. لاتنسَ أن تكتب لنا هه..

ـــ آه بالطبع ياسيدتي، بالطبع. سأكتب لكم في كل فرصة ممكنة.

انسحب فياض من عناقها، والتفت إلى روجيه، ولم يكن من الممكن المصافحة هذه المرة، شدَّه روجيه إليه، عانقه طويلاً، طويلاً: فاياد.. اعتنِ بنفسك، انتبه لكل خطوة تخطوها، لقد غدوت رجلاً، ولكن خبرتك بالحياة قليلة، لاتترك لهم فرصة جرك إلى ماتندم عليه. هه.. انتبه لنفسك جيداً.

وهرب فياض من اللغم الأخير، تخلص من عناقه شادّاً على يده: مع السلامة ياسيدي. مع السلامة. سفراً سعيداً.

اتجه إلى الباب ملاحظاً النظرة الحائرة في عيني نجدت للمرة الثانية، ولكن ماتيلد لم تتخلَّ عنه، وضعت ذراعها في ذراعه: أكتب لنا يافاياد. هه. ـــ ثم مترددة ـــ إن احتجت إلى أي عون لاتنسَ أن..

وقاطعها مرتبكاً: سأفعل ياسيدتي سأفعل.

وصل إلى الباب. تخلّص بلطف من ذراعها، ولكنها مترددة قالت· فإياد.

ــ مدام أرجوك أن ترجعي.

ولكنها ظلت على إلحاحها: فإياد ربما انقضى وقت طويل قبل أن تستطيع كسب عيشك بشكل مشرف.

ــ المعنى؟ نظر إليها حائراً.

ــ أريد أن.. فإياد أرجوك ألا ترفض.

لاحظ أن يدها اليسرى كانت وراء ظهرها، فحدَسَ بسرعة ماتريد:

ــ روجيه وأنا اتفقنا على مساعدتك بهذا المبلغ حتى تستطيع الوقوف على قدميك.

أطبق الفخ عليه أخيراً، كان يعرف أنها انطلقت من طيبتها، وأن روجيه وافق حفاظاً على ذكريات الأيام الماضية، ولكن ياإلهي. أهذا ممكن؟

همس وقد أحيط به: مدام. مدام. أنت لاتدركين ماتصنعين.

ــ لماذا؟ هل انقطع ماكان بيننا، أنت لاتزال ابني فإياد، ومن حقي العناية بك.

ــ لا.. ليس الأمر بهذا الشكل. أنا أعرف أني لن أستطيع نسيانك، ولكن لدي مايكفيني.

ــ كيف؟

ــ تعاقدت مع إحدى الصحف، واتفقت مع صحيفة بيروتية على مراسلتها.

ــ صحيح؟ قالت بفرح.

ــ وهل كنت أخدعك؟

نظرت إليه مباشرة ترددت قليلاً: ألن.. يفيدك هذا المبلغ؟

ــ أشكرك. أشكرك كثيراً. أنا أعرف أني لن أستطيع وفاء ديونكم عليّ.

ــ هُس ــ وضعت إصبعها الصغيرة على فمه ــ اصمت.

وتابع: ربما استطعت إعادة المال ولكن هل أستطيع إعادة الحب والحنان الذي وهبتموه لي، أشكرك، أشكرك كثيراً.

ــ سيحزن روجيه.

ــ اشكريه عني كثيراً. سأكتب لكم. ومن يدري ربما زرتكم في باريس.

استدار فجأة. أغلق الباب ومضى دون أن يستدير ثانية ليرى الوجه المتعب الذي كان يراقبه يبتعد، يبتعد..

مضى لايعرف أن هذا اللقاء سيكون الأخير، فها هما يسافران، ويبقى، يعودان إلى باريس. ويدخل طاحون المدينة الجديدة، وبعد سنوات ستصله رسالة من صديق يحدثه عن موت روجيه في المعركة الأولى عند خطِّ ماجينو وحزيناً يعرف أن ماتيلد ضاعت في خراب رومة الجديدة، وأنها خرجت من حياته هذه المرة إلى الأبد.

وقال إياد: ها أنت تتحرر من الماضي. يجب أن تعمل الآن للمستقبل. مامشاريعك؟

لم يكن الخيار واسعاً أمام فياض، فحرمانه من إكمال تعليمه في باريس حرمه من إكمال تعليمه في دمشق، وحرمانه من إكمال تعليمه في

دمشق حرمه من العمل لدى الدولة، فاسمه قد أدرج أخيراً في قائمة المغضوب عليهم.

قال أخيراً:

ــ يبدو أنه لم يبق لدينا إلا الكتابة في الصحافة.

وقال له خليل بك وهو يستقبله بالأحضان: ستكونان مكسباً حقيقياً للجريدة، الجريدة مفتوحة بكامل صفحاتها لكما، اختارا الصفحة التي تريدان، والبابين اللذين ترغبان، واكتبا ماتشاءان.

وصدق فياض، فأخذ ينفث الاحزان القديمة، ويرفع الأستار عن الحوار القديم بين الشرق والغرب، بين السيف والقلم، أخذ يفيد من كل ماعلَّمهُ روجيه، ومن مكتبة الذاكرة التي شحنها روجيه، وحين نفد المخزون عاد إلى الكتب يمتحُ منها، ويصبُّ على ورق كان معروفاً أنه يعد للصر والمسح بعد ساعات من ولادته، ولكنه كان يحس أنه يؤدي رسالة، فما اهتم بوفاة المولود قبل بلوغه.

وازدادت المبيعات، وتقدم فياض، وتراجع إياد، وصار اسم الجريدة بين القراء جريدة الفياض، ولكن خليل بك كان له رأي آخر، فرنين الهواتف وزيارات الملائكة كما كان يسمي رجال التحري لمكتب الجريدة صارت أكبر من الاحتمال، ولم يجرؤ على مفاتحة فياض، فاتصل بالدكتور الشهبندر الذي استدعاهما:

ــ فياض. أنا أغبطكما ــ كان يتكلم ببطءٍ محرجٍ ــ أنت وإياد استطعتما أن تخلقا لنفسيكما قُرَّاء، ليس هذا فحسب، بل واستطعتما رفع مبيعات الجريدة كثيراً، ولكن...

ــ لكن.. ماذا؟

ــ رجل كخليل بك ــ وتلعثم قليلاً ــ لاتعرفون هذه النوعية من الناس جيداً.

وانبرى إياد: بل نعرفه جيداً، كل مايهمُّهُ من الصحيفة والصحافة هو رصيده في البنك.

ــ هذا صحيح، وكنت قد قدرت أنكما تفهمانه، ولكن. هنالك شيء آخر.

ــ همم.. هَزَّ الفَتَيان رأسيهما يستحثّانِه.

ــ العالم غارق حتى أذنيه في الاستعداد للحرب. وأعتقد أن.. علينا أن.. نهدىء من اندفاعاتنا هذه الأيام حتى لاننزلق.

ــ لاأفهم. قال فياض.

ــ سأفهمكما. العالم الحرُّ كلُّه الآن في خطر. الفاشية تهدد العالم كله بالانهيار. حضارة الإنسان كلها مهددة بالفناء.

وقال فياض في إلحاح عنيد:

ــ ولكني لاأفهم.. ماعلاقة هذا كله بنا وبالجريدة؟

ــ آه! العلاقة كبيرة. الإنكليز والفرنسيون يعدوننا بالاستقلال التام حال تبينِ مابعد هذه العاصفة.

ــ ولكن ــ هتف فياض في نزق ــ لِمَ يجب علينا انتظار انجلاء العاصفة؟ لم لا ننغمس فيها كانغماسهم حتى إذا انتهت لصالح من حالفناهم كان الاستقلال مكافأتنا، وإن كانت لخصومنا، فلن يكون الأمر أسوأ مما عليه الآن.

ــ لا يافياض. لا. أنت مخطىء. ليس الأمر بهذه البساطة! لايمكنك أن تضع العالم الحر الديمقراطي، والعالم الفاشي في سلَّةٍ واحدة.

ـ ولكنا رأينا وعانينا وعرفنا مظالم العالم الحُرِّ.. دعنا نجرب العالم الفاشي.

ـ فياض يبدو أن الحوار سيتطور. مانتكلم فيه الآن سياسة، ليس سياسة مرحلية بل سياسة العمر، الاستراتيجية الثابتة للجنس البشري. نحن والغرب الحر الديمقراطي لسنا بالضرورة خصوماً إلى الأبد. إنْ هي إلا غيمةٌ وتنجلي، وعندما ننال استقلالنا، ونبدأ بالتعامل معهم على قدم المساواة، فستتغير أشياء كثيرة.

كان فياض يصغي إلى الشهبندر ويرى وجهه يموج كمن يرى صورته تنعكس على الماء. كان الوجه يميسُ، ويموج، والملامح تختلط، دَعَكَ عينيه بسرعة، لا بد أنه الدوار، يعرف ذلك، إنه الدوار فعلاً، وإلا فما الذي جعله يرى الأشياء تختلط بهذا الشكل؟!

وقال له إياد وهما يدخلان المربع الكبير:

ـ هه. مارأيك؟

كان فياض حائراً لايريد استمرار الحوار، فقال:

ـ سأظل ممسكاً به من وعده، اكتبا ماتشاءان، الجريدة مفتوحة لكما، أنسيت؟

كانت ليلة طويلة على فياض، ليلة حاول فيها استدعاء الرؤيا، اصطناعها، تحريضها، استدعى أسامة، استدعى عرنوس، استدعى غليام، استدعى أندرونيكوس، ولكنهم جميعاً أداروا ظهورهم له، كانت هناك أسئلة كبيرة وكثيرة يجب الإجابة عنها، ولكن لا جواب، وحوار اليوم واضطراب الهدف جعل الأمر أكثرَ صعوبةً أمام فياض.

ولكن الأمر الأكثر صعوبة كان امتحان اليوم التالي، حين أيقظه إياد قائلاً:

ـ الساعة الحادية عشرة، قُمْ يارجل.

وبكسل قال فياض: لماذا؟

ـ آه! لماذا؟ لابأس.. هناك رجل ينتظرك في غرفة الضيوف، ويريد الحديث إليك.

نزل من الفرنكة التي اختارها سكناً له منذ قرر العيش مع إياد في البيت الكبير الخالي إلا منهما، مضى إلى غرفة الضيوف نصف العتمة، تلك التي استقبل فيها ماتيلد للمرة الأخيرة، فتح الباب و.. كان نجدت..

تعانقا، تعانقا طويلاً، عناقاً أيقظ العناق القديم عند أبواب القلعة ـ الخرابة ـ واستيقظت روائح الثوب العسكري المثقل بالعرق، واستيقظ الولد القديم المحتاج إلى ربتةِ حنانٍ، ابتعد عنه قليلاً، تأمله.

ـ أرجو ألا تعجب كثيراً لقدومي.

لكن فياض بمجاملة بدأ يتعلمها قال:

ـ بل كنت أعجب لو لم تقدم.. هه، حدثني كيف أنت؟

كان واضحاً ارتباك نجدت:

ـ أقرأ ماتكتب في الأضواء.

ـ أعجبتك؟

ـ جداً.. ولكن.

بدا الأمر كان روجيه يعود، والمحاسبات والاعتذارات ترجع ثانية، فهرب فياض إلى المجاملات والقهوة مبتعداً عن الحقل الخطر، ولكن نجدت كان يجيب بارتباك جعل فياض أخيراً يغامر:

ـ ماالأمر ياعم نجدت؟

مدَّ كفَّهُ إلى جيبه العلوي فاستخرج لفافة:

ـ معي رسالة.

وهمس فياض لنفسه: روجيه ثانية؟!

ولكن نجدت تابع:

ـ كانت قد تركتها لدي قبل سفرهما طالبة ألا أعطيها قبل شهرين من سفرهما.

ـ ماتيلد.

وهز رأسه: نعم. ولكني آسف لم أستطع القدوم قبل الآن، فقد كنت في مهمة في الجزيرة.

ـ لابأس.

استخرج الرسالة من لفافتها. كان من الواضح أنه كان حريصاً جداً على العناية بها، أعطاه الرسالة واستأذن. ألحَّ على بقائه على الغداء، فاعتذر، ومضى بسرعة.

وحين فتح الرسالة فوجيء برزمة من المال، وعرف أن مارفضه يوم وداعهما يعاد إليه، وقال إياد: ولكن، ماذا ستصنع بكل هذا المال؟

ـ لن أمسَّه.

ـ ولكن..

ـ لن أمسَّه.. يجب أن يعود إليهما.

قال بإصرار جعل إياد يهزُّ كتفيه:

ــ أنت حرٌّ.

كان فياض يظن نفسه حُرًّا بالفعل، فها هو يعمل في جريدة الأضواء، ويكاتب النهار في بيروت، ويتعارك أحياناً مع خليل بك، والأمور ليست سيئة. فهو يقول رأيه، ويعتقد أنه يشارك في الكشف عن تواطآت الحُكْمِ مع المستعمر، وعن أخطاء وإساءات الفرنسيين، وكان الأمر يتنقل بين المد والجزر حتى جاء اليوم الذي لمْ تُنْشَرْ فيه افتتاحيته عن حكومة المديرين، فلما مضى إلى خليل بك يستفسر فوجيء بوجهه الجديد كثيف الغضون ممسوح الملامح:

ــ أنت لاتعرف ماتصنع يافياض. أنت ستورطنا في أمور أكبر منا.

ــ وهل الكتابة عن لا دستورية وعمالة حكومةِ بهيجِ الخطيب ورطة؟

ــ نحن لسنا في صراع معهم الآن. أنت تعرف.. نحن الآن في حرب. صحيح لم تصل إلى سورية، ولكنها الحرب.. وأمور الحرب...

ووجد فياض نفسه يقول بحدة:

ــ فما الذي تريده الآن؟

ــ أن تخفف من غلوائك، ترتاح قليلاً، أنت تجهد نفسك، مقالان يوميان للأضواء، ومقال للنهار. هذا كثير!!

وبصرامة قال فياض: ماالذي تريده بالضبط؟

ــ قلت ماأريد لتوي.

ــ ولكن، ليس هذا مااتفقنا عليه.

ــ لاأفهم.

ــ اتفقنا على أن أكتب ماأشاء والصحيفة مفتوحة لي.

ــ ياعزيزي. ياعزيزي.

وبدأت الصدامات، وانتقل الأمر ثانية وثالثة ورابعة إلى الشهبندر، وفوجِىءَ فياض بالشهبندر يقفُ إلى جانب خليل بك، فالوضع خطير ولابد من كوابحَ بين الحين والآخر و..انسحب فياض من مجلس الشهبندر، وانسحب أيضاً من.. الجريدة.

وقال إياد:

ــ ماذا ستفعل الآن؟

نظر فياض عبر النافذة إلى البحرة تدفق ماءها الهادىء وقال:

ــ لاأعرف. أنا حائر.

ــ ولِمَ الحيرة؟

التفت إليه مندهشاً. أهو يسأله عن سبب حيرته.. إياد؟ ياإلهي!

كانت ليلة عصيبة أخرى قد قضاها منذ غادر الجريدة. كان حائراً وغاضباً. ليلة قضاها يفكر، وماذا بعد؟ قضاها يفكر، فهي المرة الأولى يتاح له فيها الخروج من دوامة العمل ومطاردة الأحداث ليقفَ جانباً ويتأمل كل شيء. ثلاث سنوات في دمشق. ثلاث سنوات من معارك وتهديدات. وماذا بعد؟ أهذا ماتركت من أجله فرنسة، والجامعة، وروجيه، وماتيلد، وراحة البال؟ أهذا ماجعل عرنوس يلحق بأسامة متخلياً عن بغدوين، وملك جزائر الغلف؟ أف! ياإلهي! من كان يظن أن يقول إبراهيم الحوراني لعرنوس: خَفِّفْ من غلوائك قليلاً. خَفِّفْ من اندفاعك. ولكن، ياإلهي! مايريد فياض واضح وصريح ولا يحتمل اللبس: أن تخرج فرنسة من

كامل أرض الوطن، أن تخرج فرنسة بآخر جندي من أرض الوطن، أن يعود الوطن لأسامة وعرنوس ومعروف وإبراهيم الحوراني، ولكن حسيبة ستقول له حين سيحدثها عن هذه اللحظات الصعبة في حياته: وماذا بعد؟ ماذا بعد خروج فرنسة يافياض؟ وسيكتب فياض في دفتره الجريدي: لم أفكر في ذلك الحين في هذه الما بعد، كان ماأُفكِّرُ فيه جلياً لايحتمل اللبس، الاستقلال. ولكن الشهبندر حين حدثني عن حلفنا الأبدي مع الديمقراطيات ضد الفاشيات، ولكن.. مالي أنا وللديمقراطيات والفاشيات؟ ولمَ ندخل في هذه المناقشات السوفسطائية وفرنسة ماتزال في سورية؟ لنؤجل هذا حتى رحيلها. ولكنه سيضيف وهو يتنهد: وكان عليّ وعلى جيلي أن يدفع غالياً ثمن حُسْنِ النية البسيط هذا.

بعد يومي تفكير وهروب من المواجهة قال إياد يحاول المصالحة:

ـ فلِمَ لا تكتب في صحف الكتلة الوطنية؟

ـ ماذا؟ وأطلق ضحكته الحزينة المتظاهرة بالمجون يقلِّدُ إياد ولايستطيع:

ـ عزيزي إياد، عزيزي إياد ولكنهم أيضاً لايريدون طعن فرنسة الآن.

مضى إياد، وتركه في الفرنكة وحيداً: ماالعمل الآن يافياض؟! ماالعمل؟

اضطربت الصور، ماجت، واختلطت، القلعة ـ الخرابة. كنيسة المادلين، صوفي وإيفون. سجن القلعة، ماتيلد ووحيد بك، لم يستطع الصمود، فنزل يحاول الخروج، ولكن إياد قال:

ـ اسمع. دعنا نتغذى في الخارج. أنا أدعوك.

لم تكن الفكرة سيئة: أين؟

مضيا إلى الصوفانية. جاءهما خادم المقهى بسمك بردى المشوي، شربا بعض العرق، وتذكر فياض فجأة أنه لم يشرب منذ سفرهما: كيف؟ ياإلهي! أية دوامة كنت فيها؟! تأمّل أغصان الصفصاف المتهادية، قامات الحور السَّامقةِ، السواقي الرقيقة تتغلغل بين الطاولات، البطات البيض والحمام الهزّاز وهتف:

ـ إياد.. مايزال العالم جميلاً.

وقال إياد:

ـ العالم كان دائماً جميلاً، ولكنا نحن من ابتعد عنه.

تأمل الرواد. كانوا جميعاً من الرجال. وللمرة الأولى يذكر أنه لم يعرف امرأة منذ ترك باريس. شرب كأسه الثاني فرأى الحمائم تطير في السماء وأوراق خريف ترفُ في هدوء، فذكر صوفي قال: آه كم ضاع من العمر! وقال إياد: لم يضع شيء.

شرب الكأس الثالث، فرأى غيوماً حمراً ترقُ، وتشفُ، وتتهادى عند الأفق، فقال:

ـ كان يمكن للعمر أن يكون أكثر جمالاً لولا....

وقاطع إياد: فياض. لمَ لا تعمل وحيداً؟

التفت إليه فجأة: وحيداً! كيف؟

ـ تنشيء جريدتك المستقلة باسمك. تقول ماتريد، وتنشر ماتريد.

ـ أُنشِيء جريدة؟ والأمر بهذه السهولة؟ وأطلق ضحكته نصف الماجنة ـ وبسهولة يعطوننا رخصة؟ أنسيت أنا في عهد بهيج بك؟

ـ ليس من الضروري الحصول على رخصة جديدة.

حطَّتِ الحمائم، واختفت السحب، ولاحظ أن عتمة خفيفة أخذت تحط على المكان:

ـ نعم؟

وأكد إياد: صحيح. تشتري أو تشارك في جريدة ذات رخصة.

ـ ومن أين لي بالمال؟

ـ أنسيت ماتركته لك ماتيلد؟

كان فياض قد نسي الأمر تماماً، نسيه منذ أن غادر نجدت على عَجَلٍ، وكأنه يخاف أن يتراجع فياض عن استلام الأمانة. نسيه بعد أن راجع النفس وأودعه البنك مقرراً إعادته إليها حال معرفته بعنوانها، وحين عرف كانت.. قد ضاعت إلى الأبد.

وتابع إياد:

ـ سأشاركك لو شئت. سأكتب في جريدتك، وبهذا لن نتركهم يتحكمون بنا.

طارت الكؤوس الثلاث، واختفت السواقي، وطارت الحمائم، وتبددت السحب، وعاد إلى أرض الواقع، الأرض التي ستنشأ منها جريدة الصرخة إذ يبدو أن إياد كان واثقاً من موافقة فياض، فأجرى اتصالاته، وسأل عن الجرائد الضعيفة والمُفْلسَة حتى اكتشف جريدة الصداقة التي لم تكن بالجريدة الكبيرة ولا المهمة. لم تكن بالجريدة المقروءة أو المحبوبة، وربما لم تكن لتستطيع الاستمرار في الصدور لولا مساعدة مكتب المندوب السامي وديوان المطبوعات.

قال إياد:

ــ لقد تحدثت إليه، وهناك موعد بيننا في الحادية عشرة.

ــ أين؟

ــ في مقهى البرازيل.

ــ ماذا؟ تريد لنا أن نلتقي به في البرازيل؟! وماذا سيقول الصحفيون والأصدقاء والخصوم لو رأونا نجلس معه على طاولة واحدة.

فوجىء إياد باعتراض فياض المنطقي، ولكنه في لا مبالاة أكمل:

- ياسِيْدي!

ــ لا. دعنا نفكر في مكان آخر للقاء.

وفكرا، والتقوا في الشادروان، كان المكان هادئاً معزولاً وخرير بردى الهادىء يطامنُ من فورة التوتر، كانا قد سبقاه إلى المكان، واختارا طاولة قريبة من النهر، طلبا نارجيلتين، أخذا يتسليان بتدخينها في انتظاره. وقال فياض متحمِّساً: سنتخلَّصُ من تأثير الجميع، ستكون لنا جريدتنا الخاصة نقول فيها مانشاء.

ــ ولكن ــ قال إياد يهدِّىء من اندفاعه ــ سنتحمَّل أيضاً خسائر الإيقافات والمصادرات، وربما.. الاعتقال، فنحن صاحبا الجريدة.

وقال فياض وهو ينتزع مبسم النارجيلة من فمه متجاهلاً نبوءة إياد التي سيذكرها كثيراً فيما بعد: اللي بودِّه يسكر مايعد الأقداح.

نظر إياد إلى الآخر مندهشاً لهذا البرود في التعليق، ولكنه قبل أن يقول شيئاً رأى عند مدخل المقصف كهلاً نحيلاً يتقدم في هدوء، يتقدم

متسللاً كمن يخاف أن يتلقى صفعة أو يُستَقْبلَ بإهانة من مكان ما

- هاهو.

تأمله فياض جيداً، إذن فهذا هو نبيل حمدان الشهير، هذا هو الرجل الذي لم يعد يحتمل حصار الناس وغضبهم منه، فقرر أخيراً بيع جريدته، وهمس إياد: لاتلِنْ معه في المساومة، لقد نال من الضرب مايكفيه في الأسبوع الماضي.

ولم يلن له فياض، وساعده إياد، واستطاعا شراء الجريدة بخمسة آلاف ليرة فقط. قال: مبروك. أرجو أن تستطيعوا أن تفعلوا بهذه الجريدة مالم أستطع فعله.

وحين قاموا للانصراف جرَّ فياض جانباً وهمس، وربما كانت هذه هي المرة الأولى في حياته يحاول أن يكون مفيداً: الجريدة بعتها، وأنت صرت مالكها، ولكن، انتبه لنفسك. لقد وصلتني تهديدات بحرق الجريدة.

وضحك فياض: أوقد بدأت التهديدات منذ الآن؟

وسيكتب فياض في دفتره جريدي الورق: كان عليّ أن أعرف ولو بعد حين أن التهديدات كانت صحيحة، ولو أنَّ من أحرقوها لم يحرقوها للسبب نفسه. وقال إياد وهما يغادران الحنطور: يجب أن نتفق مع المطبعة اليوم.

واتفقا، وبدأت سلسلة المقالات المحبوسة في القلب، بدأت الأحزان الخفية عمرها عمر القلعة وغليام في الظهور، وكان عليه أن يجابه للمرة الأولى بنفسه نصائح الهواتف، وتلميحات الهواتف، ثم تهديدات الهواتف، ولم يُبالِ، فبدأت سلسلة مصادرات أعداد الجريدة من المطبعة مرة، ومن

أيدي الباعة أخرى، ولكن التيس الشيزري رفض أن يتوقف.

قال إياد بعد إيقاف استمر أربعين يوماً: فياض لو نُطَرِّي لساننا قليلاً.

نظر إليه فياض مندهشاً:

ـ نُطَرِّي لساننا؟ أنت تقول هذا؟

ـ عزيزي فياض.

رنَّت كلمة ***عزيزي فياض***، ففاجأت فياض، فهو لم يكد ينساها منذ قالها خليل بك، رنَّت فوشت بالعطف على الغبي لا يفهم الزمان، رنَّت فنمَّت بالسخرية لا تجرؤ على التصريح، رنَّت فذكَّرت باكتشاف الآخر الساخر في ثياب الصديق، أُصيبَ فياض بالبُكمِ. فأكمل إياد يفسر ***(عزيزي):*** الألمان احتلوا بولونيا، الطليان يتحركون إلى يوغوسلافيا، والإنكليز والفرنسيون أعلنوا الحرب على ألمانية، والعالم كله مكفهرٌ. لنقطف رمانة لبعض الوقت.

ولكن فياض لم يستطع إحناء رأسه للعاصفة، فتوالت الإيقافات، وتوالت التهديدات، وهاجم الألمان فرنسة، وأوقفت الصحيفة مع صحف كثيرة، وتوتَّرَ الجو، توتَّر حتى صار بالإمكان لمس توتره بالأصابع المجردة، وأعلن المارشال ***(بيتان)*** انسحاب فرنسة من الحرب وإقامة حكومة فيشي.

لم يصدق إياد، ولم يصدق فياض، ولم يصدق الناس، فتوقفوا حائرين: أهذا معقول؟ باريس القوية، باريس غورو وسراي تسقط بيد الألمان وبهذه السهولة؟!

وذكر فياض غليام لوبلان، وذكر سداد الدين، وذكر سيدي عامود،

وذكر سجن القلعة، ذكر وحيد بك وجنود السنغال والليجيون ايترانجيه، واستيقظ التاريخ والحزن، ووقع البسطار على السنابل، والوجوه المحروقة، وغزالة العُوَيِّدْ تُلوِّحُ بلفحتها في العاصي التلويحة الأخيرة، و.. كتب مقاله الذي سيدخله فيما بعد إلى بيت حسيبة الذي لم يدخله رجل منذ وفاة حمدان: اللهم وشماتة.

(٣١)

كانت الغرفة كبيرة، ولكنه كان شبه ذائحٍ فلم يلحظ الدهليز الطويل، ولم ير البحرة، ولاشجرتي الدراق الزهري، لم يلحظ النارنجة ولا الياسمينة العراتلي، إذ كان قد تعلَّم أدب الشرق في الإطراق عند الدخول إلى منزل فيه نساء. سمع إياد يهمس عند الباب وتمزق القلب، أوَقد صار شحاذاً آخر الأمر؟! أصاخ قليلاً ولكن طحين الأصوات لم يستطع أن يميز منها إلا سينات وشينات، رفع رأسه قليلاً، راقب السيف الطويل الصدىء في غمده، تأمَّل السروال الجلدي المتقشِّر والترس المُدوَّر، لحظ خناجر وطبنجات وبندقية عثمانية وكامة معلَّقة على الحائط العالي، العالي جداً، حتى معانقة السقف المزخرف بالنقوش الشامية صارخة الألوان الحمر والخضر والفيروزية.

طال الهمس وناست الغرفة بين العتمة وبين النور المتسرب عبر النوافذ المستورة بستائر بيض ثقبتها تطريزات تبعث على السكون والهدوء والراحة والإحساس بالبعد عن العالم الضَّاجِّ في الخارج.

انتبه أخيراً إلى خرير البحرة في الخارج ينادي بهدوء داعياً إلى الاستلقاء والاتكاء وتأمُّل العالم، كان كل شيء حوله يدعوه إلى

الاسترخاء، والبعد عن العراك، والصراع، ونسيان روجيه وماتيلد وإيفون وصوفي ومادلين وباريس والسنغال والتفجيرات و.. الحريق الملعون وموت الصديق الأب..

وللحظة تمنى لو ولد في هذا البيت، وعاش فيه، واستسلم لهدوئه بعيداً عن كل هذه الأعاصير، تمنَّى لو يستسلم للَّحظة الهادئة المسترخية الناعسة الساكنة إلا من هديل بعيد، ووشوشات تحارُ بين أوراق الشجر ورفرفات العصافير، ولكن الصوت علا فجأة، لم يَعْلُ، بل صار مسموعاً. كان إياد:

ـ يجب أن تحبيه. إنه شخص متميز، ثم.. إنه منقطع. ولاأهل له في البلد.

كانت الطعنة قاسية. ياإلهي! كيف يجرؤ؟! التفت إليهما وكانا يدخلان. هي بوجهها الصامد الهادىء قوي الملامح، الرصين، المتفحص، وإياد بوجهه الذي أخذ يميل إلى السمنة الرخية، تفحصته العينان السوداوان الواسعتان، لم يكن تفحُّصَ شكٍّ، بل تفحُّصاً، مجرد تفحص، بل ربما كان تفحص الودِّ.

فهرب منها يتأمل نقوش غطاء الكنبات الدامسكو التي صدمته بنقوشها، ذاتُ الفارس المشرع رمحه مهدداً.

اقتربت، فرفع رأسه إليها ثانية، كانت ماتزال تتفحصه شاردة بوجهها المؤطر بالمنديل الأبيض السابغ حتى ليكاد يغطي ثوبها الأسود الطويل، والتفتت إلى إياد وهمست، ولم يدر فياض لمَ كانت تهمس؟ فقد كان يسمعها إذ جلسا على الديوان المواجه: لابأس سأعطيه الفرنكة العلوية.

ــ ولكن الجيران قد يلمحونه. أو يسمعون صوته.

ــ لم تتركني أكمل، وسأغلق النافذة المطلة على الباحة تماماً، أما عن الجيران فهذا شأنه. عليه ألا يجعلهم يرونه.

ــ ولكن..

ــ لا. لا أستطيع جعله يسكن معنا في الدار. أنت تعرف. أنا امرأة وحيدة، وليس معي في هذا البيت إلا زينب، وهي ماتزال طفلة وأنت تعرف ألسنة الناس.

فتمتم محرجاً: آه! بالطبع. بالطبع ــ وتأتأ قليلاً ــ فقاطعته بسرعة:

ــ لاتكمل. إنه لاجِىءٌ إليَّ، ويكفيني هذا إسهاماً ضد الفرنسيين.

ــ آه! أم عمر، أم عمر، أنت تقولين يكفيني هذا؟ الكل يعرف عن إسهاماتك القديمة.

ــ حسن. اصمت الآن. لاتدعنا نفتح الدفاتر القديمة.

قامت، فراع فياض طولها المليء، لم تكن قد تجاوزت الأربعين، كانت ماتزال تحتفظ بكل فخامة المرأة الناضجة، نظرت إليه نظرتها المتفحصة الثابتة، فهرب منها إلى الأرض لاجئاً إلى التقاليد التي تمنع النظر إلى الغريبة.. قالت:

ــ تعاليا. سأريكما الغرفة.

ومشت أمامها فتبعاها.

* * *

كانت حرقة المقال وقسوته أكبر من أن يحتملها إياد فهتف منزعجاً:

ــ فياض. لن تنشر هذا المقال!

حدَّق فياض فيه عابساً: لماذا؟

ــ سيثير ضدك كل الناس.

ــ لن يثير إلا أجراء فرنسة، أما الناس، الناس الحقيقيون، فسيسعدون كثيراً لسماعهم صوتهم السِّريَّ يصرخ.

ــ ولكن.

ــ أنا لاأفهمك ياإياد. المقال يتحدث عن هؤلاء الجبابرة الذين نراهم ها هنا في المستعمرات يتبخترون أمام المدنيين العُزّل، المقال يتحدث عن المتعجرفين المتباهين في بلادٍ لا تملك حريتها السياسية، ولا الاقتصادية، ولا العسكرية، فأية رجولة في أن يمشوا فيها مرحاً؟!

ــ ولكنك تعلن شماتتك.

ــ طبعاً. فها هم يظهرون على حقيقتهم حين تقدم المارد الألماني، فداس على شرفهم، واحتل عاصمتهم، أين سراي الآن، بل أين غاميلان؟ بل أين ماجينو وخطه الشهير؟

وسيكتب فياض في دفتره الجريدي حين يذكر كل هذا: بل أين روجيه؟ ذلك الذي علمت فيما بعد أنه قضى عند خط ماجينو؟

واندفع إياد يخطف مخطوط المقال ليقرأ: أنا لن أقول كما يقول مواطنيٌّ عادة في تواضع، اللهم لا شماتة، بل أقول وبملء الفم: اللهم وشماتة.

التفت إلى فياض: أيرضيك هذا؟! أيرضيك؟

وكان ماتوقعه إياد صحيحاً، فلقد انهالت الهواتف تحتج على هذا التطرف. انهالت تحتج على الموقف غير المتعقل، كانت الهواتف من أولئك الذين كانوا يقودون الثورة منذ سنوات، فإذا بهم رجال التعقل والرصانة اليوم.

ـ لا. لا يجب الشماتة بالعدو المجروح يافياض.

ـ لا. ليست هذه أخلاق العرب.

ـ لا. فنحن في النهاية أبناء الديمقراطية. لن نكون أبداً حلفاء للنازية.

ولكن فياض لم يكن أبداً حليفاً للنازية، لم يكن أبداً ممن يؤمنون بفاشية الحكم، وكيف يكون حليفاً للنازية وهو من تعلم الحرف في السان جوزيف، ورُبِّيَ على أيدي روجيه وماتيلد؟! لم يكن حليفاً للنازية، وكيف يكون، وذكرى روجيه وماتيلد وصوفي ومادلين وإيفون حية في القلب؟! ولكن.. منظر المتعجرفين في الزي العسكري في دمشق والذين لم تضع الهزيمة من عجرفتهم وتجبرهم كان جارحاً، فلقد سارعوا إلى تغيير ولائهم إلى فرنسة فيشي وسادتها لا لشيء إلا ليظلُّوا حكاماً في سورية ولبنان.

وانتظر فياض. انتظر طويلاً سماع الصوت الآخر، صوت أولئك الذين كان يتمنى سماع صوتهم، ولكنه، أبداً لم يسمعه، وفيما بعد وحين يتحول إلى دكنجي سيكتشف أنه لم يسمعه لسبب بسيط هو أنهم لم يكونوا يعرفون.. القراءة، بل لم يسمع صوتهم لأنهم كانوا مشغولين في تلك الأيام بالوقوف في الطابور الطويل لساعات أمام الأفران ليحصلوا على حصتهم من خبز الوثيقة. لم يسمع صوتهم لأنهم كانوا مشغولين بالبحث عمّن يوصلهم إلى مهرِّبٍ يبيعهم كيلو سكر. لأنهم كانوا خائفين من هذه

الحرب لا ناقة لهم فيها ولا جمل، خائفين من هذه الحرب التي لم تأتهم إلا بالمعاناة والجوع وإطفاء الأنوار والمزيد من عبء البسطار على رقابهم.

وقال إياد:

ـ لن تكمل سلسلة المقالات هذه.

ـ هذه جريدتي وسأكتب فيها ماأشاء.

ـ وماذا عني أنا؟

ـ تستطيع الاستمرار أو التخلي!

وللمرة الأولى يختلف الصديقان، وللمرة الأولى يجد فياض أن عليه أن يجد لنفسه مسكناً آخر، و.. انتقل إلى حي الشريبيشات، لم يكن البيت بعيداً عن بيت إياد، ولم يكن يقارن به فخامة، ولكنه كان للمرة الأولى بيته الخاص، بيت صغير من غرفتين وباحة، كان كافياً تماماً، فماذا يريد أكثر من غرفة للنوم وغرفة يستقبل فيها الأصدقاء ويكتب؟ فهو لم يعد يجرؤ على الظهور في الشوارع بعد تهديدات الهواتف، كان انتقاله من بيت إياد صائباً، فلقد هاجم رجال التحري بيت إياد فلم يجدوه هناك، ولم يدلهم بالطبع على البيت الجديد، الذي بدأ فيه فياض كتابة المقال الثالث في سلسلة ***اللهم وشماتة*** التي وعد بها القراء، والذي كان مقدراً له أن يظهر في بداية الأسبوع، أي بعد انتهاء عقوبة إيقاف الجريدة.

أنهى فياض المقال. نشّفه. وضعه في مغلف في انتظار مرور عامل المطبعة.. وضعه فوق المقالات الأخرى التي جاء بها المحررون الآخرون حين طرق الباب.

كانت الطرقات عَجِلةً عصبية، فخاف. ليس هذا موعد عامل

المطبعة، فمن يطرق الباب؟ تكرر الطرق، وكان سريعاً، وللحظة فكر في عدم الردّ، فلعل الطارق ييأس فيمضي، وكأن الطارق أدرك نيته إذ سمع فياض همساً أقرب إلى الصراخ: أنا إياد.. فياض افتح.

تنفس الصعداء. مضى إلى الباب مسترخياً يهيىء نفسه للعتاب والتلاوم والاعتذارات وعودة المياه إلى مجاريها. فتح الباب.. وفوجىء بإياد.. كان السواد يعلوه، وكان صوته يرتجف قريباً من الانهيار.

ـ فياض. فياض. كارثة. كارثة حقيقية.

كان يرتجف والانفعال يكاد يسقطه. أمسك بيده في عطف: هيه. اهدأ.. اهدأ ماذا حصل؟

ـ الجريدة.

ـ مابها؟

ـ أحرقوها، الكلاب.

ـ ماذا؟

ـ أحرقوها.

ـ هل جننت؟

ـ لا.. لم أُجَنَّ، لقد جئت من هناك لتوي.

أسرع فياض يلبس حذاءه، ويجري إلى الباب حيث إياد والعربة المنتظرة حسب طلب إياد.

لاحظ فياض مجموعات من الناس متحلقة ومياهاً سوداء على الأرض. قفز من العربة ليفاجأ بالجريدة، جريدته هو، جريدة العمر والأمل الذي وهبه نفسه وقد تحولت إلى شرفة سوداء وأثاث محروق

أكمل عليه رجال الإطفاء بمياه خراطيمهم، فأتلفوا كل شيء.

قفز الدرج ببضع قفزات ليرى الأرشيف والمكتبة الجميلة والسجاد والمكتب وقد تحولت إلى فحم ينزُّ الماء الأسود القذر. تأمل إياد فياض ينهار وقد ارتخت ساقاه، فيستند إلى الجدار ولكنه ينزلق ليتماسك أخيراً مقرفصاً يتأمل ماتبقى له، ويهمس غير مصدق: لماذا.. لماذا ياإياد؟

أراد إياد ألا يجيب، ولكن الجواب تسرَّب مسرعاً: أنت تعرف لماذا؟

ـ كنت أتوقع الاعتقال.

ـ لم يجدوك في بيتي.

وكرر في صوت أقرب إلى البكاء: كنت أتمنى لو اعتقلوني!

ـ ربما عرفوا ذلك، فرأوا حرمانك من أمنيتك.

ـ فيحرقون الجريدة؟

نظر إياد إليه من فوق وتهانف في سخرية:

ـ أتعرف مَنْ أحرقها؟

ـ الشعبة السياسية طبعاً.

ـ أبداً.

ـ فمن؟

ـ الجماهير، الناس الذين أردت إيصال رسالتك إليهم!.

احتقن الدم في وجه فياض:

ـ لا. إياد. لا. لا. إكراماً لله.

ــ بل هو الحق.

ــ من أجل المقال؟

ــ لاأعرف، ولكن من أرسلهم لم يُفْهمهم ولا شك أن الجريدة قد تغيَّرَ مالكُها وروح كتابتها. أتذكر مالكها السابق والضرب الذي ناله؟!

سمع الشابان خطوات تصعد الدرج، فتوفَّز إياد في خوف بينما ظل فياض على جلسته المضحكة يندب حظَّه.

ــ فياض. قُمْ.

ــ لماذا؟ أنَّ في استسلام.

ــ أقول: قُمْ.

ولكن فياض لم يستطع القيام رغم أنه حاول قبل أن يدخل خمسة من الرجال يلبسون الشروايل والميتان، ويلقون بكوفياتهم على أكتافهم في إهمال. وصرخ أولهم حالما رآهما:

ــ من فياض الشيزري بلا صغرة؟

وأسرع إياد يجيب:

ــ لماذا. مَنْ يريده؟

فكرر الأول وهو يدفعه في صدره بغلظة:

ــ أنا اللي يسأل. ماأنت.. فاهِمْ؟

وسارع الثاني يشده من كتفه:

ــ نحنا اللي نسأل ياخائن الوطن!

تماسك فياض، وقد أدرك مايجري، فانتفض واقفاً ليبعد يدي الجلف

الممسك بخناق إياد: ابعدْ يدك عنه.

ـ من أنت؟

ـ أنا فياض الشيزري، ماذا تريد؟

ـ أنت فياض الشيزري؟

وكأنهم لم يكونوا بحاجة إلا إلى هذا التصريح لينقضُّوا عليه جميعاً ضرباً ولطماً، وحين حاول إياد التدخل كان نصيبه لطمة جعلت مالم يسود من ثيابه يَسْودُّ إلى الأبد بماء الحريق الأسود العائم في أرض الغرفة.

ـ ياجماعة. ياجماعة. عيب.

كان يمكن للجماعة أن تقضي على فياض تماماً لولا أن مهمتها كما يبدو كانت محصورة عند هذا الحد إذ تدخَّلَ أولهم فجأة فأوقفهم: يكفي يارجال يكفي. ـ ثم التفت إلى فياض ـ إن شاء الله هالدرس كافٍ لأمثالك من الخونة!

اتجه إلى الباب، فلحقوا به تاركين فياض لوجهه الدامي وثيابه السود وإياد يحاول مساعدته على القيام.

وكان السؤال الذي أضناه طويلاً طويلاً وحتى بعد الكارثة الفاجعة تتلوها بعد يومين: لماذا؟ لماذا يُكَافَأُ بهذه المكافأة القاسية، وممَّن؟ من الناس الذين أحبهم وتمنى أن يراهم السادة في وطنهم؟

لم يستطع الإجابة عن هذا السؤال، ولكن خليل بك، خليل بك فقط، سيجيبه عنه بعد سنوات، سيجيبه.. بعد أن عضتْه السياسة حتى أدمته، وجرحته التجارب المُرَّة والخيبات إذ قال:

ـ السياسة يافياض ليست أفكاراً فقط. وتحريك الجماهير ليس نيات طيبة فقط، وجعل الناس تسير من ورائك إلى ـ ربما ـ حتفها، ليس لعبة المثقفين ولا المفكرين، ولا المصلحين الاجتماعيين بل هي لعبتنا نحن. فَتِّحْ عينيك جيداً يافياض، إنها لعبتنا نحن.

وكان يعني بالنحن أولئك القادرين على شدِّهم من عواطفهم بأصواتهم المجعجعة وجيوبهم المخشخشة وليس من عقولهم البعيدة، البعيدة جداً.

لم يتوقف الأمر عند إحراق الجريدة، والضرب المهين، والوصم بالخيانة، فبعد يومين فقط جاء إياد ينقل الكارثة الحقيقية قال وقد تحول وجهه إلى زرقة مخيفة: فياض، وانهارَ فجأة، لقد قتلوا الشهبندر.

لم يُفاجَأ فياض كثيراً، صحيح أنه صرخ مجروحاً: لا. ولكنه كان يحدس أن كارثة كبيرة كان يجب أن تتمَّ بعد أن تجرأوا على إحراق جريدته، وضربه. صرخ مجروحاً: لا. وكان يعرف أن الشهبندر بتاريخه الطويل قد تحول إلى عقبة مزعجة في طريق الكثيرين.

قلَّبَ فياض الصحف التي حُمِلَتْ إليه، وقرأ المانشيتات المخيفة: مقتل الشهبندر، مصرع الشهبندر، استشهاد الشهبندر، وهتف في حزن: كلمات، كلمات فارغة لاتريد إلا أن تقول شيئاً واحداً: الرجل العظيم اختفى، وزير خارجية الحلم الفيصلي، قائد الثورة، روح النضال، مفاوض كرين، باعث روح الثورة من مصر اختفى.

لكن مالم يكن يعرفه فياض عرفه في اليوم التالي حين جاءه إياد في الغد ليخبره أن المدينة كلها تتهمه بقتل الشهبندر، وأن عليه الاختباء.

ـ أختفي! ياإلهي! إياد. هل جُنِنْتَ؟

ــ أنا أعرف براءتك جيداً، ولكن، وإلى أن تعرف براءتك من إدانتك سيحول الغوغاء جلدك إلى دربكّات.

وكانت دوامة الاختفاء والهرب من بيت إلى بيت، ومن مخبأ إلى مخبأ، حتى حطَّ الزمان بفياض في فرنكة حمدان الجوقدار، تلك الفرنكة التي آوت قبل خمسة عشر عاماً هارباً آخر، ومشمئزاً آخر، يائساً آخر كان اسمه صياح المسدي، تلك الفرنكة التي شهدت فيما بعد الورقة الساذجة المودعة تحت صحن المسبحة تقول: خذني إلى باريسك، فأنا أحبك.

حين مشت حسيبة تتقدم فياض وإياد، وتأمل فياض دون خوف ذلك الجسد العبل الناضج لم يكن يعرف أنها قد تأملته طويلاً وهو يراقب الفارس المشهر رمحه، تأملته محاولة سبر غوره ومعرفة حقيقته، ولكنها لم تستطع أن ترى منه إلا العينين الخضراوين والأهداب الطويلة والشعر الكستناوي المتمرد على الجبين.

وفيما بعد وبعد سنين طويلة انقضت بين وداد، وعراك، وألفة، وصدام قالت حسيبة تصفُ اللحظة الأولى لتعرفهما: كانت خيبتي فيك كبيرة، كبيرة جداً يا فياض، ولكن، آه! كان يجب أن أخمِّنَ هذا منذ البدء، فمثل هاتين العينين الخضراوين لا يستحقهما رجل، مثل هاتين العينين كان يجب أن تكونا لامرأة، لامرأة تُحَبُّ وتُعشَقُ وتجعل الآخرين يموتون من أجلها، أما أنت، آه! لا. ماكان يجب أن تكون هاتان العينان لرجل، رجل يفترض فيه أن يحمي النساء، ويكسب الأموال، وينزل إلى الأسواق، يحارب وينتصر، ثم يعود إلى البيت محملاً بالأموال والغنائم، لا. كان يجب أن أخمِّنَ هذا منذ البدء، وقبل أن تهدر كل ما تركه لنا أبو عمر من أموال. كان يجب أن أخمِّن هذا قبل أن أجعلك تفتح الدكان

وتفلسها، فأجعلك تبدأ من جديد لتفلّسَ وتجرّنا وراءك إلى الفقر والثرثرة الطويلة بلا معنى عن الحق والباطل والثورة والاستقلال.. لا..

ثم تتنهد في مرارة، وتضيف: كان صياح المسدي ـــ هكذا كانت تدعو أباها دائماً ـــ يتحدث عن الثورة، ولكنها كانت واضحة أمامه. هناك بغاة من الفرنسيين يجب أن يرحلوا لأن الكفار لا يجب أن يديروا بلدنا، وكان أبو عمر حين يتحدث عن الثورة يعرف مايريد، فالفرنسيون استولوا على الذهب السوري ليعطونا ورقاً بلا قيمة إلا ما يحددونه هم، ثم يجبروننا على تداوله، احتكروا الاستيراد والتصدير، لذلك يجب طردهم، لنأخذ مكاننا الحقيقي في البلد، أما أنت، فماذا تريد؟ هه.

كانت امرأة، امرأة حقيقية، امرأة جديرة بألاَّ تُترَكَ أرملة، كان هذا أول مافكر فيه حين أغلق عليه باب الفرنكة وحيداً، ومضت ومضى إياد بعد أن طلب إليه ألا يخرج إلى المشرقة فيراه جار ما، وألاَّ يفتح النافذة فيرى سكان البيت، أما إياد فسيمر عليه كل مساء حاملاً طعاماً وصحفاً وسكائر وأخباراً، ولكنها لم تنتظر قدومه إذ طرقت الباب، وجاءت تحمل صينية نحاس عليها.. وسيكتب فياض في دفتره الجريدي: هل أنسى أول طعام في ذلك البيت؟ الكوسا المحشوة والباذنجان والفليفلة والمرق البندوري خاص الطعم لم أذقه إلا في ذلك البيت، ذلك البيت الذي انحفر عميقاً، عميقاً في القلب والروح والذاكرة.

قالت: لابد أنك جائع. كل.

لم تكن تعرض، لم تكن تدعو، بل كانت تأمر، امرأة، أم، أخت، ولكنها كانت تأمر الطفل العاجز عن اتخاذ قرار بأن يأكل حتى لاينحل جسمه فيمرض. قالت: كُلْ. فأكل. سألت: إن أعجبه الطعام، فأصدر همهمة التذاذ. لم تكن تريد القيام، ولم يكن في جلستها فضول قدر ماكان

فيها الرغبة في مؤانسة الضيف الطفل حتى يشبع. قالت: شبعت؟ فقال: نعم. نادت سعدية، فحملت الصينية بأطباقها نصف الفارغة ومضت.

كان هذا اللقاء الأول. الأول والأخير إلى أجل بعيد، فلقد اكتفت فيما بعد بسعدية تحمل الطعام، تضعه على الطاولة وتمضي.

ولكنها حين مضت، تركت وراءها رائحتها العذبة الوديعة الهانئة، وكان عليه أن ينتظر شهوراً طويلة يخطب فيها زينب، فيُرفَضَ، ويهجر البيت إلى أن ترسل إياد يدعوه للعودة، فلقد وافقت على زواجه من زينب، ويدخل البيت هذه المرة زوجاً وصديقاً وممرضاً لحسيبة التي أصابتها اللقوة، تلك اللقوة التي ستغير من وجهها وتجعل من ذلك الوجه الصريح القوي الوجه الشَّاكَّ المرتاب الممرور أبداً، وكان عليه أن ينتظر شهوراً حتى يعرف أن تلك الرائحة كانت عطراً تصنعه بنفسها، عطراً تستخرجه من زيت الياسمين، عطراً يكفي أن تمسح بجانب إصبعها جانباً من عنقها حتى تلفها غيمة من الياسمين لأيام..

مضت، وتركته للغرفة المحايدة ليس فيها إلا مصحف وتفسير ودلائل الخيرات ورسالة القشيري، فقرأها، قرأها كلها حتى سئم القراءة والإعادة.

أسبوع كامل انقضى وبرنامج الحياة محدد، صحو، فطرق على الباب من الداخل وسعال خافت، فحركة سريعة توحي باختفائهن من الباحة، فنزول إلى الحمام وحلاقة الذقن، فرجوع إلى الغرفة ليجد

الفطور جاهزاً، فالإفطار وانتظار إياد يأتي مع صحف اليوم، وشتائمها، وأخبار البلد التي تبحث عن قاتل الشهبندر، والتي طال البحث فيها، فالجدال... والجدال، فالوحدة، الوحدة التي تثقل على القلب حتى يشهق، فللمرة الأولى يتلفت من حوله ليجد نفسه وحيداً، فليس من إيفون

وصوفي ومادلين، يتلفت من حوله وليس من روجيه وماتيلد وحنانهما، يتلفت من حوله، فلا يرى إياد الذي أخذ يباعد من مواعيد زيارته، يتلفت من حوله، فلا يرى الشهبندر الذي قتلوه ثم لايجدون من يتهمونه بقتله إلا الرجل الذي أحرقوا جريدته، لسانه ونتاج عمره ومبرر حياته، ثم لا يكتفون بهذا فيلصقون به تهمة قتل صديقه وأستاذه وحبيب عمره، يتلفت من حوله، فلا يرى إلا جدراناً أربعة وستائر بيضاً وجذوع حور مقشور غشيم تحمل السقف، يتلفت من حوله، فيملُّ الكتب القليلة القديمة المقروءة والمكرورة القراءة، يتلفت ويحسُّ بالاختناق، وفجأة يراه ولم تكن المرة الأولى يراه، فقد كان إياد قد تركه وجرَّبه، فلم يعجبه حين جربه.

يراه، فيحمله عن الطاولة في ملل، يمسح الغبار عنه، يقربه من فمه، ينفخ قليلاً، فيصفر صفرة حيادية بلا معنى، ينقل أصابعه ويَصفِرُ، ولكنه الصفير يشبه هبوب الريح تحت بابٍ غيرِ مُحكَمٍ، يَصفِر، ولكنه الصفير يشبه ارتداد الهواء عن زجاجة دون سدادة، يَصفِر صفيراً بلا معنى، ولكنه بهدوء يشده إلى فمه يجرب ثانية وثالثة، ينتزعه من فمه، يأخذ سكيناً قريبة، فينظم ثقوبه، وينظف جوفه.

يجرِّب ثانية... فإذا به... يغني.

يغني وإذا بالشياه البيض والجداء السود تنبثق أمامه، تتسلل وتتقافز في أبهاء القلعة، تنبثق أمامه، فيرى أرنباً بُنيَّةً تعدو لتختفي في أحد أركان القلعة، تنبثق أمامه فيرى الشمس تكوي صخور القلعة السود والممرات الترابية الحصوية الرملية الجارحة، تنبثق أمامه فيشمُّ رائحة الزعتر البري والطيوُن تفعم خياشيمه، تنبثق أمامه فيرى الصفصاف يتمايل على ضفاف النهر العميق العميق، ثم يمعن النظر فيرى الأعشاب الخضر العالقة بصخور ناتئة تتمايل مع التيار حاملة ومخفية السميكات وثعابين

الماء، تنبثق أمامه فيراه غائماً مهزوزاً، ينفخ في الناي، ينفخ فيه محاولاً إحياءه فيحيي شيزر، ينفخ فيه فيهب النسيم على صفصاف العاصي، ينفخ فيرى الجدي الأسود يكاد ينزلق من موقعه على الصخرة الناتئة فوق النهر، ولكنه بحذقٍ ماكرٍ يتمالك نفسه فيعدل من وقفته، ينفخ، فيرى حارات شيزر، وطفلاً يحبو، ودجاجات تنقر الحب وبقايا الفضلات، ينفخ، فيسمع كلباً يعوي فوق الجدار، ينفخ، فيرى امرأة تمسح العرق عن جبينها المدبوغ بجانب منديلها الأسود...

ينفخ، وينفخ، وينفخ باحثاً عن وجه الطفل راعي الجداء الخمسة والنعاج الستة، ولكن الوجه الغائم المدبوغ لا يتجلى، ينفخ فيرى القمباز، والشعر الملبد بالوسخ، أما الوجه فـ..... يغيم، ينفخ: تقدم أيها الوجه... تعال يا فياض الشيزري، تعال أيها الطفل البري، تعال يا تلك الأيام لم تعرف الوحدة، ولم تخشها. تعال. تعال. تعال..

فجأة ينفتح الباب. ويراها بقامتها المليئة المهيبة الجميلة ومن خلفها تلك الشقراء النحيلة توصوص، صمت الناي، ونظر إليهما غير مصدِّقٍ، فكيف حطمتا جدار العزلة، كيف جرؤتا على الصعود إليه؟.

قالت: أنت تعزف بشكل جميل، بشكل... وحارت قليلاً قبل أن تقول: محزنٍ... أين تعلمت هذا العزف على الناي؟

أشار بيده محرجاً يدعوها إلى الدخول. فدخلت، وتبعتها زينب، قالت: كنت أظن أنك شامي، ولكن، - حارت ثانية - أين تعلمت هذا العزف؟.

وقال في اختصار لم يرده:

أنا من شيزر.

- شيزر؟ شيزر؟ - رددت غير فاهمةٍ - أين تقع هذه الشيزر؟.

شيزر... شيزر...

* * *

الشمس اللاهبة وقطرات العرق الثقيلة والصمت المحرج ووقعٌ كسول لسنابك خيلٍ تعبر الجسر العظيم.

نظر أندرونيكوس بجانب عينه إلى المحفة حيث ثيودورا، وعضّ على شفته في أسف، فأيُّ خجل وأي عار عرضها إليه؟! لو ظلت في صور أما كان خيراً لها.... وله؟ لو انسحب من حياتها في شرف، أما كان خيراً لها وله؟ ولكنها الأنانية، الأنانية يا أندرونيكوس ما دفعك إلى التشبث بتلك الفرصة، ثيودورا الجميلة، ومطمح الفرسان والأمراء وشبان الشرق الفرنجي كله تتخلى عن الجميع وتلحق بك، أنت الذي ترك الشباب وراءه خاطياً بهدوء نحو الكهولة، ولكنها ليست الوحيدة من تعلّق بك، صحيح، ولكنها الوحيدة

تتخلى عن كل شيء لتلحق بك، تتخلى عن الإمارة والإقطاع، تتخلى عن اللقب الإمبراطوري، وتهرب معك، امرأة ضائعة دون أسرة إمبراطورية، دون إمارة، دون إقطاع، وتهرب معك إلى هؤلاء المسلمين الأعداء.

ها هو أسامة يخفق في حمايتك، وحين يقرر اصطحابك إلى صديقه معين الدين، ها هي الأمور كلُّها تنقلب بوفاة عماد الدين، واضطراب كل شيء بوفاته.

كانا قد حمّلا القافلة عدة مرات، حمّلاها بكل ما يحتاجان إليه،

واستدعيا لحمايتها كل من استطاعا استدعاءه من الفرسان، ولكنهم ما يكادون يخرجون من القرية حتى تصلهم الرسل باضطراب الأحوال، فمعين الدين يُعدُّ لاستعادة حماة من رجل عماد الدين، ونور الدين حائر في تركة عماد الدين التي توزعت بين إخوته قطب الدين، وسيف الدين، ونصرة الدين، والمملكة الكبيرة التي امتدت من الموصل حتى حماة تقاسمها الإخوة فيما بينهم.

نُشِرَت المائدة، وشُوِيَ اللحم، ومُلِئَتِ الكؤوس، ونظر أسامة إلى أندرونيكوس يكرعُ كأسه الكبير لثالث مرة دفعة واحدة، وهزَّ رأسه في أسف، فها هو يخفق للمرة الرابعة في المضي به إلى دمشق، أية خيبة، أية خيبة؟!

أكل أسامة بأطراف أصابعه، فقد صدَّ خجل عودة القافلة دون نجاح شهيته عن الطعام، ولكنه كان يراقب بجانب عينه إقبالهما العنيف على الشراب.

أطلق عندليبٌ قريبٌ أنشودةً أرقة، فأصغت ثيودورا إليها في حزن، وتنهدت، رمقها أندرونيكوس في حزن وجرع كأسه، قالت: هذا الشرق المضطرب، المضطرب. وقال أسامة: وهل بيزنطة أقل اضطراباً؟ – وأكمل في حكمة – هناك شيء كبير يُعَدُّ لهذا العالم، ثم في حزن أضاف: أحسُّ انزلاق الأرض تحت قدمي، ولا أعرف لهما تماسكاً.

أكمل أندرونيكوس كأسه، وقضم صدر حجل مشوي، وقال: ما تقول صحيح، هذا ما أحسُّه تماماً، الأرض تنزلق تحت الأقدام، ولكن. أتعرف؟ أكثر ما تحسُّ الانزلاق ها هنا في سورية.

حاول أسامة أن يقرأ ما يعني أندرونيكوس في وجهه، ولكن الوجه اللحيم الضائع في ضوء القناديل الباهت لم يصرِّح، فصمت.

كان القلب حزيناً ولا يرغب في الكلام على شدة ما يحب الحوار مع هذا الرجل الخبير بالدنيا. كان يحسُّ أشياء كثيرة مشتركةً بينهما ولكن كيف؟ الرجل كافر! فكيف يشترك معه في هذا القلق والأسئلة الكثيرة، الكثيرة؟! لم يستطع الصمت قال: أتعرف. لِمَ صمدت روما لأكثر من ألف عام ولم تصمد كثير من الممالك صمودها؟.

نظر أسامة إليه مباشرة فقال: تستطيع اختصار تاريخ روما كله بجملة واحدة. مات الملك، عاش الملك. الموت حزن، ولكن الحكم والـــ... ما تسمونه دولة أهم. ثم، لِمَ تسمون الحكم دولة؟ ألا تعني الدولة في لغتكم التبدل والتحول؟!
وانتبه أسامة مفاجأً لهذا المعنى يقال أمامه للمرة الأولى، وتابع الآخر: نحن نسميها الثبات والاستقرار، أيعني هذا لك شيئاً؟.

نظرت ثيودورا إلى أندرونيكوس بحرجٍ، وملأت له كأسه. - أندرو مالنا ولهذا؟.

ولكن الآخر المثقل بأكثر من ستة كؤوس لم يكترث بملاحظتها، فتابع: منذ حوالي سبعين عاماً أحرز رجلكم ألب أرسلان ولو أنه تركماني - ولاحظ أسامة رنة السخرية في كلام أندرونيكوس - أكبر نصر على بيزنطة. أتذكر؟ معركة مانزيكرت. لقد أباد جيش الامبراطور رومانوس بفرسانه المئة ألف، ومشاته الأكثر عدداً، ليس هذا فحسب، بل وأسر أيضاً الإمبراطور رومانوس نفسه.

هزَّ أسامة رأسه في فخر، فقد كانت هذه المعركة أهم معركة مع الروم منذ اليرموك. وأكمل أندرونيكوس: وتشكلت امبراطورية عظيمة امتدت من السِّنْدِ وحتى البحر المتوسط، ومن أذربيجان وحتى فلسطين. ولكن... - وأطلق نفثة سخرية -: أين هذه الامبراطورية الآن؟ - أطلق

نفثة أخرى -: لقد تقاسمها أبناؤه كما يتقاسمون طناجر البيت وأثاثه، لقد مزقوها كما يمزقون سجادة لم يرضَ واحدهم بالتخلي عنها لآخر، عشرون عاماً، عشرون عاماً يا أمير أسامة كان عمر هذه الامبراطورية ثم عادت إلى تفتتها وتمزقها وصراع أمرائها.

أطلق ضحكة مُرَّةً. وقال: وربما كان هذا لحسن حظ بيزنطة إذ لو لا قانون وراثتكم هذا لضاعت بيزنطة منذ زمن طويل.

لم تستطع ثيودورا احتمال هذا المجون الخطير فانتصبت:

- أندرو. إنه وقت النوم.

ولكنه لم يعبأ بها: لست نعسان. امضي، فنامي إن شئت. أما أنا فسأكمل هذا الدنَّ.

وشهقت مرعوبة: أندرو. لم تشرب إلا ربعه، وأزعجت صديقنا كل هذا الإزعاج، فماذا لو أكملته؟

- أزعجتك؟ - سأل بلسانه المثقل بالنبيذ الممسك - أزعجتك يا أمير أسامة؟.

وبأدب الشرقي قال أسامة: لا. أبداً. حديث الأمير ممتع.

أمسكها من كفها القريبة التي أرادت بها عونه ليمضي إلى النوم، فجذبها بشدة، فأجلسها ثانية: أرأيت؟ الأمير مستمتع. اجلسي يا امرأة. اجلسي.

نظرت من حولها في حرج، إلى الخدم أولاً، ولكنهم كانوا منصرفين عنهم إلى اللحم يعدُّونه فلم يلحظوا ما فعل، ثم إلى أسامة المتشاغل عنهما في أدب، فقرصته بقسوة: كيف تجرؤ؟ ولكنه لم يشعر، أو لم يكترث، إذ تابع يلحِّن جملته الساخرة: مات الملك، عاش الملك، مات الملك، عاش الملك.

انتصبت ثيودورا مبتعدة وهي تبربر غاضبة، وما تزال جملة أندرونيكوس تلاحقها: مات الملك. عاش الملك. مات الملك...

وحين أوى أسامة أخيراً إلى مرقده، ولم يستطع النوم ظلت جملة أندرونيكوس تلاحقه رغم حمل أندرونيكوس إلى مرقده سكران لايستطيع فتح عينيه: مات الملك. عاش الملك...

انتصب فجأة من سريره مفكراً يستعيد جملة أندرونيكوس: تستطيع اختصار تاريخ روما بجملة واحدة، وتساءل: لو أردنا اختصار تاريخ المسلمين بجملة واحدة، فكيف تكون؟! وفاجأته الجملة القاسية: مات الملك، فاصطرع... الورثة!

هزَ رأسه في غضب يريد طرد الفكرة، ولكنها ككل فكرة شريرة تعانق الراقد يطلب نوماً لا يناله أبتِ الطرد، وظلت تلحُّ: مات الملك، فاصطرع الورثة، مات الملك. وفجأة تذكر صراع أحفاد الب أرسلان: محمد ضد بركياروق، وبركياروق ضد عمه تتش، ثم تتوالى التمزقات حتى تصل إلى رضوان في حلب، ودُقاق في دمشق، وبركياروق في الموصل، وآقسنقر بحمص، وياغيسيان في أنطاكية.

يا إلهي! مات الملك... و..

فُتِحَ باب القلعة وكان سلطان في استقبالهم. قال: مرحباً بكم. ثم التفت إلى أسامة يهمس: لم أستطع في هذا الظرف العاصف تركِكم تحت رحمة الجيوش وتقلباتها. كان يجب أن أستدعيكم إلى القلعة... إلى... أن... تهدأ الأمور.

شيزر. شيزر. وتقلَّب في فراشه البارد بعنف: وماذا بعد؟

ماذا بعد؟ هاهو الشهبندر يُقَتلُ، وهاهم يلاحقونه. أفليس هو الإرهابي

القديم؟ أليس هو صاحب لغم الفحامة، والجرحى المنثورين على سكة الحديد، أليس هو صاحب (اللهم وشماتة)؟ أليس هو.... الرؤيا. الرؤيا؟

انتبه إلى نفسه يكاد يصرخ: الرؤيا. أريد رؤيا. أريد معرفة الطريق ماذا بعد؟ ماذا بعد يا فياض؟ ماذا بعد ضياع كل شيء؟

ها أنت تفقد الجامعة والأبوين و... الصحيفة أيضاً. ماذا بعد؟.

حين سألت حسيبة فياض عن شيزر لم تكن تدرك أي جرح حرَّضت، وأية أحزان أيقظت، فهو حين لم يستطع الكلام أمسك ثانية بالناي يهرب إليه، وأصغت المرأتان في اهتمام، ولكنها فيما بعد ستقول مذكرة بهذا اللقاء: أنت ربما كنت تعبت، ربما كنت تتسلى، ولكني.. رأيت بغنائك شياطين الجبل، سمعت نباح بنات آوى. يا إلهي! أكنت تعزف أم كنت تبكي؟ أكنت وحيداً إلى هذا الحد؟ الوحدة مخيفة. أليس كذلك؟.

صمتت قليلاً، ونظرت إلى النارنجة خضراء الثمار، وقالت: أحياناً وحين أخلو إلى نفسي في الديار - وكانت تسمي باحة البيت الواسعة بالديار - أفكر: كيف كان يعيش ذلك المسكين صياح المسدي؟ لابد أنه كان يحس وحدة مخيفة، فليس من الطبيعي لمثله بعد تقلبه في البلاد، بعد حربه في عدة جبهات، بعد عيشه مع مختلف الناس، بعد اعتياده صوت القنابل والرصاص، بعد اعتياده توتر الوقوف على باب الموت، ثم مخاتلته في اللحظة الأخيرة. توقفت قليلاً تستجمع أنفاسها ثم قالت بلهجة حالمة: تلك اللذة، لذة أن تقامر يومياً بحياتك، ثم تنجو، تلك المتعة المرعشة في مصافحة ذلك المعروق الأصابع، نديِّ الأظافر، نتن الرائحة، أن تصافحه يومياً، ثم تنجو وأنت تقهقه ساخراً منه. وهمس فياض لنفسه: إنها تتجلى، وفيما بعد سيسأل زينب إن كانت سمعتها تقول

شيئاً كهذا من قبل؟ ولكنها نظرت إليه بعينيها واسعتي الزرقة وقالت ببساطة: لا.

صمتت حسيبة ثانية كأنما أثقلتها هذه الذكريات، ثم أكملت في ضعف: وفجأة يضيع كل شيء، ويكون عليك أن تعتزل وحيداً في غرفتك، بعيداً عن الأصدقاء، بعيداً عن رفقاء التحدي والموت، وحيداً حتى من الأعداء، تنظر من حولك إلى غرفتك الصغيرة هذه – وقطعت فكرتها فجأة لتقول –:أتعرف. كان يسكن هذه الفرنكة نفسها؟!

والآن وحين غاب. مضى ولم يعد، أفكر في حزنٍ: ألم أكن مسؤولة بشكل ما عن إهماله حتى أرهقته الوحدة؟ ألم أكن مسؤولة حين انصرفت إلى حمدان بكل قواي حتى لم أعد أرى صياح؟ ألم أكن مسؤولة حين صارت حصتي المطمئنة منه سماعي له كل صباح يصيح وكأنما يودع العالم: أفلح من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير؟

كانت تتحدث مستندة بذراعها إلى جانب البحرة بينما كان فياض يجلس على الديوان القريب وزينب على كرسي القش الصغير تنصت اليهما يتبادلان الذكريات في لهفة، لم ينتبه إليها فياض في البدء فقد كان غارقاً في تأمل ذلك الوجه المهيب الجميل الموشح بغلالة الياسمين، في تأمل تلك العينين السوداوين والقويتين والنظرة الآمرة.

لم تكن حسيبة من أولئك النسوة اللواتي كان يراهن أحياناً في السوق، المذعورات إذا ما رأين رجلاً، أو اكتشفن أن رجلاً يراقبهن، كان فيها شيء يُجبِرُ على هيبتها قبل معرفة أنها ابنة صياح المسدي ذلك الذي صحبها معه طفلة أو تكاد إلى جبال القلمون وتلال أكروم، فنامت معه في حضن الجبل وأجفان الكهوف، وعرفت الخوف، وعرفت التغلب

على الخوف، عرفت الرجال في نخوتهم، وعرفتهم في ضعفهم، عرفتهم حتى لم تعد تهابهم، عرفتهم حتى حولّتهم إلى إخوة وأبناء وآباء.

كانت في تلك الجلسات الطويلة تحدّث ولا تريد أن يحدِّث في البدء، فقد كانت تريد من يسمعها، واكتشف أنها كانت الأخرى بحاجة إلى من تتحدث إليه، كانت بحاجة إلى شريك تكشف له أسراراً لم تحدِّثْ بها جارات كاملات المدنية. كانت هناك سنوات من عمرها غفلاً لا تعرف صديقاتها وجاراتها عنها شيئاً، هذه السنوات فاجأت فياض، فاجأته فعلاً، فأن يعرف أن صبية في حسن حسيبة كانت تصحب أباها إلى القلمون و الغوطة. يحمل السلاح، فتحمل السلاح، يحمل جنادات الرصاص، فتحمل جنادات الرصاص، يندسُّ بين صخرتين

كامناً للفرنسيين، فتزحف بين الصخور تبحث عن الفرنسيين. كان وجهها يشرق وتحس بالقيود المكبلة من حولها تنطلق لتصبح غزالاً برياً. جَدْيَاً جبلياً، كائناً لم يعرف قيود المدينة، حواجزها، خجلها المصطنع، مناديلها السود....

تقلَّبَ فياض في مرقده يفكر: لو أن الزمن تقدم بي، أو لو أنه تأخر بها. أما كان الأمر أسهل لنا، وفجأة سمع... أهي الرؤيا؟ هتف في فرح. سمع حفيفاً، وسمع رفيفاً، وسمع أجنحة ملائكة تحطُّ، فتشده ليخرج من مكمنه. يا إلهي! أهي الرؤيا المنتظرة؟ أن تسمع هديل الملائكة وأنت تنتظر رؤياك التي طال انتظارها و... للمرة الأولى يتجرأ، فيفتح باب الفرنكة بهدوء، يتسلل جاثياً حتى لا يكشفه نور القمر، يحتمي بالدرابزين المغلل بأغصان الدالية، يمزق سترها، يباعد بين أوراق العنب وينظر... كانت هناك في البحرة تطفو، لا. لم تكن تسبح، لم تكن تلعب، بل لم تكن تضرب الماء، كانت تطفو فقط محاطة بأزهار الياسمين، تطفو وشلحتها

البيضاء ترفرف فوق الماء من حولها. أكانت تؤدي صلاة وثنية للقمر البدر، أم كانت تغالب أرقاً لم تهزمه، فهربت إلى البحرة؟ كانت شقرة وجمالاً وبياضاً وطراوة تطفو على وجه الماء محاطة بعشرات، مئات، آلاف زهرات الياسمين، تداعبها، تقبلها، تغوص بها وهي تطفو، والياسمين يطفو وأصابعها الصغيرة تطفو، والشلحة البيضاء تطفو، وانهمارات القمر الذائب في الماء، ورائحة الياسمين القوية تغلِّفُ المكان، وعندئذ، عندئذ أقبلت الرؤيا، رآها، تلك التي انتظرها العمر، رآها وعرفَ أن قدره ها هنا عند أقدام هذا الحُسنِ الساذج يعابث الماء، ويصلي للقمر، يداعب الياسمين وينثر الريح والروح والريحان والحياة من حوله، ومن قلب جريح هتف اللسان الأبكم: إنها هي.

من قلب هذا الحلم الفضي الذائب أخرجته حسيبة حين خرجت صامتة بهدوء من المربع الكبير تحمل سلالاً، فانسلَّ خجلاً إلى غرفته، ولكن القلب لم يعد القلب القديم، انسلَّ ولكن الأرق لم يعد الأرق السئم المالَّ الغاضب من العالم، صار أرق الحنين والرغبة في الآخر، رغبة لم يعرفها من قبل، رغبة لم تكن مماثلة للرغبة في صوفي وإيفون ومادلين، استسلاماً للوداعة، لم يكن كالاستسلام لوداعة ماتيلد، شهوة لم تشبه أبداً الشهوة لحسيبة، كانت صغيرة، ولكنها الجميلة، كانت رقيقة ولكن عينيها، اللتين كان يتجاهلهما، صارتا تحملان رسائل كثيرة وعميقة.

وفيما بعد، وفي الأيام التالية لم يعد ينظر إلى حسيبة فقط، ينتظر أن تحدثه عن صياح المسدي وسعيد العاص والشهبندر والقاوقجي، بل صار ينظر إلى زينب، ينتظر أن تحدثه عن سر صلاة الياسمين الليلية للقمر. قالت وهي تعضُّ على شفتها الرقيقة: سمعتَ منا الكثير. أفلا تحدثنا عن باريس؟.

وبدأ الحديث عن باريس، باريس التي لم توجد، وربما لن توجد، وفيما بعد سيكتشف أنَّ أنجع الأسلحة السلاح المجرب، فقد أخذ يبني لهما باريساً خاصة به، باريساً شيزرية، باريساً حمل إليها إيفون وصوفي ومادلين عبر شبابة السندباد، باريساً صار يقضي الليالي في اختراعها واصطناعها، باريساً محاطة بالغابات الخضر والعشاق متشابكي الأذرع، باريس الأضواء التي لا تنام، باريس المسارح والمتاحف والمعارض، باريس العشاق يطيرون فوق البيوت والغابات محمولين على فقاعاتٍ من مطّاط، باريس التي سئمت ضوء الشمس، فحفرت أنفاقاً تحت الأرض تخترقها القطارات والناس...

- القطارات؟.
- قطارات طويلة تهمس وهي تخترق الظلمة: إن الحياة جميلة.
- واخترقتها؟.
- اخترقتها وطرت فوق البيوت والغابات والأنهر.

وهكذا اتحد العالمان، وجرَّ فياض زينب إلى شبكته المصنوعة مسبقاً بمهارة، الشبكة التي أوقعت بصوفي وإيفون ومادلين والتي جعلت صوفي تجثو عند قدميه لتقول: آه! الحب مع الخوف شيء جميل، أن لا تعرف الخاطف القاسي، ولكنك تعرف أن الحب قادم بعد قليل، حبٌّ مجهولٌ، غامض، وحشيٌّ، شهويٌّ، قاسٍ، آه فاياد. فاياد. أنت رائع، حياتكم جميلة هناك. اسبني وخذني إلى هناك. الشبكة التي جعلت زينب تختفي وراء الستارة تراقب تحركه، فيعرف، ويتجاهل مخافة العينين الأخريين، الشبكة التي جعلتها أخيراً تكتب له ورقة ساذجة بخط ساذج وعاطفة ساذجة، ورقة تدسها بين الصينية وصحن المسبَّحة تقول: خذني إلى باريسك، فأنا أحبك.

(٣٣)

تلك الرؤيا التي جعلت فياض يتخلى عن حذره، ويصنع من شبكته دون أن يدري فخاً يربط على غير رغبة منه الجدي الضائع إلى حظيرة، ويحوله إلى زوجٍ مسلوخ الأحلام مهزوم القلب موشَّحٍ بــ: ولئن شكرتم لأزيدنكم، وهذا من فضل ربي، تلك الرؤيا لم تكن وحدها ما حدد عالمه، وشكل طريقه.

حين كان فياض ينسج مدينة من حلم، ويشق شوارع من فرح، ويحفر محطات من ألقٍ يَجُرُّ إليها تلك الطفلة الوحيدة المهجورة في بيت كبير دون أب، دون أخ، ودون أخوات، بل دون عمٍّ أو خَالٍ إلا مريم المقيمة أبداً معهم في البيت، حين كان يفعل ذلك ما كان يعرف أن السحر كثيراً ما ينقلب على الساحر، وأن الشِّبَاكَ كثيراً ما تُطبِقُ على الصياد، وكانت الرؤيا، الرؤيا التي آمن أنها المنتظرة، فمضى بعد تردد وإقدام وإحجام إلى حسيبة وطلب زينب.

وشهقت حسيبة: زينب؟

أطرق برأسه يوافق خجلاً، فلم يرَ الرعب على وجه حسيبة،

ولم يرَ الصدمة، ولم يرَ الحزن، قالت: زينب؟ وأحسَّ الرعشة في

صوتها، فظنه فرح الأم بابنتها الصبية تكبر وتخطب. قالت: زينب؟

ومسَّه التوتر ينتشر في الغرفة، فرأى أن ينسحب تاركها تستشير، وتسأل، فلابد أن لهما رجالاً يستشارون وإن لم يعرف منهم إلا إياد، ومضى إلى الفرنكة فوق يختلي، وينسج الأحلام.

في اليوم التالي لاحظ غياب حسيبة، فرأى أن يعتزل في الفرنكة يقرأ الكتب المهترئة قراءة وتقليباً حين سمع نقرات على الباب، لم تكن نقرات حسيبة القوية، فقام ليفتح، وفوجئ بزينب تحمل صحن مشمش كبيراً، قالت: جاءت به مريم الآن، المشمش في أول موسمه، اشتهيت أن تذوقه.

لم يستطع دعوتها إلى الدخول إلى غرفته، وكيف يفعل وهو الغريب وهي الغريبة؟ ولم يستطع أخذ الصحن منها وطردها، فهذا مالا يستطيع فعله، وجاءت المبادرة منها: الجلوس هنا تحت الدالية طري في الصباح. وكان المَخْرَج، مدَّت بساطاً، وجلسا. كان يسمع حركة مريم تحت، ولكنه لم يبال، أمسكت مشمشة عضَّتْ نصفها، وناولته النصف الثاني المبتل برحيق فمها، صدمته الحركة في البدء، يشاركها في مشمشة؟ ولكن الإلحاح في عينيها والنشوة في وجهها جعله يلتقم نصف المشمشة من يدها، عضَّت أخرى، وألقمته، فالتقم. كان يجب أن يرد التحية، فعض مشمشة، وألقمها فالتقمتها، هذه السذاجة والطرافة والشعور بالتوحد مع الآخر دون قرف أو اشمئزاز، أن تحسَّ أنك والآخر واحد فتنه، كان عالماً جديداً يدخله، عالماً مخالفاً تماماً لعوالم صوفي وإيفون ومادلين حيث ينفصل الأنا عن الهو تماماً، أحب شهوتي فيك وتحب شهوتك فيَّ أما أن نتحد فكان شيئاً جديداً.

سمعا نحنحة ونداء، ونزلت زينب، ولكن متعة الجلسة والتوحد لم

تفارقه أبداً.

اعتادا غياب حسيبة، واعتادا اقتسام اللذات البريئة، تعلك علكة تعطيها له فيعلكها من بعدها، تشرب من كأس، فيشرب بقيتها، تعضُّ لقمة يكملها من بعدها، كانت تعلن أنهما صارا زوجين، أفلم توافق حسيبة على خطبتهما؟.

ولكن وفي قلب ذلك الحلم الجميل، حلم التوحد، حلم ذوبان الأنا في الآخر، والآخر في الأنا، دخلت حسيبة عليهما مرة بعد واحدة من نزهاتها الطويلة!.

كانا يجلسان إلى جانب البحرة. بساط حلبي أحمر، ومخدتان يتكآن عليها متقابلين ورقعة برسيس، وصحن توت كبير. كانت ترمي الودع وتتناول بأنملين شمعيتين صغيرتين توتة حمراء فتحملها إلى فمه، فيلتقمها في حب، ويكاد يقضم الإصبع، فتتراجع الأصابع، وتتظاهر بالذعر، ويحمرُّ الوجه، وتنقلب الضحكة الخجول، وتتحرك الأحجار على الرقعة كان يرمي الودع، ويتناول بإصبعين طويلتين تتظاهران بالرجولة توتة حمراء تحملانها إلى الشفتين الرقيقتين فتنفتحان بهدوء، وتتسع العينان في حذر تبحثان عن مريم فلا تريانها، فتلتقمان التوتة، وتحرك الأحجار.

توقفت حسيبة مصعوقة، فمتى. متى تعلمت الطفلة هذه الحيل؟

متى؟ يا إلهي! كبرت الضرة والخصمة والمنافسة و.... وصرخت ذلك الصوت الجريح المختزن في القلب منذ أجيال وأجيال: لا.

وانتفض الشابان، ولكنها لم تتوقف عند الرعب الأبيض على

الوجهين، لم تتوقف عند الدهشة المستنكرة على وجه مريم المدوَّر، لم تتوقف عند خجل فياض يحاول الانسحاب، لم تتوقف حتى عندما قالت مريم لها: إنه يستأذن. فأشارت بيدها تأذن له بالنزول من الفرنكة، وما كانت تعرف أنه قد ترك... ها. هما. هن. ومضى من البيت.

– تلك الرؤيا التي جعلت فياض يتخلى عن حذره، ويمضي إلى قدر ما كان يعرف أنه مقدر له، تلك الرؤيا التي كان عليه أن ينتظر شهوراً طويلة، شهوراً يعترف فيها قاتل الشهبندر بجريمته ويعدم، شهوراً يخطب فيها زينب فيُرفض، ويشتم، ويهجر البيت، ويعود إلى إياد، وتمرض زينب، وتأتي حسيبة إليه كسيرة الأنف، ترجوه العودة و... الزواج من زينب، فيعود، ويملأ فراغ الرجل في البيت الكبير الخالي إلا من ثلاث نساء إحداهن مريم، وتمر الشهور، وتنكشف... الرؤيا حين يحلُّ اليوم الموعود، ويرى أكياس الياسمين تحمل إلى البيت، فلا يفهم، ويحلُّ الليل، وتُحَلُّ رباطات الأكياس، وتُحملُ إلى البحرة لتغسل في الليل، فلا تسوِّدُها الشمس، ثم تجفَّفُ في ضوء القمر لتعدَّ حسيبة منها زيت الياسمين، ذلك العطر الزيتي الذي حملت سره من صديقة قديمة لها توفيت قبل أزمان، صديقة حدثته حسيبة عن أحزانها وكفاحها لتكون ذاتها، صديقة كان اسمها خالدية، وعرف أخيراً ساخراً سر الرؤيا..!

حين كان فياض يصارع لإيقاع زينب في شبكته الحلمية كان الآخرون يدفعونه للوقوع في شبكة لم يصنعها هو، فقد كانت الصحفَ التي كانت صديقة وزميلة لأيام مضت قد أحكمت حصارها من حوله، وكان كلما خاف التورط في لعبته الحلمية، أمسك بالصحف التي كان إياد يزوده بها ليقرأ: طبعاً. فياض الشيزري رجل غامض، من يعرف عنه شيئاً، ابن من هو، من يعرف عن تاريخه الشخصي والسياسي ما يكفي،

الكل كان غبياً حين وثقوا به، وسمحوا له بالكتابة في صحفهم، بل وحين سمحوا لتطرفه أن يؤثر في السياسة.

فإذا ما ألقى بالصحيفة جانباً ممروراً غاضباً صدمته الأخرى تقول: طبعاً كان لابد للرجل الذي رفض البُرنيطة الفرنسية والطربوش مطالباً بزي عربي نقي لم يستطع وصفه، متطرف ينادي بشعارات كهذه، لابد أن يرتكب جريمة كهذه.

فيرمي بالجريدة، ويمضي إلى حيث المرأتان، يهرب من مساجلات الصحف إلى عالم من صنع أصابعه، ولكن الصحف تكرُّ ثانية، فتهاجمه: لابد له أن يفعل ذلك. أفلم يختلف مع معلمه حين طلب إليه التوقف عن تهييج الناس؟ فالديمقراطية في العالم كله في أزمة، فهل نساعد النازية بطلب الانتقام من فرنسة الآن؟

وألقى بنفسه أخيراً في بحرة الياسمين وقال: أريد زينب، ولكن الشهور الثلاثة الأولى التي قضاها مع زينب في الزبداني، وبلودان، وصوفر، وبحمدون، وبستان كفرسوسة المعزول إلا من المرابع وزوجته وخدمة العروسين الشابين كانت كافية لتكشف له أي خطأ ارتكب بالزواج من تلك الدمية الساذجة الطفلة.

ظن فياض في البداية أنه سيستطيع خلق شريكة له منها. ولكنه محاولة إثر محاولة كان يصدم بتلك الحالمة لا تريد إلا أفندياً بطربوش جيد الكيِّ وبستون جيد التلميع، يضع ذراعه في ذراعها فيصدم الحارة بهذا المشهد لم تألفه، وتسعد لهذه الصدمة وكأنها ما أرادت إلا هذه الصدمة، يخترق بها الشوارع والحارات. ولا... شيء آخر!

والصحافة؟ وماذا عن الصحافة؟ هه شيء جميل.... عمل برفع

الرأس، وماذا بعد؟ لاشيء على الإطلاق.

كان يتأمل جسدها الضئيل، الثديين الصغيرين، الصغيرين حتى ليعجب كيف أرضعا هشام، الردفين الأمسحين، الوجه الشاحب لا يميزه إلا تلك العينان الزرقاوان الواسعتان المتسائلتان، المتسائلتان؟ كان يظن أنهما متسائلتان، وأنهما سيمعنان في تساؤلهما حتى تحصلا على الإجابات، ولكنه اكتشف متأخراً أن تساؤلهما كان جزءاً من جمالهما، جزءاً فطرياً كالحاجبين الخفيفين والقنوة في الأنف، تساؤلاً لا يعكس دهشة، أو توقاً في الروح، تساؤلاً يحمل اللهفة التي أحرقت قلبه، وجعلته يدمر الجسور، ويحرق المؤخرات ويلتحق بعرنوس متخلياً عن كل ماض..

وفيما بعد، وفي واحدة من تلك النزهات في بستان كفرسوسة وكان مستلقياً تحت شجرة الجوز الكبيرة يضع الوسادة المثنية بين رأسه وبين الشجرة يتأمل هشام يلاعب الكلب المطاطي في الساقية الصغيرة، وكانت زينب تجلس إلى جواره تلاعبه، كانا طفلين لا يميز بينهما إلا بعض ضخامة وسنوات عمر قليلة حين مرت حسيبة تحمل طشت اللحم بعد تتبيله. قالت متبرمة: ألم تشعلي النار بعد؟

التفتت إليها زينب بتلك العينين الحالمتين اللتين سبتا فياض فيما مضى بغياب الزرقة بين البياض وبين الهدب، بين البياض وبين الجفن، بين البياض وبين الحلم، ولكنه في تلك اللحظة اكتشف أنهما لم تكونا حالمتين، كانتا ببساطة كسولتين، شاردتين، ضائعتين، نظر إلى الوجه الأسمر المدور القوي المنقط بالعرق، إلى الثديين القويين الضخمين البادیين تحت الثوب المشجر، ثم نظر إلى الردفين القويين فوق الساقين

الطويلتين، وكررت: ألم تشعلي النار بعد؟

نظر إلى العين التي انكسرت على غير رغبة منها، ولكنها عقوبة شيخ البحرة كما كانت تقول، كانت تحاول ألا تجعل الانكسار يبدو

في العين المشدودة قليلاً إلى الأسفل، وكان الصوت برماً، ولكن الحنان كان يحاول احتواء قصور وضعف وإهمال الأخرى.

نظرت إليها زينب بتلك الالتفاتة اللامبالية الضائعة بين الحلم وبين الرخاوة، وعادت إلى هشام تلاعب الكلب المطاطيّ الغاطس في الماء. التفتت إليه، فنهض مسرعاً إلى قصاصات الحطب يجمعها، ثم يضعها فوق الفحم، اقتربت منه تحمل اللحم، ففغمته الرائحة، الرائحة المزيجة بين اللحم المبهر بالفلفل واللحم المبهر بالياسمين، التفت إليها فجأة، كانت تراقبه بجانب عينها أيضاً، وفكر: يا إلهي! أية غلطة ارتكبت؟ وأي خطأ صنعت؟ ثم هتف في سخرية: الرؤيا، الرؤيا، وحين عاد إلى مجلسه يلحُّ: أكانت الرؤيا فعلاً، أم كانت الوهم؟ أترى كل الرؤى كانت كهذه الرؤيا؟ أتراها كانت إسقاطات لأحزان و رغائب وطموحات وأحلام سماها الرؤى، وأضاع العمر في ملاحقتها فما حصَّلَ إلا العمر الضائع؟.

في مرة أخرى وكان يداعب هشام فيحمله عارياً من العقبين ويدليه في ماء البحرة فيصرخ، يدليه في الماء، فتتضاحك زينب مقهقهة تحاول منعه:

- الولد بردان. حرام.

يدليه في الماء، فيثغو، يدليه في الماء، فتخرج حسيبة من المربع الكبير لترى المشهد، فتنتفض كلبوة:

- مجانين. مجانين. ماذا تصنعان؟.

- ألاعب الولد!

- فتدليه في البحرة في هذه الساعة؟.

- في هذه الساعة؟ وتختلف هذه الساعة عن غيرها؟.

- إنها ساعة آخر النهار، ساعة استعداد البسم الله الرحمن الرحيم لتَسلُّم مملكتهم، لا يجب تحديهم في مثل هذا الوقت. كيف تجرؤ؟

وتخطف الطفل، وتسرع به إلى الداخل، فتجففه، وترقيه، وتبخره، ويكتشف فياض وجهاً جديداً لحسيبة.

وفيما بعد، ومُصِراًّ على خلق شريكة حقيقية له، أخذ فياض يجلب الكتب لزينب تقرؤها، ولكنها كانت تكتفي بتصفح الغلاف والعنوان، ثم تبدي رأيها في الغلاف وجماله وتناسقه، فإذا ما ألحَّ عليها لتقرأ الكتاب قرأت منه صفحة أوصفحتين ثم... عليك أن تعثر على الكتاب ملقى في مكان ما، أي مكان، أول مكان وضع فيه بعد قراءة الصفحة والصفحتين...

كانت تفضل أن تستمع، فتمسك بفياض في هيام ثم تقول: هه.

حدثني كيف تبدو باريس في المساء؟ فيحدثها، ثم يختلط القصُّ بالحقيقة، بالتزويق بالأسطورة، بالحكاية، بالخرافة، حتى إذا ما سئم وملَّ، وأنهى كل ما في ذاكرته من تخيل أمسكت به في اليوم التالي: هه. كيف تبدو باريس في الصباح؟ ويبدأ في الحديث. في الظهيرة؟ في الزحام؟ في الخلاء؟ وحيداً؟ مع الناس؟ مع الصبايا؟ مع الشبان؟ مع العجائز؟ مع الأطفال...

وأخيراً..... دفع الثمن، الثمن كاملاً لتلك اللعبة التي بدأها في باريس، دفع الثمن كاملاً حين اكتشف أن زينب في عزلتها في ذلك البيت المنزوي مع تلك الأم القوية والصديقة نصف الخادم مريم قد حُدِّدَ عالمها، حُدِّدَ وضاق بحيث لم يعد مقبولاً منها إلا أن تسمع.

و... وجدت فيه المتحدث الدائم.

حين يئس فياض من جعلها تستبدل الاستماع بالقراءة أخذ يبحث لها عَن هواية أخرى، وكان قد لحظ بعضَ أصص الزهر والورد الملقاة هنا وهناك، فلم تكن حسيبة لتهتم بها، بل كانت مريم من يبقي عليها حية بالسقاية والتشذيب، وكان يعجب من عدم اهتمام حسيبة بنباتات الزينة هواية الشاميات الأولى، ولكنها حين حدثته فيما بعد عن خالدية وقبرها الزهري أدرك السبب، ورأى أن يخلق لزينب هواية بالتدريب والترغيب، فكان ينتقي لها من السوق أجمل النبتات يحملها إليها، فتبهر لجمالها، ويعلمها العناية بها، سقايتها، كمية الضوء التي تحتاجها، مجرى الريح لتتجنبه، ولكن ما إن تنقضي جِدَّةُ اللعبة حتى تهجرها ليكتشف عطشها ما قبل الذَوّي، فيسرع بسقايتها والعناية بها لتضمها مريم إلى مجموعتها الأولى المستندة إلى جدار الإيوان الأيمن، فيكرر التجربة، وتتكرر النتيجة، فليس من شيء أسرع منها إلى الملل، كان يريد لها أن تتسلى عن الواجب اليومي بالحديث والحديث عن مدينة هجرها وهجرته، كان يريد أن يخلو لنفسه قليلاً يسترجع فياض القديم، يراجع الحسابات القديمة، ولكنها أبداً لم تترك له الفرصة لهذا، كانت تتعلق به حالما يدخل، تتعلق بذراعه بالمعنى الحرفي للكلمة، تتعلق بذلك الجسد الضئيل، والوزن الخفيف، والعينين الواسعتين حتى الدهشة.

وكان ينظر إلى حسيبة تتأملهما بتلك العين المنكسرة، تراقب تعلقها، وتراقب محاولة بحثه عن خلاص، تراقب تشوقها لحكاياته التي أدركت منذ وقت مبكر أن معظمها كان مختلقاً، فقد كان ذلك واضحاً في نظرة العين نصف المنكسرة، أكان ذلك في الإنكار في النظرة، أم في العين؟ أم في انصرافها عنهما لما هو أجدى، أم... كان يراقبها تراقبه فَيُرْتَجُ عليه، ويتمنى لو يتخلص من هذا الدور ليسمع منها عن صياح المسدي وحمدان الجوقدار وتمزقها بينهما في سعيها لخلق عالمها الحسيبي؟ ولكنها وقد تخلت عن ذلك الدور مرة أبت العودة إليه تماماً، وتركته يقوم به وحده، وأخذ فياض يشعر بطيلسان المهرج يبهظ جسده.

وسمعها مرة تقول في متعة وقد سمعت صوت كناري يغني لدى الجيران: الله، وكانت من المرات القليلة التي أبدت فيها إعجابها بشيء خارج حكاياته التي لاتنتهي، فسعد بهذه الـــ(الله) فها هي تعجب بالكناري، وأسرع إلى السوق، فأتاها بكناري أثار دهشتها بجماله، فانصرفت إليه تستمتع في انبهار، وانصرف إلى غرفته سعيداً بأنها وجدت ما يشغلها عنه، ولكنه في اليوم الثالث فقط أدركه قبل أن يموت، فقد نفد الماء لديه منذ الأمس، أما طعامه فقد انتثر مابين القفص وبين الأرض، ولم يتبق لديه ما يؤكل.

- أفلم تقدمي له الماء؟

- ولِمَ أقدم له الماء؟

قالت ببساطة، ونظر إلى العينين الواسعتين الزرقاوين المتسائلتين الضائعتين بين البياض وبين الهدب، بين البياض وبين... أفٍ زينب. زينب الرؤيا. الرؤيا. أكانت الرؤيا فعلاً، أم....؟

أراد شريكة، فحولته إلى عصا تتكئ عليها، تخاف المضيَّ إلى السوق إذا لم يصحبها لتتكئ على ذراعه، هي تقول: لأغيظ الجارات، وهو يعرف أنها لاتجرؤ على مجابهة العالم وحيدة، أراد شريكة، فحولته إلى حكواتي حاول الهرب منه باصطحابها إلى الزبداني وصوفر

وبحمدون ليريها العالم خارج القنوات، فما زادت عن أن أفزعها العالم، فأمعنت في الالتصاق به تطلب الحماية والحديث عن باريس، ولو لم تكن الحرب قائمة وباريس في يد الألمان لرحل بها إلى هناك لا لشيء إلاَّ ليحطم الصنم وينهي اللعبة.

شيء واحد فقط خفف من إسار خيوط العنكبوت الدقيقة من حوله، هذا الشيء كان انتفاخ بطنها، والتفاتها إلى حسيبة تتكئ عليها فتخرج من عالم فياض لتدخل عالماً نسائياً جديداً عماده حسيبة و مريم وانتظارهن عيد المرأة السري في صيرورتها أماً، وأخذ فياض ينتظر معهن، ولكن إياد لم ينتظر، جاء إلى فياض وزينب على وشك الولادة قال: والآن، ماذا ستصنع؟ ستصبح أباً ونقودك ستنفذ عاجلاً أم آجلاً؟.

- لا أعرف.

- خليل بك يريدك أن تعود إلى الكتابة في صحيفته.

- لا. قالها بسرعة.

وببرود سأل إياد: لماذا؟.

ووجد فياض الصديد القديم المتأسِّنَ هناك في عمق القلب ينزُّ، فقال بتلك المرارة التي لا يعرفها إلا من عاش الهزائم والمرارات التي عاشها: ولمن أكتب؟ ألمن أحرقوا جريدتي؟ لمن أكتب؟ ألمن ضربوني

واتهموني بخيانة الوطن؟ أم لمن حرَّضوا الناس عليَّ واتهموني بقتل المرحوم؟ لا يا عزيزي. لا. هذه صفحة انقضت. ألا تفهمني؟.

وطال النقاش بينهما، طال حتى هزَّ إياد كتفيه في استسلام: هه. كما تشاء، ولكن إن احتجت إليَّ في خدمة، فاذكر أني قريب.

أغمض فياض عينيه يرجِّح رأسه إلى الأسفل في فهم، مضى إياد ولم ينتظر قرار فياض، مضى إلى خليل بك الذي أدرك أن صفحة الشهبندر قد انقضت، فغازل الوطنيين، وأطراهم حتى إذا ما استطاعوا الوصول إلى رئاسة الجمهورية كان من أشد أصدقائهم وكان إياد أيضاً من... أشد أصدقائهم.

وفي الوقت الذي كانت فيه فرنسة تستعيد سورية، و ديغول يكشر عن أنيابه للحرية في سورية، وإيدن يبتسم ابتسامته الصفراء المهذبة الناعمة، والجنرال سبيرس يستقبل الوفود، ويعقد الصداقات، والجنرال كاترو يعلن عن انتخابات جديدة توصل الوطنيين إلى الرئاسة، كان فياض منهمكاً في العمل على إفلاس دكان حمدان الجوقدار، ذلك الدكان الذي جعل حسيبة تنزوي بفياض في إحدى الأمسيات لتقول مغالبة الحرج:

- فياض. دكان الجوقدار مفتوح منذ خمسة أجيال، ولم يغلق إلا منذ وفاة الشيخ حمدان.

وهزَّ فياض رأسه يشاركها الأسى، و تابعت: كان يتمنى كثيراً لو رزق بصبي يحمل عنه الراية ليظل الدكان مفتوحاً.

ولم يفهم ما تريده، ولكنه مجاملاً قال: خسارة.

وصمتت قليلاً تستجمع شجاعتها حتى إذا ما اعتقدت أنها استجمعتها، انقضت:

- فلمَ لا تجرب أن تفتحه؟

- أنا؟ قالها أبيض الدهشة.

ولكنها مصرة وغير مبالية باستنكاره، قالت: نعم.

و نشر ذراعيه من حوله طائراً أصيب في القلب: ولكني لا أفهم في التجارة.

- تجارتنا لا تحتاج إلى شطارة كبيرة، كل ما في الأمر دكان سمانة في حارة صغيرة، فإلى أي فهم تحتاج؟.

وكانت حسيبة تحاول تخفيف الأمر عليه، فدكان حمدان الجوقدار لم يكن دكان سمان فقط، وإن استطاع فياض تحويله إلى ذلك في ستة شهور، بل كان دكاناً للبيع بالجملة ونصف الجملة لصغار السمَّانين أيضاً، وغمغم فياض حائراً: البيع، الشراء، التعامل مع الناس.

- ستتعلم. صدقني. ثم سأكون إلى جوارك أدعمك كلما احتجت إلى دعم.

وكانت نقطة تحول أخرى في حياة السئم القرفان، المشمئز، المصاب بخيبات الأمل، والهاجر المهجور منذ رفض عرض إياد.

أفلح فياض في إفلاس الدكان مرة، وثانية، وثالثة حتى اقتنعت حسيبة خائبة بأنه ليس من يحق له حمل الراية فاكتفت منه بالحفاظ عليها إلى أن يكبر هشام الوارث الحقيقي فيحملها، وفي انتظار كبر هشام حبس فياض نفسه، ذلك الدكان المنزوي في حارة منزوية في مدينة منزوية.

كان فياض يحاول ألا يعرف ما يدور في العالم، يرفض معرفة أن رومل قد طرق أبواب الإسكندرية، يرفض معرفة أن رشيد عالي الكيلاني قد ثار في العراق، وهُزم فهرب إلى ألمانية، وأن رجاله قد تشرّدوا مابين سورية وتركية والمشنقة. يرفض معرفة أن ديغول قد

استعاد له الإنكليز سورية ولبنان، يرفض المعرفة مكتفياً بجلسة منحرفة في الدكان يقرأ في تلك الكتب الصفر الجميلة تاركاً نصف عين تراقب باب الدكان خائفة من زبون جريء يصرُّ على الشراء من دكان لم يتبق فيها إلا مالا يحتاجه الناس أيام الحرب.

في سنوات العزلة تلك قرأ فياض التاريخ ثانية وإن حاول قراءته بعيون أولئك البسطاء من جيرانه الأبو سعيد، والأبو منير، والشيخ يوسف، قرأه يحاول فهم التغيرات التي تجري من حوله منذ كان إياد يشتكي تخلي الثوار عن بندقيتهم وتحولهم إلى مفاوضين، فما تنقضي بضع سنوات على شكواه تلك حتى يتخلى ليس عن البندقية فحسب، بل عن الذكريات، والماضي، وينضم إلى مفاوضي خُذْ وطالب، إلى مفاوضي ***الكلام الحلو يخرج الحية من وكرها***.

ولكن الكلام الحلو لم يفدهم كثيراً إذ سرعان ما كَشَّر الجنرال أوليفا روجيه عن أنيابه حين وثق بالنصر على الألمان، فهاجم البرلمان معتقداً أن الحكومة مجتمعة فيه، ولكنهم بضربة حظ. حظ؟ لم يكونوا موجودين، فقتل السنغال والليجيون ايتيرانجيه كل من كان في البرلمان، سلطوا مدفعيتهم على دمشق، فدمروا وأحرقوا، وهربت الحكومة، وتبخر جماعة ***الخُذْ وطالب***، وجاء إياد يرتعد من الإثارة:

فياض. إنها النهاية. إنها النهاية......

وبهدوء المنفصل عن العالم الراضي بدكانه المنعزل ذاك سأل: نهاية ماذا؟.

- نهاية فرنسة. سترى. هذه هي انتفاضة النزع الأخير.

لم يفاجأ فياض بهذا التصريح فسأل ببرود مغيظ:

- وكيف عرفت ذلك؟.

- جنرال سبيرس.

- وما علاقة الجنرال سبيرس بكل هذا؟.

- اسمع فياض. فرص العمر تأتي مرة واحدة، وأنت بذلت الكثير، وخسرت الكثير، وقد آن أوان عودة الكرامة إليك، آن أوان تقدير شعبك لك، آن أوان....

وقاطعه فياض منزعجاً:

- إياد اختصر، ما الأمر؟.

- خليل بك على موعد مع بعض الوجهاء الليلة للقاء الجنرال سبيرس.

ورفع حاجبين منهوكين وهز رأساً متعباً:

- هه.

- أنت تعرف. جريمة أوليفا روجيه هزَّتْ ضمير العالم.

حافظ على هزٍّ رأسه المتعب:

- ضمير العالم. هه!

- ويجب أن نستغل الآن غضب العالم للحصول على الاستقلال.

- عظيم فاستغلوه واحصلوا على الاستقلال.

انتبه إياد إلى برود فياض:

- لا تبدو متحمساً.

- لكي تكون متحمساً عليك أن تكون آملاً!.

- ألست آملاً؟

- أنا جسر ينتظر من يعبرني.

- لم أفهمك.

- لا حاجة لفهمي. اسمع، لِمَ لا تقول ما تريد بسرعة؟.

- خليل بك مدعو مع وفد من أعيان المدينة للقاء الجنرال سبيرس، وخليل بك يريدك معنا.

- ولكن. من أنا؟.

- الجنرال يعرفك، ويعرفك جيداً، وقد ألمح لخليل بك بأنه يريد لقاءك.

- لقائي. أنا؟.

وهزه المَلَقُ لهنيهة: ألا يزال هناك من يذكره؟.

- الاستقلال يا فياض. الاستقلال حلمنا القديم.

المَلَقُ، الإحساس بالأهمية، وصداقة إياد القديمة وكلمة الاستقلال السحرية، كل هذا فعل فعله في فياض أخيراً، فذابت أستار اللا اكتراث،

وحجب الاعتزال، وقناع الموات المؤقت، فمضى إلى البيت، وغيّر ثيابه في صمت، وغادر الدكان الذي لم يغادره منذ دخله.

كان الدخان ما يزال يتسرب من البيوت المحروقة رغم انقضاء أيام ثلاثة على جريمة أوليفا روجيه، وكان الأسى ما يزال طريّاً على وجوه الناس.

قال إياد: انظر إلى الجانب المضيء من الحادث.

التفت فياض إلى إياد بَرِماً: فحدثني عن الجانب المضيء في البرلمان وإحراق المدينة.

لم يأبه إياد إلى سخرية فياض، فقال، وكانا قد وصلا إلى شارع جمال باشا: سيعرف العالم الآن أي وحوش هم الفرنسيون، وسيكون هذا مبرراً للإنكليز لمساعدتنا في طردهم. ولكن فياض صرخ فجأة: ما هذا ؟

كانا قد وصلا جامع تنكز، فرأى فياض جداره المهدوم وبقايا السجاد المحروق، فتمتم إياد يلوك كلماته: إنه واحد من أوغاد الفوج السوري ممن آمنوا بثبات التاريخ وبقاء فرنسة إلى الأبد، لقد قَصَفَ الجامع من مدرسة الشرطة ظاناً أنها ستكون هزيمتنا النهائية، ومؤمناً أنه سيحصل على المكافأة من أسياده الفرنسيين.

نظر فياض إلى مدرسة الشرطة، كانت الاستحكامات و فوهات البنادق والمدافع تنذر مهددة، فأسرعا بالابتعاد. اخترقا زقاق رامي ولم يملك إياد نفسه فالتفت إلى فياض ممسكاً بكتفيه في قوة: لن نغفر لهم جرائمهم بحقِّ الشعب، أتسمع؟

سمع فياض، ولكنه أحس بأستار اللا اكتراث تتمدد، وقناع الموات

ينشر أوراقه، فصمت، فأمواج الحزن انتصرت على الحماسة الجديدة.

كان فياض قد سمع طويلاً عن الجنرال سبيرس، عن المثقف المستشرق، خبير اللغات والدبلوماسية، وصانع القرارات في الشرق الأوسط. كان قد سمع عن الليدي سبيرس ماري بوردن الروائية الأميركية المعروفة، عن اصطحابها له إلى بلاد الشرق تريد الاغتراف من البئر التي اغترف منها عجائز أوروبة لامارتين وجيرار دو نيرفال، وريتشارد بيرتون، كانت قد قرأت الكثير عن الليدي اللنبرة، والليدي ستانهوب، والليدي بلنت، أولئك الذين جاؤوا إلى الشرق الحقيقي كما كانت تسميه فأسروه، وأسرنَه في كتبهنّ ومذكراتهن، فتمنت لو تخلق عالماً كعالمهن، ولكن سوء حظها جعلها تصل عند نهايات الحوار القديم القديم.

نظر فياض إلى الوجه الإنكليزي الساخر قليلاً، إلى تلك البسمة الخفيفة الهادئة المنحرفة قليلاً، إلى الشاربين الكثيفين يمتدان حتى أسفل الحنك، لا. لم يكن يشبه روجيه في شيء. روجيه كان أميل إلى الامتلاء، بينما الرجل هنا أميل إلى النحول. الشاربان الكليمنصيان كانا يغطيان الشفة العليا، وهذان يكشفان عنها، ضحك في سره قليلاً، فما هذه الفروق السخيفة؟ وقبض على فكرة خفية تحاول التسلل: فياض. أنت تحاول أن تجد الاختلاف... أنت تحاول!

كان الجنرال سبيرس قد شدَّ على يد فياض بقوة حين قدَّمه إليه خليل بك:

ـ آه. مستر شيزاري. أهلاً. أهلاً. كنت أتمنى أن ألتقي بك منذ زمن طويل.

تمتم فياض بشيء ما، شيء يظنه نوعاً من الشكر على الإطراء لايستحقه.

ـــ لا. لا. على العكس. إن سلسلة مقالاتك عن الصليبيين أثارت اهتمامي.

وفجأة، غيَّرَ لهجته مازحاً: هاه. حين تخرج فرنسة.ما رأيك. هل تنتهي الحروب الصليبية؟ وهل يعود أسامة إلى قلعته؟

ـــ تخرج فرنسة؟ ونظر إلى خليل وإياد وإلى الآخرين. كانت نظراتهم جميعاً مشجعة، ولم يجد أخيراً إلا أن يقول: فلتخرج أولاً.

وكان يظن أنها إن خرجت، فستنتهي الحروب الصليبية أخيراً ولكن كان عليه أن ينتظر عامين آخرين يسمع فيهما بقيام دولة صليبية أخرى لا تتقنع بالصليب هناك إلى الجنوب، وكان عليه أن يمضي إليها كما مضى صياح وعرنوس وأسامة من قبل.

امتد الحوار مجاملاً تحدث فيه الجنرال سيبرس عن عظمة العرب، وعن إسهامهم في التقدم الإنساني، وعن الأندلس، وعن صقلية، وعن ابن رشد، وعن ابن سينا وحتى عن ابن خلدون وأسامة، يا إلهي الرجل يعرف العرب أكثر من معرفة العرب بهم!

وحين ودَّع الجميع شدَّ على يد فياض ثانية بقوة: سعدت بلقائك جداً سيد شيزاري. هل ستعود إلى الكتابة؟ ـــ وأطلق ضحكة حييَّةً ـــ إن عدت فأخبرني. أنا وزوجتي نحب كثيراً أن نقرأ لك.

صحب فياض إياد إلى مطعم سقراط. قال إياد:لن أترك فرصة كهذه دون احتفال. تعال نسترجع الأيام القديمة ونشرب. وشربا، وضحكا، واستخرج إياد كل ما في جعبته من الذكريات المرحة والنكات.

وضحك فياض، ضحك حتى ظنَّ أن السنوات الماضية قد زالت من

الذاكرة، ضحك حتى نسي أن الجريدة أُحرِقَت وأنه اتهم بقتل معلمه، وأنه هرب من هذه التهمة ليتزوج من الدمية الجميلة زينب، وأنه أخطأ خطأ العمر حين قرأ الرؤيا قراءة خاطئة، فترك حسيبة، ولحق بزينب.

ضحك حتى نسي سنوات الانحراف في الدكان وقراءة الكتب الصفر سعياً وراء استعادة الشعبي فيه، ضحك حتى نسي الأبومنير، والأبوسعيد، والشيخ يوسف، والشيخ عبد الكريم، وجامع السباهية، ضحك حتى آمن أن الاستقلال صار قيد الأصابع وما عليهم إلا أن يقولوا: لسبيرس. نعم. نحن نريد الاستقلال حتى يقول: اخرجي

يا فرنسة وأعطي هؤلاء المساكين استقلالهم الذي يستحقون، وعندئذ سيتحقق مجتمع السمن والعسل والعدالة والسعادة.

وعاد الوُد القديم، وعادت اللقاءات، ولكنه لقاءٌ إثر لقاءٍ أخذ يكتشف إياد الجديد، إياد الذي شعر أنه وقد دفع ما دفع، فمن حقه أن يحصل على نصيبه من الغنيمة القادمة، كانت عقلية الـ ***خُذْ، وطالب***، قد شرشت فيه، وبينما كان إياد يفاوض خليل بك، وخليل بك يفاوض الرئيس، والرئيس يفاوض سبيرس، وسبيرس يفاوض الأمم المتحدة، والأمم المتحدة تستمع إلى وزير الخارجية يستصرخ، ويستنجد، والناس جميعاً ينتظرون الاستقلال التام، كان فياض يجلس في دكانه المنزوي كما عاهد حسيبة لا يبيع ولا يشتري، بل يبقيها مفتوحة إلى أن يكبر حفيد الجوقدار ليحمل الراية.

أيام طويلة انقضت منذ آخر زيارة لإياد، أيام طويلة من مفاوضات ومناوشات وإذلالات للجيش الفرنسي الحبيس في ثكناته، وترحيبات بالجيش الإنكليزي المنقذ في شوارع دمشق، أيام طويلة انقضت كانت

الإشاعات فيها قد بدأت تتسرب عن مطالب الجنرال سبيرس: الفوج السوري الذي صنعته فرنسة لن يُحَلَّ، الشرطة السورية التي أذاقت الشعب الأمرَّين لن تُحَلَّ، المديرون العامُّون الذين خانوا الحركة السياسية كلها بقيادة بهيج الخطيب لن يعاقبوا، ولن يسرَّحوا. وأخذ فياض يتهرب ثانية من هذه اللقاءات. أحسَّ أنها أخذت تصبح عبئاً وفخاً، ولكن إياد لم ييأس و...، أخيراً، جاء. جاء يحمل راية جميلة صغيرة نشرها أمام عيني فياض: فياض. علَّقها. لم يبق للاستقلال إلا أن يُعلَن، وللأفراح أن تشرق، وأنت مجاهد قديم، الكل يعلم بفضلك، فلِمَ الانزواء؟

لم يجب فياض، ولم يشأ الخوض في الإشاعات التي تتحدث عن مطالب سبيرس قبل الحصول على الاستقلال. لاحظ إياد عدم حماسة فياض، فدخل الدكان وأخذ يتأمله كمن يراه للمرة الأولى. مسح الجدارن بعينيه صعوداً وهبوطاً يقرأ الحكم المعلقة يحاول ألا يكون ساخراً: لئن شكرتم لأزيدنكم. هذا من فضل ربي، عين الحسود لاتسود، وفياض يراقبه بدقة، يتأمل كل ملمح فيه وإياد يحاول ألا تلتقي العيون، تأمل فياض شاربه الأصهب المتضخم، ربطة عنقه الناتئة قليلاً إلى الأمام خارج صدريته، الدبوس الماسي المعلق إليها، فجأة التفت إليه مباشرة، فاصطاد عينيه المحدقتين: فياض.

– ماذا تريد الآن؟

ــ أنا؟ ــ سأل فياض بسرعة ــ ماذا أريد؟ أنا لم أعد أريد شيئاً.

ــ بل تريد وتريد أشياء كثيرة. حسيبة خانم حدثتني عنك، حدثتني عن إفلاس الدكان.

وأحسَّ فياض بالطعنة والغصَّة، فلماذا تحدثه عن أشياء كهذه؟

ـ لا تنسَ أني قريبهم. صحيح قرابة بعيدة. ولكني قريب. ثم أنا صديقك وأنا من قدَّمك إليهم ـ وأطلق نفخة ساخرة ـ لا.لا تسخر أرجوك. ـ و أضاف مازحاً ـ لا تنسَ أنهم إذا ما غضبوا منك قالوا: الله يلعن اللي كان السبب ـ ولم يلبث أن تلاها بضحكته المرجِّعة القديمة المصحوبة بإلحاح وجهه وحركاته ليتابعه، وتابعه فياض وقد انجرَّ إلى الفخ القديم، يا سيدي وأنا أقول الشيء نفسه.

وضحكا معاً، ضحكاً طويلاً حتى نسي فياض الإشاعات ونسي أحزان الرؤيا التي ربطته إلى المرأة العبء والدكان العبء والحياة... العبء، قال: فياض. يجب أن تغتنم الفرصة واليوم خير من الغد.

والتفت فياض إليه بوجهه النحيل وعينيه اللتين اتسعتا، واصفرَّ بياضهما الجميل: إياد. أي اغتنام وأية فرصة؟ أنا تركت كل شيء، وتخليت عن كل شيء، الفرص والاغتنام، السباق والجوائز. ماذا تريدون مني من بعد؟

ولكن الآخر لم ييأس:

ـ فياض. الحلم يتحقق. ماذا تريد أكثر من ذلك؟

ـ ماذا أريد؟ ـ ونظر إلى الوجه المتحمِّس ـ ماذا أريد؟

ـ نعم. أكثر من هذا الحلم؟

وقال فياض كالنائم:

ـ أي حلم؟

ومضى إياد وإن لم ييأس، فقد عاد بعد أيام يلح على فياض للخروج من عزلته، وليجيب عن السؤال القديم:

ـــ حلم خروج بلادنا من نير المستعمر، حلم أن تمسك بمقاليدها هي، بأيديها هي، بأبنائها هي.

ـــ وحصل هذا كله؟

ـــ بالطبع. ألم تَرَ العلم الجميل يرفرف فوق الإدارات والوزارات، يارجل إني أحسُّ بقلبي يرتجف حين أراه. أتصدق؟ الحزن الوحيد في قلبي أن المسكين لم يعش ليرى نهاية جهاده.

كان فياض يعرف أنه عنى بالمسكين الدكتور الشهبندر، ولكن عضلة واحدة في وجهه لم تتحرك قبل أن يذكر الشهبندر، وفجأة وجد نفسه يصرخ كما لم يصرخ منذ سنوات:

ـــ لا تذكر الشهبندر، لا تذكره على لسانك. أنت الوحيد الذي لا يحق له التنطُّع باسمه.

بهت إياد لصراخه فاقترب منه يهدئه:

ـــ فياض. فياض. اهدأ!

وبقَّ فياض البحصة أخيراً فقال بمرارة:

ـــ أنا أعرف أن سبيرس طلب إليكم عدم تسريح الجيش والشرطة والدرك ومديري الوزارات العاميِّن، أعرف ذلك، أعرف أن هيكل الدولة الذي بنته فرنسة لم يفكك، فأي استقلال تحدثني عنه؟ أي استقلال؟ خرقة ملونة ونشيد. ستدفعون، وسأدفع مع أولادي ثمن تهاونكم هذا. ستدفعون وسنذكر جميعاً هذا الثمن الغالي.

وبهت إياد، بهت تماماً يراقب الثورة المُرَّة، ولكن فياض لم يمهله،

فقال وهو يحاول تهدئة نفسه:

ـ ابلغْ خليل بك، أبلغه لمن هم أكبر من خليل بك، الثمن غالٍ. غالٍ.

وكان على فياض أن يعيش ليرى صدق نبوءته حين يدوس أحد المديرين العامين، وأحد الضباط المتفرنسين _ الذين أصر سبيرس على عدم التنكر لهم _ على الديموقراطية وعلى الاستقلال عند أول اصطدام مع الغرب، وكان عليه أن يعيش بعد رجوعه من فلسطين ورفض الرئيس التوقيع على اتفاقية الهدنة مع اليهود وعلى اتفاقية مرور النفط في أنابيب التابلاين ليراهما يقبضان على الرئيس والرئاسة، والوزير والوزارة، ويلقيان بهم جميعاً في السجن، ويصرخ أحد جماعة الخذ وطالب: لقد اندلع الحريق في البيت وعلى العقلاء أن يطفئوه الآن.

وكيف يطفئونه؟ بالتعاون مع السادة الجدد، بالتعاون معهم حتى في توقيع المعاهدتين الفخين، ولكن ما إن تنتهي مهمة الضابط والمدير العام بالتوقيع حتى يرسلوا إليهما من يقتلهما، ثم يرسلون من يقتل القاتل، ثم من يقتل قاتل القاتل حتى تضيع الطاسة ضمن حلقة الثارات القبلية، ولا يعرف السبب الرئيسي والحقيقي للعبة كلها!

وعاد فياض ثانية إلى جلسته المنحرفة وكتبه الصفر وأوقية جبنة وخمس بيضات نقّها كبارا. الله يخليك......

(٢٣)

لم ييأس إياد فقد صار فياض جرحاً وشاهداً، وإدانة، وكان لابد من ضمه إلى الركب حتى ينسجم النسيج، فكرر الزيارة، وتكررت الجفوات، ولكن إياد لم ييأس، فاستنجد بالصداقة والذكريات القديمة:

ـ أنسيت الليالي التي قضيناها في الجريدة ننسج هذا الحلم، ونشتهي هذا العلم؟ أنسيت الانتظار الطويل لهذا اليوم الذي عشناه معاً؟ أنسيت؟

وقاطعه فياض فجأة على غير إرادة منه:

ـ ماذا فعلتم بالخونة؟

ـ أي خونة؟

ـ أولئك الذين قصفوا أهلهم بالقنابل لإرضاء فرنسة؟

ـ رحلوا مع الجيش الفرنسي.

ـ والذي قصف جامع تنكز؟

ـ رحل...!

ـ والذي قبض على الثوار المتسللين إلى العراق لمساعدة الكيلاني؟

ـ فياض لا تكن متطرفا!

ـ متطرفاً؟ والمطالبة بعقوبة الخونة تطرف؟ والإبقاء على رجال فرنسة اعتدال؟

لم يغضب إياد، بل تحدث بهدوء، وبالطريقة التي أتقنها مؤخراً ومنذ أن تعلم الخطابة في الجماهير يدعوهم لانتخاب أصدقائه:

ـ فياض. على الإنسان أن يتأقلم مع ظروفه. من كان يصدق هه؟ من كان يصدق أن نعيش حتى نرى هذا اليوم؟ من كان يصدق أن نعيش حتى نفتح الراديو فنسمع النشيد الوطني يملأ الأسماع والأرواح فرحاً؟ من كان يصدق أن يرى هذا العلم الجميل يرفرف فوق سوارينا؟ فياض. أتعرف ما معنى ألوان هذا العلم؟

كان فياض ينظر إليه غير مصدق، فإلى أي ببغاء يتحول، ببغاء؟

أهو ببغاء حقاً؟ ولكن الببغاء يردد ما يتلقاه فقط، أما إياد فليس مردداً، إنه منشئ، إنه بادئ، إنه باعث تيار، التفت إليه وكان هناك طفل يقف أمام جام الدكان منذ دقائق، فهرب إليه:

ـ عفواً إياد، ولكن هناك زبوناً.

كان الولد يريد شراء سكاكر بفرنكين، وكان يمكن أن يصرفه زاعماً ألا سكاكر في الدكان كما كان يفعل دائماً حين يريد الخلوة، ولكنه على العكس وجد فيه الخلاص من الصدام هذه المرة. كان يريد الخلوة والصمت، فأخذ يتساءل: ماذا يريد فعلاً؟ ما الذي يسعى

وراءه؟ السياسة وطلقها منذ زمن، والاستقلال هاأنتم تحصلون عليه، وترتعون في خيراته، فما المطلوب منه الآن؟

أخذ يخير الولد بين السكاكر الحمر الكروية، والمشكلة الألوان،

والطويلة الموزية الشكل، والصفر المكعبة، يذيقه من كل قطرميز واحدة والولد ينظر مندهشاً، ولكنه يقرط السكر سعيداً، وكان خبيثاً إلى حد ما، فقد أخذ يبدي تشككه في التمييز منذ أن وصل إلى القطرميز الرابع إذ ضرب بعينه على الصف الطويل للقطرميزات، ولكن إياد لم يحتمل فقد انتفض مغيظاً:

ـ يا أخي أعطه وخلِّصنا، كلها بيعة بفرنكين.

ونظر فياض إليه ببرود:

ـ ألا يجب أن يعرف ما يريد؟

أمسك إياد بالقطرميز التالي مباشرة، فسكب بعضاً منه في ورقة صرها بسرعة ثانياً جانبيها، ثم طاوياً الجانب الأول على الآخر بسرعة محترفة، وضحك فياض: تصلح للعمل سماناً، ما رأيك لو عملت لديّ، سأعطيك ثلاث ليرات كل يوم، هه. ما رأيك؟

نظر إياد إليه مغيظاً، ثم أدرك النكتة فأكملها: حين تحترق الجريدة الجديدة لن أجد أمامي إلا دكانك. احتفظ لي بمكان فيه.

عادا إلى مجلسهما الأول، فياض على الكرسي القشي الكبير ذي الذراعين المغطى بطرّاحة مكسوة بالأطلس كانت فيما مضى لحمدان، وضع إحدى ساقه تحته، وغطى الساق الأخرى بالقمباز المتدلي، وجلس إياد على الكرسي الخيزراني الصغير غير المريح تماماً، قال:

فياض، أنت وأنا نعرف أنك لم تخلق لمثل هذا العمل.

وهزّ فياض رأسه في حكمة:

ـ ومن يعرف لأي عمل خُلِق؟ من يعرف طفولتي أكان يتصور أن

أصل إلى هذا؟ ـ وتابع بلهجة مختلطة بين السخر وبين الفخر ـ هذا العزُّ، أن أصبح صاحب دكان، دكان سنترلي في القنوات، حي الأكابر، أن أتزوج بنت الجوقدار، أن أسكن بيت الجوقدار، لقد أصبحت من الأكابر يا إياد..

هزَّ إياد رأسه متفهماً السخرية المرة النازَّة من حديث فياض، وقال:

ـ فياض. لم تخلق لهذا.

وتابع فياض سخريته الحزينة:

ـ وحسيبة خانم تقول الكلام نفسه.

ـ إذن فقد اتفقنا.

ـ ولكنها تقولها بلهجة أخرى.

ـ أعرف ما يمكن أن تقول ـ وانتفض فجأة مقترباً منه واضعاً كفاً على كتفه، وذكر فياض فجأة يد ماتيلد الرقيقة التي حين عجز الكلام عن الإقناع مدت كفها، ولكن إياد لم يعجز:

ـ فياض دعنا نقابله مرة أخرى.

ـ لماذا؟

ـ هو بحاجة إليك.

ـ لماذا؟

ـ لا أعرف، ولكنه يقول إن الحزب بحاجة إلى صحيفة جديدة بوجه قديم معروف نبيل وقلم جارح كقلمك، يريد أن يشنَّ حملة على الحكومة وهو بحاجة إليك.

ــ يريد كلب نباح!

ــ فياض ــ وكشر مجروحاً ــ لِمَ تفهم الأمر بهذا الشكل؟

أبعد فياض يد إياد عن كتفه، وقام يقرأ الحكم المعلقة يستمد منها قوة:

ــ اسمع يا إياد. صحيح أني أحب النباح، ولكني كلبٌ بريٌ.إن كان لابد أن أنبح، فأنا أفضل أن أنبح لحسابي، لا لحساب رجل آخر.

ــ ليس الأمر بهذا الشكل ــ اقترب منه ثانية قاطعاً عليه متعة قراءة حكم بيت الجوقدار القديمة: ليس الأمر بهذا الشكل أبداً، صدقني.

ــ فما شكله إذن؟ قالها بهدوء.

ــ اسمع. خليل بك توقع أن ترفض وأن تحتدَّ، وأن تتخذ هذا الموقف، فلقد كان دنيئاً ــ هو يعترف بذلك ــ حين منعنا من الكتابة في جريدته.

ــ وحين تخلى عني حين أكلتني الصحف؟

ــ فياض. ألن تفتح دفتراً جديداً؟

ــ دفاتري انتهت.

ــ فياض. الرجل لا يطلب إلا أن تسمح له بزيارتك هذه الليلة.

ــ زيارتي أنا؟ ومنذ متى كان يزور أمثالي. هذا رجل صار وزيراً.

ــ ولكنه استقال من الوزارة.

ــ صحيح، ولكنه ذاق طعم الوزارة، وعرف عزَّ المكاتب الفخمة، فماذا يريد مني من بعد؟

ـ يريد أن يلقاك الليلة.

صمت فياض يفكر، خليل بك صاحب جريدة الأضواء، خليل بك الذي عرف الكتابة أول ما عرفها في صحيفته، خليل بك رجل الشهبندر والكتلة الوطنية، خليل بك رجل الاستقلال ومفخرته، خليل بك وزير التموين والإعاشة، خليل بك وزير الأشغال العامة يتشهى زيارته هو؟!

ـ هه. أين تريد استقباله؟

كان إياد قد عرف أن مقاومة فياض قد تضعضعت.

ـ كيف؟ ولي الخيار؟

ـ هو يريد لهذه الزيارة أن تكون سرية، فإن فضَّلْتَ في الدكان بعد إغلاق أبوابها فلا بأس، وإن فضلت البيت على ألا يعرف أحد، فلا بأس أيضاً. هه. ماذا تقول؟

ـ أقول؟ ـ وابتلَّ صوته بالحزن ـ آه يا إياد أنت تعرف أن ما أُفضّل هو أن أَنسى وأن أُنسى، وأن أُترك لدكاني هذا يا ملائكة الله: لا تؤذونا ولا نؤذيكم.

ـ أنت تعرف أن هذا غير ممكن، فخليل بك استقال من الوزارة، وهو يطمع أن يكون رئيس الوزرة المقبل، ويجب أن يستعين بكل مايمكن أن يعينه. ثم. أنت لن تفيده صحفياً فحسب، بل وشيخ حارة. أنسيت أنك منذ أن فتحت دكان الشيخ حمدان، وتزوجت حفيدة صياح المسدي، وحملت معك تاريخك الجهادي الطويل احتللت مكانه.

أشاح فياض بيده في استخفاف، ولكن إياد ألحَّ.

ـ بل. أنا أعنيها فعلاً، اسمع. الليلة. الساعة الثامنة في البيت عندكم، هه. موافق؟

لم يستطع فياض الرفض، وقد كان يتمناه، ولكن هناك تلك النقطة الضعيفة الصغيرة التي تجعله لا يعرف أحياناً كيف يقول لا في الوقت المناسب.

وكانت حسيبة قد كشفت فيه هذا العيب، ولم يكتشفه وإن عاشه. قالت مرة ساخرة وكان فياض قد تورَّط فباع أكياس الرز المخزون كلها بربح خمس مئة بالمئة، وكان يظن نفسه تاجراً ذكياً رابحاً، فشهقت مرعوبة: ولكن من يبيع كل ما لديه من الرز أيام الحرب دفعة واحدة؟!

فرد مفتخراً: ولكنها صفقة رابحة. خمس مائة بالمئة.

ونظرت إليه حسيبة في حزن، أرادت أن تحدثه عن التجارة زمن الحرب، عن كيلو الرز يبيع كيلو جبنة وكيلو سمنة وما يعنيه هذا من تحكم في السعر، أرادت أن تحدثه عن وجوب امتلاء الدكان، ووجوب اعتذاره للمشتري، ولكنه رفض.

ــ لماذا؟

ــ لقد أعطيته كلمة.

نظرت إليه ثانية في خيبة. كلمة؟ كلمة؟ وفي الدكان وزمن الحرب؟ وقالت: ولكن هذا خطأ في عرف الدكنجية. إنهم يقولون ألف قلبة ولا غلبة.

ــ أعطيت كلمتي.

ــ خدعك.

ــ ربما. ولكني أعطيت كلمتي.

حاولت جعله يتراجع، يبيع ربع الكمية، نصفها، لا كُلَّ المخزون.

ولكنه صمد، صمتت حسيبة، صمتت تعض شفتها السفلى كعادتها كلما اغتاظت، ولم تستطع التنفيس، وصمت ينتظر الشجار المعهود، ولكنها بهدوء قالت والسخرية الجارحة تقطر منها: أتعرف يا فياض؟ من حسن حظ أهلك أنك ولدت صبياً، ولم تولد بنتاً؟

التفت إليها مندهشاً لا يفهم.

ـ لأنك لو ولدت بنتاً لملأت عليهم البيت أولاد حرام. أنت لا تعرف متى تقول لا، حين يجب أن تقولها.

ضحك لما اعتبره نكتة، قهقه، ولكنها لم تضحك كثيراً، بل اكتفت بالابتسام.

* * *

ابتلع خليل بك لقمة الغُرَيبة الأخيرة، ورشف بعدها رشفة تمر هندي تمضمض بها جيداً يغسل فمه من آثار الغُرَيّبة العالقة ولا شك بين ثنايا فمه العظيم، ثم قال وقد لاحظ مراقبته الطويلة لوجهه اللحيم يتمطى تحت وقع الغُرَيبة السلس يذوب في الفم:

ـ أنا أرثي لك يا فياض!

قلَّب فياض ناظريه بين خليل بك وإياد مندهشاً ومتسائلاً عن سبب هذه الهجمة المباركة، ولما لم يرد تابع خليل بك:

ـ أنا أرثي لك بالفعل.

ولم يستطع فياض احتمال هذا الرثاء، فيكفيه رثاء حسيبة، فسأل مندفعاً:

ـــ ولكن لماذا؟

لم يُجِبْ خليل بك، بل انتقل مرة أخرى إلى موضوع آخر:

ـــ أتذكر زيارتكما الأولى لجريدتي؟

وتردد فياض قليلاً، ولكن خليل بك تابع في دالة:

ـــ أنت حُرٌّ طبعاً. أنت حر إن أردت أن تقول إنك نسيتها، أما أنا فلم أنسها.

نظر فياض إليه في اهتمام، يريده أن يكمل، ولكن خليل بك انفجر غاضباً:

ـــ لِمَ لا تَرُدَّ؟ ألم يعجبك كلامي؟

كان هذا الانفجار الثاني في هذا اليوم، فقبل ساعتين فقط انفجرت حسيبة غاضبة: لم لا تتكلم؟ لم لا تقول شيئاً. قلت إن خليل بك والأستاذ إياد آتيان لزيارتنا. حسن، ولكن لماذا؟

ـــ لا أعرف.

ـــ لا تعرف؟ لا تعرف. آه فياض! آه حين أرى صمتك، ونظرك المحدق إلى الأفق في بلاهة أكاد أشك أن روح صياح المسدي

قد حلت بك لولا أني أعرف أنك ملحد وفرماسون لا يجوز أن توضع إلى جواره.

ـــ ولكن. ما دخل صياح المسدي في هذا؟

وأخذ صوتها الغاضب يهدأ ليرق مخضباً بالحنين:

ـ لأنه كان يفعل مثلك تماماً بعد رجوعه من الجبل، لم تعد تسمع له حديثاً، حواراً أو مشاركة في نقاش، كان الصوت الوحيد الذي نسمعه منه كل فجر حين يخرج من البيت: أفلح من قال لا إله إلا الله. وحده لاشريك له، متى ستذهب إلى الجامع لأسمع منك هذه الـ أفلح من قال لا إله الله؟

ونظر فياض إليها صامتاً مثقلاً بإجابات لم يعد يرغب في مزيد منها.

وقال إياد بلهجة مصالحة: فياض حبيب قديم، يجب أن نطيل بالنا عليه قليلاً. ثم هو منا أولاً وآخراً. أليس كذلك يا فياض؟

نظر فياض إليهما مندهشاً: فما الذي يريده هذان الغريبان، ولكن إياد تابع متأففاً:

ـ فياض. فياض أتريد أن تقول إنك نسيت؟ أنسيت اللغم الذي هزّ المدينة. أنسيت مقالاتنا التي أرعبت الجميع. أنسيت. أنسيت؟

ظل فياض يحدق فيهما وإياد يحدث ويذكر، ولكن خليل بك قاطع فجأة: كان تخميني عن فياض صحيحاً منذ اللحظة الأولى، فياض شاب مثالي لديه أفكار غير محددة عن مجتمع فاضل يريد صنعه.

كانت الضربة قوية، فانتفض فياض:

ـ أنا لدي أفكار غير محددة عن مجتمع فاضل؟ لا. هذا غير صحيح.

ـ ما هو غير الصحيح؟

ـ أنا لدي أفكار غير محددة عن المجتمع الفاضل؟!

وهزّ خليل بك رأسه في ثقة الرجل الكبير يتحدث إلى تلميذه أو ابنه:

ــ ربما كنت لا تعرف ذلك، ولكنك في الواقع مثالي، ولديك أفكار ربما لم تحددها حسب أولياتها بعد، ولكن هذه الأفكار موجودة لديك، و إلا فلِمَ هذه العزلة؟

ووجد فياض نفسه يهتف نائحاً:

ــ أنا مجروح.

ــ وما الذي يجرحك؟

لم تكن في لهجته سخرية، بل كان يقولها بلهجة المتفهم تماماً، وأحس فياض بأن شيئاً في روحه يتفتح، توقاً قديماً لليد الحانية الرابتة، أحسَّ أنه في... أمان ففتح قلبه، وكان عليه أن يعيش سنوات، وأن يلدغ مرات حتى يتعلم أن من يسمونهم بالماكينة السياسية يدربون أنفسهم طويلاً ليتقنوا هذه الحيل، الإصغاء الجيد، الفهم، التعاطف، الموافقة، التصديق، فإذا بالآخر يسلِّمُ القياد ظاناً انه يتعامل مع الأب الحنون، مع الصديق العطوف الصادق لا يريد إلا الخير لمن يتحدث إليه. التفت فياض إلى إياد ولاحظ نظرة سريعة في عينيه قبل أن يتكلم، وكان عليه أن ينتظر طويلاً حتى يسمعه يقول معلِّقاً على هذا اللقاء ــ عرفت أنك ستقع وتفتح قلبك منذ اللحظة التي رأيته يضع قناع الأب المتفهم على وجهه، ورأيت نظرة الشفقة على النفس في عينيك. وفي مرة أخرى وبعد شهور طويلة من الاستقلال قال إياد: فياض، ربما كانت مشكلتك الحقيقية أنك لم تعايش أباك معايشة حقيقية ليربيك على قيمه ونظرته إلى العالم والناس والحياة، وحين انتزعك روجيه من عالمك الشيزري ليجعل من نفسه أباً لك يحمِّلك قيمه ونظرته إلى الحياة انفصلت عنه رافضاً قيمه

دون أن تستطيع العودة إلى قيم أبيك الشيزري، والأنكى من هذا كله أنك لم تستطع تشكيل قيم معاصرة خاصة بك بعيداً عن الكتب والتاريخ. فياض. يجب أن تحاكم الأمور بتعقل أكثر. صدقني أنا أحبك وأسعى لمصلحتك.أنت لا تثق بالوطنيين ولا الشعبيين ولا بالحزبيين جميعاً وفي هذا الأمر أنت حرٌ رغم أن هناك آخرين يثقون بهم ويصدقون بهم، ويرون فيهم الأمل. فياض. يجب أن تثق بي. أنا أخوك. يجب..

وسيكتب فياض في دفتره الجريدي: أفْ أف! ما أسهل خديعتك يا فياض. كان عليك أن تدرك أن إياد قد صار حيواناً سياسياً، وأنه أتقن اللعبة، وأنه يجرِّب أسنانه فيك.

وقال خليل بك بعد أن استمع إلى الخيبات كلها، منذ طرد فياض من الصحيفة، منذ حرق الجريدة، منذ مقتل الشهبندر، منذ حكومة المديرين، منذ العفو عن المجرمين الذين تعاونوا مع فرنسة، منذ السماح للجلادين والقتلة بالهرب دون محاكمتهم، منذ بقاء الضباط الذين تربَّوا فرنسياً في مناصبهم، منذ هذا الاستقلال المختزل بالنشيد الوطني والعلم الجميل منذ ...... منذ...

لم يكن فياض يدرك انفعاله وقربه من البكاء وهو يتحدث، ولكن إياد سيقول له فيما بعد: كنت مؤثراً بشكل محزن، أأنت مجروح إلى هذا الحد؟.

وتابع معتذراً: لابدَّ لكل لذة من تنغيص يا فياض، كان لابد لنا أن نتحمَّل بقايا فرنسة لنحصل على الاستقلال. جنرالات....؟ سيموتون. مديرون عامون.....؟ سيموتون. ولكن الاستقلال سيبقى لنا.

ونظر فياض إليه غير مصدق وودَّ أن يسأله وإن لم يسأل: إن لم

يسمع عن لعبة حملة المشاعل تنقل من يد إلى يد حتى نهاية السباق.

وقال خليل بك يهز رأسه في حزن: ألم أقلْ لك، أنت مثالي وإن كنت لا تعرف تماماً المثال الذي تسعى إليه؟ ما تريده هو حلم الإنسانية منذ الأزل، العدالة المطلقة، ولكن حدثني من شأن الله هل تحقق هذا الحلم في يوم من الأيام؟ الإنسان يا عزيزي، وأعني بالإنسان، الواعي العارف لما يريد، لا أولئك الحيوانات المجترة تأكل، وعفواً لاستخدامي هذه الكلمة – وعجب فياض لتأدبه المفاجئ – وتخرئ، وتنط على نسائها، وتنجب أولاداً ثم تموت، الإنسان يا فياض، ولم نعرف له شكلاً آخر، كان له هدف واحد أبدي... السلطة، صدقني...

وقال إياد فيما بعد: أتعرف. كانت المرة الوحيدة أسمع فيها خليل بك يتحدث بهذه الحكمة، ليس هذا فحسب، بل ويفتح قلبه؟ من النادر جداً لأمثاله أن يفتحوا قلوبهم، ولكن يبدو أنك بحرارة قلبك أذبت الشمع الذي غلف به قلبه.

وتابع خليل بك: صدقني. الفلاسفة، الحكماء، المصلحون الاجتماعيون، هدفهم واحد، صدقني... السطلة.

ووجد فياض نفسه يندفع بالسؤال:

- ولكن لماذا؟

- لا أعرف – هزَّ رأسه حائراً، ثم تابع بعد تفكير قليل – يبدو أن لذتها لا تقاوم، ولن تستطيع معرفة هذه اللذة والحديث عنها حتى تتذوقها، – تردد قليلاً – مهما حدثتك عن طيب العسل، وشبهته لك بالسكر، وبحلاوة التفاح، والخوخ، والعنب، فهل أكون قد قربت إليك طعم العسل؟.

دهش فياض لهذا التشبيه الدقيق، ولكن إياد كان قال له في مناسبة أخرى: هذا التعبير سمعه من الشيخ أحمد يصف به حلاوة الإيمان، ولكنه نقله إلى السلطة.

وضحك فياض للسخرية الكامنة في تعليق إياد وتساءل: أتراه لم يعد يثق كثيراً بمعلمه، أم أنه يعدُّ نفسه للخلافة؟.

وتابع خليل بك: قرأت في مجلة الكتاب منذ فترة مقالاً يتحدث عن البدائيين وكيف يصطادون الحيوانات العصية بالعصا والحجر، قال: كانوا إذا ما أرادوا اصطياد ثور وحشي عمدوا إلى التنكر بجلد ثور وحشي يضعونه على أجسادهم، ثم يتقربون من القطيع حتى يلامسوه،فإذا ما صار في متناولهم انقضوا عليه بعصيهم وحجارتهم، فقتلوه، وما كان لهم أن يقتلوه لو جاؤوه مواجهة، ولم يتنكروا، وإذا ما أرادوا اصطياد أيل تنكروا له بجلد الأيل – صمت قليلاً يستجمع شجاعته – وهكذا كان صيادوا السلطة يعملون دائماً، إلام يتشوق الناس؟ إلى العدالة؟ تعالوا نتنكر لهم بجلد العدالة، الجنة الأرضية؟ تعالوا نتنكر لهم بجلد الجنة الأرضية، الحياة الأبدية؟ تعالوا نتنكر لهم بجلد الحياة الأبدية – وصمت قليلاً كمن تعب من اعتصار فكره، ثم تابع: ولكن الهدف الحقيقي والوحيد كان السلطة.

وصمت، وصمت إياد أيضاً، وصمت فياض يلوك هذه الأفكار التي تسلسلت بسهولة من فم خليل بك، وطال الصمت حتى تشاغل خليل بك بإخراج سيكار غليظ من جيبه الداخلي، فوضعه في فمه شارداً يريد إشعاله، ثم تذكر فجأة، فأخرج سيكاراً عرضه على فياض، ولكنه اعتذر، وأصرَّ خليل بك: تذوق هذا التبغ، تذوقه مرة، واترك هذه الزبالة، بافرا ومرجان، أهذا دخان يليق بمثقف مثلك؟.

أراد الاحتجاج، ولكنه دسَّ السيكار في يده، رأى إياد بشعل سيكاره، فأشعله، وأخذ يتذوق تبغ الأكابر، وتشاغل الثلاثة بالتمتع بالتدخين حتى قطعه خليل بك:

- أتعرف محمد علي؟.

فوجئ فياض بالسؤال:

- أي محمد علي؟.

- محمد علي سلطان مصر وذابح المماليك.

- آه طبعاً سمعت عنه.

- أتعرف حكايته مع المماليك وابنه إبراهيم باشا؟.

- أي حكاية. لا. لا أعرف؟!

- تنفس بعمق كمن يستعد لمعركته الأخيرة: لما دبر محمد علي مؤامرته الكبيرة ليقضي على المماليك جميعهم بالقلعة، قال لهم:

نريد أن نناقش مستقبل مصر، لكنه كان متفقاً مع ضباطه على ذبح كل من كان بالقلعة، ولما صاروا بالقلعة وتحت يده، وقربت لحظة تذوق متعة النصر جاءه الضابط المسؤول عن المذبحة وهو يرتجف من الرعب وقال له: سيدي الباشا، إبراهيم بك معهم.

اصفرَّ وجه محمد علي. ما معنى هذا؟ قام الضابط وقال له بسرعة: صحبهم بالغلط. ماذا أصنع؟ الجنود إن بدأوا بالذبح فلن يتوقفوا، وابنك إبراهيم بك معهم، ماذا أصنع؟.

توقف خليل بك يراقب تأثير كلامه على فياض وإياد، ثم أكمل بعد

أن اطمأن إلى تلهفهما: أطل الباشا من نافذة صغيرة تطل على المماليك، وشاف ابنه البكر معهم، تنهد قليلاً في حزن ثم قال جملته المعروفة: اضرب. فالمُلك عقيم.

رنّت الجملة غريبة في أذني فياض: المُلك عقيم، المُلك عقيم، وأراحه إياد من السؤال عن معناها حين سأله، فقال خليل بك في انتصار: يعني، ولد مثل إبراهيم يمكن تعويضه بخمس دقائق مع امرأة ينام معها، أما المُلك، آه، فإن ضاع فلن يعوض!

لم يترك خليل بك فياض يردد الفكرة كعادته، أو يحاول هضمها، فهاجمه في إلحاح: أف فياض، لازم تفهم الحياة جيداً، هذه فرصتنا. لازم تتحرك جيداً، المُلك عقيم، ولازم ما نضيّعه من أيدينا، اترك هذا الدكان الوسخ، هذا ليس لك، ارجع إلينا، ستستلم الجريدة، وسنقيم اجتماعاً في بيتكم غداً ومهرجانات خطابية، وسنجعل القنوات معقلاً لنا، فياض. لازم تنتبه لنفسك. تصرَّف. تحرك. أنت لك اسم ما نسيه الناس بعد، من أيام حادثة اللغم، وجريدتك المطالبة بالاستقلال، ومقالاتك اللهم وشماتة، لازم تستثمر هذا كله سياسياً، لا أن تكمم عينيك وعقلك، وتجلس في هذا الدكان تبيع بعشر ليرات وتربح ليرة وربع.

ولكن المُلك عقيم. المُلك عقيم لم تفارق ذهن فياض. أخذ يرددها وخليل بك يتحدث، يرددها وهو يحاول إقناعه فلا يقتنع، يرددها وهو يريد أن يعود إليهم ليلعبوا لعبة السلطة، وبهدوء أخذت المعرفة تتراكم حتى تجلّت رؤيا، فهو لن يقبل بالعقم، هو يريده حكماً مثمراً غير متنكر بجلد الثور، ولا بجلد الأيل، فانتفض وربما لو سمعته حسيبة لحسدته:

- لا!.

- ما معنى هذا؟.

- لن أكون معكم!

- ولكن لماذا؟ أيعجبك الغباء الذي تعيش فيه؟.

واكتشف فياض أنه كان منذوراً لهذا الغباء، فهذا قدره، ولن يستطيع لعبة المُلك العقيم، ولكن يا إلهي! لن يستطيع أن يكون الحيوان المجترّ. يأكل و يخرئ وينط على امرأته، وبحزن جارح تساءل: فماذا أكون إذن بحق الملائكة الزرق؟.

بعد سنوات وحين خلا فياض لنفسه في السجن. بعد أن تخلى عنه الجميع، ولوحق فياض الشيزري تحت اسم أبراهام ليفي، وذكر قصة محمد علي والمُلك عقيم، تذكر أن إبراهيم باشا لم يقتل مع المماليك، فكيف نجا إذن؟ وندم أنه لم يسأله كيف نجا، ولكنه ذكر أيضاً جملة: اضرب فالمُلك عقيم، واكتشف أن في الجملة بلاغة موجزة رائعة، فتساءل: أتراه، ذلك الألباني الأمي محمد علي يستطيع أن يصوغ حكمة وخلاصة رأي سياسي بهذا الإيجاز البليغ.

اكتشف بهدوء أن القصة كلها مختلقة، ولكن كيف وصلت إلى خليل بك؟ أتراه اخترعها؟ لا. لا يستطيع رجل كخليل بك اختراع قصة كهذه أيضاً، لابد أنها وصلت إليه من رواة آخرين، وبإشراق مفاجئ أدرك أن الحكمة الشرقية أرادت تلخيص رأيها في السلطة والسياسة، فنسبتها إلى محمد علي، ثم أخذت تتداولها حتى صدقت أنها لمحمد علي، وبقناعة ممرورة أدرك أنها الرأي الشرقي في السلطة.

صرخت حسيبة في مرارة:

- رفضت؟ كيف. كيف تجرؤ؟ من سمح لك؟ أتظن نفسك صاحب الحق الوحيد في اتخاذ القرار؟.

وقال فياض في هدوء وهو يلملم معطفه المخضخض من حوله.

- أعتقد أن لي الحق في اتخاذ قراري.

ولكنها أكملت صراخها المهتاج:

- لا. أنت واهم. أنت لست وحيداً، أنت مسؤول عن عائلة، أنت مسؤول عن بيت الجوقدار، وها هي الفرصة تعود إليهم ليرفعوا رؤوسهم مرة أخرى منذ أن حطّ بهم الزمان بوفاة الشيخ حمدان دون أن يكون له وريث، لا تستطيع. لا تستطيع. فاهِمْ؟.

حاول الاحتماء بقلعة صمته العتيد إلا أن زينب قالت بلهجتها المتسللة من عالم الحلم الذي تعيشه منذ أن هرب إلى الدكان المفتوح لإبقاء راية بيت الجوقدار مرفوعة، وإلى الكتب اللعينة التي رجعت، فهاجمته بعدما هجرها سنتين كان يبحث فيهما عن جنة أرضية عمادها بيت هادئ، وزينب وتجارة كان يظنها ستنجح. قالت: فياض. أما قلت لك؟ أنت بالبذلة أحلى منك بالقنباز.

ونظر إليها مذهولاً: أهذا كل ما ترين في الأمر؟ ولكنها تابعت: أنا ما أحببت أبداً لبسك القنباز والجاكيت المحكمجي، ونزولك إلى الدكان. فياض إكراماً لي ولهشام ارجع إلى موقعك الحقيقي.

وقالت حسيبة: فياض. أنت غير مهيأ أبداً لتكون الدكنجي.

وقال في سخر خفي: قلت لك هذا منذ البداية.

ــ ظننتك ستتعلم. كل واحد في هذا العالم يعلِّمه الزمان.

ـ إلا أنا.

ـ لأنك ترفض التعلم. ارجع إليهم يا فياض. أنت غير مخلوق للدكان.

ـ وانقضى أسبوع طويل كان الجميع فيه ضد فياض. حسيبة وزينب، بل وحتى هشام الصغير الذي جاءه يحمل ربطة عنقه ويقول: بابا تيف هي بتنربط؟

وابتسم بمرارة، فالولد كان يسأل عن كيفية ربط ربطة العنق، أخذها منه ولهنيهة سأل نفسه ساخراً: إن كان ما يزال يعرف ربطها.

وفي الدكان جاؤوه، الشيخ يوسف وأبو سعيد وأبو منير ومعهم أهل السوق وسألوه: أستاذ فياض. و نحن؟ ألا يجب أن نشارك في الاحتفالات؟ ألا يجب أن تكون لنا مهرجاناتنا؟

نظر إليهم مندهشاً من مجلسه العتيد في عمق الدكان متكئاً على ساق، مقيماً الأخرى، منحرفاً بنصف ظهره إلى الحارة ليمكنه النور القادم منها من القراءة: ولكن. مالي أنا ولهذا؟

ـ كيف؟ أنت الأستاذ فياض الشيزري المناضل المعروف والصحفي المعروف وقد سكتنا عنك حين أردت قطف رمانة، أما الآن فلن نسكت.

ـ المعنى؟

ـ المعنى حارة القنوات بحاجة إلى من يمثِّلها، بحاجة إلى من ينادي باسمها، بحاجة إلى شاب ذكي، فهيم، ومثقف مناضل مثلك.

وعرف فياض أن هذا الكلام ليس للشيخ يوسف، عرف أن إياد وراء

هذا الأمر. و حاول الهرب، ولكن حسيبة وزينب في البيت، والشيخ يوسف، والأبوسعيد، والأبومنير كانوا جميعاً على رأي واحد، وكانت نبوءة حسيبة صادقة، فلم يستطع الإمعان في قول (لا).

وقال إياد له وكانوا يجلسون في غرفة خليل بك، وكان فياض يقارن على غير رغبة منه ثيابه التي صارت قديمة الطراز مع ثيابهما الجميلة الفخمة وهو يدخن سيكار خليل بك في استمتاع:

ـ كل شروطك مقبولة.

ـ أكتب ما أشاء؟

ـ كما تشاء.

ـ ولا رقيب علي!

ـ إلا المصلحة العامة للوطن.

ـ هذا ما أقرره بنفسي.

نظر كل منهما إلى الآخر ملياً ثم قال خليل بك: لا بأس.

ولكن فياض الذي عاش طويلا في عالم الذاكرة كان عليه أن يكون ذا ذاكرة أكثر حدة، وأن يذكر قبولاً سابقاً ونكوصاً سابقاً، ولكن إياد أكمل:

ـ سنبدأ مهرجاناتنا الخطابية في القنوات منذ الغد.

ـ لا بأس.

ـ وسنستمع إلى خطبك الجميلة التي حرمتنا منها....

وأضيف إلى بيت الجوقدار ملمح جديد لم يره فياض منذ سكن هذا البيت، ملمح مكّنَهُ من رؤية سعادة خاصة على وجه حسيبة الذي لم تعلُه السعادة منذ تلك اللقوة المشؤومة، تلك اللقوة التي كسرت عينها، وأضافت مرارة إلى روحها، ملمح رأى فيه حسيبة، بل وحتى زينب التي لم ير منها قط عملاً من أعمال المنزل، رآها وقد شمرتا عن ذراعيهما منضمتين إلى مريم ووداد وأم منير وأم سعيد، بل وحتى هشام أيضاً، كنَّ جميعاً منهمكات في إعداد البيت لليوم العظيم، البعض منشغل بإعداد القهوة المرة، والبعض بإذابة التمر هندي، والبعض بتحطيم الثلج.

كانت مخزونات حسيبة من كؤوس الشراب وفناجين القهوة قد استخرجت من مخازنها، تلك المخزونات التي آلت إليها من زيجات الشيخ حمدان السابقة ومن مخزوناتها الخاصة، فقد كانت خزانتها الخاصة بالمالقي والصيني ربما أكبر خزانة في الحارة. وكانت تقول لفياض تبرر هذه الهواية العجيبة: لو شربت مرة الماء الفاتر المشوب بالعشب اليابس، وربما ببعر الماعز في طاس من الفخار أو كيلة من التوتياء لعرفت لذة ماء الفيجة في كؤوس البللور والفناجين الصينية، ورغم أنها لم تذكر المناسبة إلا أن فياض وهو الشيزري العتيق كان يعرف أنها كانت تعني مغامرتها الجبلية مع صياح المسدي.

صفت الكراسي المستأجرة في الباحة حتى الدهليز. نثرت حول البحرة بدءاً من جدار المربع الكبير وحتى الإيوان الذي رصفت فيه الكنبات الموزاييك المغلَّفة بالدامسكو ذي نقوش الفارس المشهر رمحه.

دخل خليل بك في جلاله الجديد ببدلته الروز الجيدة الكيِّ، وربطة العنق متعادلة الحمرة مع الطربوش جيد الكيِّ، كان يتكئ على بستونه

ذي الرأس الفضي في وقار، فانطلق التصفيق والهتاف بحياته وحياة حزبه بطل الاستقلال، وأسرع إياد يشق لخليل بك الطريق بين الحضور الذين ملأوا الباحة تماماً. لحق بهم فياض على مهل، ولكنه وقبل أن ينضم إليهم في الإيوان سمع هتافاً وأهازيج أمام الباب، فاعتقد أن من واجب صاحب البيت الخروج لاستقبالهم، ولكن إياد شدَّه من ذراعه فاعترض هامساً:

ـ والقادمون؟

ـ دعك منهم!

ـ ألا نستقبلهم؟

ـ مكانهم هناك يهتفون ويهزجون، أم تريد الاحتفال محبوساً ضمن أربعة جدران؟!

لم يقتنع، ولكنه تبعه وهو يسمع الجموع: بدنا كلمة خليل بك، بدنا كلمة خليل بك. حيا خليل بك الجموع بكف أبوية جليلة، ثم أشار إلى إياد فانتفض، وارتجل كلمة حيَّا بها القنوات، ورجال القنوات، وصياح المسدي وحمدان الجوقدار، والرجال المناضلين الذين بذلوا الكثير لنيل هذا الاستقلال، ثم وفي حركة دراماتيكية قال: وعلينا دائماً ألا ننسى صاحب هذا البيت، الصحفي الكبير، الرجل الذي ضحَّى بمستقبله وحياته من أجل هذا الوطن، الرجل الذي لن ننسى له أبداً مقاله العظيم في الزمن الأسود – وتوقف قليلاً يثير تلهف الحضور، وعرف فياض أنه سيقول: اللهم وشماتة، فنظر إليه خجلاً يحذره، ولكن إياد وقد وصل إلى الذروة الدرامية صرخ بملء صوته: اللهم وشماتة!

دوى المكان بالهتاف، وضاع فياض ضمن مدِّ الحماسة هذا، فلم يستطع النظر إلى السطح حيث كانت حسيبة وزينب وجموع النساء يختفين على السطح يتابعن الخطاب، وتابع إياد: هذا الرجل الحبيب الكريم، الصديق القديم سيلقي علينا كلمة الآن.

اضطرب فياض لهذه المفاجأة، فلم يكن هذا ما اتفقوا عليه، ولكن إياد تابع كلمة الترحيب: والعودة إلى مكانه الطبيعي، إلى مكانه القيادي، إلى المكان الذي يستحقه بطل تفجير دبابات المستعمر في الفحامة – وتوقف هنيهة ليقوي التأثير في كلمته – ثم هتف: فياض الشيزري!.

هبَّ أبو منير وأبو سعيد والشيخ يوسف والمجموعة ضائعة الملامح: بدنا كلمة فياض بك، بدنا كلمة فياض بك.

ورنت كلمة – بيك – في ذهن فياض، فمتى كان البيك، ولكنهم كرروا وألحوا، ورأى فياض خليل بك يلتفت إليه مشجعاً ببسمته الأبوية المطمئنة، فوجد نفسه ينساق أمام ضغط الجموع، فيقوم.

كان الموقف محرجاً، فلم يكن قد أعد نفسه لكلمة كهذه، كان الصمت الطويل، ومعايشة الأشباح، وقطرميزات السكاكر والقضامة، وأكياس الرز والسكر قد أعيت لسانه، ولكن الجموع، الجموع، نظر إليهم، فرأى الوجوه التي يعرفها. أغمض عينيه ونظر ثانية، فتجلت الوجوه القديمة مصطفى وعبد الله وحسن وصبيان شيزر، رجال أسامة الذين دعوه مرة للحاق بهم ف... لحق، وقال خليل بك: تكلم فياض.تكلم. قل شيئاً.

وما كان خليل بك يتوقع حين طلب إليه الكلام أن يقول ما قال حين طلب من رجال الاستقلال وقد حققوا الاستقلال أن ينجزوا بناء هيكل الاستقلال، فيهدموا ما بنته فرنسة وإنكلترا ليبدأ البناء العربي من أبناء

الوطن المخلصين لم تلوثهم لوثة التعاون مع فرنسة، لم تقذِّرهم أموال فرنسة السرية، لم توسِّخهم إعاناتها الليلية، وتآمرهم ضد الوطن..

أغمض فياض عينيه وهو، يقول، ويقول غير منتبه إلى الصمت المتسلل يغلِّف الباحة والحضور والسامعين، وإن أحسَّ حركة بدأت خفيفة تكزه منبهة ثم لم تلبث أن تحولت إلى همسٍ راجٍ من إياد يطلب إليه تغيير الحديث، ولكن فياض لم يستطع الصمت، بل اندفع يتحدث دون أن ينظر إلى الآخرين، كان يخاطب نفسه، أناه الأخرى، أحزانه، عزلة السنوات في ذلك الدكان السجن الإرادي المنفرد إلا من كتب صُفْرٍ عرَّفَتْ إليه العالم الذي لم يعشه، عن آباء وأجداد حاربوا وانتصروا، حاربوا وانهزموا، حاربوا وعاشوا، بنوا الحضارة، وكتبوا الشعر، ورفعوا القلاع، وبنوا القصور والبيمارستانات، وأنتجوا الفكر، أنتجوا كل ما تفخر به أوروبة علينا الآن.

ضاق إياد وخليل باسترسال فياض، ذلك الاسترسال الذي ما كان يخاطب فيه الناس قدر ما كان يبثهم حزنه الداخلي وانكساره المرير، فجأة انتبه إلى تصفيق عنيف إلى جانبه، التفت، كان المصفق خليل وإياد، وتبعتهم... الجموع، الجموع الحبيبة، الجموع المسكينة، الجموع المصفقة للصوت الأعلى. واندفع إياد يشير إلى الحاضرين، يريد الكلام، ولكنهم ما توقفوا عن الهتاف والتصفيق، كانت هذه مشاركتهم، ولم يكونوا على استعداد للتخلي عن هذه المتعة، ولكنه أشار، وأشار حتى صمتوا، وكان فياض قد صمت منذ بدء التصفيق والهتاف حائراً، وأخيراً قال إياد بصوته المتهدج: والآن أيها السادة سيلقي علينا خليل بك كلمته التي انتظرناها طويلاً، كلمته الحكيمة، كلمته المثقلة بتجارب السنين، بخبرة الأيام، بانتصار العمر، - توقف قليلاً - ثم هتف: خليل بك.

عاد فياض إلى مجلسه منكسراً يتساءل في حزن: ماذا صنع؟ وماذا قال، غير أنه لم يزد على أن أضاف إلى تصفيقهم تصفيقاً، وإلى هتافهم هتافاً حولوا به أحزانه بذكاء إلى رصيد لهم، نظر إلى إياد، ولكنه هرب بعينيه منه، نظر إلى خليل وكان يهزج، ويلوّح، ويزبد في انفعال. عرف فياض أنه خذلهما، فما لهذا دعواه، وهزَّ رأسه في استسلام، فلطالما خذلاه من قبل، أطرق إلى الأرض كمن يستمع، يفكر في القطيعة القادمة وعودته إلى قوقعته الدكان، توقع غضبهما، وتوقع حزنهما، ولكنه أبداً لم يتوقع أن يقرأ في اليوم التالي في جريدة الأضواء مقالاً دون توقيع وإنْ خمَّنَ، وعرف أن الكاتب إياد، فليس من رجل في العالم يعرف أن يقول: يعايروننا بتعاملنا مع فرنسة، فمن تبناه الفرنسيون، وربوّه حتى صار رجلاً؟ يعايروننا بقبض الأموال من فرنسة، ومن الذي أنشأ جريدته من الأموال الفرنسية أصلاً؟ يعايروننا.........

وهم الأحق بالمعايرة، يرموننا بالحجارة وبيوتهم من زجاج رقيق لا يصمد لرمية حجر.

كانت الطعنة قاسية، والجرح أليماً والحزن أكبر من الاحتمال، فقد كانت هذه المرة من.... إياد.وقالت حسيبة: لم أسمع بحمق كهذا. تأتيك السعادة حتى أرض الديار – وأشارت إلى الباحة حيث كان يجلس – فترفسها، وتسعى وراء أوهام غير مفهومة، غير مقنعة، لا يدافع عنها، فياض. ما الذي تريد إكراماً لله؟ أن تعود فرنسة إلى سورية لتطردها أنت؟.

نظر إليها بعينين واسعتين لا تريان، وانسحب عائداً إلى دكانه المسكين الوحيد يخاطب القطرميزات، ويقارع الكتب في انتظار...

انتظار؟ انتظار ماذا؟.

وكانت القطيعة، قطيعة من إياد وخليل بك، قطيعة من الشيخ يوسف وأبو منير وأبو سعيد الذي خاب أملهم في الزعامة الجديدة، فالتفتوا إلى إياد الذي بدأ صفحة جديدة زعيماً وخطيباً وعضواً في البرلمان بمباركة من خليل بك الذي عاد إلى الوزارة، وقطيعة من حسيبة خانم التي أعلنت يأسها الكامل منه، فقالت: لو أن الزمان يسمح، لو يسمح فقط لفتحت الدكان، وأعدت المجد إلى بيت الجوقدار، لو أن الزمان يسمح لما ضاعت زعامة الحارة التي وصلت إلى هنا، إلى هذه الباحة، إلى هذا الإيوان، إلى هذه البحرة بسبب عقلك الأعوج، لو أن الزمان يسمح لاستلمتها بنفسي – ثم تأوهت بمرارة – ولكن الحارة قاسية والمدينة قاسية والنسوان لا مكان لهم فيها.

وعرف فياض أنها كانت على حق، فلو سمح الزمان لها لفعلت الكثير الكثير...

(٣٤)

تسلل الصوت عذباً، أنين حاد، فتأوهات فرحة، فضربات قلب متهيج. فتح عينيه آه! إنه أول النهار. كان قد اعتاد الأذان فلم يعد يوقظه من نومه. أما هذا الغناء، يا إلهي! كيف جرؤ هذا الشحرور على دخول القلعة، انسلَّ من فراشه بهدوء يحاذر إيقاظها. فتح الباب الحديدي يريد سماعه عن قرب. سنوات انقضت منذ كانت الشحارير توقظه هناك في القسطنطينية. واهتزَّ الخدَّان اللحيمان في تأمل حنون. صحيح. سنوات طويلة انقضت منذ كان يحرص على الاستيقاظ المبكر ليهرب من سرير المعشوقة قبل قدوم الصباح والأهل والفضيحة.

سنوات طويلة انقضت منذ كان يسمع صوت الشحارير وهو يتسلل بين الأشجار إلى عربته المنتظرة مع السائق عند سور القصر.. سنوات، والتفت إلى الغرفة المغلقة حيث كانت ثيودورا تنام في هدوء.

اجتاز الممر الحجري ليطل على باحة القصر حيث حديقة الرمان والشحرور المغرد المختفي ولاشك، تأمل الأشباح الخضر القاتمة. فرك عينيه قليلاً يجلوهما فلعله يراه. ولكن الشحرور صمت فجأة،

ألعله يخافه؟ ولكن كيف له أن يراه ويخافه وهو البعيد عن الحديقة

في الممر الحجري العالي المسوَّر بالأعمدة والميازيب، صمت الشحرور، ولكنه يجب أن يراه. ولكن ماذا يمكن أن يكون إلا ذلك العصفور الأسود الكهرماني المنقار؟ لا. يجب أن يراه، حدَّقَ وأمعنَ، ولكن الكتلة الخضراء القاتمة الموشحة بضباب دافئٍ رقيق صدَّته، فلم يستطع تمييز حتى أزهار الجُلَّنَار قانية الحمرة فيها، ما الأمر؟ أهي الكهولة يا أندرو؟ أم أنه شراب الأمس وخماره واضطراب العينين؟ حسن. العينان مرهقتان فماذا عن الأذنين؟ لمَ لم يعد يسمعه؟ ما الذي أصمته؟.

تسحَّبَ بهدوء فهو يعرف أن الجميع نائمون ولا خوف من إزعاج، هذا الجناح من القصر متروك له ولثيودورا، وليس فيه من حرم كما يعرف، نزل الدرج الحجري بقدميه الحافيتين، فلسعه البرد اللذيذ، وأحس نشوة باردة تتسلل إلى الرأس، فالعينين، ولكن الشحرور لا يغني، وصل إلى الحديقة لكن الشحرور لا يغني، تسلل بين شجيرات الرمان، ولكنه لا يغني، فجأة سمع أنيناً خفيفاً، فجمد، تجمد يتسمع جيداً. لا. إنه ليس الأنين إنه... تسمع جيداً. آه دندنة ضعيفة. آه! هناك أحد ما يغني إذن، تسلل بهدوء يحاذر شوكة تخزه أو عشبة قاسية تتحطم فترعب ذلك المدندن، أزاح غصن رمانة، تقدم، لطمته رمانة قاسية، حدق فيها قليلاً في غضب مرح، ثم تقدم، الدندنة، اللحن عربي، إنه يعرف هذه الألحان، ولكن الكلمات ليست عربية، توقف قليلاً يتسمع، استطاعت أذناه تمييز كلمة البحر باليونانية، اليونانية؟ ولكن ما الذي يأتي باليونانية إلى ها هنا، لابد أن أذنيه أخطأتا السمع، اقترب ولكن لا. إنها اليونانية، الشوق و النوارس، ولكن اللحن عربي، اقترب، أزاح غصن سفرجلة ليجدها أمامه مباشرة، كانت تجلس على الأرض مستندة إلى جذع جوزة وقد فرطت رمانة فهي تلتقط حباتها بكسل وتدندن.

تأملها جيداً، يا إلهي! من هذه المرأة؟ الثوب عربي. ولكن الأنف،

هذا الأنف الرومي العتيق وهاتان العينان السوداوان الكبيرتان. لم تكن خائفة، ولم تكن تتوقع غريباً، فقد أرخت شعرها الأسود الطويل تلتقط حبة رمان، فتلتقمها بشفتيها تداعبها قليلاً، ثم تزلقها بهدوء لتكمل اللحن الذي توقف، وصار دندنة حلقية.

أذهله هذا الحسن الهادئ اللا مبالي، وتمنى لو يتوقف عنده إلى الأبد، تمنى لو يتوقف الزمن، تلتقط حب الرمان وتدندن وهو يتفرج على الحسن. فقط؟ وأدركته ضحكة لم تعلن عن نفسها لقد كبرت يا أندرو، وصرت تكتفي بالتأمل. إيه. إنه النضوج يا عزيزي، نضوج اكتشاف الحسن والوقوف عنده دون غرض.

كانت تدندن دون تعبير. فالوجه معلَّقٌ إلى رقعة السماء البادية عبر أغصان الحديقة وتمنى لو كان في الجانب الآخر ليرى الوجه وانفعالاته، ولكنه لم يكن يرى إلا المشهد الجانبي الهادئ للوجه، الشفاه تتحرك بهدوء، بهدوء الزئبق الساكن. أذهلته الكلمات عن الشوق إلى البحر، والنوارس، وروائح السمك، والأعشاب المنسية على الشاطئ الرملي، أهي أغنية شائعة؟! ولكن اللحن عربي، من صاحب هذا اللحن؟ وكيف وصلت إليها الأغنية في هذه القلعة الغصية، بل من هذه المرأة أصلاً؟.

تجمَّدَ المشهد، الوجه الجانبي، والكفُّ تحمل شق الرمان، الشفتان تنضمَّان بكسل على الحبة الوردية القاتمة، وتذكر أيقونات، وتذكر جميلات، وانفتح خزان الذاكرة العتيق، دسبينا وستيلا وهيلانة وفيليبا. يا إلهي! كم في هذا العالم من جميلات وكم يحتاج الإنسان إلى عمر ليضم كل أولئك الجميلات إلى قلبه! رفَّت كتلة سوداء فجأة في نعومة كادت تصدم وجهه، فانتفض إلى الوراء فزعاً وحين أعاد النظر التقت العيون الأربعة، نظرت إليه بهدوء دون رعب، دون مفاجأة، التقت العيون في

تأمل متسائل: من أنتَ؟ من أنتِ؟.

ضحك معتذراً يريد الانسحاب حين انتصبت قائمة تاركة حب الرمان وقشره يتساقط على الأرض: انتظر.

توقف، التفت إليها يعتذر: أرقتُ، فنزلت الحديقة. لم أكن أعرف أنك هنا.

- لا. بل كنت تعرف. وكنت أعرف و... كنت أصلي لنزولك!.

- نزولي. تعرفينني؟.

- بالطبع. وكنت أتساءل إن كانت الفرصة ستسنح لرؤياك!

- تعرفينني؟ كرر ونظر إلى ثيابه العربية، فقد اتفق وسلطان وأسامة على التنكر في الثوب العربي ليبعد الشكوك عن نفسه منذ دخل القلعة.

- بالطبع - كررتْ - أعرفك منذ قدومك الأول. ومنذ قدوم الأمير أسامة، ولن تعرف الحزن الذي أحسست حين رحلت إلى ضيعته.

- ولكن لماذا؟ سأل في حيرة.

وفجأة قالت باليونانية:

- لأنك الوحيد الذي أنتظر!

توقف حذراً. إنها تكلمه باليونانية. آه. اتضح الأمر إذن. فهي أسيرة رومية ولاشك، ولكن ما شأنه بهذا وهو الهارب الضائع الخائف اللاجئ؟

قال بالعربية: لم أفهمك. ماذا تعنين؟.

- سيدي الأمير - قالت باليونانية - أعرف كل شيء. أعرف

الحب الذي دفعك للهرب من الإمارة، والإمبراطورية، وجعلك تلجأ لهؤلاء الناس، ولكنك مازلت لي الأمير أندرونيكوس.

كانت المواجهة صريحة وصار كلُّ إنكار جبناً، ولكن. أيحق له وهو الغريب اللاجئ إلى هؤلاء الناس أن يتدخل في حياتهم، ويتحدث إلى نسائهم، ويطلبن العون منه؟

– آسف. لم أفهمك – أصر على العربية، واستعد للانسحاب.

– قف – قالت آمرة ثم تراجعت خجلة – لن تتركني وتمضي، الأمير أندرونيكوس أكبر من هذا. كانت تتكلم بالعربية.

– ولكن ما الأمر؟ ما الذي تريدين بالضبط؟.

– أن تتحدث إليَّ!

– فقط؟ – قال ضاحكاً – ها نحن تحدثنا.

– لا. ليس هذا فقط. أشياء كثيرة يجب أن نتحدث فيها أيها الأمير.

اقتربت منه، يا إلهي ما أجملها! اقتربت تتهادى في كسلٍ، كانت ممتلئة قليلاً، وكانت الشمس قد بدَّدت بعض الضباب، فرآها عن قرب، هاتان العينان، العينان القويتان الواثقتان والوجه المدوَّر والحاجبان الغرابيان المتصلان. لم تكن تمشي، فقد غطى الثوب السابغ القدمين، ولكنها كانت بشكل ما تقترب... كغيمة، أغمض عينيه قليلاً، ثم فتحهما يتأكد أن مايراه حقيقة، وليس بقية من خمار الأمس وعواصف النقاشات الطويلة مع أسامة، ولكنها كانت هناك قريبة جداً فيه.

– أيها الأمير.

علت ضجة خدم وحركة في القصر. كان الناس قد استيقظوا أخيراً.

- يبدو أنك تأخرت في القدوم، هل أراك غداً؟

توقف قليلاً، ولكن الشاب أندرونيكوس وكزه في خصره ليبعد هذا الحذر، فقال ولا يدري إن كان قد قالها: متى؟

- مع صوت الشحرور الأول.

- أين؟.

- في المكان نفسه.

علت الضجة، فرفعت إصبعاً لدنة رقيقة وضعتها على فمه، وقالت باليونانية: إلى اللقاء، وابتعدت، توقف يتأملها تبتعد، تبتعد ثم تختفي دون أن يعرف أي باب سلكت، أو أي درب اتخذت.

تسلل عبر حديقة الرمان ثانية، شيء ما انطفأ في داخله، شيء ما مرعب جعله يرى كلَّ شيءٍ كلا شيءَ، تسلل عائداً لا يحسُّ بالأشواك، ولا بالأعشاب، ولا حتى ببرودة الدرج الحجري تحت القدمين الحافيتين، فتح الباب، كانت ثيودورا ما تزال نائمة. تأمل الوجه المسترخي والشعر الأسود، وتأوّه في حزنٍ. فهو لم يسألها حتى عن اسمها.

كان نهاراً طويلاً وكئيباً ثرثر فيه مع أسامة ومع ثيودورا، ولكنه كان خائفاً، كان يريد الحديث إلى أحد ما عن هذه المرأة الغريبة التي تنتظره هناك في حديقة الرمان، ولكن يا إلهي! إلى من يتحدث؟ إلى أسامة؟ وأطلق ضحكة ساخرة، أم إلى ثيودورا، وتقلص الوجه في رعب. ستقتله، وستثير فضيحة فهو يعرف هذه المرأة وحِدَّةَ شكيمتها، والعنف المرعب الكامن فيها، ولكن، امتلأ القلب بالحزن، وحَمُضَ النبيذ، وقسا اللحم، وأنتن العاصي، واصفرّت أشجار الصفصاف وتهدلت أغصان الغرب والطرفاء، وصار الهمُّ أن يأتي الليل الطويل ليسمع صوت

الشحرور الأول.

كانت في مجلسها الأول وقد شقت رمانة إلى شقين ناولته أحدهما دون كلام، لم يقل صباح الخير ولم تقل صباح الخير، تناول شق الرمانة، جلس، فرطت حبات حملتها بأصابعها اللدنة، ورفعتها إلى فمه، مدَّ لسانه، فالتقطها، كانت حلوة، استحلبها قليلاً، كانت باردة جليدية دون طعم، طحنها فذابت في الفم، فرطت بضع حبات، رفعتها إلى فمها، مدَّت لسانها، والتقطت حبة تسللت بهدوء إلى الفم، التقطت أخرى، واحتفظت بها في فمها، اقتربت منه، التقط الحبة من شفاهها بفمه، هبت روائح الأنثى المبكرة، والرمان، والأعشاب المحيطة، قالت باليونانية:

ــ انتظرتك طويلاً فلِمَ لمْ تنزل؟

فقال باليونانية: لم أسمع النداء.

قالت: كنت تسمع وتتجاهل.

قال: صدقيني. لم أسمع النداء.

قالت: القلب مغلَّفٌ باليومي، فلم تسمع ــ ناولته حبة أخرى ــ والآن؟

قال: ذاب الشمع واستيقظ القلب.

قالت: صرت تتقن الحديث باليونانية!

قال: تعرفين السبب ولاشك.

قالت: أعرف، وغفرت.

فرطت حبات أخرى، ففرط حبات وضعها بين شفاهه. كانت اللحية كثيفة، فكان عليها أن تبحث قليلاً بلسانها حتى تجد الحبة.

قالت: كنت الحلم منذ الطفولة.

قال: كيف عرفتني؟

قالت: وهناك صبية لم تسمع بأندرونيكوس وتحلم به؟!

غرَّد الشحرور، وعلت الضجة، ورفعت إصبعاً لدنة، فوضعتها على فمه وقالت: إلى اللقاء، لم يرجها البقاء ولا يدري لماذا؟ ولكنه راقب بحزن الثوب الطويل السابغ مغطي الجسم العبل الطويل المليء يختفي.

تحولت إقامة أندرونيكوس في القلعة إلى انتظار، انتظار دائم وطويل، انتظار رسالة من معين الدين يستدعيهم للقائه، أو من نور الدين يعلن استتباب الأمر وقبوله بهم، كان قد عرف بسر أسامة المختفي والذي يعرف الجميع أنه في مصر، ويعرف بخطورة بقائهم جميعاً في هذه القلعة المتطرفة المتحدية قريباً من الروم، ومن الفرنج، ويعرف أن الروم لو عرفوا لجاؤوا، وأن نور الدين لو عرف بوجود أسامة، فسيغضب، وسيجيء، ولكن.. المرأة العبلة تغني باليونانية مع أول شحرور، حبات الرمان الباردة المتجلدة. يا إلهي! إنه لم يسألها حتى عن اسمها.

كانت لقاءات عجيبة، لقاءات لا يعرف أين يهرب منه اللسان فيها! وكان كلما اختفت، وعاد يتسلق الدرجات الحجرية يتذكر أنه لم يسألها أبداً عن اسمها، ولا عن سبب وجودها في القلعة، كان يتذكر في غضب بأنه يكون المتلقي والمجيب، فينتتر في غضب: كيف. لماذا؟

أف! وتراقب ثيودورا غضبه وعصبيته وانزواءه، فتعزوها إلى طول انحباسهما في القلعة، فتحاول استرضاءه، فتخترع رحلات صيد، وحفلات غناء ولكنه كان في شغل عن كل هذا بانتظار الشحرور الأول.

كنت تلقمه حَبَّ الرمان فيلتقمه ولا يفكِّر بالاستزادة، وكان في كل

مرة يشعر بالمتعة الأولى نفسها وكأنه لم يأكل رماناً من قبل، وكأنه لم يشرب النبيذ من أفواه فتيات من قبل وكأنه... يا إلهي!

وأخيراً لم يعد يحتمل، كان قد قرر، وتراجع، وقرر، وابتلع كلامه، وقرر، وانسحب، ولكنه أخيراً فعلها، فقال على استحياء: أمير أسامة، الأميرة ثيودورا متعبة قليلاً، وهي في حاجة إلى من يعتني بها، ويسليها.

وهز أسامة رأسه في فهم: ما الذي أستطيع فعله؟

ــ لو تعيروننا، أو تبيعوننا جارية.

ــ الجواري كثيرات. سأرسل إليك باثنتين منهن.

ــ لا. ليست أية جارية. هي تريدها رومية تريد أن تتحدث معها باليونانية. أنت تعرف.

ــ ولكن... ــ قال حائراً ــ لا أعرف إن كان لدينا من تتقن اليونانية.

ــ لا. قالت الأميرة إنها سمعت واحدة منهن تتكلم باليونانية. – معقول؟– فكِّر قليلاً، سأسأل. ولكنه جاء بعد ساعتين: ليس لدينا جارية واحدة تتكلم باليونانية

_ مستحيل. هتف أندرونيكوس.

ــ ولِمَ مستحيل؟ لدينا بعض الفرنجيات ولكن ليس من رومية واحدة _ وتابع حين رأى صمت أندرونيكوس المحرج _ على أية حال سأرسل إليك بالفرنجيات تنتقي منهن من ترى.

جيء بهن جميعاً، عُرِضْنَ عليه، كشفن عن وجوههن، كان فيهن الشقراء والحمراء والسمراء، ولكن لم تكن صاحبة الشحرور بينهن.

ـ حاول أيها الأمير. أرجوك.

ـ سأرسل بالجواري كلهن.

وجيء بهن، كُنَّ محرجات، تأملهن جميعاً ولكن صاحبة الشحرور لم تكن بينهن. وشرب أندرونيكوس في تلك الليلة حتى تحوّل إلى زقٍ خمر احتاج إلى أربعة يحملونه أمام عيني ثيودورا الحزينتين إلى سريره.

لم يستيقظ مع صوت الشحرور الأول، ولا الثاني، ولا الثالث، ولكنه استيقظ حين هزَّته ثيودورا برقَّة أولاً، ثم بشدَّة: أندرونيكوس، استيقظ. الشمس توسطت السماء.

فتح عينيه، رأى الغرفة المنارة بقوة، قفز من السرير، عدا إلى الممر الحجري، نظر إلى الحديقة ناصعة الخضرة، فقد جفَّ الضباب، وتوقف الشحرور عن الغناء، وعاد إلى الغرفة حزيناً، فهو يعرف أنها ليست هناك، وقالت ثيودورا وهي تضع كفها على ذراعه بحنان:

- أندرو. ما الأمر؟

يا إلهي. إنها تسأل ما الأمر؟!

ثيودورا تسأل ما الأمر ولكن كيف يجيب، وبِمَ يجيب؟.

لم ينم في الليلة التالية، كان نومه متقطعاً أرقاً، رأى أحلاماً مفككة، وبيوتاً غريبة، وبحرة لم يرها من قبل، ودالية كان يعرف أنها له، وفجأة رآها كانت تقطف عنقوداً، وتدندن، كانت تقطف عنقوداً، وتسبح في ضوء قمري غريب، تقطف عنقوداً، ويرى كتفيها العبلين فقد كانت لا تلبس إلا شلحة، مدَّ كفه إليها: التفتي، تكلمي. من أنت؟ ولكنها قضمت حبة عنب وذابت في النهر القمري المتسرِّب عبر الدالية العالية جداً، وهو هناك في الأسفل يلوِّح لها ولا تراه.

انتفض ليجد ثيودورا إلى جانبه، جلس فسمع صوت الشحرور، تساءل في رعبٍ إن كان هذا الصوت الأول.

تسحَّبَ من السرير، فالغرفة، فالدرج الحجري، فشجيرات الرمان، أبعد أغصاناً وداس أشواكاً، ولكن الصوت الجميل توقف، بحث بعينيه. يا إلهي. إنها هناك. لم تكن في مجلسهما الأول. كانت تقف بعيداً، وحيث كانت تمضي حين تودعه، قال في خوف:

ــ تأخرت؟

قالت: لا أعرف. بل... ربما بكَّرت.

ــ تعالي. قال في رجاء.

ــ لم يعد ممكناً.

ــ لماذا؟

ــ طريقانا اختلفا.

ــ لماذا؟ قال في جرح.

التفتت لتمضي، ولم يبادر حتى لإيقافها، أو الإمساك بها، ولم يفكر حتى بفعل ذلك.

ــ ألن أراكِ. صرخ.

ــ ستراني.

ــ متى.

ــ لا أعرف، ولكنا سنلتقي، في مكان ما، في زمان ما... تحت شمس ما!

ـــ كيف سأعرفك؟

ـــ لا تسأل مثل هذا السؤال. سيقول لك القلب. إنها هي. ستعرفني، سنلتقي.

ومضت. ذابت في بابٍ ما، في دربٍ ما.

ووجد نفسه وحيداً في الحديقة، وفجأة انطلق الشحرور يغني قريباً. كان قريباً جداً وكأنه لايراه، أولا يخافه أو... أشاح بيده يطرده. ولكنه لم يبال. تسحَّبَ عائداً لا تخزه الأشواك، ولا تؤلمه ضربات الأغصان ولا تلسعه برودة الدرجات. فتح الباب. اندسَّ إلى جانب ثيودورا، وأخذ يفكر...... في زمن ما، في مكان ما، تحت شمس ما، وفجأة هتف: ولكن ما معنى هذا؟

في الصباح التالي قال لأسامة: سنمضي إلى نور الدين، لم أعُدْ أستطيع البقاء في القلعة.

تنفَّس أسامة، وإن لم يعلن، الصعداء، أرسل سلطان معهما من يحرسهما حتى حمص حيث نور الدين يستعدُّ للمضيِّ إلى دمشق، أما أسامة، فقد جمع أشياءه، وأشار إلى حرسه، فمضوا جميعاً إلى فلسطين، فمصر، فلا يجب أن يعرف نور الدين أنه كان في الشام، ولم يلقه.

(٣٥)

بحث في جيبه، لم يجده، الجيب الآخر، جيب الصدر، يا إلهي! أين اختفى؟ تحسَّس حزامه. آه! كان قد ربطه بخيط غليظ إلى حزامه، كان يكره هذا المنظر، المفتاح المربوط بالخيط إلى الحزام الجلدي، ولكن، لم يكن هنالك من خيار فالمفتاح كبير، كبير جداً، طوله حوالي الشبر، وكان يثقب جيب البنطال حين يضعه في جيب البنطال، وجيب الجاكيت حين يضعه في جيب الجاكيت، وجيب الصدر حين يضعه في جيب الصدر، فعلموه أن يعلقه إلى الحزام، ولكنه لم يعتد أبداً تعليقه على الحزام، فكان يضطر دائماً إلى البحث عنه طويلاً في الجيوب حتى تسعفه الذاكرة، فيتحسسه في الحزام. انتزع المفتاح، أدخله في الفتحة الكبيرة للقفل العجيب، صرَّ الباب وأنَّ تحت ثقل ضغط كتف منصور، وأخيراً انفتح، فهبت رائحة رطوبة عتيقة دافئة تخيِّم على الصدر، فتح النافذة الكبيرة على الحارة ولكنها لم تكن كافية. هو يعرف أنها ليست كافية، فنافذة واحدة لا تغير الريح. لابد من نافذة ثانية ولو صغيرة، ولكن... وأطلق نفثة سخرية، أية نافذة؟ ومن يسمح له بذلك؟! ثم حتى لو سمحوا له بفتح النافذة في الجدار المقابل، فسينفتح على.... وحاصرته ثانية الأحلام، نظر إلى الجدار العالي الصخري المسوَّد، تأمله بعمق، لو يفتح فيه فرجة

صغيرة، ثغرة صغيرة. يا إلهي! أية جنة كانت ستنفتح له؟! تخيلَ الأجساد المسترخية، البخار الهادئ المحيط، قطرات العرق والماء المتسربة ببطء، الأجسام المسترخية المستكينة، خصلات الشعر المبللة المتدلية، العيون المنتشية بالماء الفاتر، والمضببة بالبخار المحيط، والمنفتحة نصف انفتاحة مستسلمة إلى الاسترخاء المنحلّ في المكان، الأنّات الصغيرة المتألمة في دلال تحت وقع المُلَيِّفَة المتعجلة، والمُكَيِّسَة القاسية، وكم تمنى في ليالي الأرق الطويلة حين كان يستند إلى الجدار القاسي بظهره تاركاً ساقيه تمتدان أمامه يحاول أن يقرأ على ضوء مصباح الكاز، لو يستطيع فتح فرجة، ثغرة تكفي لعين واحدة فقط يتأمل تلك الأجساد في استرخائها الحالم، لمْ يتمنَّ أن يدخل عليهن، فقد اكتفت أمنيته بالنظر إليهن، تخيل جنياً يهدم الجدار وتخيل مثقاباً يثقب الجدار، وتخيل جرذاً يفتح مسرباً في الجدار، ولكن الجدار ظل صامداً، وظلت الأحلام حبيسة خلفه، والحوريات الراتعات في بهجة الضباب، والماء الفاتر، والاسترخاءات الرخية معزولات وراء الجدار.

حين وصل منصور الأحمد إلى الجريدة وكان الأصدقاء قد أخبروه أنها قد أحرقت لم يصدق في البدء، فجريدة الصرخة وفياض ***واللهم وشماتة*** كانت أكبر من التحري، وأكبر من الحريق، ولكنه حين اجتاز خط الترامواي، ورأى المياه السود والنوافذ السود والجدران السود، عرف أخيراً أنْ لا شيء أكبر من الحريق، وحين صعد إلى الجريدة، ورأى المكاتب المحطمة والستائر المسخمة والماء الأسود الآسن يغرق السجاجيد عرف أن اليد الباطشة الخفية قد استطاعت أخيراً فعل فعلتها، وحين بحث عن فياض ليعزيه، أو ليحصل على العزاء منه لم يصل إليه، فقد اختفى فياض، اختفى تماماً، عن الأصدقاء، عن الزملاء، عن الصحف، عن الناس، وآمن منصور أنهم قد اعتقلوه، أو نفوه دون أن

يعرف أحد بذلك، ولكنه حين قرأ في الصحف أن فياض قد قتل الشهبندر، وأن البلد كلها تبحث عنه، عرف أنه لم يُعتقل، وتساءل في خوف: إن كانوا قد قتلوه... سراً وهم يرتبون هذه القصة لإخفاء فعلتهم، ولكن الهستيريا العامة، واستكلابات الصحف، والتهم، والقصص، والفضائح التي ألصقت بهذا المعلم.... الصديق... المخلص، كشفت له في أي عالمٍ فاسد يعيش فـــ ... غطس .. كمن قليلاً في بيتهم الصغير في زقاق الحطاب يتأمل، ويسترجع، ويفكر، ويتساءل، وحين غيَّرَ الفرنسيون ولاءهم من فرنسة باريس إلى فرنسة فيشي لم يبالِ منصور، فهذا متوقع، وحين ضُيِّقَ على الناس خدمةً للمجهود الحربي لم يبالِ منصور، فقد كان مُضيَّقاً عليه منذ أن مات أبوه وصار المعيل لهذه الأم العجوز النحيلة الوحيدة، ولكن حين قام رشيد عالي الكيلاني بثورته في العراق أدرك أن باباً جديداً للاستقلال العربي قد فتح، وأن عليه أن يسهم فيه.

قبَّلَ أمه قبلة هادئة، ألقى نظرة على الباحة الصغيرة، والبئر، والبكرة المعلَّقة عليه، ومشى، اجتاز بوادي، واخترق سبخات، وتسلل عبر دوريات، ولكنه ما إن وصل بغداد حتى كانت الثورة قد فشلت والإنكليز قد استعادوا سيطرتهم على العراق، أما السوريون الذين جاؤوا لعون المحاولة الأولى لنيل الاستقلال، فقد صاروا الطرائد، فانطرد، ولما كانت الحدود السورية قد أقفلت كل حناياها للقبض على كلِّ من فكَّر بعون هذه المحاولة المبكرة، فصارت سورية حلماً وفخاً، ولما كانت الحدود الإيرانية أفواهاً مشرعة الأنياب لم يجد منصور أمامه إلا أن ينضم إلى ركب الهاربين باتجاه الشمال إلى تركية، ولما كانت تركية محايدة، ولا تحب أولئك اللاجئين إليها مسببي المشاكل.... والفقراء، فقد اضطر أن يكمل الرحلة إلى ألمانية.

في ألمانية عرف منصور العمل في الصحافة، والعمل في الإذاعة،

والعمل مع السياسيين المحبطين الآملين الخائفين، الراجين، الواعدين، المتآمرين، عرف السياسة في قاعها حن تكون مُبْعَدَةً عن بحرها وترابها وشعبها، عرف السياسة حين تتحول إلى تنافس على المكاسب الصغيرة، عرف السياسة حين يصبح الهدف ذكر الاسم في نشرة أخبار المجاهدين، عرف السياسة حين تحار أين تضع قدمك، فلا تفقدها في لغم هيأه لك رفيقك؟ وأين تضع كفك، فلا تفقد إصبعاً حين تستعيدها، عرف الأرق، وعرف الحزن، وعرف الخيبة، وعرف الخوف.

وحين كان هتلر يستعيد جيوشه منقوصة البيارق، مفقودة الآليات، مهزومة الرجال كان منصور يصرخ مع الصارخين بأن مصر قد أشرعت أبوابها في انتظار التحرير وفي انتظار رومل، وكانت أمواج الإذاعة تحمل ذلك الصوت الجياش بالعواطف لتسمعه آذان متلهفة في غرف مغلقة معتمة الستائر ممتدة الهوائيات إلى البعيد البعيد تنتظر النصر القادم يحمله إليها أبو علي هتلر.

ولكن الأيام تنقضي، والشهور تدور، وجمرة القلب تنطفئ، والمنفي المعزول في بلاد باردة بعيدة محاط بعيون، وآذان تحسب عليه كل حركة، وكل نأمة، وانقلب الميزان، وتراخت الصرخات، وسمعت أصوات الانفجارات فوق مدن الرايخ الأمل المحرر، وعرف منصور أن المراهنة خسرت، وأنَّ عليه أن يعود إلى الوطن... الوطن؟ الوطن المأسور، والمحزون، والمدوس على كرامته، ولكن أي شيء يربطه بهؤلاء الناس الذين كانوا المتعجرفين التيَّاهين، وهاهم الآن ينقلبون الخائفين، الحاقدين، فالهزيمة ما جاءتهم إلا من هؤلاء الغرباء المدسوسين بينهم، وأدرك منصور أخيراً أن عليه أن ينجو بجلده.

حين كان منصور يعلِّبَ الأمل، ويرسله إلى الوطن في رسائل

يحملها الأثير، كان مؤمناً بأنه يسعى إلى الاستقلال، إلى الخلاص من هذا الغرب المخادع الذي سرق من أبيه الحلم قبل ربع قرن، ولكنه حين لم يكن يعلِّب الأحلام كان يبتكر لنفسه متعة أخرى، خاصة وأنه أتقن الألمانية، فغرق في مكتبات المدينة التي لم تحبه، غرق فيها يقرأ الأفكار، وينشئ النظريات، يقرأ التاريخ، ويقارع الاجتماع، يقرأ الفلسفة ويناقش الأحلام، ولكنه حين حطَّ قدميه أخيراً على أرض المدينة التي حلم بحاراتها طويلاً، وألَّف من أجلها النظريات والأفكار، وبنى من أجلها المشاريع التي ترفعها إلى مصاف المدن التي شاهد اندثارها تحت وقع دويِّ القنابل التي صنعتها الأفكار، وبنتها الأحلام اكتشف أن المدينة قد أدارت له ظهرها كما أدارتها مدائن غادرها قبل شهور.

كانت الأم العجوز النحيلة الرقيقة التي قبَّلها قبلة ظننتها الحب، ونواها الوداع قد ماتت.... من الجوع؟ ...من العزلة... من الخيبة؟ ... من ألم الفراق؟ المهم أنها ماتت، وكان البيت الذي جمّله طويلاً في ليالي المنافي، البيت الذي جعل من جدرانه لوحات، ومن الصفائح القصديرية حاملة النباتات المسكينة حدائق، ومن الدالية العجوز كروماً قد استعاده صاحبه حين لم يجد مستأجراً يدفع الأجرة فالعجوز ماتت، ودفنت، وارتاحت.

لا بيت، لا أم، لا هوية، لا أصدقاء والاستقلال على الأبواب ولكنه الضيف المتأخر، فالمائدة رفعت، والطعام وُزِّعَ وكلُ خبأ نصيبه في عُبِّه يراقب الآخرين شذراً، فمن يجرؤ على الاقتراب.

حين رجع منصور إلى المدينة لم يذكر فياض، فهو لم يسمع عنه كلمة منذ يوم الحريق، ولم يذكر إياد، فقد صار إياد أعلى من أن يصل إليه منصور، وكان يمكن له أن يتشرد لو لم يحنَّ عليه قريب بعيد كان

يدير حمام عز الدين، فأعاره غرفة تستند بظهرها إلى الحمام، وكانت تستخدم مستودعاً للحمام قبل أن يلحق الحمام بركب التكنولوجيا، فيعمل على المازوت بدل القنب وبقايا المدينة، وحين نظر منصور إلى الغرفة ارتعد، ولكنه حين راجع ما تبقى في الجيب ابتلع الرعدة، ونظّف الغرفة، وهوّاها، وجعلها قبره الحي في انتظار ما تأتي به الأيام.

كان يمكن لطاحون الأيام أن تدور وتدور دون أن يعرف منصور بتحولات فياض، ودون أن يعرف فياض بتحولات منصور لو لم يلحّ خليل وإياد على فياض لإقامة المهرجان في بيت الشيخ حمدان الجوقدار، وكان يمكن لمنصور ألا يعرف بوجود فياض بعد ذلك الغياب الطويل لو لم يلحّ خليل وإياد على فياض، فيخطب، ويفتح رتاجات القلب، ويستخرج طحالب الأيام، وأحزان الليالي، فينشرها زهرات ليلية ناعمة رقيقة تذعر من الشمس، وتذعر من الهمس، وتذعر من ضربات الريح الهائجة، ينشرها أمام القلوب المتبلدة والآذان الكثيفة لم تصغ لحزن، ولم تفتح القلب لنجوى، أمام القلوب تكالبت عليها الأيام وضربات السنين، فكيَّسَتْهَا، وغلّفتها، وجعلت الحلم البقاء، والأمل انتظار ما تأتي به الأيام.

ولكن فياض خطب وخذل أولئك الذين اعتمدوا عليه لصنع زعامة جديدة في القنوات. خطب وخذل، ولكنه أعلن عن وجوده خارج كيس دكان ***لئن شكرتم لأزيدنكم، وبالشكر تدوم النعم.***

كان منصور قد أنهى صحن الفول، أكل ما تبقى من البصل، ومن المخلل، ورآه عبد المجيد بجانب عينه، ففهم، وأصلح الصحن مرة ثانية، وجاءه بخبز ثان، وبصل ثانٍ، ومخللٍ ثانٍ، كان يعرف مَنْ منصور، ويعرف ما فعلت به الأيام، وما كان بحاجة إلى من يخبره بأن هذا الأفندي الذي يلبس بذلة ثمينة غير مكوية انتشرت فيها البقع دون أن تجد

من ينظفها قد نزلت به الطاحون إلى القاع، كان يعرف أن هذه الوجبة هي الوجبة الوحيدة ليومه كله، فمن يأكل هذا الأكل وينحل هذا النحول لابد أن تكون هذه وجبته الوحيدة! انقضَّ منصور على الصحن، فمسحه، وعلى الخبز والمخلل والبصل، فابتلعه، وعادت الطاولة إلى نظافتها الأولى، دفع منصور الحساب رغم ممانعة عبد المجيد الحيية، والضعيفة فهو يعرف أن منصور لن يقبل ألا يدفع ثمن طعامه. اتجه إلى الباب حين لاحظ بقية جريدة يمسكها العامل ليمسح بها الزجاج، نظر إلى الجريدة فرأى فيها صورة فياض انتزعها من الولد، قرأها، أعاد القراءة، وعرف أن فياض ما يزال حياً.

حين فتح فياض الدكان في ذلك الصباح التاريخي لم يكن يعرف أي زبون سيستقبل في ذلك اليوم، ولم يكن يهتم، فقد شغل نفسه بالمنفضة المصنوعة من شرائط قماشية ينفض بها التراب عن الرفوف والقطرميزات. فتح الغَلَق، وأشرع النوافذ، وأمسك بالمنفضة، وقال: صباح الخير لقطرميزات السكاكر والقضامة، أمسك بالمنفضة، وقال:

يوم جديد لرفوف الرز والسكر والبرغل والحمص العتيق. أمسك بالمنفضة وقرأ يحصِّن نفسه ضد الحادثات بـــ: ***ولئن شكرتم لأزيدنكم، وهذا من فضل ربي، وبالشكر تدوم النعم، وعين الحسود تبلى بالعمى،*** أمسك بالمنفضة، وطرد الأفكار والأحزان قبل أن يجلس جلسته الأليفة الواربة يلتقط فيها نور الشمس، ويساجل الكتب الصفر المغلفة بجلود حيوانات ماتت منذ عقود، والمشحونة بأفكار أناس تركوا أحلامهم على الورق منذ قرون.

طوى ساقه تحته، نشر القمباز على الساق المتدلية، عدّل من وضع الوسادة وراء ظهره، وفتح الكتاب عارفاً أن الأبوسعيد والأبومنير والشيخ

يوسف لن يزعجوه بعد اليوم، فهم لم يزعجوه منذ أسبوعين، لم يزعجوه ***بصباح النور***، ولم يزعجوه ***بأحسن الله استفتاحتك***، فهم قد يئسوا وأُفهموا أن ييأسوا من هذا الرافض الذي خذلهم وعاد إلى حديقة الأحزان والأفكار المضبَّبة والمسوَّدة والـــ... مسخّمة، ومضوا إلى إياد يحملهم في سفينته إلى بر الأمان.

أمسك بالكتاب، فتحه، وأنصت إلى الهمس العجوز القديم، القديم، إلى نجوى الأيام وأحزان الليالي حين لاحظ ظلاً حجب الضوء عن الجام، فالتفت يعتذر من الزبون فهو لم يعد يبيع شيئاً لأحد، وما عليه إلا الانتظار حين سمعه يقول: أستاذ فياض صباح الخير.

التفت فياض بعينين مضبَّبتين إلى الصوت الذي ما يزال يستطيع القول: أستاذ فياض صباح الخير. تأمله طويلاً، ولكن الشبح المؤطر بالنور كان غائب الملامح، تأمله، ولم يعرفه فغمغم شيئاً ما، ولكن الآخر قال: أستاذ فياض، ما عرفتني؟ أنا منصور، منصور الأحمد، جريدة الصرخة.

وعرفه فياض، فقام إليه وعانقه، جذبه إلى الدكان، صبَّ له شاياً، شربا واستعادا الأيام الخوالي، أيام الحماسة والفرح والأمل الفتي، ولكنه حين استقبله، وحين طلب من القطرميزات أن تضحك ومن لوحات ***لئن شكرتم لأزيدنكم*** أن تصمت لم يكن يعرف أن هذه الدكان قد عرفت قبل سنوات حزيناً آخر ومجروحاً آخر ومتكيِّساً آخر كان يعدُّ الأيام والليالي في الانتظار إلى أن جاءه النداء إلى فلسطين، فمضى وقد استعاد الشباب والزهو والدماء الحارة، ولكن فياض حين استقبل منصور، وسقاه الشاي، واستعاده الذكريات لم يكن يعرف أبداً أن نهاية هذا اللقاء وهذه الفرحة وهذا الاستقبال ستكون في فلسطين.كان الأسبوعان الأخيران اللذان

قضاهما فياض منذ خرج خليل بك وإياد بك من بيت الشيخ حمدان الجوقدار منتصرين ومخذولين، منتصرين فلقد استعادا زعامة الحي، ومخذولين حين خسرا فياض، هذان الأسبوعان الطويلان كانا أسبوعي العزل والهجر. فحسيبة قد نفضت يديها منه نهائياً، والشيخ يوسف، والأبوسعيد، والأبومنير قد تخلوا عنه، وزينب المعلقة بالحكايات النافدة منذ أمد طويل أصبحت عبئاً وحزناً وضياع رؤيا. والبهجة الوحيدة كانت ذلك الطفل الجميل الراكض من الدرج يعدو حتى يصطدم باليدين المرحبتين تحملانه لتقذفا به إلى الهواء، ثم ترفعانه إلى جدار البحرة، فتكركرانه، وتدغدغانه، وتحكان الخد الناعم الطري باللحية الخشنة، ولكن حتى تلك البهجة ابتدأ يفقدها حين لاحظ أن هشام لم يَعدُه يعدو للقائه، ولم يعد يركض لتحيته، وحين استقصى الأمر اكتشف أن حسيبة كانت تحتجزه ساعة رجوعه إلى البيت بالحكايات، والكعك، والسكاكر، وعرف في حزن أنها صارت تخاف عليه منه، وأنها يجب أن تحتفظ به سالماً من تأثيراته إلى أن يصبح في السن التي تؤهله لحمل الراية.

تكررت الزيارات، وترددت اللقاءات، وأغلقت الكتب المجلدة بجلود حيوانات ميتة، فانحبست أحلام الأرواح المسكوبة على الورق القديم، ولكن المضحك أنها لم تحتجَّ على حبسها، ولم تعترض. تكررت الزيارات، وتكررت استرجاعات الأيام البهيجة، ولكن الدكان العتم المسور بالنصائح، والمخنوق بالقطرميزات، والأكياس ضاق أخيراً بهذا الفرح، فطردهما فانطردا. جالا في الأحياء، وزارا المساجد، ودارا على المدارس والخانقاهات، واستنطقا الذكريات، وأخيراً حطَّ بهما التعب في قهوة النوفرة ليجدا أن سعيد ما يزال هناك، القمباز نفسه، والفوطة حول الخصر نفسها، والسطل المملوء بالماء يرش به الباحة الواسعة نفسها، وقال سعيد:

ـــ أستاذ فياض في البلد بعد. يا مرحباً.. يا مرحباً.

كان الترحيب قلبياً، فقد كانت المقهى نهاية رحلاتهما الدائمة مع إياد، ومع منصور، ومع سعيد، ومع خليل، مع صحفيي الأضواء، وشباب الصرخة، هناك كانوا يسهرون، وهنالك كانوا يشربون الشاي الأحمر، والأخضر، والمنعنع، والمليسة. هنالك كانوا يتعشون، وكان سعيد يأتيهم بالكباب والمشوي والسلطات إلى المقهى، فينتبذون طاولة يتعشون ويثرثرون، ويناقشون شؤون الوطن، وأحلام الوطن، وآمال الوطن، ولكن.... نظر سعيد إليهما في أسف وإن لم يعلن، فما الذي تغيَّر في هذين الشابين فأذهب نضرتهما،، وأبكى عيونهما، وجلب الوقار المبكر إلى روحيهما؟

طلبا نارجيلتين، شربا شاياً، تذكرا، وضحكا، وقهقها، وفرحا، ولكن الجمرة لا تشتعل، وكان سعيد من مرصده البعيد يحسُّ افتعال استعادة نضرة الربيع في الشتاء، ولكنهما كانا يصران، استعادا الطقوس القديمة كلها، الغداء المستدعى إلى المقهى، البحرة الكبيرة تدفق راقصة خصيصاً لهما، النراجيل، الشاي المنعنع، ولكن استحضار الأرواح لا يستدعي نضرة الأجساد أبداً.

ولكنهما يوماً إثر يوم، وأسبوعاً إثر أسبوع، أخذا يزدادان عدداً، فبعد فياض ومنصور جاء سعيد، وجاء سمعان، وجاء خليل، وجاء محمود، كانوا كلهم شباناً بسنِّي الأيام ولكن... يا إلهي! كان سعيد يهتف: أين نضرة الشباب؟ أين فرحه؟ أين بهجة الضحكة الرانة دون افتعال؟ أين اختفاق الخدين واضطراب الصدر مع الضحكة الشابة المنطلقة من عمق الروح؟ كان لضحكاتهم دائماً رنين الجرس المشروخ المعاد ترميمه. صحيح أنه كان يرنُّ، ولكن الشرخ يختزل الرنين ليصبح نحاساً أصم.

تكاثروا، تناسلوا، ازدادوا، صاروا العدد الكبير، كانوا كلهم إما من الضيوف تأخروا في الوصول إلى مائدة الاستقلال، أو من أولئك الذين لم يدعوا أصلاً، فالمائدة صغيرة، والزاد قليل، تكاثروا حتى لم تعد تسعهم طاولة واحدة، تكاثروا حتى لم تعد تسعهم طاولتان، أوثلاثة، تكاثروا حتى صاروا جماعات ينتظمهم أكثر من حديث. ويوماً إثر يوم أخذ فياض يفقد متعة الحديث ويصمتون. فقد كثر المتحدثون ولا يسمع، فالطاولات بعيدة..... وأخيراً جاء منصور فقال:

ــ أستاذ فياض. الإنكليز أعلنوا عن قرب رحيلهم عن فلسطين.

وهزّ فياض رأسه، فما كان بعيداً عما تتناقل الصحف، والإذاعات.

وتابع منصور:

ــ وأنت تعرف. اليهود استعدوا لكل شيء، والوكالة اليهودية أعدت حكومة الظل كاملة، ولا تنتظر إلا الإعلان.

ــ فماذا تقترح؟

ــ الأمور مشوشة ها هنا كما ترى. والناس موزعون بين الفرح بالاستقلال الوليد، وإن لم يحسوا كبير فرق، وبين البحث عن استقلال أكبر وأسمى.

وهزّ فياض رأسه في ملل، فقد كان يعرف كل هذا، ولكن يا إلهي! لايمكن أن يقدم على شيء بعد الآن دون رؤيا، رؤيا حقيقية، يكفيه ماأضاع من فرص ومن عمر، يجب أن تحل الرؤيا، الرؤيا التي تخبره بما يجب أن يفعل.

كان يعرف أن إنكلترا أعلنت أنها ستغادر فلسطين. وكان يعرف أن الزعماء العرب، والثائرين العرب، والمتطوعين العرب قد تداعوا الى

عقد مؤتمرات، وكان يعرف، ويرى انفلات الهستيريا الجماعية لدى تلك الكتل والجماعات التي تدعى شعباً، وكان يرى الشبان المنتبذين بعيداً عنه يقرعون الصدر كما قرع، ويمتصُّون الأحزان كما امتصَّ وإياد فيما مضى، وكان يسمع عن نسيب البكري، ومضيِّه إلى فلسطين لاحقاً بالقسام، وسعيد العاص، وصياح المسدي، ولكنه كان يلاحظ أيضاً رجال التحري يتغلغلون بين الحارات، ويكتبون الوصفات الطبية التي لا تبرِئُ، كان يرى، ويرى ويسمع، ولكن الرؤيا لا تحل، ومنصور لا يملُّ:

ـ هناك في فلسطين. الأمر واضح ، الصديق بيِّنٌ والعدو بيِّنٌ، ها هنا عرب وهناك يهود. اسمع. تعال نمضي إلى فلسطين، فلربما استعدنا هدوء الروح حين نرى العدو رأي العين لا يغطيه لباس وطني، أو نشيد وعلم وطني.

ـ المعنى... قال متشائماً.

ـ هم يريدوننا هناك، فهيا بنا.

لاحظ فياض القبول والرضا في وجوه الآخرين، لاحظ الفرح في عيونهم، فها هو دور حقيقي يقدم لهم، ويستطيعون الإمساك به مسك اليد.

وألحَّ منصور: هه؟

ـ دعني أفكر.

ليالٍ كثيرة انقضت وفياض يفكر، ليال كثيرة أرِقَ يتساءل:

أهناك فائدة من كل هذا؟ وماذا بعد؟ خليل بك جديد، وإياد جديد، وضباط جدد، وماذا بعد؟ ماذا بعد؟

لكن منصور ألحَّ، وردَّد الإلحاح محمود، وسمعان، وعبد الكريم:

- أستاذ فياض. هناك الحلال بَيِّنٌ والحرام بَيِّنٌ.

وأخيراً ودون رؤيا هذه المرة رضخ، فقال: لا بأس سنمضي، وسنطرد اليهود، وسنحرر فلسطين.

في الليلة الأخيرة في بيت حمدان الجوْقدار، في الليلة الأخيرة في غرفة صياح المسدي، في الليلة الأخيرة في بيت حسيبة خانم تأمل زينب، زينب الرقيقة النحيلة الضعيفة هائمة العينين، وهشام الصغير في حضنه ينام، كانت حسيبة تطرِّز شيئاً ما، ثوباً من تلك الأثواب التي تتسلى بإضافة لمساتها إليها فقد كانت تردد: اليد العاطلة الله مايحبها.

نظر إليهم جميعاً يودعهم، يحفظ ملامحهم الأخيرة، يتزوَّد منهم بالكلمات الأخيرة، باللمسات الأخيرة، وكانت حسيبة تتحدث إلى زينب، تصف لها جمال وداد بنت مريم العجيب، يخلق من الوردة شوكة، ومن الشوكة وردة، آه من كان يصدق أن يكون لمريم مثل هذا الملاك الجميل؟ العينان، الفم، الشعر، تحدِّث، وتحدِّث وفياض يسمع ويفكر: ترى هل يعود من مغامرته هذه؟ وإن عاد، فكيف يعود جريحاً؟ قتيلاً؟ ثم تغير السؤال: وهل سيحررون فلسطين فعلاً؟

نظر إلى حسيبة بوجهها المدوَّر وحاجبيها الفحميين، والعين التي انكسرت، وما استحقت الانكسار، وتنهد، هذا الوجه الذي عرف الخروج إلى الجبال ومقارعة الفرنساوي. هذا الوجه الذي صحب صياح المسدي الذي تحوَّل بخروجه الثاني إلى فلسطين إلى أسطورة أكدت أسطورته السابقة، وتساءل في حزن: ترى ما الذي ستقوله حسيبة حين يمضي، ولا يعود، أسيصبح أسطورة كصياح؟ أم ستضيف خيبة جديدة إلى خيباته التي سجَّلتها في قائمة ما تنفك عن تردادها على مسامعه؟ أسيستعيد أمجاد فياض الشيزري الذي لجأ إليها هرباً من الدنيا كلها أم....؟

وأخيراً طوت حسيبة الثوب الذي تطرزه جانباً، قامت تنفض ثوبها من بقايا خيوط التطريز: أه. طالت السهرة، واقترب منتصف الليل، تصبحون على خير.

ووجد فياض نفسه مسوقاً إلى القول دون أن ينظر إليها:+

ـ أنا راحل غداً.

نظرت حسيبة إليه، وأحس بنظراتها دون أن ينظر إليها:

ـ خير، إلى أين؟

ـ إلى فلسطين. سنحرر فلسطين من اليهود، ولن نتركها تضيع.

وفيما بعد سيكتب فياض على دفتره الجريدي: الآن حين أستعيد هذه الجملة كم تبدو متفاخرة، متعجرفة، سخيفة، مدعية، ولكني في ذلك الحين ـ يا إلهي! ـ في ذلك الحين كم بدت لي عادية وطبيعية، ونبوئية، فما كان ينقص لتحرير فلسطين إلا أن أمضي إليها مع حفنة الفتيان أولئك، فإذا بنا نستعيدها عربية.

وكان شجار، وكان رفض، وكانت سخرية، ولكنه في الصباح الباكر تسلل من البيت قبل أن يفيقا، وانضم إلى منصور والأصدقاء، ومضوا جميعاً إلى فلسطين.

(٣٦)

كانت رامات راحيل الهدف، وكانت القلعة المغللة بأشجار الصنوبر والكينا والسرو والغازورينا، وحن لمحها فياض أول مرة بدت له القرية الهادئة الوادعة، ذكرته بقرى فرنسية عرفها في أزمنة مضت، ولكنه حين أمعن التحديق، ورأى القلعة العظيمة المغللة بالشجر الأخضر واللبلاب تساءل: أين يخفون عملياً الطلاقات؟ وأين يخفون المدافع، وراجمات الألغام؟ وتمتم: براءة وجه الطفل وقسوة قلب المؤرّخين الأسود.

نظر إلى محمود، وسمعان، وعبد الكريم، نظر إلى منصور، نظر إلى خليل، وإلى الوجوه المتحمسة دون أسماء، ولهنيهة رأى فيهم وجوه صبيان شيزر الذين حين ناداهم أسامة لحقوا به. كان يسمع بتقدم الجيش المصري، فيفرح، ثم بتراجعه، فيحزن، كان يسمع بتحرك الجيش الأردني فيبهج، ثم بتوقفه فيخيب، بالعراقي يتقدم، ثم بماكو أوامر، فينشق الصدر، اليمني، السعودي، السوري، اللبناني، الصومالي، اليوغسلافي، الأرناؤوطي، وكتب فياض في دفتره جريدي الورق: يا إلهي! أكان كل ما يراد من قدوم هذه الجيوش الرمزية شهادتها على أول انتصار عسكري لليهود في فلسطين؟ ثم تغلبه الحماسة، فيعلن لصبيان شيزر: لا.

لن نعتمد على الجيوش فقط، نحن. نحن الذين خرجنا دون جيوش، نحن الذين خرجنا برسالتنا الكبيرة، سنحرر فلسطين، ولن نتركها لليهود، سنقوم بالمهمة كلها... ولكن، الخيبات تتوالى، ويكتب فياض: لم يكن ينقصنا إلا الفيليبيون والأندونيسيون حتى يعلن اليهود انتصارهم على التاريخ والعالم كله. وينشق القلب وتتهاوى الأرواح..

رفع منصور منظاره العسكري. تأمل البيوت الحجرية المختفية بين الأشجار العملاقة، وتمتم: يا إلهي! إنها قلاع متنكرة، ترى كل تحرك لنا، ولا نرى أي تحرك لهم. كان فياض ومنصور والأصدقاء يستعدون للتحرير، وقد حقنوا أنفسهم بالفرح، فالجيش الأردني إلى اليمين، وجيش الإنقاذ إلى اليسار، والنجدات قريبة إن لم يستطيعوا النصر.

بدأ القصف المدفعي، وأخذت الأشجار العملاقة تنحني، والقلاع الحجرية تتكشف، وطالت المناوشات والتراشقات، وانقضى أسبوع والقلعة لا تستسلم، صحيح أن الوجه البريء الطفلي الوديع طالب الرحمة قد اختفى، وحل محله الوجه التاريخي القاسي الساعي وراء سداد ديون أجداد أسطوريين ابتلي الأحفاد بأحزانهم، وكان لابد أخيراً للقلاع درداء الأفواه إلا أن ترفع العلم الأبيض معلنة أنها أجّلت أخيراً استحقاق ديون الأجداد.

صرخ فياض في فرح، فها هو النصر يتحقق دون جيوش، ودون قيادات. هجم فياض مباشرة مع المشاة ليطهِّروا المستعمرة، هجموا والرايات البيض تستقبلهم. هجم يهلِّل مع المهللين، وإحساس قديم فارقه منذ لغم الفحامة البدائي الذي زرعه مع إياد لينفض الكسل من مستنقع النوم يعود إليه.

راقب احتلال ***رشاشاتنا ومدفعيتنا مكان رشاشاتهم ومدفعيتهم***

وطلب من منصور أن يصوره فوق القلعة البيضاء الكبرى، ولكنه حين سيعود إلى هذه الصورة وهو يكتب على دفتره الجريدي دفاعه الأخير سيقول: الآن وحين أتأمل هذه الصورة لا أستطيع إلا أن أذكر وقفة روجيه فوق برج شيزر والبلان بلان بلان. بلا.. والدين. دين. دين... وأتساءل: جاء روجيه غازياً يكمل غزواً لم يكتمل، وجئت متفاخراً، أعتقدني محرراً، ولم أحرِّر، ثم يتنهد ويكمل: أي سخف يجعل الواحد منا يفترض في نفسه تمثيل التاريخ، وتصفية حسابات الأجداد؟ أليس في هذا عجرفة في التناول تفوق أي فرد؟

وحلَّ المساء أخيراً، حلَّ حاملاً لفياض الخيبات التي سيذكرها ويرددها مرات ومرات... يراهم يتقدمون، تلك الوجوه بلا أسماء، فلاحون وبسطاء، بدو وعاطلون عن العمل، موظفون ومستخدمون، يتقدمون إلى المستعمرة ليبدأوا تفكيكها، حمل الأثاث الموجود فيها، المواقد والطناجر، الألحفة والمراتب، الكنبات والستائر. يتقدمون جموعاً إثر جموع، نمالاً تتقدم، وتحمل ما تستطيع حمله، وتعود، وحين تخلو المستعمرة أو تكاد، ولا يستطيع المتطوعون، الجنود، المنقذون احتمال هذه الخسارة، فيتركون مواقعهم، وينقضُّون على ما تبقى، والجريء الشرس منهم ينقض على الموظفين والمستخدمين، فينتزع منهم غنائمهم وفياض... يراقب غير مصدق، يراقب والحزن يتآكله، وحين لا يستطيع مزيداً من الانتظار ينزل عن القلعة الصخرية الكبيرة يحاول منعهم من ترك مواقعهم، ولكن أحداً لا يسمع، يفكِّكون الأبواب والنوافذ، فللأبواب والنوافذ أثمان أيضاً، حاول ومنصور إيقاف المهزلة الانهيار، صرخ، لوَّح بالسلاح، هدَّد وتوسل، ولكن جهوده ذهبت أدراج الرياح، فقد أُثقل الجميع بالغنائم، فتركوا مواقعهم ليوصلوها إلى مأمنها..

عرف فياض أن شيئاً خطيراً سيحصل، وكان حدسه صحيحاً، فما

إن انتصف الليل حتى جاءت النجدات، سمع الضجة وعرف أنها وصلت، أرسل من يستطلع، وعرف أنهم وقعوا في الفخ، وحين أشرق الصباح المتوتر اكتشف أن الاستحكامات التي أخلاها الغانمون الفرحون بالطناجر والحلي، بالأبواب والنوافذ قد أعيد احتلالها، فأذعن للانسحاب مع الأصدقاء الذين تبقّوا تاركين وراءهم نصراً لم يكن سهل النوال، نصراً كلفهم عشرات القتلى، وعشرات ممن مضوا يحملون الطناجر والصحون والأبواب والشبابيك.

انفرط العقد، وتشتت الشمل، والتحق كلٌّ بجماعة جديدة، ومضى فياض ومنصور يبحثان عن مصير جديد، تخليا عن جيش الإنقاذ، وجيش التحرير، ومنظمة النجادة، ومنظمة الفتوة، والجيوش الكثيرة، وعاد إلى القدس.

حين دخل فياض القدس سائحاً يتأمل خشب الزيتون المحفور، والمنزّل بالصدف، يتأمل تماثيل العذراء والمسيح المصلوب، ومجامع السكاكر المنقوشة، والمزيَّنة بخيوط الفضة متناسياً الحرب المهزلة، ملاحقاً مع منصور المساجد والكنائس، الصخرة والنبي داوود، قبة المعراج، الأقصى، كنيسة القيامة، والقديس جورج، الفيرونيك ونياحة العذراء، مخترقاً قدس الحارات المسقوفة بالتوتياء، قدس السبلان والأسواق الملتوية المظللة هرباً من النور القوي الفاضح، قدس البخور والصندل والتنباك، قدس أصوات الباعة والرخام المنظم، قدس انزلاق المشاة اللين تحسبهم مصطدمين بالخطوة التالية، ولكنهم لا يصطدمون، حين فعل كل هذا مع منصور وكأنه لم يأت فلسطين إلا ليقوم بهذه السياحة لم يذكر، ولكنه حين سيكتب فيما بعد سيذكر فيقول:أتراني كنت أستعيد روجيه حين دخل دمشق يحاول استحياء دمشق التي هشمت أنف غليام لوبلان فيما مضى.... أم تراني كنت أودع؟

وأخيراً سئم منصور هذا التجوال بلا هدف، فقال: دعنا ندخل القدس الأخرى.

ـ ولكن. كيف؟

ـ تتقن الفرنسية وبعض الإنكليزية.

ـ صحيح.

ـ وأتقن الألمانية وبعض الفرنسية.

ـ وما يعني هذا؟

ـ وأنت أوروبي الشكل أكثر من سبعين بالمئة منهم!

ـ ربما ـ وضحك فياض ـ ولكنك بشقرتك الحورانية لن تبدو اسكندينافياً.

وضحك منصور في خفوت:

ـ كل ما علينا الآن هو السعي لتزوير هويات لنا.

ولم يكن بالأمر الصعب، فقد صودرت هويات كثيرة من جثث القتلى والجرحى والأسرى اليهود، فحصلا على اثنتين منها، وكان منصور قد تدرب فيما تدرب عليه في ألمانية على تزوير الجوازات والأوراق الرسمية.

اشترى منصور بضع بيضات. عاد إلى الفندق، سلق منصور بيضتين رغم احتجاج فياض، فوضعهما المالي لا يحتمل الإسراف، ولكن منصور لم يجب، بل نشر الهويتين الإنكليزيتين الفلسطينيتين اليهوديتين، ثم انتزع منهما الصورتين بحنكة، أحضر صورتين له ولفياض، فوضعهما فوق الصورتين اليهوديتين، ثم قصَّ الزائد منهما وما كان فياض يعرف أنه بهذه الخطوة قد

خرج من تاريخ، ودخل في تاريخ آخر.

قشَّر البيضة، ثبَّتَها فوق الصورة اليهودية، أدارها تحت أنظار فياض المشدوه، وحين رفعها كان الخاتم قد انتقل إلى البيضة الطرية، وحين رفع البيضة حاملة الخاتم في فخر لم يفهم فياض ما سيصنع ولكنه حين أدارها ثانية فوق صورة فياض، اكتشف فياض أن اسمه قد أصبح أبراهام ليفي..

(٣٧)

أبراهام ليفي. ألن تتناول عشاءك؟

وأدار وجهه إلى الجدار في غيظ، أبراهام ليفي، فطورك ما يزال كما هو، والغداء لم تمسَّه. ألا تريد أن تتعشى؟ . كان الصوت محايداً، مخادعاً، مواربأ، ما الذي يريده هذا الرجل، هذا الحنان المفتعل، أتراه شيء في الطبع؟ ولكن أيشفقون على اليهود هنا؟ أم أنه يعرفه ويعرف الحكاية كاملة، يعرف أن اللعبة ستنتهي أخيراً، وسيعود إلى موقعه، ولا بأس بإبداء صداقة لن يخسر منها شيأً.

ـــ ابراهام ليفي. ألن تتناول عشاءك؟

التفت من مضجعه، جبهه الوجه المربع غليظ الشاربين والحاجبين، الوجه المنتفخ والعينان المتضايقتان: قل لأسيادك، للجميع، أنا لست ابراهام ليفي. أنا فياض الشيزري.

وكرَّر الصوت المحايد: ولكن. لفياض الشيزري أهل، أقرباء، أصدقاء، استدعهم يا سيدي إن كنت كما تدعي فياض الشيزري!

* * *

كانت المرة الأولى يدخلان فيها القدس الأخرى، وكانت أخرى فعلاً، أخرى في كل شيء، الشوارع المتعامدة الواسعة، الأشجار المظللة، الدارات الصغيرة المسوَّرة بالحدائق، النباتات العملاقة، كانت.... أخرى، ولكنها لم تكن قدساً، كان فيها شيء كوزموبوليتاني مبتذل، مدينة أخرى من مدن أوربة، مدينة مبهجة، ولكنها لا تَعْلَق في القلب، مدينة فيها لذة الآيس كريم دون أن تكون لها نكهة القشطة، مدينة فيها غذاء اللحم المعلب دون أن تكون لها نكهة اللحم الحار، مدينة أخرى مغايرة تماماً لتلك القدس المتعرجة، المظللة، متمايزة الحجارة، المنكَّهة بالأفاويه والبخور، المحتمية من الشمس بالرواقات التوتيائية، والسبلان المنتشرة عند كل زاوية وركن، وقال منصور وهو يلاحق خريطة صغيرة في يده: من هنا..

لحق به فياض يستكشفان، كانا زائرين لعالم غريب يحاولان فهم مايخفي وما يختلف به عن العالم المحيط به، لم يكونا قد خططا لشيء بعد، كانا يتشردان بين القدسين سائحين يائسين سئمين مشمئزين من هذا العالم الآبي على الصلاح حين لحظا مبنى تقف أمامه سيارات كثيرة، كان جيد الحراسة، وكانت بوابته لا تكف عن الانفتاح والانغلاق، وسيارات تدخل، وسيارات تخرج، وهمس منصور: أي مبنى هذا؟ ورد فياض متهكماً: عرفت إلى من تتجه بالسؤال.

ـ لابد أن نعرف ذلك.

و فاجأهما الحظ جواباً حين قرآ إعلاناً عن غرف مفروشة معدة للإيجار على البناية المواجهة، وقال منصور: فلنجرب.

وفيما بعد سيكتب فياض: يا إلهي! لماذا سَهُل كل شيء في البداية ثم انقلب ضدنا....كل شيء؟!

كانت صاحبة البيت امرأة عجوزاً لم يترك منها الزمن لأحد نصيباً، ولكنها كانت جيدة الفهم في أمور المال، استأجرا منها غرفة لأسبوع، وأخذا يراقبان المبنى المزدحم بالسيارات والخارجين والداخلين.

بعد يومين من مراقبة لا مبالية اكتشفا أن المبنى كان للقيادة العسكرية اليهودية الهاغانا، ولكنهما اكتشفا في هذين اليومين أيضاً أنهما كانا يراقبان كهولاً يبدون محترمين وقورين أكثر منهم مقاتلين، كانوا بطيئي الحركة، يضعون النظارات الطبية، والقبعات السود، وقال منصور: يا إلهي! إنهم يبدون أناساً عاديين لقيت منهم الكثير في شوارع برلين وفرانكفورت، أفيعقل أن يكون هؤلاء هم القتلة والسفاكين الذين نسمع ونرى منهم كل ما سمعنا و رأينا.

كان فياض يحدق من النافذة إلى أشجار الكينا والغازورينا البعيدة حين سمعه منصور يقول بصوت غريب: لا تؤاخذهم. ما يزالون متوحشين. لقد وصلوا حديثاً من أوربة ولم يتبلّدوا بعد.

توتر منصور لصوت فياض الغريب: ماذا تقول؟

ولم يجب فياض، و إن لاحظ منصور عضلات كتفيه المتوترة.

اقترب منه وأداره إليه: ماذا قلت؟

نفض فياض رأسه كمن يفيق من حلم: ماذا. ما الأمر؟

ــ سمعتك تقول شيئاً عن متوحشين ووصول من أوروبة، ماذا تعني؟

ــ لا. لا شيء. ولكنه بعد إلحاح منصور قال: أتساءل كم من بطرس ناسكٍ يكمن بين هؤلاء الرجال العاديين الذين قابلتهم في برلين وفرانكفورت؟

وعلى العشاء الخفيف الذي تلا نهاراً من صمت واجم لم يجرؤ واحد منهم على اختراق جداره قال منصور فجأة كمن يفثأ تقيح جرح لم يعد يحتمل نغله: هذه الانهيارات لابد لها من ضربة كبرى، ضربة قوية توقف الانهيار الكبير.

ــ فماذا ترى؟ قال فياض في سأم.

ــ أفكر في ضربة أفجر فيها نفسي والعالم.

ــ ولكن لماذا؟

ــ أريد أن أوقف هذا الطنين في رأسي، طنين رؤيتهم يتراجعون من رامات راحيل يحملون الطناجر و الصحون والأبواب والشبابيك.

ــ وتظن تفجير نفسك سيغير منهم؟

ــ لا أريد للجيل التالي ألا يعرف عن جيلنا إلا حملة الطناجر والصحون.

ــ المعنى؟

ــ ضربة قوية أفجر فيها هذا المبنى بمن فيه.

واعترض فياض في ضعف:

ــ ولكن.

ــ أي لكن. أي لكن؟ أريدها ضربة تطيش صوابهم.

وتابع فياض اعتراضه الضعيف:

ــ ولكن يا منصور.

وقاطعه منصور في حزن جعل بياض العينين الشاردتين يحتلان

فراغ العينين:

ــ أنا أعرف أن النصر بعيد، ولكن ترك ذكرى كذكرى يوسف العظمة موقظةٌ لأحلام الأبناء والأحفاد.

اكتشف فياض أن الأمر جدي، ولكنه لم يذكر حواراً سابقاً جرى قبل سنوات وسنوات بينه وبين آخر كان حالماً بهز مستنقع النوم وإيقاظ اللاهين بانتظار القوافل البعيدة البعيدة.

وتابع منصور: سأقوم بهذه العملية فإن شاركتني فيها... و إلا فلن ألومك.

لاك فياض الفكرة، لاكها حتى مجَّها وسئمها، لاكها وتساءل: وماذا تبقى لك يا فياض إن لم تشارك؟ العودة إلى دمشق؟ إلى حسيبة وزينب والدكان المنتظر أبداً. أتعود الخائب لم يحرر، ولم يحارب، ولم ينتصر؟ تعود لتلقى إياد وخليل ***والمُلْك عقيم*** ثانية؟ هل...؟ لاك الفكرة طويلاً حتى اكتشف أنها المخرج من بالوعة الفساد، ستصنع شيئاً، ولن تعود لمواجهة الفساد الذي خلَّفته من ورائك. تصنع شيئاً؟

وسيكتب فياض في دفتره الجريدي الأصفر: الآن وبعد هذه السنوات حين أفكر بالزرع والحصاد ــ هه. اكتشف أن زهرة واحدة لا تبثق ربيعاً، و سنونواً واحداً يشق السماء لا يعني انقضاء الشتاء، اكتشف أن عملا فردياً مهما سما لا يمكن أن يخرج شعباً من دوامة ***الملك عقيم والنهب قريب***، الآن وبعد هذه السنوات، وبعد ابراهام ليفي، وتشتته بين السجون يبحث عن هويته الأصلية محاولاً الخروج من بالوعة الفساد الآن فقط أعرف وبحزن أن فرداً واحداً لا يوقظ أمة.

كانت الخطة بسيطة، يسرقان سيارة، وحبذا لو كانت دبلوماسية،

يشحنانها بالمتفجرات، يتسللان بها إلى مقر قيادة الهاغانا مستفيدين من هويتيهما المزورتين،ومن شكلهما الأقرب إلى الأوروبية، ومن معرفتهما بالفرنسية والألمانية ولكن... هتف منصور : علينا أن نختار يوماً يزدحم فيه العدد الأكبر من قياداتهم.

راقبا مبنى القيادة يومين آخرين، فاكتشفا أن كثيرين من الأجانب، من الممثلين الدبلوماسيين، من المتطوعين الأمريكيين والأوربيين يدخلون المبنى يومياً وبسهولة يكفي لها أن تُعَرِّفَ بهويتك حتى تدخل باحة مقر القيادة.

كانت الخطوة الأولى سرقة السيارة، وكانا قد لاحظا سيارة تكثر من الدخول إلى الوكالة، فجعلاها الهدف، قطعا عليها الطريق في أحد الشوارع البعيدة، أنزلا راكبها، واكتشفا أنه واحد من البعثة الأميركية، وحين اكتشفا ذلك عرفا أن التوفيق يحالفهما، وحين صحباه إلى الحدود القريبة من القدس العربية لاحظا الدهشة الصارخة في وجهه، يهوديان فرنسيان يختطفانه، لماذا؟ ولكن منصور قتله دون أن يعبأ بالإجابة عن أسئلته الكثيرة، ومات الرجل حزيناً أنه لم يحصل على الأجوبة.

ألقيا بالجثة المعرّاة من الثياب والهوية في واحد من البيوت المفجّرة بواحدة من القنابل البعيدة، وانتقلا إلى الخطوة التالية، لم يكن ممكناً الخروج بالسيارة إلى القدس العربية، فكان عليهما أن يهرِّبا المتفجرات على ظهريهما، ومستفيدين من الزي الغريب والهوية الغريبة، ومن الزي العربي والهوية العربية استطاعا خداع القدسين وتهريب المتفجرات إلى القدس الأخرى ليشحنا بها السيارة الأميركية.

وانقضى يومان آخران انتظرا فيهما ما يشير إلى اجتماع ما في القيادة اليهودية. يومان من إثارة وخوف، يومان من انتظار مرعب،

فالسيارة تنتظر في الغابة الحديقة القريبة، صحيح أنها كانت مموّهة بالأغصان وورق الشجر، ولكن المصادفات لا تعرف احتراماً لتخطيط، يومان لا يعرفان متى ينكشف سرهما، أو سرها، يومان من الترقب والحذر، وأخيراً جاء الفرج، فقد همس منصور يشير من نافذة الغرفة المستأجرة إلى القيادة المقابِلة: هاهم. هاهم. أتراهم..؟

ورآهم فياض، رآهم يندفعون، في ثياب مدنية محترمة، في ثياب قتالية، في ثياب قيادية، تدفقوا حتى اعتقد أنه لم يبقَ مكان لوافد آخر في المبنى.

انطلقا ينزلان الدرج بسرعة، استقلا سيارة تاكسي حملتهما قريباً من الغابة الحديقة، وصلا إلى السيارة، كشفا الستر عنها، تأكدا من المتفجرات التي لم تكن كذلك اللغم المسكين الذي زرعه مرة فياض وإياد في زمان قديم في الفحامة، بل كانت متفجرات حقيقية قوية من تلك التي أبدعتها عقول الحرب العالمية الثانية، شغّلا السيارة، وقال منصور مازحاً:

ـــ أننزل العلم الأميركي عن السيارة؟

وأكمل فياض مزاحاً يغالب فيه التوتر والخوف:

ـــ لماذا؟ أتريد رفع العلم الفلسطيني؟

وارتفعت من قلب منصور الغاصٍّ: ياليت.

صمت، وصمت فقد كان المزاح سمجاً في تلك اللحظة، تفحصا السيارة، العلم الأميركيَ المعلق عليها، ثيابهما الجديدة، هويتيهما

الإنكليزيتين العبريتين، وهوية الأميركي صاحب السيارة، ونقر فياض على التابلوه في هدوء: كل شيء جاهز.

وانطلقا، وصلا إلى باب القيادة، فأبدى لهم منصور تصريح الأميركي بالدخول، بينما اكتفى فياض بالنظر إلى الأمام محتمياً بنظارته الطبية، ونظراته الثابتة إلى الأمام في جدية، سمع فياض الحارس يقول بالعبريَّة: ***كاديما. كاديما***. ولم يتحرك منصور، فقال الحارس بنفاذ صبر: كمون كام أون.

لكزه فياض بقدمه في قسوة، فانطلقت السيارة إلى الداخل، وهمس منصور: يا إلهي! حسن! أنك لكزتني. كنت أحس بقدميَّ وقد شلَّتا. وهمس فياض: هس. المهم الآن العثور على مكان جيد لوضع السيارة. و....عثرا على المكان الجيد، إذ دساها بين صفي سيارات قيادية، ولكنهما لم يعثرا على طريقة تخرجهما من المكان قبل تفجيرها إذ أوقفهما الحرس عند الباب، فثرثرا معهم محاولين الخروج بهدوء، هدوء؟ الهدوء الوحيد الذي حصل عليه فياض كان حين وجد نفسه مطروحاً خارج المبنى ممزق الساق، محطم الفخذ، ومنصور على بعد عدة أمتار مطروح، لا يتحرك. واستطاع فياض أن يرى المبنى وقد تهدم مدمراً معه كل أولئك الناس الذين جعلوه يترك البيت، وخليل، وإياد، والدكان المنتظر من يحمل راية بيت الجوقدار قبل أن يغمض عينيه مستسلماً للألم..

ألقى نظرة وداع على جثة منصور، ومضى، وكان يظنها الوداع لو لم يلقه بعد شهور وشهور في دمشق إذ لم يستطيعوا اكتشاف هويته الحقيقية حين رطن لهم بالألمانية، فعالجوا جراحه محمياً بهويته اليهودية ولغته الألمانية إلى أن تسلل بهدوء إلى لبنان فسورية معتقداً أنه الناجي الوحيد. أما فياض فقد كان ينتقل من سجن إلى سجن يحاول إثبات هويته الحقيقية، وأنه ليس ابراهام ليفي المولود في ستراسبورغ كما تؤكد ذلك هويته المحفوظة جيداً في جيبه الداخلي.

تحامل فياض على جسده المتعب النازف ذلك الذي حمله من شيزر إلى حماة، فبيروت، فباريس، فدمشق، وأخيراً خانه، وارتمى به عند الخطوط العربية الأمامية، فحملوه ظانين أنهم حصلوا على الصيد الثمين، حملوه إلى المستشفى، واعتنوا به جيداً، فأبراهام ليفي الكابيتين في البالماخ لا يجب أن يموت، فبابراهام ليفي سيستطيعون مبادلة عدد جيد من الأسرى العرب، ولكن فياض الشيزري صرخ بملء الفم: أنا مفجر قيادة الهاغانا. وكانوا ينظرون إليه في سخرية، مفجر قيادة الهاغانا، أية هاغانا، وأي تفجير؟ الهاغانا ما تزال موجودة، ولم تفجر، ويصرخ واصفاً لهم رحلته مع منصور الأحمد، تسللهما، تنكرهما، تزويرهما الأوراق، تفجيرهما وكر القسوة لديهم، ولكنهم مايزيدون على قلب شفاههم، فيحدثهم عن فياض الشيزري، فياض الصحفي الشامي، البيروتي، الحموي، الباريسي، الفلسطيني، فيحاولون العثور عليه تحت قشور أبراهام ليفي، ثم يقلبون شفاههم، فهم لم يجدوا شيئاً.

وأخيراً، وبعد إصرار طويل من فياض على فياض الشيزري اتصلت السجون بالسجون، والقلاع بالقلاع، والأجداد بالأجداد، والمُلْك عقيم بالملك عقيم، وأُخِذَتْ لفياض الصور العديدة، صور وجهية، وصور جانبية، صور ملتحية، وصور مُردً، صور بالزي العسكري البالماخي، وصور بالثياب المدنية، صور بالسدارة، وصور حاسرة الرأس، ووزعت الصور ربما على سجون العالم، وعواصم العالم تسأل عن ابراهام ليفي المولود في ستراسبورغ حسب هويته والمدعي أنه فياض الشيزري المولود في قلعة كان فيها يوماً مأميرٌ اسمه أسامة، وأخيراً قال له السجان: هيئ نفسك، فستنقل إلى دمشق.

إلى دمشق؟ واختلط فرح العثور على الهوية بالرهبة من مواجهتهم في دمشق، فمنذ صرخة السجان ستنقل إلى دمشق ولد السؤال ـــ العذاب

ـ الخوف ـ فماذا يقول لهم هناك، وبم يجيب حسيبة، وزينب، وهشام، وإياد، وخليل بك، والشيخ يوسف، والأبومنير، والأبوسعيد، والأبو... والأبو... آه يا إلهي! كيف يفسر لهم سجنه؟ هل يصدقون حكاية تدمير القيادة اليهودية، ولم يصدقوها هنا؟

هل يصدقون روايته، أم يعتبرونها تخريفة أخرى من تخريفات الخيبة والعجز؟ أم. هل... هل يرجع الذليل المهان مهيض الساق، محطم الفخذ؟

ووصل إلى دمشق، فإذا بدمشق السجن، وإذا به يعود أبراهام ليفي، ولكني فياض الشيزري، أليس فيكم من يعرف فياض الشيزري؟ ولم يجرؤ على الحديث عن منصور، والتسلل، والتزوير، والتفجير فلقد استطاعوا إقناعه أخيراً بأن الحكاية كلها نكتة كبيرة، وصار همه الآن الخروج من ثياب وهوية أبراهام ليفي.

ـ حسن. إن كنت فياض الشيزري، فإنَّ لك أهلاً. استدعهم يتعرفون عليك.

وغص القلب، والحلق، والفؤاد، والكبد، والجلد، والأظفار. يستدعي، من يستدعي؟ حسيبة، لتنظر إليه بعينها المنكسرة، وتقول والشماتة تنز منها: أردت أن تكون صياح المسدي وتحرر فلسطين، ولن تتركها لليهود. هه.؟ ثم تلتفت عنه قائلة: ها أنت تعود الجريح المهين المهيض الذليل.

راقب السَّجَّان صمته، فقال يواسيه: لا بأس. قريباً يتم تبادل جديد للأسرى، وتعود إلى أهلك.

ـ أهلي؟ هناك؟ عليكم اللعنة. لا أهل لي هناك. أهلي هنا!

ـ فاستدعهم.

وصمت ثانية. يستدعيهم. يستدعي من؟ روجيه لوبلان أم ماتيلد؟ عرنوس، أم المقدم معروف؟ أسامة بن منقذ، أم الرؤيا؟

آه! الرؤيا. وامتط حنكه في ضحكة كالذعر.

وقال السجان وهو ينسحب:

ـ لا بأس. اهدأ الآن. وفكِّرْ، فإن كان لك من تعرفه، فاستدعه..

ثم توقف عند الباب وكأنه لم يقل كل ما لديه:

ـ أنت تقول إنك كنت صحافياً وصاحب جريدة. حسن. فأين أصدقاؤك؟ أين المسؤولون من معارفك؟ إن كنت كما تدعي، فلا بد أنك تعرف نصف وزراء البلد، استدع واحداً منهم يتعرف عليك.

أغلق الباب راءه ومضى، ولكن الفكرة لم تمض، إنه إياد إذن، إنه إياد الذي جاء بي إلى سجون دمشق، ويريد مني أن استدعيه ليتعرف عليّ. لا، بل ربما كان خليل بك. يريدون أن يشهدوا عاري، موقفي الخائب، عودتي المهيضة، يريدون أن يمنُّوا علي تعرفهم علي وإعادتهم هويتي، و إلا فإنَّ الجاسوس اليهودي يعدم، أو يسلم إلى.... أهله..

وسيكتب فياض على الدفتر المصفِّر دون شمس: إياد، إياد، كيف استطعت أن تكون على هذه القسوة؟ وكيف هانت عليك أيامنا الماضية وحواراتنا الطويلة وتخطيطنا المستقبل، ونسجنا كما قلت مرة: الحلم والراية. كيف؟!

أخذت الأيام تنقضي، وطعام أبراهام ليفي يسوء، أخذت الأيام تنقضي وصحف ومجلات وراديو أبراهام ليفي تسحب من الزنزانة، أخذت الأيام تنقضي وفسحات التنفس تندر.... وأخيراً ختم الأمر بمنعه من الخروج من الزنزانة حتى لقضاء حاجة، لم يكن فياض يتعنت، ولم

يكن يتشدد، ولم يكن يقوم بدور البطل، بل كان ببساطة لايحتمل فكرة أن يأتي إياد أوخليل، أوحسيبة لإخراجه من هذه الحفرة.

شهور ثلاثة انقضت، وفياض لا ينتظر أحداً، شيئاً، حلماً، حزناً، فرحاً، كان يعتقد أنه كان ميتاً في تلك الفترة، فهو لا يذكر أنه حتى كان يفكر، بل كان يستلقي على الفراش الممدود على الأرض يحدق إلى السقف الحجري الوسخ يتساءل فقط: إن كان قد قام ومنصور بتلك العملية المجنونة، أحقاً فجر قيادة الهاغانا أم كان حلماً من أحلام اليقظة؟، حسن. فإن لم يكونا قد فعلاها، فأين منصور؟ وما هذه الجروح والكسور في الساق والفخذ؟.

وفجأة جاء الحارس: أبراهام ليفي.

وقال فياض في صوت مخنوق: لست أبراهام ليفي، أنا فياض الشيزري.

ـ حسن. فلتكن من تكون: إنهم يريدونك في الإدارة.

اتكأ فياض على الحرس في طريقه إلى إدارة قلعة صلاح الدين، فلم تكن ساقاه الموقوفتان عن المشي، الناقهتان من جرح وكسر تستطيعان حمله، وهناك في المكتب الفخم. هناك تحت الإضاءة المريحة، هناك فوق الأرض المفروشة بالسجاد العجمي، هناك، وعلى كنبة مريحة كان إياد الجوقدار غاطساً، وساقه اليمنى فوق الساق اليسرى.

أدّى الحارس التحية، وقال: أبراهام ليفي ياسيدي.

التفت إياد، ونظر. نظر غير مصدق، وأدرك فياض الذي لم يرَ وجهه في مرآة منذ شهور أن شكله كان مرعباً إذ لحظ عضلة ترتعش في وجه إياد الذي لم يتمالك نفسه أخيراً، فانتفض يلقي بنفسه في أحضانه:

ـــ فياض، فياض. أحقاً أنت، أنت. أيعقل أنك ما تزال حياً؟

كان يشده إلى صدره، يبلله بدموعه، يتشنج في عناقه، وفياض الجثة المتحركة الهادئة الميتة القلب والكبد والنخاع لا تفعل إلا أن تقف مستسلمة. والتفت إياد إلى مدير السجن ثائراً:كيف. كيف تفعلون هذا بالأستاذ فياض. ألا تعرفون من فياض الشيزري. ألا تعرفون؟

وتمتم المدير معتذراً، مغمغماً، محاولاً قول شيء ما، ولكن إياد أمعن في ثورته، ثم طلب إليه الجلوس، وقام المدير يساعده على الجلوس، والحارس مفتوح العينين في دهشة.

وقال المدير: فياض بك، فياض بك الشيزري بنفسه، يا إلهي! من يصدق ذلك. هل تشرب شيئاً؟

وأشاحت الجثة المتحركة بيدها رافضة.

ـــ شاي، قهوة، كازوز، آه. ربما كنت جائعاً.

لم يستطع قبول شيء منهم، فجاؤوه بملابس جديدة، جاؤوه بحلاق حلق له شعره ولحيته، و... خرج مع إياد، وحين صفعته الشمس المنسية على وجهه حديث الحلاقة التفت إلى إياد يقول:

ـــ إلى أين تمضي بي؟

ـــ إلى البيت طبعاً.

ورأى الفخ الذي هرب منه فياض طويلاً، رأى حسيبة بعينها المنكسرة: ***سنحرر فلسطين ولن نتركها تضيع،*** ورأى زينب الباحثة عن حكاية مغامرات لم تعشها تتعلق به ليحدثها عن الانتصارات والأمجاد والـــ... ورأى هشام يجري ليتعلق باليدين المرحبتين واللحية الخشنة

يسأل: بابا شو عملتو بفلسطين. حررتوها؟ وهز رأسه في رعب:

ـ لا . لا أستطيع.

وقال إياد الذي وصل إلى جانب سيارته البيجو حائراً:

ـ ولكن إلى أين إذن؟

ـ لا شأن لك. سأمضي إلى أي مكان. اتركوني فقط. هذا كل ماأريد.

ـ نتركك فقط. ولكن. هذا غير ممكن. أنت بطل تفجير قيادة الهاغانا، يجب أن يعرف الناس ببطولات شعبنا.

كان فياض يسمع دوي إياد فلا يفهم، فقد كان همه الإفلات من فخ السيارة فهو يعرف أنه إن دخلها، فلن يخرج إلا في بيت حسيبة، ولكنه فجأة انتبه. إنه يقول بطل تفجير قيادة الهاغانا، فالتفت إليه يمسك بتلابيبه: فأنت تعرف إذن.

ـ أعرف ماذا؟

ـ بتفجير قيادة الهاغانا!

وحاول إياد التراجع، فقال:

ـ سمعتهم يقولون هذا.

ولم يتركه يفلت، فصرخ:

ـ فأنت تعرف إذن؟

وحاول إياد التملص من قبضته وهو ينظر بجانب عينه محرجاً إلى السائق في السيارة يحاول الخروج لإنقاذه:

- فياض. أنت تخنقني، ثم هذه الإشاعات سمعناها، وأنت تقول إنك فاعلها!

ـ أفلم تكتب عنها الصحف؟

ـ أبداً.

تخلى عن ياقة جاكيته وربطة عنقه منكسراً، وتمتم: أفلم تذكرها وكالات الأنباء؟

مسح إياد على جاكيته وربطة عنقه يعيد إليهما تناسقهما، وقال:

ـ أبداً.

ونظر فياض إلى وجه إياد مباشرة يستنجد به:

ـ أفلم تذع أخبارها الراديوهات؟

ـ أبداً!

ولم يتمالك فياض نفسه، فانطلق يبتعد تكاد الدموع تخنقه:

- إنها المؤامرة. المؤامرة الكبرى إذن.

لحق به إياد: فياض. إلى أين؟

ـ لا شأن لك بي. دعني.

ـ فياض. من حقك أن يعرف الناس ببطولات شعبنا.

ـ أية بطولات ولم يسمع بها أحد؟ أية بطولات وأنا لم أنسلخ من إهاب أبراهام ليفي إلا منذ دقائق؟ أية بطولات وأنا العائد كسيراً جريحاً مهيضاً تتقاذفني السجون الشهور، ولا أجد من يعرف فياض الشيزري، تحت هوية أبراهام ليفي، اتركني. اتركني...

انطلق يعدو، ولا يعرف كيف واتته القوة، ولكنه لحق به ثانية.

ـ فياض. نحن بحاجة إليك.

ـ لست بحاجة إلى أحد.

ـ فياض إلى أين؟

ـ بلاد الله واسعة.

ـ ولكن حسيبة وزينب وهشام.

ـ لا أريد أحداً.

ـ فكيف ستعيش؟

ـ لن أعيش.

ـ ولكن هذا جنون.

ـ ومتى كان العقل في هذه البلاد عقلاً. العقل هو الجنون.

ومضى فياض. راقبه إياد يبتعد. يظلع، يتكئ على أسوار البيوت، يبتعد، يبتعد، وعاد إلى سيارته. فتح السائق الباب، جلس في المقعد الخلفي وقال للسائق: لا تدعه يبتعد عن عينيك.

مضى فياض، وتبادلته التكايا والجوامع، المخافر والسجون، متشرداً، باحثاً عن قشة يتعلق بها حتى وجد نفسه أخيراً في البادرائية.

أوى إليها كالعشرات من اللاجئين، وكان ينام على حصيرة الجامع متوسداً حذاءه القديم جاعلاً الجدار بينه وبين العالم إلى أن جاءه المشرف على المدرسة الجامع يوماً فقال: اسمع. أنا أعرف ألا بيت لك، تعال أعطيك غرفة في البادرائية.

(٣٨)

هديل حزين وانتفاخات رقبة مضحكة وذيل عريض يفرش على الأرض فيما يظن أنه إغراء، ولكن الهديل. يا إلهي كم يختزن من الحزن! اللون البني الكابي والرمادي الكابي، ليس من بياض، ليس من صفرة، من حمرة، من سواد، من ألوان صريحة حادة. ألقى بضع كسرات من خبز يابس، فتخلى الذكر عن محاولة إغرائه الأنثى، وسعى إلى الكسرات يلتقطها، وسارعت الأنثى المتمنعة المتأبية النافرة إلى اللحاق به قبل أن تختفي الكسرات جميعاً، ألقى بكسرات أخرى فحط زوج آخر من الستاتي ما لبث أن لحق به بعض عصافير الدوري، اللون البني الغباري نفسه، والرمادي الخفي، وفجأة تذكرها، تلك الحمائم الزرق النضرة الملتمعة، والبيض الهاربة من المدينة ملتحقة بها، الحمر، السود، البلق، يا إلهي! ولكن كيف عاشت هناك في القلعة، ولم تعش هنا؟.

تأمل الستاتي ثانية، تأمل العصافير، وفكر: ما الذي دجَّن هذه الطيور، ولم يدجن الحسون، والصفري، والطرنجان، والحمري، والشرشور، والشحرور؟ ما الذي أنقذ هذا الهدوء المسكين، وطرد ذلك الجمال المغني؟ وهز رأسه في حزن، فلم يكن في حاجة إلى جواب.

كان لابد لفياض من التأقلم مع بيئته الجديدة هذه، فبعد فياض الشيزري الحموي الباريسي، البيروتي، الدمشقي، الفلسطيني. يا إلهي كم من الأسماء

سميت يا فياض؟ ها هو يصبح أخيراً فياض البادرائي، يقرأ إن مكَّنه الضوء من القراءة، ويتشمس حين يمضون إلى حلقات جامع القلبقجية يدرسون، فتخلو له الباحة كما خلت له قلعة من قبل، تخلو له البحرة، وشجرات السرو، وطيور السناتي، والأحزان المعلقة على جدران القبر الحي، وتحول العالم الرحب الفسيح إلى عالم مغلق، حدوده البحرة، والمصلى، والغرفة العتمة اليائسة وخمسون الليرة تقبض من الأوقاف أول كل شهر بدلاً للخروفين المطبوخين، ومئتي الرغيف التي أوصى بها قبل قرون وقرون سيدنا ومولانا قاضي القضاة نجم الدين البادرائي.

كان يراقب هؤلاء الفتية النضرين حملوا إلى البادرائية من السهول والبيادر، من الجبال والغابات، حُملوا مُغْرَين بعالم مريح، فيه الطعام السهل والماء السهل والحياة السهلة، والحياة السهلة... بعد الموت السهل.... السعادة دعوة إلى تمساية وعشاء دسم، والبهجة بعض قطائف وكنافة إن كان الميت غنياً.

كان يراقبهم يوم الخميس، وقد انغمس كل منهم بغسل ملابس الأسبوع الفائت، يراقب تزاحمهم على حبال الغسيل، ومن سبق نشر قبل الآخرين وسعد بهذا النصر، وسترى هذا النصر، يتجلى ألقاً في العينين، ألقاً لا تعرفه تلك العيون، كان يراقبهم من خلف زجاج نافذته الصغيرة الوسخة الزجاج المطلّة على الباحة، يراقب حفظهم البردة يرددونها والأناشيد الدينية يتلونها، ويرى إلى الحسد أولاً، ثم إلى الإكبار ثانياً في عيونهم لذلك الذي يكتشفون فجأة أن لديه صوتاً فيه بعض عذوبة، يراقب تمسُّحهم به حين يُدعَى إلى الموالد والختانات المتواترة، فيشبع منه البطن، ويُكسى الظهر ويمتلئ الجيب.

حين أمر سيدنا ومولانا قاضي القضاة نجم الدين البادرائي بإنشاء المدرسة البادرائية وأوصى لساكنيها بخروفين وكيسي برغل ومئتي رغيف كل يوم لم يطلب من ساكني مدرسته إلا أن يقرأوا على روحه

ختمة كل خميس، ولكنه حين رأى صفي الغرف الأولى على جانبي الباحة يكتمل أضاف إلى وصيته شرطاً يحتم على ساكني مدرسته حفظ الأشموني شرطاً لبقائهم في المدرسة، وقراءة صحيح البخاري على روحه مرة كل شهر أجراً لبقائهم في المدرسة، ثم حين رأى صفّي الغرف العليا يكتملان رأى أن المدرسة بحاجة إلى بحرة تمد الساكنين الداعين له بالرحمة، والشاكرين له استضافتهم بالماء للشرب والوضوء، ولكن سيدنا ومولانا قاضي القضاة نجم الدين البادرائي حين أمر بزراعة أشجار السرو والصنوبر تظلل الساكنين، وتبعث الأمن في أرواحهم لم يعرف، ولم يكن له أن يعرف أنَّ يوماً يجيء، ويسكن هذه المدرسة العتيقة حالم شردته الأيام ومؤرِّخٌ أضاعته الأحلام، فيجلس في غرفته العتمة كقبر، ويسترجع الذكريات والأحزان، يسترجعها صوراً يعلقها على الجدران، وقصاصات جرائد لم تستقبلها مزابل المدينة ويلصقها على النوافذ والعواميد العتيقة.

وحين بشَّر المشرف على المدرسة فياض بحصوله على غرفة في البادرائية كان يبدي أنه يؤدي خدمة، ولكنه كان يعرف أنه ينفذ أمراً، لذلك حين كان يجيئه سكان المدرسة من طلبة العلم والباحثين عن كنوز الأجداد المحبوسة بين دفات الكتب العتيقة شاكين من هذا المذهول لا يتوضأ، ولا يصلي، ولا يشاركهم ذكراً، أو قراءة بردة كان يكتفي باسترضائهم، وطمأنتهم، وتهدئتهم، فما لهم وله؟ فما الرجل إلا مسكين يعيش أيامه الأخيرة... دعوه. ولكنه ينجِّسُ المدرسة. المدرسة لا ينجسها أحد. والبركة التي تنشرونها كافية لمحو عار مدينة، فكيف بمدرسة صغيرة؟!

ويحلُّ الليل وصلاة العشاء، ولا يشعل النور، فهو لا يريد لهم أن يروه يراقبهم، ولكنه وقد راقبهم طويلاً صار يعرف طقسهم الكامل، هاهو يسمع تحسس أقدامهم العارية الأرض يبحثون عن الأحذية والقباقيب بحذر ولهفة قبل أن تستبدل أو تضيع. يسمع دعواتهم،

وهمهماتهم، وترددات أصواتهم، أناشيدهم الخافتة وخطواتهم الوئيدة، الخشبية القرع تضرب البلاط، والجلدية الهمس تتحسس البلاط، يسمع حتى أزيز الجلد في حوار خُفِّ الشيخ مع حذائه، فهو لا يغسل قدميه لدى الوضوء مكتفياً بالمسح على الخف، فإذا ما أراد الخروج من المسجد لبس الحذاء على الخف، فصرت تسمع لانزلاق الجلدين أزيزاً مغيظاً.

تبتعد الخطوات، ويحط السكون أخيراً على المدرسة، فيتخيلهم يتسللون إلى أسرتهم الخشبية يتسوكون لينظفوا أسنانهم مما حشيت به قبل النوم، يضعون السواك في كأس إلى جانبهم حتى لا يجف، يقرأون أورادهم، يطفئون اللمبة ذات الستين شمعة، ينسلُّون تحت اللحاف و... ينامون، وهو يعرف أنهم ينامون مباشرة وحالما يضعون رؤوسهم على الوسائد، يطمئنون إلى دفء أقدامهم.

ينامون... دون أحلام... دون هزٍّ... دون أرقٍ.

تحدى فياض نفسه مرة، فتسلل بعد إطفائهم النور بربع ساعة، تسلل حافي القدمين، سَخِرَ كثيراً مما صنع فيما بعد، ولكن التحدي كان ملحاً، كان يريد إن يعرف إن كانوا يأرقون، ولكنه كسب الرهان كاملاً، فقد كانت الغرف كلها مطفأة الأنوار، وما عليك إلا أن تقترب بأذنك من النافذة حتى تسمع شخيرهم وفحيحهم الهادئ المطمئن الساكن دون أحلام.

نظر إلى شجرات السرو الغارقة في النهر القمري، نظر إلى عمد سقف الإيوان والمشارق، وتساءل لو انه تنصت على أعشاش الستاتي هناك في الأعلى، أفلن يسمع الصوت نفسه الهادئ المستقر الساكن دون خوف، أو حزن أو رغبة، أو شهوة أو تشوُّف للعالم.

تجنبوه وتجنبهم، ولكن إياد لم يتجنبه. قال: فياض. أنت لم تجرم بحق أحد حتى تحكم على نفسك بهذا السجن؟ ولكنه...... لم يجبه.

وجاءه في مرة ثانية: فياض. أنت تستحق أن يكافئك الوطن على ما

صنعت بخير مما تكافئ به نفسك، دعني أساعدك. ولكن فياض... لم يجبه...

وفي مرة ثالثة، وكان السأم قد أمضَّ فياض. قال: فياض. أما من شيء أستطيع تقديمه لك.

التفت إليه، ونظر إلى الوجه اللحيم، الراضي عن النفس، وقال:

ـ جئني بمكتبتي.

ـ أية مكتبة؟

ـ المكتبة المخزونة في الفرنكة في بيت حسيبة.

وفرح إياد أن فياض طلب منه شيئاً فمضى ليأتيه بالمكتبة، ولكنه اكتشف أن زينب قد أغلقت الفرنكة، ختمتها وشمَّعتها، ومنعت أحداً من دخولها. قالت: حين يعود يجب أن يجد العالم الذي تركه في انتظاره كما كان.

لم يستطع أن يعود إليه خالي الوفاض، فدار على المكتبات، واشتراها ثانية. لم يهتم فياض بجِدَّة الكتب، ولم يهتم باختفاء الملاحظات عن هوامشها، فقد كان فرح استعادتها هو الأهم، ولكنه في زمن تالٍ، وبعد إلحاح طويل من إياد قال فياض: أريد الصحف، والصور، كل ما نشر وكتب في غيابي.

وجاءه إياد بالصحف لتصبح عزاء وعذاب فياض، يقص القصاصات ويعلقها ذاكرة مجسدة على الجدران، ينتزع الصور، ويلصقها على حنايا الذاكرة، فلا تغيب. وكان إياد يسأله في حزن: ولكن. ما الذي يغريك بكل هذا الجنون؟ فياض ارجع إلينا، واحصل على حقك.

ـ تعني حصتي؟ ـ ويرى الصدمة على وجه إياد فيكمل ـ تنازلت عنها منذ زمن طويل.

وكان يمكن لهذا الحوار الطويل الممِّض أن يستمر طويلاً لو لم

يضيق فياض أخيراً بهذه الزيارات تقطع عليه خلوته مع هذه الكتب التي استحضرها، والذكريات التي انتزعها منها يحاول فيها إجابات على أسئلة لم يجب عنها، وراحة لم يستطع نوالها، فصار ينتقي أوقات زيارات إياد التي يقوم بها بعد فراغه من عمله للهروب من البادرائية والطواف في الحارات والشوارع، زيارة المساجد والمدارس، الخانقاهات والتكايا.

وفي واحدة من هذه التطوافات التي كان يترك فيها لرجليه اختيار الطريق والمسار، يمشي والعينان مفتوحتان ولا تريان. انتبه فجأة

على صرخة و زمور وغضب وهياج، فاعتذر، وصعد الرصيف، نظر من حوله ليكتشف أنه في مكان بعيد بعيد جداً عن البادرائية. استدار ليرجع، فالبادرائية بعيدة، والغروب قريب حين فاجأه.... منصور.

كان يحمل كيساً من المشمع وقد مالت كتفه اليمنى قليلاً مستسلمة إلى ثقل الكيس، فعرفه، وشهق، أفما يزال حياً؟ عرفه، وأحزنه ذلك الشرود في العينين، وتلك اللحية لم تحلق لأسبوعين، فانتشر الملح فيها في الفلفل ضمن صينية تجاعيد حزن الوجه، رآه فأمضَّته تلك البدلة لم تُكوَ منذ علقت على كتفيه، ولم تنظف، رآه واستدار يحاول الاختباء عنه، ولا يرى انكساره فيجرح، ولا يرى انكساره، فيضاف إلى الحزن أحزان، ولكنه بلطف ربت على كتفه وقال: لا داعي لاختباء كلٍ منا عن الآخر، أستاذ فياض. ليس نحن من يجب أن يخجل من العالم. على العالم أن يخجل منا نحن... واصطحبا على الطريق إلى البادرائية، وعلى الطريق لم يتمالك فياض نفسه فسأل: منصور، إكراماً لله، هل فعلناها حقاً؟ إنهم ينكرون علينا ذلك.

وهزَّ منصور رأسه في مرارة: لم أعد واثقاً من شيء.

وكرَّر في إلحاح: هل دمرنا قيادة الهاغانا. أجبني. أكاد أجن؟!

ـ إنهم ينكرون ذلك. ولكني أنا وأنت نعرف أنَّا فعلناها.

ــ نعرف أنّا فعلناها؟ وما الفائدة إن كنا العارفين الوحيدين؟. ما الفائدة إن لم يعرف الجميع وتبقى ذكرى فعلتنا في قلوب هشام والأحفاد؟ ما الفائدة إن لم نبقِ على الجمرة متقدة بفعلتنا. ما الفائدة.

- ما الفائدة؟

جرَّرا أقداماً أربعة، واخترقا حارات كثيرة مهزومين يتساندان، كسيرين يجتران حلماً لا يعرفه سواهما، جرَّرا أقداماً أربعة، واخترقا حارات لا يريان أقواسها العتيقة، ولا تحسُّ أقدامهما بحجارتها الناتئة، ولا تسمع آذانهما خرير طوالعها، ولا يشمَّان روائح نارنجها وكبادها، فالحزن الذي كان ينغل في قلبيهما كبير كبير.

فتح فياض الغرفة القبر ودخل منصور. أشعل اللمبة ذات الستين شمعة، فانتشر نور عكر لكنه أضاء القصاصات، والصور، ومحاولات تثبيت الذاكرة الزلقة على الجدران فقال: حتى أنت!

تقاذفا التاريخ، وتبادلا الذكريات، تشاتما مع القصاصات، واستعبرا مع الصور، وبدأت مرحلة جديدة من طحن الأضراس، والبكاء على الأحزان التي ما ينقطع لها نسل.

وفاجأه إياد قبل أن يهرب إلى التطواف بين المساجد والخانقاهات بين التكايا والمكتبات، قال: فياض. الوطن في حاجة إليك.

فنظر إليه ساخراً: هل صار الوطن أنت وخليل بك؟

ابتلع إياد الطعنة، وقال: أهلك في حاجة إليك!

ولما لم يكترث فياض بهذا الابتزاز أمسكه إياد من ذراعه بقوة وقال:

ــ فياض. ألن تعود إلى أرض الواقع أبداً؟ أنت تتقدم بالسن، ولم تعرف يوم مكافأة واحداً في حياتك، ونحن بحاجة إليك.

نظر فياض إلى الوجه المهموم يحدِّق إليه في توسل، كان من الواضح أن إياد مهموم، فقال له:

ـ تكلم يا إياد. سأستمع إليك.

وتحدث إياد أخيراً مطمئناً إلى لهجة التعاطف عند فياض. كان من الواضح أنه بحاجة إلى أذن لا تختل، ومستمع لا يبيع نفثاث القلوب، فتحدث عن الانقلابات، عن الاضطرابات، عن ضياع الديموقراطية. ولم يحتمل فياض، فبقَّ البحصة أخيراً:

ـ إياد. لن أناقشك فيما مضى، ولكن أريد أن اسأل سؤالاً بسيطاً. ألا تخافون محاسبة التاريخ؟

نظر إياد مندهشاً لهذا الانحراف في مجرى الحديث، أطرق قليلاً يفكر. كان من الواضح أن هذا الانحراف قد رجَّ البحيرة الساكنة. قال: التاريخ.. وأطلق ضحكة محزونة تحاول الهزء: التاريخ يا عزيزي نكتة اخترعها الشعراء، وآمن بها الحمقى. التاريخ يا فياض

ـ وحاول أن يشحن كلامه شحنة إضافية من الإقناع ـ التاريخ هو ما يبدأ بولادتي، وينتهي بموتي.

مع جملة إياد الأخيرة أدرك فياض فجأة مع التماعة إشراق كبيرة أن كل الجسور تهاوت، ولاحاجة بها حتى للإحراق.

استدار جاعلاً نصف ظهره إلى النافذة، رفع كتاباً عن الطاولة الصغيرة القريبة. فتحه، وانغمس في القراءة. فهم إياد الرسالة. نفض ثيابه وقام. وقبل أن يصل إلى الباب الواطئ ألقى قنبلته التي دمرت كل هدوء بناه فياض من حوله منذ أن استعاد فياض الشيزري من أبراهام ليفي قال: هشام سيأتي لزيارتك.

(٣٩)

النهر العظيم الهائج والسهول الخضر تنساب إلى الجنوب البعيد، ولكن القلب حزين، غلائل الحمام تتمروح، تنقبض، تتسع، تمتد، تتحول إلى شريط طويل، تعلو، وتعلو حتى لتعجز العينان عن اللحاق بهما، ولكن القلب حزين. صفير حاد و انقضاضة وغلالة الحمام الرقيقة تكثف، لقد تجمعت كلها في كتلة متقاربة، ولكن الشاهين لاييأس، فهو يحوم من حولها.

أشار إلى الصبي على السطح المجاور يأمره بإنزالها فالشاهين لن يتركها قبل أن ينال حصته منها، ولكن الصبي لا يفهم. أشار ثانية، ثم نظر من حوله في خجل يخاف أن يراه أحد، فيعرف أنه مهتم بالحمام والحمائميين، ولكن الشاهين يحوّم ويحوم ناشراً جناحين عريضينٍ هادئين واثقين، فالغنيمة آتية لا محالة، حمامة واحدة تنفصل عن الرفً، وينال حصته.

أسامة ينظر إلى الصبي ثانية، ولكن الصبي لاهٍ، والشاهين يحوم. أف! أليس هذا هو الموت إذن يا أسامة؟ صبي لاه. وشيخ مهموم. وشاهين يحوم واثقاً من نوال فريسته.

أدار أسامة ظهره للقدر الواثق المحوِّم، اتكأ على السور، وأخذ يتحسس الدرجات مهموماً، فقد كانت السنوات الأخيرة سنوات جدب، فبعد أسامة الأمير والفارس والمغامر والسياسي... توقف قليلاً عند شرفةٍ من شرف السور يتأمل دجلة العظيم، ورأى هناك في أفق النهر كتلة سوداء تتقدم. أغمض عينيه قليلاً، و فتحهما يخالها خداع بصر، ولكنها كتلة سوداء تتقدم، تطاول برأسه يتأملها. كانت تتقلب، تغوص في الزَبَد، تنشب في جزر النهر الصغيرة، ثم يدفعها التيار القوي فتتقدم، تناسى كل شيء يتأملها تتقدم، ولكن القلب حزين، وفروة! آه للمسكينة. أليس وجودها سبباً كافياً للحزن؟ الكتلة تتقدم، ولكن اللسان يُسرِّب دون إرادة:

رزقت فروة والسبعون تخبرها   أن سوف تيتم عن قرب وتنعاني

وهي الضعيفة ما تنفك كاسفة   ذليلة تمتري دمعي وأحزانـــي

رزقت فروة....

وهز رأسه في غضب، فما هذا يا أسامة؟ أستتحول إلى الندب؟ وصلاح الدين صديقك القديم يملك مصر، وما تحتاج إلا إلى رسالة منه لتعود الحظيَّ المقرب. ولكن.. وتأوه في حزن، أندرونيكوس على الطريق وما أملك له حسن الضيافة و... عاد إلى النهر يتأمل.

ترى ما هذه الكتلة السوداء؟

كان صباحاً غريباً، ويوماً غريباً لأسامة الذي اعتزل العالم، أوعزله العالم، فقد ترك مصر، وترك الشام ومات عماد الدين، ومات معين الدين، ومات نور الدين، وصار العالم للقوي صلاح الدين، هذا السعيد بنواله عرش مصر، ولكنه تناساه منذ حاز مصر، تناساه وتجاهله، فما له

وللشيوخ. صحيح أن منادمتهم طريفة، وذكرياتهم منعشة للقلب، ولكن المقاتل لا يحتاج إلاَّ إلى المقاتلين، وابنه مرهف أمير لدى صلاح الدين، ومرهف شاب وصلاح الدين يعتقد أنه قد سدَّد الدين بتقريبه مرهف، وماذا عني أنا، رجل الحروب والسياسات.

كان صباحاً غريباً ويوماً غريباً بُشِّر فيه بولادة ابنته فروة فأحزنته الولادة بدل أن تفرحه، فهذه الولادة تعني أنها ستعيش يتيمة، فمن يضمن لابنة الشيخوخة والرابعة والسبعين أن تسعد بحمى أبيها البعيد المنفيِّ في حصن على دجلة لا يعرفه إلا القليلون. كان صباحاً غريباً لم يكتف بولادة ابنة لعجوز سئم الحياة وملَّها حتى تصله رسالة من أندرونيكوس يذكر فيها الشوق والحنين للأيام الخالية ويقول: إنه في طريقه إليه يزوره.

تأمَل الكتلة السوداء تقترب، تقلِّبُها الريح والجزائر وتستبقيها الأعشاب الطافية، ولكنها تتقدم.

لم تنقطع الرسائل أبداً بينهما، فبعد أن وصل إلى مصر وصلته أول رسالة من أندرونيكوس يخبره فيها عن حسن استقبال نور الدين له، وبعد مقتل الوزير المصري الأول وصلته رسالته الثانية يبشره فيها بأنه استردَّ أمواله كلها من صيرفي من بيزا، وبعد مقتل الوزير المصري الثاني وصلته رسالته الثالثة بأنه اتفق مع نور الدين على إعطائه قلعة في بافلاغونيا قريبة من الروم، وأنه في طريقه إليها مع ثيودورا، وأنه يستزيره فيها إن استطاع، ورغم الوعود الكثيرة والإرادات الكثيرة إلا أنه أبداً لم يستطع الوفاء بالوعد وإنجاز الزيارة، وانقطعت الرسائل حتى ظنه مات، ولكن يا إلهي. في يوم واحد. تولد ابنة السبعين، ويعود الزائر القديم.

تأمل الكتلة تكبر وهي تتقدم، ولكن أي استقبال وأي استضافة يقدمها

لهذا القادم من عالم ظنه أنه نسيه أوتناساه؟ أما يزال يعتقد أنه الأمير صاحب القلعة المضياف، أمير الصقور والبزاة والشواهين؟ أما يزال يعتقد أنه الفارس ذو القنطارية والرماح، مجندل الفرسان وقاتل الأسود، أما يزال....؟

الكتلة تتقدم سوداء كئيبة محوطة بالزَبَد الأبيض العكر وجزائر الطمي وطيور الماء تفزع من تقدمها فهي تطير وتحوم، ثم ما تلبث أن تتجاهلها بعد أن تتجاوزها لتعود إلى الماء تغطس مناقيرها وتبحث عن السمكة التي حان أجلها.

الكتلة تتقدم.... وفروة ابنة اليتم والسبعين....، وأندورنيكوس والذكريات والشباب.. و....

سمع دوي طبول وعرف أن وافداً وصل إلى الحصن، وانتظر يتسمع، فهو يعرف أنه سيسمع أنين الجسر وصلصلة السلاسل بعد قليل. الكتلة تقترب و استطالات نحيلة تتبدى، وسمع أنين الجسر وصلصلة السلاسل. الكتلة تقترب، وأسامة يتطاول بجذعه يستوثق منها. أف! يا إلهي إنها شجرة! ولكنها الشجرة العظيمة، فمن هشمها وجعل النهر يحملها، يحدق فيها جيداً، شجرة جوز عظيمة. وما الذي يأتي بالجوز إلى حصن كيفا، ولا جوز في ديار بكر، ولا جوز في المنطقة كلها؟! إيه.

لابد أنها وافدة من بلد بعيد.

سمع خطوات سريعة وراءه. التفت إنه سعيدّ، غلامه، أشار إليه أن يقترب... فاقترب: مولاي. ضيوف من الروم يقولون: إنهم يريدون لقياك..

ـ من الروم؟ تمتم. لابد أنه هو إذن.

استجمع قوى عتيقة، تحسس الدرج الحجري، ونزل لاستقبال الضيفين العتيقين أندرونيكوس وثيودورا.

القاعة الكبيرة حجرية الجدران، والطنافس والزرابي التي كانت جميلة وأنيقة و... العتمة الخفيفة، فالقاعة شمالية ونورها خفيف ولكن يغفر لها أنها الدافئة للرجل العجوز. حدَّق بأندرونيكوس، وحدَّق أندرونيكوس بأسامة. يا إلهي! ماذا يفعل الزمان بالرجال؟

الأمير الأرجواني اللحيم صار الأمير الرمادي النحيل، والوجه المتفزر نضارة صار الوجه الأبيض المشقق بالغضون؟! تعانقا، تحاضنا، ترابتا، أشار إلى الطنفسة الكبيرة، واحتضنه بذراعه يقوده إليها.

ــ هه حدثني عنك.

ــ بل. حدثني عنك. يا إلهي! أمير أسامة. لقد كبرت، وشخت.

وأطلق أسامة ضحكة كبيرة، ضحكة انبثقت من عمق القلب، ضحكة تطاولت، وتمددت حتى ردَّدت الأبهاء صداها. ونظر أندرونيكوس إليه مندهشاً فما الذي يضحكه؟ هل قال شيئاً مضحكاً؟

امتدَّ الضحك وتسربت الدموع من العينين الكابيتين العجوزين.

امتدَّ الضحك حتى خاف أندرونيكوس على القلب العجوز ألا يحتمل الجهد. و أخيرا أمسك بذراعه بقوة: أمير أسامة هل قلت ما يضحك؟

حاول أسامة التماسك. حاول قهر القهقهة التي لم يقهقهها منذ سنوات، إنه يسأل إن قال ما يضحك، هزَّه من ذراعه ثانية، وحاول قهرها ثانية، ولكن ذكرى الشاهين المحوِّم فجرَّت فيه قهقهة جديدة، هل قلت ما يضحك؟ وتجلى الحزن على وجه أندرونيكوس، ولكن ذكرى الكتلة السوداء البعيدة تتقدم فجرَّت فيه قهقهة جديدة، وكرر أندورنيكوس

المحزون كالصدى: هل قلت ما يضحك؟

وأخيراً تماسك أسامة، فشهق بضع شهقات، ومسح بعض دمعات، ونظرا إلى الوجه النحيل الأبيض المغضون وقال: تقول إني كبرت وشخت فهلاّ نظرت إلى وجهك في المرآة.

وانطلق أندرونيكوس يضحك، فقد فهم أخيراً سر النكتة التي أضحكت أسامة حتى أسالت دمعه.

فيما بعد وعلى الشرفة التي شهدت أسامة يراقب الشاهين المحوِّم، والولد اللاهي، والحمائم المتراصة المذعورة أعدَّ للرجلين غداء سريع، صحيح انه لم يكن مترفاً كولائم شيزر حين كانت تقدِّم الغزلان، والخرفان، وطيور الصيد المعدة على أيدي طباخات الشام، ولكنه كان أكثر من مترف، وأكثر من كاف للرجلين الشيخين تذوقا من كل صحن لقمة، ومن كل لحم قضمة، وأخيراً تجرأ أسامة فسأل: ولكن لمَ لم تصحب الأميرة ثيودورا معك؟

ـ الأميرة ثيودورا ـ وتنهد آسفاً ـ أعطتك عمرها.

وفوجئ أسامة:

ـ متى؟ ثم تمالك نفسه فقال آسفاً: رحمها الله.

ـ منذ عامين.

وألقى بنظره إلى السماء البعيدة كأنما يتساءل أين هي الآن،

ولكن أسامة تذكر الشاهين المحوِّم، فنظر إلى السماء حيث كان أندرونيكوس ينظر، ولكن السماء كانت خالية. ولم يعجبه الصمت بعد كل ذلك الضحك الهائج، فقال: والأولاد؟

ــ جيورجيوس وميخائيلدس عادا إلى القسطنطينية.

ــ هما على حق. مستقبلهما هناك. والآخرون؟

ــ عمانوئيل وأنطونيوس ما يزالان في قلعتنا وهما يتكلمان العربية.

وفجأة انتعش: هاه. لن تصدق!

ــ ماذا؟

ــ ثيودورا الصغيرة ترسم، وتكتب الشعر بالعربية.

ــ لا!

ــ أجل. ولو رأيت إلى رسمها، شيء رائع، إنها لا ترسم الإيقونات، بل ترسم... وتردد ينتقي الكلمات ــ خيالات غريبة، حدائق، ودوالي، وبيوتاً خيالية، ولكن، أتعرف يا أمير أسامة، شيء غريب إنها ترسم المنمنمات والمنمنمات فقط!

ــ ولكن الروم لا يرسمون المنمنمات.

ــ وهذا ما يدهشني.

صمت أسامة، وصمت أندرونيكوس، ودهش أسامة، فهذا إذن كل ماكان ينتظر أن يحدِّثَ به أندرونيكوس بعد كل هذه الغيبة، ودهش أندرونيكوس، فهذا إذن كل ما كان ينتظر أن يحدِّثَ به أسامة، وأخيراً تغلب أسامة على صمت الحرج فقال:

ــ وأنت يا أمير أندرونيكوس. ماذا تفعل هذه الأيام، لا أظنك تخرج للصيد؟!

ــ لا. فعمانوئيل وأنطونيوس يصيدان بالنيابة عني.

ـ فكيف تقضي وقتك إذن؟

ـ كيف أقضي وقتي ـ قالها متردداً ـ حسن. عدني ألا تضحك.

ـ ولم أضحك؟

ـ لأنك لن تصدق!

ـ سأحاول.

ـ أكتب!

ـ تكتب؟

ـ نعم. أكتب مذكراتي. أكتب التاريخ. أتأمل الحياة.هه.

هذا ما تبقى لنا نحن الشيوخ. وأنت؟

ـ سأطلب إليك الطلب نفسه.

ـ ما هو؟

ـ ألا تضحك.

ـ لماذا؟

ـ لأني أكتب أيضاً!

ـ التاريخ أيضاً!

ـ شيء كهذا. أجمع أشعار البكاء على الأوطان بعد فراقها و...و.... ولكن هنالك كتاباً لن يعجبك كثيراً.

ـ لماذا؟

ـ لأني أحكي فيه عن حياتي أنا، وليس عن الحكومات والحكام،

أحكي فيه عن الفرنج ودخولهم الشام، عن هؤلاء الفرسان القساة لم يهذِّبهم مجتمع، ولم تؤنِّقهم حضارة، ومع ذلك فهم ينتصرون.

ـ صحيح أنهم ينتصرون، ليس عليكم فقط، بل وعلينا أيضاً، إنهم يهددون القسطنطينية نفسها يا أمير أسامة، وربما أخذوها.

ـ ولكنهم مسيحيون.

ـ ليس الدين هو المهم يا أمير أسامة، إنهم البدو يسعون وراء تدمير الحضارة، تقزيمها على قدر حاجاتهم، وحين يأخذون القسطنطينية وأرجو أن أموت قبل هذا لن تسمع في القسطنطينية غناء من بعد، ولن ترى مؤلفاً موسيقياً، لن تصطدم بشاعر عند كل زاوية شارع، ولن تسأم المناقشات البيزنطية مبارزات العقل بالعقل.

صمت، وصمت، وأخيراً التفت أندرونيكوس، فحطم الصمت وسأل:

ـ أيمكن أن أقرأ كتابك هذا الذي تتحدث فيه عن حياتك؟

ـ ولمَ لا؟

ـ حسن. نرتاح إذن.

تساندا، ونزلا الدرج الحجري، وأعطى أسامة كتابه لأندرونيكوس يقرأه، وكم تمنى لو يعرف الرومية لقرأ كتاب أندرونيكوس أيضاً، ولكنه في اليوم التالي فوجئ بأندرونيكوس يطرق عليه الباب حاملاً الكتاب:

ـ وكأنك راض عن هؤلاء التركمان يا أمير أسامة؟

ـ همم.. قالها بغموض.

ـ ماذا تعني بهمم؟

ـ دماء شابة تنضاف إلى الأمة.

وهز أندرونيكوس رأسه في حزن وهو يجلس إلى جانب أسامة:صحيح. دماء شابة، ولكن...

وقاطعه أسامة: لقد استطاعوا الوقوف في وجه البداة من الفرنج والنورمان.

وضحك أندرونيكوس في حزن: هه. الدماء الشابة تحارب الدماء الشابة، وما علينا يا صديقي نحن الكهول إلا أن ننتحي جانباً ونراقب.

صمت أسامة يفكر فيما قال أندرونيكوس، وأدرك أنه على حق فقال ساخراً: ونكتب المذكرات، ونؤلف الحكم.

قهقه أندرونيكوس، وقهقه أسامة يقلدان ضحكة الأمس، ولكنهما كانا يعرفان معاً أنهما يضحكان من هذه الشيخوخة التي بردَّتْ دماءهما، وجعلتهما يكتبان المذكرات، ويؤلفان الحكم..

(٣٠)

هشام سيأتي لزيارتك..

كلمات صغيرة بسيطة، ولكنها زلزلت العالم من حول فياض، هذا العالم القبري الساكن الذي لجأ إليه مؤمناً بأنه ارتاح وأراح، ولكن.... هشام سيأتي لزيارتك. آه! كم اشتهى سماع هذا الكلمات في القدس! كم اشتهى سماعها في عمان! كم اشتهى سماعها في قلعة صلاح الدين ولكن... الطعنة قاسية يا إياد. أسألك ألا تخافون التاريخ؟فتقول هشام سيأتي لزيارتك. إنه التاريخ إذن.

إنها الأسئلة متطلبة الإجابات: بابا شو عملتو بفلسطين. حررتوها؟.

وتخيل الفتى الصغير ــ أما يزال صغيراً ــ كثير الأسئلة ذا العينين الكبيرتين تريد انتهاب العالم معرفة. قال إياد: الولد صار شاباً، ويعرف الكثير عن الحياة، وفي مرة ثانية قال: الولد مشحون بالأسئلة، مثقل بالهموم قبل أوانها.

كان يصف له هشام في جلسات وجلسات، يصفه، قبل أن يصفعه

فياض فيسأله: ألا تخافون التاريخ؟ فيرد عليه باستحضار التاريخ، فيستجوبه، فيصبح المتهم... والقاضي هشام.

وتحرك حنين جارح في القلب الميت، وضاقت الغرفة به، ضاقت حتى كادت تطبق على القلب، فتركها، وخرج إلى الباحة يبحث عن الستاتي، ولكنها كانت قد تركت المدرسة تبحث عن طعامها في مكان آخر، بحث عن مشاريع الشيوخ يريد حديثاً مع إنسان يهبه السلوان، ولكنهم كانوا قد مضوا إلى مدرسة القلبقجية، ولم يعودوا قبل العصر.

وحيداً تواجه قدرك يا فياض، ووحيداً تواجه تاريخك ومستجوبك. هل يهرب؟ وماذا بعد. إن عرف هشام طريق المدرسة، فلن يتراجع قبل أن يراه، ويلقاه، ويستجوبه: بابا شو عملتو بحياتكم وحياتنا؟ يا إلهي! ماذا صنعنا بحياتنا؟ وماذا بحياتهم القادمة أيضاً.

ضاقت الباحة والمدرسة والبحرة وشجرات السرو والستاتي، ضاقت حتى لم يعد أمامه إلا أن يندفع هارباً كما هرب قبل سنوات وسنوات، يندفع باحثاً عن مصيره وقدره وإجابات لأسئلة لم تسأل. ولكنها ستسأل.

اندفع من البادرائية. إلى السبع طوالع، إلى الست رقية. شرب من سبيلها. غسل وجهه، ولكنه آت يا فياض. عاد إلى النوفرة، فالأموي، ولكنه آت يافياض. خرج من الأموي ليكتشف أنه في المسكية سوق الكتبيين والوراقين، وفهم بهدوء أن الإجابة هنا.

اتجه بخطا ثابتة، وقف عند أول مكتبة، طلب كمية من الورق الرخيص، فأعطي قصاصات من ورق الجرائد، مضى إلى القباقبية، اشترى كمية من السراس اللاصق وعاد إلى البادرائية.

أقفل الباب، أشعل النور، تأمل القصاصات الذاكرة، تمعن في الصور الأحزان، أمسك بالقلم وكتب على الورقة الأولى. ***هذا أنا..***

تردد قليلاً عند الصفحة الأولى ولكنه فجأة بدأ: كانت البداية حواراً

بين الشرق والغرب، وما فياض الذي أسموه بالشيزري إلا نقطة، إشارة تعجب، إشارة استفهام، في تلك الرحلة عمرها عمر التاريخ.....، وتوقف قليلاً ثم كتب نقطة، وبدأ سطراً جديداً. بدأ الحوار براع وخراف تسعة، وجداء ستة، وضابط أبتر حالم يبحث عن قلعة وإقطاعٍ وابن.....

* * *

أيام طويلة انقضت وفياض يكتب، أيام طويلة سمع فيها هديل الستاتي ولم يأبه، أيام طويلة سمع فيها الطرق على الباب، ولم يفتح، أيام طويلة عرف فيها أن إياد وأن منصور يريدان لقاءه، لكنه لم يفتح، كان يعرف أن أمامه مهمة عليه أن ينهيها، ورسالة عليه أن يوصلها، وإجابات عليه أن يجيبها.

كتب كل شيء دون خوف، ودون خجل، عن روجيه و ماتيلد، عن إياد والشهبندر، عن حسيبة وزينب.

وكان يتوقف أحياناً ويسأل: أتراه سيفهم كل ما أقول ؟ فيتردد، ولكنه بعد تردد قليل يعدُّ فيه على الأصابع عمر الفتى، ويكتشف أنه صار في الرابعة عشرة، فيهمس في حنين: شاب أو يكاد يحاول تخيل شكله، طوله، عينيه، ولكن الذاكرة تأبى إلا أن تقدم الطفل يعدو، حتى اليدين الممدودتين تحملانه إلى البحرة لتحكا الخد الناعمة باللحية الخشنة، ثم يتماسك ويقول: إن لم يفهم الآن، فسيفهم غداً. ويعود إلى الكتابة.

كتب كل شيء، عن رامات راحيل، وعن قيادة الهاغانا، عن فياض الشيزري، وعن أبراهام ليفي، وأخيراً... عن منصور والبادرائية.

ألصق الأوراق بالسراس، جلدهما بالكرتون، وعلى الكتاب كتب هذا

جوابي، وهذا أنا، وضع الكتاب في مغلف كبير كتب عليه ***إلى هشام.***

ضمَّ الكتاب إلى قلبه طويلاً. وضعه على طاولة في منتصف الغرفة، فتح الباب والنافذة للشمس والريح، ألقى نظرة أخيرة على الغرفة، ومضى....

مضى تقلِّبُه الحارات والشوارع، الأنوار والظلال، مضى يظن نفسه عثر على الجواب حين كتب ما ظنه التاريخ والوصية، مضى ليكتشف أنه قد أَبْعَدَ إلى الغرب كثيراً.

توقف قليلاً يستكشف المكان. فتح عينيه ليرى وكان لا يرى ليكتشف أنه في حي عرنوس، و فجاة تذكر. نجدت. يا إلهي! أما يزال حياً؟

اخترق جادة. عَبَر حارتين، و رأى إطار الباب المدهون بالأبيض والأسود المتناوبين المتقشرين، وقد صارا لوناً واحداً أقرب إلى الرمادي. اقترب يستمع، أما تزال تلك الحساسين، التواقة إلى الحرية والكشف، والمتلهفة إلى مملكة الريح وحنان الشمس لديه..

أم... ترى كيف تعيش بناديقه الآن؟

أنصت. صفيرٌ رقيق حنون يتقطع، يتلوى، ولكنه الحنون الدافئ الهانئ وتمتم: لا. ليس هذا هو الحسون. أصاخ ثانية: لا. وليس هذا هو البندوق. تردد قليلاً، ثم ضغط على الزر الجرسي، فرنَّ، وصمتت العصافير كما لدى كل رنين. سمع خطوات وئيدة، وانفتح الباب. اصطدمت العيون الأربعة، كلٌ تحاول معرفة الآخر، وعرف فياض نجدت رغم الغضون العميقة والشاربين الأبيضين اللذين كانا كليمنصيين، عرفه رغم القلبق الباكساتاني الأشهب الذي اعتمره بعد القبعة الفرنسية ذات الرفراف، عرفه رغم جمود النظرة وغرابة التساؤل في العينين:

ــ أمر. أية خدمة؟

واختنق حلق فياض الجاف:

ــ عم نجدت، أما عرفتني؟

ورأى وجهه الذي لم يره في مرآة منذ شهور بعيني نجدت، رأى الشيب في الفودين، واللحية الشعثاء، والعينين الحزينتين دون لون، رأى المسكنة والخيبة المشعة غيمة من حوله، ورأى الإنكار في العينين الزرقاوين المقابلتين وللحظة فكَّر في الاستدارة والعودة إلى قبره الحي لو لم يفلت اللسان دون رغبة:

ــ أنا فياض. أما عرفتني؟

ــ فياض ــ هتف نجدت ــ وكأنما يستعرض فياضي العالم لينتقي واحداً منهم وكرر: فياض؟

ــ نعم ــ قال فياض بنزق ــفياض الشيزري!

ــ آه . فياض ــ وعرفه أخيراً ــ يا إلهي! أين كنت كل هذا العمر؟ إه بيان. أنتريه. أنتريه.

وهمس فياض لنفسه: ما يزال يحب أن يرطن بتلك اللغة.

دخل. كانت الباحة كما تركها منذ سنوات وسنوات.

ــ تفضل. أشار إلى الإيوان ذي الواجهة الزجاجية.

ــ لا شكراً. فعل كما فعل قبل سنوات مع روجيه.

نظر إلى الجدار، الأقفاص المعلقة ما تزال كما هي، إلى الكبادة ورأى ثمارها الصفر الكبيرة، فقال مجاملاً:

ــ كبادتكم تحمل جيداً.

ــ رغبة أم الأولاد. تريد صنع المربى منها.

ــ آه. ونظر إلى شجرة الدراق الزهري: لقد كبرت.

ــ آه. وأكل الأولاد منها جميعاً.

نظر إلى الأقفاص خشبية و خيزارنية ومعدنية، مربعة ومستطيلة، كروية وقببية، ولكن العصافير. اقترب. صحيح. ليس فيها حسون واحد، كانت كلها صفراء خالصة، بيضاء، ووردية، ولكن ليس فيها حسون واحد، والتفت إلى نجدت:

ــ أين الحساسين؟

تنهد: طارت، أو ماتت.

ــ و البناديق؟

ــ سئمتها!

ــ ولكنك ــوتذكر ــ حدثتني عن عصفور السن.

ــ الخبيث.

ــ ما به؟

ــ ظننته الأمل، ولكنه كان الإخفاق.

وهزَّ فياض رأسه في تعاطف، ونظر إلى العصافير الكثيرة:

ــ وما هذه إذن؟

ــ كناريات.

ـ كناريات؟

وكأنما لم يكن يحتاج إلا إلى من يضغط على زر فيه ليتكلم، انطلق يتحدث عن الكناري ذلك الطير الوديع الهادئ المضمون موثوق الإنسال لوناً وصوتاً وخصباً و.....

وتردد فياض قليلاً:

ـ وماذا عن ***كل حسون جديد مغامرة جديدة؟***

ـ تقدمت بي السنُّ يا فياض. لم أعد أستطيع مزيداً من المغامرات، ثم كما ترى تقاعدت من الجيش، وراتبي التقاعدي لا يكفي، ولابد من دخل مساعد.

ـ دخل؟

ـ نعم. أنا أستولد الكناري الآن، وأبيع الفراخ، تجارة جيدة.

سمعت نقرات على الباب، وانسحب نجدت معتذراً، وعرف فياض أن صينية القهوة حاملة فناجين العاشقين المؤطرين بحديقة ستحمل الآن ومعها تلك القهوة.

حاول أن يمضي قبل قدوم القهوة، ولكن الكناري انطلق فجأة في نشيج طويل، طويل، نشيج هادئ مستسلم، راضٍ...

مستسلمٍ... راضٍ... مستســـ..

١٩٨٥ ـ ١٩٩٠

٢٠ ـ ٢

صدر للمؤلف

- ملكوت البسطاء – رواية – اتحاد الكتاب العرب – دمشق ١٩٧٥.
ط٢– دمشق ١٩٨٣
- طائر الأيام العجيبة – رواية – اتحاد الكتاب العرب – دمشق ١٩٧٦.
- سطوح جباتا والحمائم – قصة للفتيان ط١ – الطلائع ١٩٧٧.
- ليالٍ عربية – رواية – دار الكلمة، بيروت ١٩٨٠.
- سطوح جباتا والحمائم – قصة للفتيان – العربية للنشر والتوزيع دمشق ١٩٨٢.
- الرسام الصغير – قصة للفتيان – العربية للنشر والتوزيع دمشق ١٩٨٢.
- الناطور الصغير – قصة للفتيان – العربية للنشر والتوزيع دمشق ١٩٨٢.
- الكنز – قصة للفتيان – العربية للنشر والتوزيع دمشق ١٩٨٢.
- المدينة الأخرى – رواية – وزارة الثقافة، دمشق ١٩٨٥.
- الشاطر حسن – رواية للفتيان – وزارة الثقافة، دمشق ١٩٨٦.
- التحولات – حسيبة – رواية – اتحاد الكتاب العرب، دمشق ١٩٨٨.
ط٢ دمشق ١٩٩٦
- التحولات – حسيبة – رواية – (ط٢) دار مشرق – مغرب ١٩٩٧.
- التحولات – فياض – رواية – اتحاد الكتاب العرب، دمشق ١٩٩١.
- السمكة الزرقاء – مجموعة قصص – وزارة الثقافة، دمشق ١٩٩١.
- الجد المحمول – مجموعة قصص – وزارة الثقافة، دمشق ١٩٩٣.
- هشام أو الدوران في المكان – رواية – بيروت – دمشق ١٩٩٧.
- فخ الأسماء – رواية – دار الآداب – بيروت ٢٠٠٣.

خيري الذهبي

رواية (حسيبة) لخيري الذهبي حدث متميز في الرواية العربية، رواية متميزة لتجنبها الكثير من مآزق الرواية العربية، وبسبب اقتحامها لميادين جديدة في التجربة الروائية.

الناقد والروائي غالب هلسا (مجلة العربي)

جماليات المكان في رواية (حسيبة) بمعناها الفني لا بمعناها الجغرافي الجماليات التي تصنع من المكان بطلاً من أبطال العمل الروائي، أو المهد الذي يحتضن أبطال الرواية ويتدخل في صنع مصائرهم.

إنه المكان الذي نتغير خلال عبورنا فيه، المكان الذي نغدو فيه غير ما كنا عليه قبل دخولنا فيه وهذا ما حدث لأبطال رواية حسيبة.

شوقي بغدادي (مجلة عمان).

خيري الذهبي واحد من الكتّاب والروائيين البارزين في سورية.

الروائي عبد الله خليفة (الأضواء البحرينية).

رواية حسيبة تفرض نفسها على القارئ متيحة له إمكانية أو عدم إمكانية فهمها على حقيقتها وهذا هو شأن الروايات العظيمة.

د. قاسم مقداد (صحيفة الأسبوع الأدبي).

رواية حسيبة رواية تجاوزت نفسها، وستساعد على تجديد الرواية الشامية (بلاد الشام).

عبد الرحمن الحلبي (جريدة تشرين).

خيري الذهبي ليس روائيا فحسب، إنه روائي بالدرجة الأولى، ولكنه أيضاً مفكر يمتلك رؤيا حقيقية تقرأ التاريخ والمستقبل، ونستطيع أن نقرأ هذا كله في روايته التحولات.

القدس العربي ـ لندن.

قال بلزاك: إن كلمة واحدة تقيم فرنسا وتقعدها، ونحن نقول بعد أن قرأنا ثلاثية خيري الذهبي التحولات، وخاصة فياض: إن رواية واحدة قد تقيم سوريا وتقعدها، وهذا ما حدث مع الرواية الأولى حسيبة والثانية فياض، فلقد بدأ الجدل يدور حولها فهاهم يكيلون لها المديح ويشرحونها ويجرحونها مدفوعين بعواطفهم، بحبهم أو.. بحسدهم.

د. عبد الرزاق جعفر (مجلة إلى الأمام).

Oula for Publishing and Distribution
الأولى للنشر و التوزيع
بناء رقم 8 - حارة حكمت العسلي حي المصطبة 4 - منطقة المهاجرين 2 - دمشق - سورية
E... n 2-Damascus-Syria
...33839 - Fax. 011-3739949 - Oula@scs-net.org